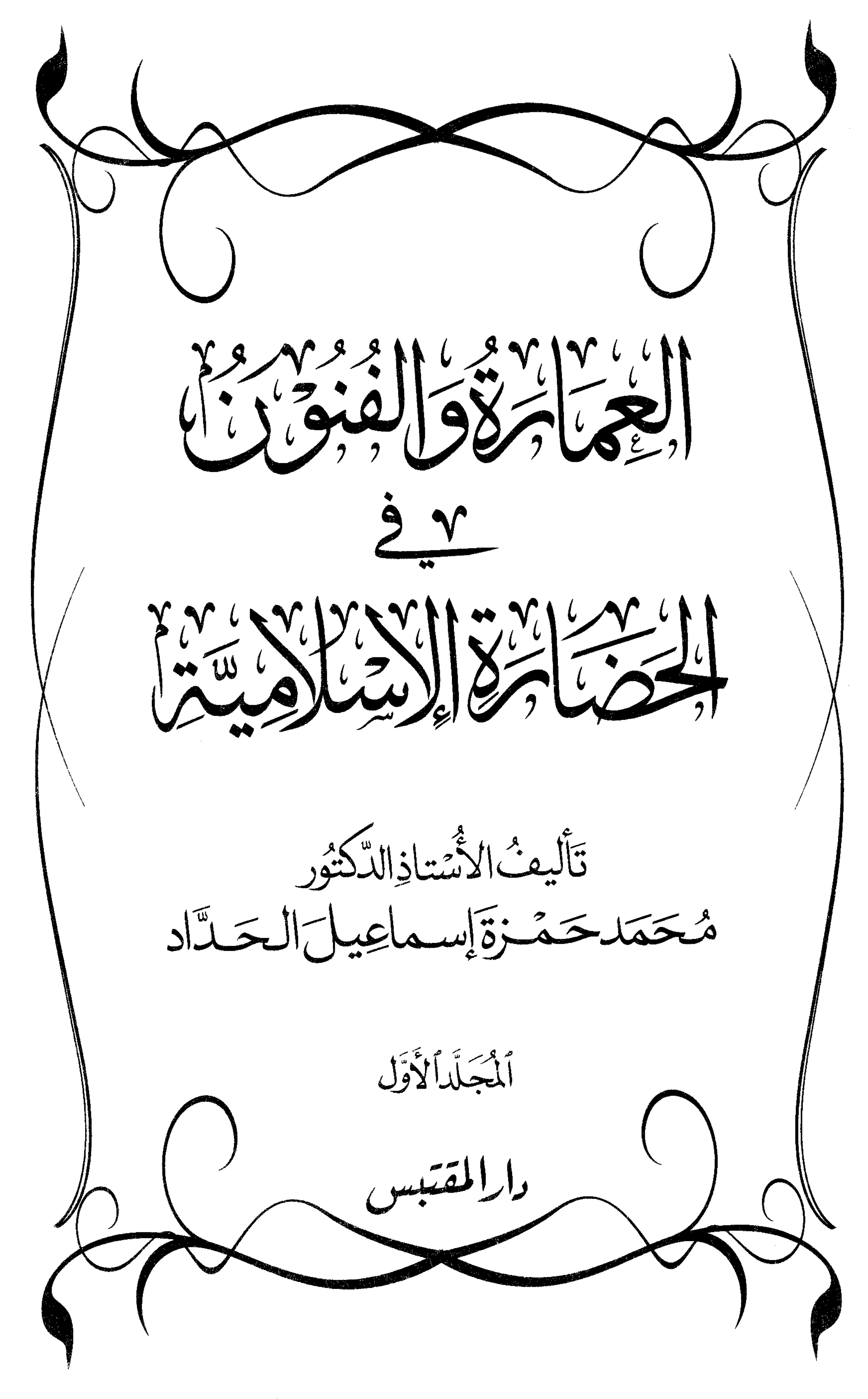
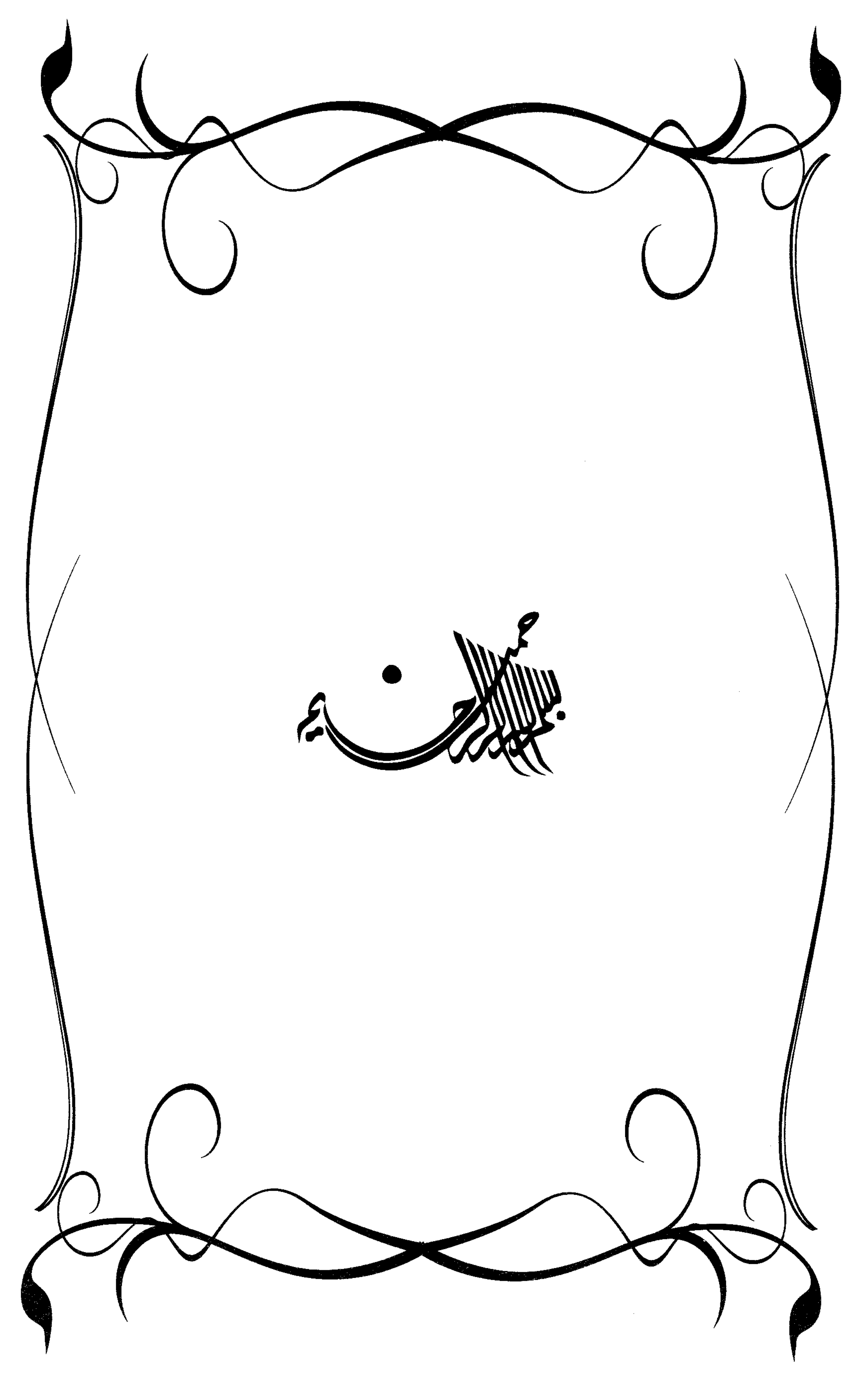


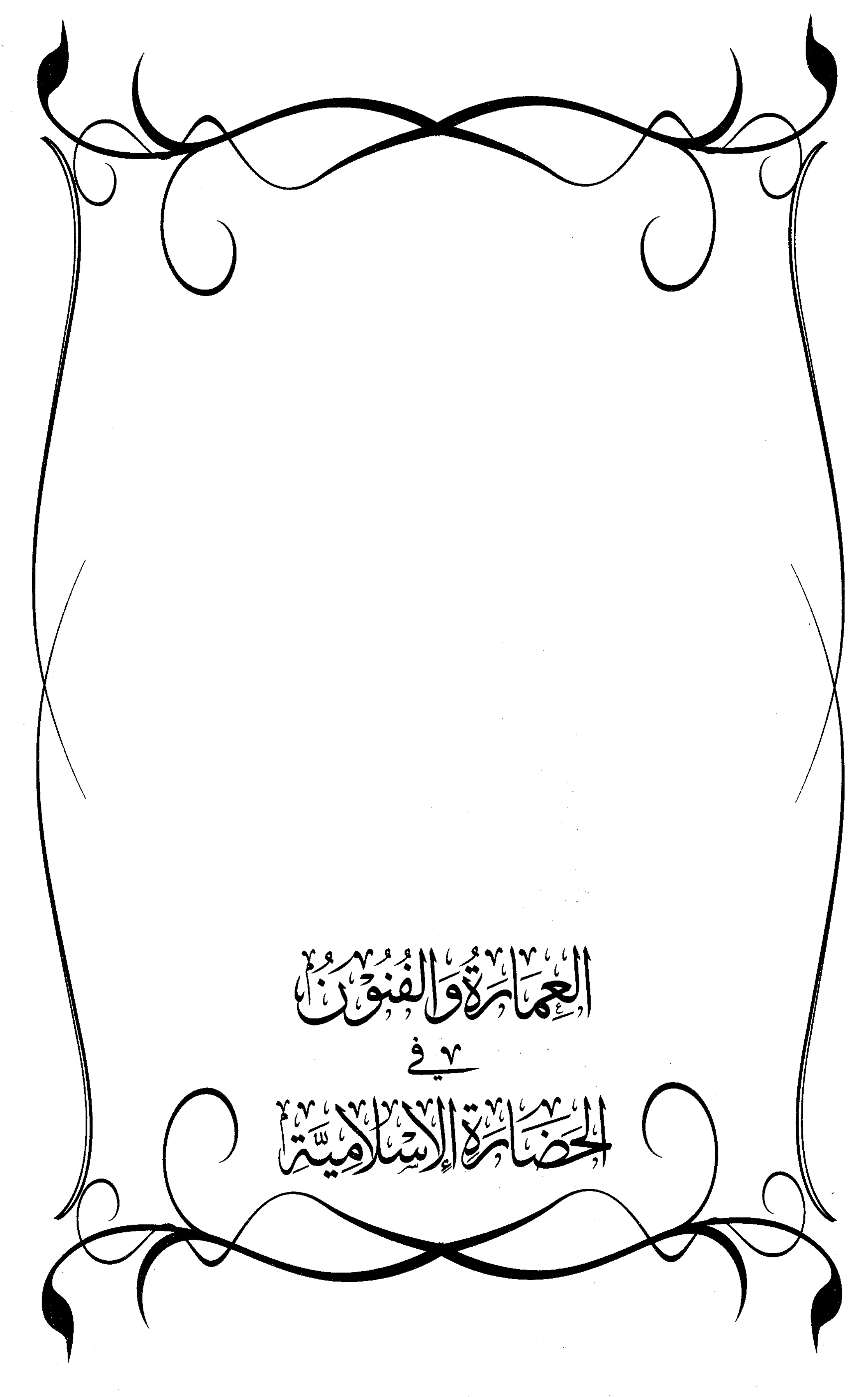
العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد حمزة إسماعيل الحداد

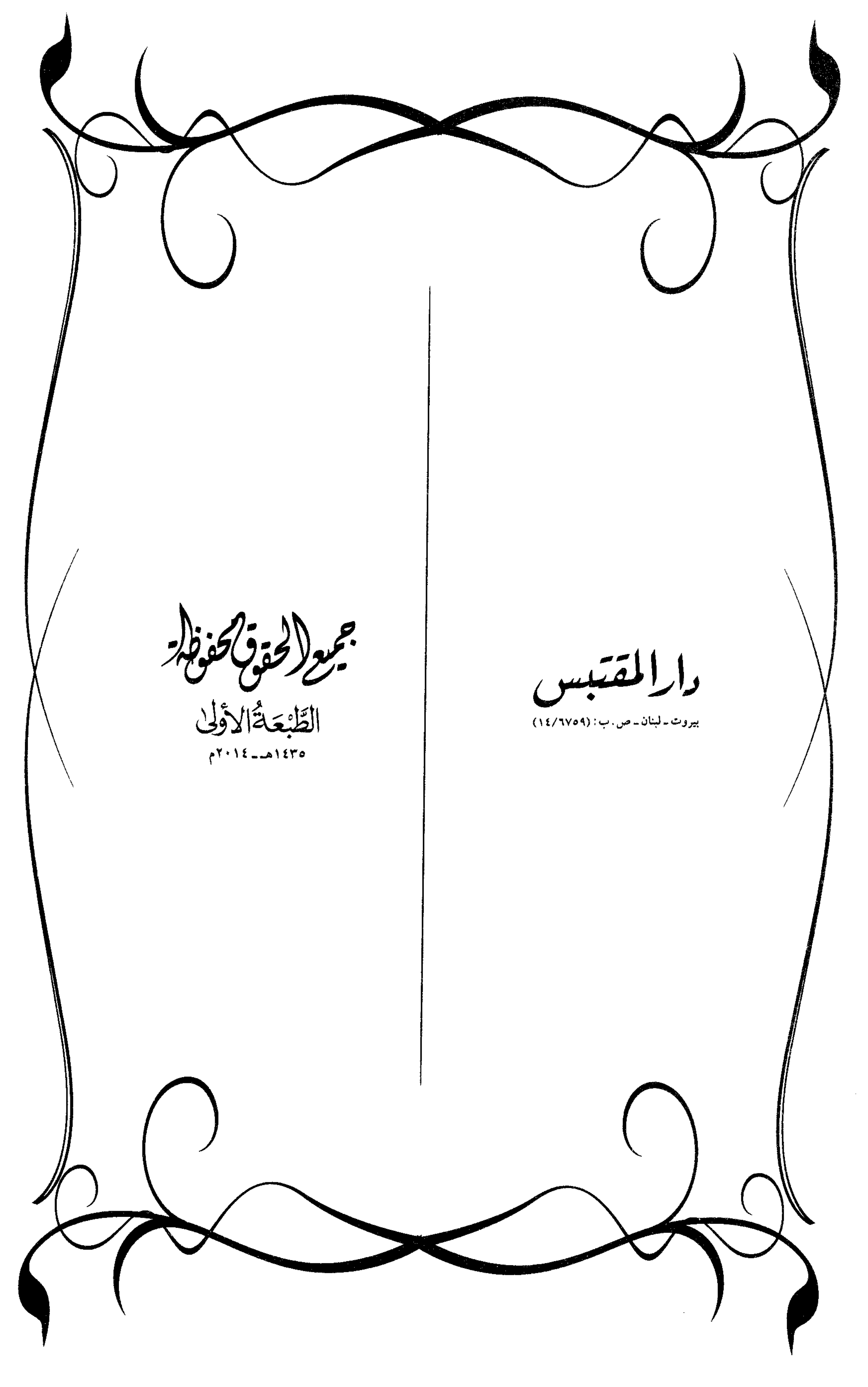
المجلد الأول

دار المقتبس


بسم الله الرحمن الرحيم



العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية

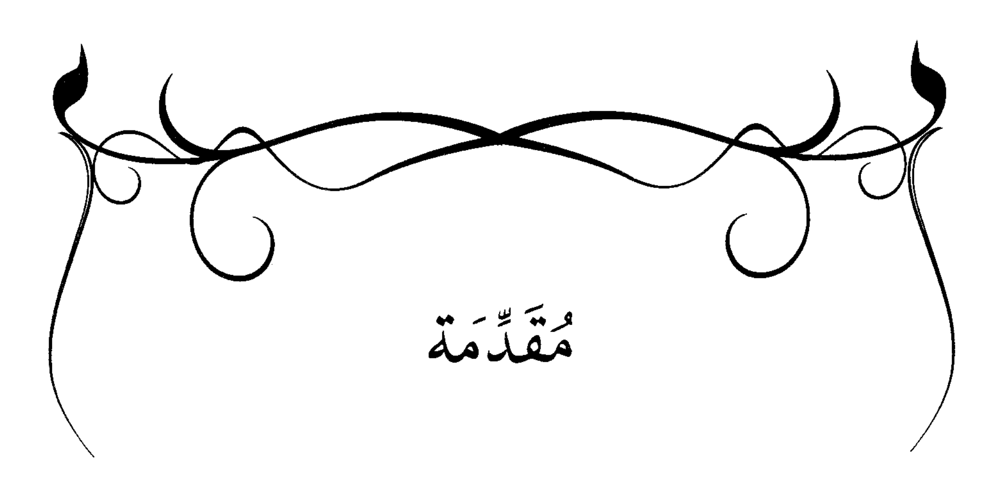


دار المقتبس

بيروت - لبنان - ص.ب: (١٤/٦٧٥٩)

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



مُقَدِّمَة

باسم الله الذي ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع منه إلا شانه، والحمد لله الذي لا يُحمد على كل شيء إلا هو، فاسم الله فاتحة كل خير، وحمده سبحانه خاتمة كل نعمة.

ثم الصلاة والسلام على الهادي البشير سيدنا محمد بن عبدالله الذي جعله الله خاتم أنبيائه، وأشرف رسله، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الناس كافة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين. فنسأل الله العلي القدير أن يجزيه خير ما جازى نبيًا عن أمته، ورسولاً على حُسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده؛ إن ربي لا يخلف الميعاد... حقًا وصدقًا.

وبعد:

فإنه ـ منذ بداية التسعينات من القرن العشرين المنصرم بصفة عامة، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بصفة خاصة ـ كثرت كتابات الغربيين عن علاقة الغرب بالإسلام؛ وجاءت تلك الكتابات تحت عدد من العناوين المتشابهة أو المتضاربة، من أمثال: «الإسلام والغرب»، و«صدام الحضارات»، و«صراع الحضارات»، و«المسلمون خلف الحصار الغربي»،

و«الأصولية الإسلامية»، و«نهاية التاريخ»، و«الإسلاموفوبيا»، وغير ذلك[1].

ولا تفوتنا الإشارة ـ أيضًا ـ إلى تلك الأفكار الخاطئة المغرضة التي باتت تنفث سمومها عبر مختلف وسائل الإعلام الغربية من أحاديث وبرامج ومقالات وأفلام سينمائية ومسرحيات؛ فضلاً عن صفحات عديدة على شبكة الإنترنت، وغير ذلك.

والهدف الرئيسي المباشر وراء ذلك كله واضح جليّ، ولا يختلف عليه اثنان، وهو تشويه صورة الإسلام، ووصمه بالإرهاب والتطرف، وبالتالي إثارة زوابع الحقد والكراهية ضد المسلمين، والفزع والرعب منهم في روع المجتمع الغربي بكافة شرائحه وطبقاته.

وعلى ذلك صار التخويف الإستراتيجي من الإسلام وأهله بصورة أكثر شمولاً واتساعًا وتركيزًا غير مسبوق، حتى لقد صار الخوف من الإسلام والحساسية المفرطة إزاءه أحد أبرز التقاليع والتقاليد الثقافية في المجتمع الغربي المعاصر.

ويرجع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلى أن الكثيرين من الغرب قد تصوروا أو

---

(١) انظر: على سبيل المثال:

فوكو ياما، فرانسيس، نهاية التاريخ، ترجمة حسين الشيخ، بيروت (١٩٩٣م)؛ هانتنجتون، صموئيل، صراع الحضارات أو تصادم الحضارات، الأهرام، مجلة السياسة الدولية، العدد (١١٦)، (إبريل ١٩٩٤م)؛ توفلر، الفن، نحو بناء حضارة جديدة، القاهرة (١٩٩٦م)؛ فوللر، جراهام، وليسر، إيان، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة أو المسلمون خلف الحصار الغربي، ترجمة جلال شوقي، القاهرة (١٩٩٧م).

توهموا أن الإسلام قد أصبح يشكل المنافس السياسي والفكري (الأيديولوجي) الرئيسي للغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والماركسية الشيوعية عام ١٩٩٠م؛ وبالتالي فهو ـ أي: الإسلام ـ بات يمثل العقبة الكبرى أمام السلام العالمي، والخطر الأكبر الذي يهدد ما يسمى بالعالم الحر، أو بمعنى آخر: أنه هو البديل، أو الخطر الأخضر الذي حل محل الشيوعية الحمراء؛ ومن ثم يعد الإسلام المرشح الأرجح للقيام بذلك الدور المتحدي للنظام العالمي الجديد ـ وهو ما يعرف أيضًا بعصر العولمة، أو الكونة، أو الشملنة ـ ومن هنا يجب القضاء على الإرهاب الإسلامي والتطرف بكافة الطرق ومختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

وقد أخذ بعض العلماء والمفكرين على عاتقهم مهمة مقاومة هذه الحملات الشرسة على الإسلام وأهله عن طريق تحليل ادعاءات هؤلاء المدعين وتفنيدها، والرد عليها بالأدلة والبراهين الموضوعية والمنطقية في مختلف وسائل الإعلام المتاحة أمامهم؛ فضلاً عن المقالات والكتب والدراسات المختلفة[1].

ولم تقتصر هذه المهمة على عاتق المسلمين وحدهم، بل نجد من

---

(١) انظر: على سبيل المثال:

الويشي، عطيه فتحي، **حوارات الحضارات**، تقديم محمد عمارة، القاهرة (٢٠٠١م)؛ النجار، زغلول، **الإسلام والغرب في كتابات الغربيين**، القاهرة (٢٠٠٣م)؛ زقزوق، محمود حمدي، **الإسلام والغرب**، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٣م)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، **إنسانية الحضارة الإسلامية**، **سلسلة قضايا إسلامية**، العدد (١٢٣)، القاهرة (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

العلماء الغربيين من يتصدى لـدحض هذه الادعاءات وتفنيدها، وحسبنا أن نشير إلى العالم الألمـاني (شتيبات) الـذي كان من أوائل الـذين انتبهوا إلى خطورة تلك الحملة الشرسة على الإسلام، فانتقـد ما كتبه (هانتنجتون) في صدام أو تصادم الحضارات، ودحض أفكاره، وانتهى إلى القول بأن الإسلام لا يمثل أي تهديد للعالم، بل إن العكس من ذلك هو الصحيح.

بل ذهب إلى مـا هو أبعـد مـن ذلك، فهو ينفي نفيًا قـاطعًا أن يُرجـع الصراعات الكبرى في عصرنا إلى الخلافات الدينية، ويدعو إلى الحوار السمح بين الأديان السماوية، وتأكيـد أوجه التشابـه والتقارب والعناصر المشتركـة بينها، وضرورة إسهام الباحثين العلميين في هـذا الحوار الذي لا بد أن يعود بالخير على البشرية كافة، ومن هنا جاء عنوان كتابه، وهو: «الإسلام شريكًا» ليدل على هذه المعاني والدلالات العلمية والإنسانية[1].

وهكذا، فإن المرحلة الدقيقة الحرجـة التي تجتازها الأمـة الإسلامية اليوم تحتاج إلى أن نعبئ لها كل طاقاتنا من وعي الذات، والتعبير عن وجودنا الحر، والطموح إلى حياة أعز وأفضل.

وإذا كان الكثير من تراثنا الحضاري الإسلامي الضخم في شتى المجالات قـد ضاع في غمرة الصراعـات السياسية والنزعات المذهبيـة والاضطرابات الاجتماعية إلى جانب عوادي الطبيعـة والزمن، فإن ما بقي منه، وهو كثير، مازال يشهد لتلك الحضارة بطول الباع، وما كان لها من فضل على الحضارة الإنسانية عامة، وعلى الحضارة الأوروبية خاصة، وإذا كان الجانب المعنوي

---

(١) شتيبات، فـريتس، **الإسلام شريكًا، دراسات عـن الإسلام والمسلمين**، ترجمة عبد الغفار مكاوي، **عالم المعرفة**، العدد (٣٠٢)، الكويت (أبريل ٢٠٠٤م).

منها دفين بطون المصادر التاريخية المختلفة والمتعددة، مخطوطة كانت أم منشورة، يعتني به أصحـاب الدراسات التاريخية والحضارية وتاريخ العلوم وغيرهم من أصحاب الدراسات الإنسانية، فإن الجانب المادي منها ممثلاً في تراث الآثار الإسلامية من العمائر والفنون المختلفة والمتعددة مازال شامخ الرأس، رافع الهامة، يثير الزهو في نفوس أصحابه، ويبعث البهجة والإعجاب في قلوب زواره، ويشد إليه الدارسين من كل حدب وصوب.

وقـد سبق أن أفـردت كتابًا مجملاً حـول الآثار والحضارة الإسلاميـة (القاهرة ٢٠٠٦م) استطعت من خلاله أن أضع أمام المتخصصين والقراء على السواء الصورة التـي رسمها الإسلام للحياة بكـل جوانبها وأبعـادها، والتي أستطاع ـ أي: الإسـلام ـ أن ينشئ على أساسها أمـة فريـدة يمكن أن تكون مثالاً يحتـذى لقيام التجمع الإنساني على أساس المساواة التامـة، والعدالة الشاملة، واستطاع كذلك أن ينشئ حضارة أسهم فيها على قدم المساواة كل الأجناس والأقوام الذين استظلوا براية هذه الأمة الإسلامية، وقد دفعت هذه الحضارة بالإنسانية إلى مدى بعيـد في التقدم والرقي، وقادت العالم قـروناً عديدة، وكانت من أقوى الركائز التي قامت عليها الحضارة الحديثة.

والحـق أن كتـاب «المجمل في الآثار والحضارة الإسلاميـة» يشكـل الأساس أو الأرضيـة الضرورية اللازمـة للبناء المعرفي، والحصيلة العلميـة للمتعلمين والقراء، وبالتالي فإنه قد يسهم بدرجة كبيرة في تكوين شخصيتهم، وتـدعيم هويتهم الثقافيـة وانتمـائهم الحـضاري، ومـن ثـم تحصينهم ضـد المحاولات الخبيثة التي تهدف إلى تشويه صورة الإسلام، وطمس دوره الرائد علمًا وفكرًا وحضارة.

وقد أخذت بنصيحة عدد من الأساتذة والزملاء والباحثين في الجامعات المصرية والعربية عندما قرؤوا كتاب «المجمل»، وأشادوا بأهميته وقيمته العلمية، وأشاروا عليّ بأن أجعل الباب الثاني من كتاب «المجمل» ـ وهو الباب المتعلق بالآثار الإسلامية ـ في كتاب مستقل يخصص لدراسة الجانب المادي للحضارة الإسلامية، وهو الجانب المتمثل في تراث العمارة والفنون الإسلامية؛ حتى تعم فائدته، ويحسن الانتفاع به لدارسي الآثار الإسلامية في الجامعات المصرية والعربية. وعلى الفور قمت بمراجعة هذا الباب، والزيادة فيه، والإضافة إليه، ولكن على نفس المنهج العلمي والخطة العلمية التي خرج على ضوئها كتاب «المجمل» إلى النور، وقد أسميت هذا الكتاب الجديد: «العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية»، ولنا في أساتذتنا النموذج والقدوة، فها هو ذا المرحوم أ. د. سعد زغلول عبد الحميد يكتب عن تاريخ العمارة والفنون التشكيلية في دولة الإسلام ضمن الفصل السادس المعنون بـ: الحياة الفنية (ص ص٤٤٣ ـ ٥٥٥) من فصول كتاب «دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية» الذي شارك في إعداده وتأليفه مع كل من الأستاذين العالمين الجليلين أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور، وأ. د. أحمد مختار العبادي الكويت ـ ذات السلاسل ط١ (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ط٢ (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، ولم يلبث أن تراءى لـ أ. د. سعد زغلول عبد الحميد أن يخرج هذا المبحث في كتاب مستقل أسماه: «العمارة والفنون في دولة الإسلام» (الإسكندرية، منشأة المعارف ١٩٨٦م)، وكان هدفه هو إلقاء مزيد من الضوء على هذا الجانب الهام من حضارة الإسلام؛ مما يمثل الواقع المادي الملموس لتلك الحضارة؛ حيث لا يغني الوصف النظري، وإن كان بليغًا، عن المشاهدة

العملية، وإن كانت دونما شرح أو تعليق، وتلك هي السمة الغالبة على الأعمال الفنية الأصيلة؛ حيث يكون الشكل والوصف هو المظهر الخارجي العابر، ويكون المعنى والرمز هو الحقيقة الداخلية الخالدة (ص١١ ـ ١٢).

ويضاف إلى ما سبق ذكره: دافع رئيسي ومباشر، ويتمثل في أنني قد رأيت أن كلا المعلم والمتعلم في حاجة إلى كتاب أساسي يكون بين يديه مغطيًا تاريخ تراث العمارة والفنون الإسلامية في إجمال رشيد يمر بالمعالم الرئيسية والمراحل المتباينة، ولا يترك شيئًا مما تهم دراسته في مجال العمارة والفنون الإسلامية دون دراسة متأنية.

فأما بالنسبة إلى الأستاذ، فهذا الكتاب بداية، وأما بالنسبة إلى المتعلم أو القارئ العادي، فهو الغاية والنهاية.

ويتناول هذا الكتاب مختلف جوانب ومفردات العمارة والفن الإسلامي بصورة عامة مجملة وحيوية، ووفق صياغة سهلة وميسرة؛ لتمكين المعلم والمتعلم من استيعاب الموضوع وتمثله وبذلك يكون بين أيدينا مرجع أساسي موحد يغطي مفردات العمارة والفنون الإسلامية، وينطبق عليه نفس المعنى الذي قصد إليه ابن رشد عندما سمَّى مختصره في الفقه المالكي: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الكتاب يهدف إلى استكمال تحقيق الغايات التي أشرنا إلى بعضها في كتابنا عن الحضارة الإسلامية، وهذه الغايات على النحو التالي:

١ ـ يحصن هذا الكتاب المتعلمين والقراء ضد المحاولات الخبيثة

التي تهدف إلى تشويه صورة الإسلام، وطمس دوره الرائد علمًا وعمارة وفنًا وفكرًا وحضارة. ولكن هيهات، فالحقيقة التاريخية أوسع من أن تتأثر بمثل هذه النهشات، أو بما يثار من غمز ولمز من قبل المشككين أو المتشككين وغيرهم.

٢ ـ يهيئ هذا الكتاب قاعدة معلوماتية عريضة وواسعة حول تطور العمارة والفنون الإسلامية، ومراحل تطور كل منها، وخصائص وسمات الطراز العام والطرز الفرعية أو المحلية التي انبثقت عنه، والتيارات الفنية السائدة، والتأثير والتأثر بين الطرز المختلفة.

٣ ـ يوضح هذا الكتاب أمام المتعلمين والقراء كيف استطاعت العمارة والفنون الإسلامية أن تضع بصماتها في العمارة والفنون الأوروبية.

٤ ـ يدعو هذا الكتاب إلى ضرورة العناية والاهتمام بصيانة وترميم معالم التراث المادي للحضارة الإسلامية، المتمثل في العمائر والفنون الزخرفية والتشكيلية، سواء في الأقطار العربية والإسلامية، أو في الأقطار غير الإسلامية الآن (أسبانيا والبرتغال والهند)، أو في العديد من المتاحف ودور الكتب وقاعات الفن والمجموعات الخاصة في جميع أنحاء العالم، بل ويجب وضع الكثير من معالم التراث المعماري والفني الإسلامي على قائمة التراث العالمي.

٥ ـ يدعو هذا الكتاب إلى تحقيق التواصل والاستمرارية مع الماضي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه: الأصالة المتجددة، والإحياء الحضاري، أو فلنقل: هي دعوة للتغيير والخروج من الحالة الراهنة التي تمر بها الأمة.

وهذا لا يعني بحالٍ الانكفاءَ على الذات في عملية النهوض والتحديث

والتنمية، والتجاهل لعمليات التحديث والتنمية عند الغرب (الآخر)، وعدم الإفادة من رؤيتها ومنهجيتها، ولكن وفق المعايير والقيم الحقيقية التي تتحكم في عمليتي الأخذ والرد.

أي: أننا يجب أن نكون في مستوى إسلامنا بالنسبة للذات، وفي مستوى عصرنا بالنسبة للآخر، ولو وفقنا في تحقيق هذه المعادلة، لتحققت لنا النهضة الحضارية المنشودة[١].

وعلى الرغم من أن عملية النهوض وردم فجوة التخلف هي عملية جماعية أو مجتمعية، إلا أنها تبدأ من عند الفرد في إطار الدائرة التي يشغلها ويتوسع فيها لتتراكم مجهودات الأفراد، وتشكل مجرى كبيرًا تنخرط فيه الأمة جميعًا[٢].

ولما كان هذا الكتاب يضم مادة معرفية ضخمة تجمع بين الثقافة العامة

---

(١) هناك دراسات كثيرة حول قضية التراجع الحضاري وأزمة التطور الحضاري في العالم الإسلامي، وغير ذلك من القضايا المتصلة بالتراث والأصالة والمعاصرة، وحسبنا أن نشير ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ إلى بعضها، ومنها:

مصطفى، شاكر، (إعداد)، ندوة أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، الكويت (١٩٧٥م)؛ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، **تراثنا بين ماضٍ وحاضر**، القاهرة، ط٢، (١٩٩١م)؛ محمود، علي عبد الحليم، التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه، (١٩٩٤م)؛ القرضاوي، يوسف، **من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا**، بيروت (٢٠٠١م)؛ حبيب، رفيق، **في فقه الحضارة العربية الإسلامية**، **إحياء التقاليد العربية**، القاهرة، ص٢، (٢٠٠٣م)؛ الهنداوي، حسن إبراهيم، **التعليم وإشكالية التنمية**، تقديم عمر عبيد حسنة، قطر (٢٠٠٤م).

(٢) الهنداوي، **التعليم**، ص١٠ ـ ١٢.

الضروريـة والتكوين العلمي المتخصص، ولذلك كان لا بـد أن يغطي هـذا الكتاب كافة جوانب الموضوع برغم تشعبه؛ فضلاً عن صعوبة رصد ظاهراته وتعليلها عبر الزمان والمكان على حد سواء، ولذلك حرصنا في هذا الكتاب على الإجمـال، دون الإغـراق في التفاصيل والتحليل ـ كمـا سبق القول ـ، وصدق من قال: «مـا لم يعلم كله لا يترك كله؛ فإن العلم بالبعض خير من الجهل بالكل» (أبو الفدا ـ ت٧٣٢هـ). أما الدراسة التحليلية المفصّلة والمتعمقة لكافة جوانب ومفردات العمارة والفنون الإسلامية، فقد تطرقنا إلى بعضها في دراسات سابقة، وسوف نفرد للباقي منها دراسات لاحقة بمشيئة الله تعالى.

وقد اعتمدت في هذا الكتاب على عدد ضخم من المصادر والمراجع والدراسات العربية والشرقية والأجنبية.

ولا شك أن هـذه المصادر وتلك المراجع والدراسات كانت النبراس الهادي للدارسين عامة في مجال دراسة العمارة والفنون الإسلامية؛ كما كان لها فضلها الـذي لا ينكر على صاحب هـذا الكتاب الـذي بين أيدينا في كل ما أنجزه من بحوث ودراسات وكتب خلال العقدين الأخيرين.

ويضاف إلى ذلك: الزيارات الميدانية المتتالية للعديد من المعالم الآثارية في المدن العربية والإسلامية؛ فضلاً عن المتاحف ودور الكتب والمكتبات التي تغص بالوثائق والتحف الفنية وكنوز التراث الإسلامي المتنوعة.

وحرصًا منا على خروج هـذا الكتاب وفق المنهج العلمي السليم قمنا بتقسيمه إلى: مقدمـة، وثلاثة أبواب، ونستهل المقدمة ببيان أهمية موضوع الكتاب، والغايات التي يهدف إليها، ومنهج الدراسة.

ويختص الباب الأول بدراسة تحليلية لطرز العمائر الإسلامية، وهو يشتمل على أربعة فصول؛ **الأول**: العمائر الدينية، **والثاني**: العمائر الجنائزية، **والثالث**: العمائر المدنية، **والرابع**: العمائر الحربية.

ويختص الباب الثاني بدراسة روائع وإبداعات التراث المعماري الإسلامي، حيث قمنا باختيار مجموعة من أشهر النماذج الباقية في العمارة الإسلامية في أسيا وأفريقيا وأوروبا، وهو يشتمل على خمسة فصول، **الأول**: العمائر التذكارية؛ **والثاني**: من العمائر الدينية، **والثالث**: من العمائر الجنائزية، **والرابع**: من العمائر المدنية، **والخامس**: من العمائر الحربية.

أما الباب الثالث والأخير، فقد خصص لدراسة روائع وإبداعات الفنون الإسلامية، وهو يشتمل على أربعة فصول؛ **الأول**: النقوش الزخرفية والكتابية على الجص والحجر والرخام، **والثاني**: الفنون الزخرفية الإسلامية، **والثالث**: فنون التصوير الإسلامي، **والرابع**: أثر العمارة والفن الإسلامي في أوروبا.

وحتى تعم الفائدة، ويحس الانتفاع بمادة هذا الكتاب قمنا بتزويده بكتالوج الأشكال واللوحات، ويضم ٤٢٠ شكلاً من المساقط الهندسية والقطاعات والتفريغات، و٥١٥ لوحة تغطي غالبية أنواع العمائر والفنون الإسلامية فوق قارات ثلاث (أسيا وأفريقيا وأوروبا).

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم خالص شكري وعظيم تقديري لجميع الأساتذة والزملاء والباحثين الذين نهلت من علمهم، واعتمدت على بحوثهم ودراساتهم، وإلى السادة الأفاضل المسؤولين عن الآثار والمكتبات والمتاحف في مصر وخارجها؛ وإلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة، بل ومجرد النصيحة.

وبعـــد:

فإذا كنت قد وفقت، فلله الحمد، وهـو وراء القصد خير معين، وإن كنت قد قصرت، فحسبي أن تكون هذه الدراسة لبنة صغيرة في خدمة تراث الحضارة الإسلامية عامة، وتراث العمارة والفنون الإسلامية خاصة بما يحقق الخير لهذه الأمة التي أراد لها الله ﷻ أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

والله الموفق

أ.د. محمد حمزة اسماعيل الحداد

القاهرة ـ مدينة نصر

١٨/ ٩/ ٢٠١١م

❑ ❑ ❑



الباب الأول

طرز العمائر الإسلامية
(دراسة تحليلية)





الباب الأول

طرز العمائر الإسلامية (دراسة تحليلية)

مقدمة

كانت العمارة الإسلامية ولا تزال تحتل مكانة مرموقة بين طرز العمارة التي عرفتها الحضارة الإنسانية عامة؛ فقد استطاعت العمارة الإسلامية التي انتشرت في أقطار عديدة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أن تحقق لنفسها طرازًا فريدًا بين تلك الطرز، فمن جهة أضافت العمارة الإسلامية إلى التراث المعماري العالمي نظمًا تخطيطية لم تكن معروفة من قبل؛ كالمساجد، والمدارس، والخانقاهات والزوايا والأربطة، وغير ذلك، ومن جهة ثانية أدخلت على نظم العمارة الجنائزية والمدنية والحربية أنظمة جديدة جعلت لها طابعًا فريدًا مميزًا، وما تاج مَحَلّ في أجرا (بالهند)، وطوبقابي سرايِ بإستانبول (تركيا)، وقصر الحمراء بغرناطة (إسبانيا) إلا خير شواهد مادية حية باقية تكفي للتدليل على ذلك.

وفضلاً عن هذه وتلك، ابتكرت العمارة الإسلامية ـ أيضًا ـ عناصر معمارية وزخرفية عديدة اتسمت بالمهارة والتنوع والدقة البالغة، وبقيمتها الفنية والجمالية التي لا تخطئها العين.

ويكفي للدلالة على مكانة هذا الطراز وعلو شأنه أن نشير إلى أنه قد

أثر تأثيرًا واضحًا في العمارة والفنون الأوروبية على حد سواء كما هو معروف، وهو ما سوف نسلط عليه الضوء في الفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب.

ومن الحقائق المعروفة في تاريخ العمارة والفنون: أن الطرز المختلفة تكاد تتشابه كلها في مراحل تطورها؛ من حيث الخضوع لعدد من العوامل العامة التي يتأثر بها كل طراز بطريقته الخاصة، فتوجهه، وتؤثر فيه عند نشأته، وفي أثناء خطوات تطوره، وتساعد على خلق شخصيته وطابعه وملامحه؛ وقد ساهمت في نشأة وتطور طراز العمارة الإسلامية عدة عوامل دينية وبيئية واقتصادية وسياسية. ويمكن القول بأن هذه العوامل تكاد تكون متشابهة في معظم أقطار العالم الإسلامي، مما زاد من الروابط التي تربطها ببعضها توثيقًا، وهو الأمر الذي أضفى على الطراز الإسلامي طابعه العام الذي يتسم به، وهو طابع الوحدة الظاهرة التي لا مجال لإنكارها، أو التشكك فيها، على الرغم من احتفاظ كل قطر بطابع محلي مميز له خاص به[1].

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بأنه يوجد طراز إسلامي عام انبثقت منه أو تفرعت عنه طرز محلية؛ إذ أن كل قطر من الأقطار الإسلامية قد أخذ يتخذ لنفسه سمات خاصة، وشخصية مستقلة يتميز بها في قليل أو كثير عن بقية الأقطار الأخرى، متأثرًا في ذلك بعوامل البيئة المحلية، وغير ذلك من

---

(١) شافعي، فريد، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، المجلد الأول، **عصر الولاة**، القاهرة (١٩٧٠م)، ص٢٣١ ـ ٢٩٢؛ فكري، أحمد، **عوامل الوحدة في الآثار الإسلامية بالبلاد العربية**، ضمن كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة (١٩٧٩م)، ص١ ـ ٧.

العوامل المشار إليها، ويستطيع المتخصص وغير المتخصص أن يتبين بوضوح هـذا الطراز الإسلامى بطابعه العام الـذي لا يمكن أن تخطئـه العين، وهذه الطرز المتفرعة عنه بطابعها المحلي التي تنضوي كلها تحت لوائه.

ومن هذه الطرز الفرعية أو المحلية نذكر كلاً من: طراز الجزيرة العربية، والطراز العراقي، والطراز الشامي، والطراز الإيراني، وطراز أسيا الوسطى، والطراز الأناضولي (أو طراز أسيا الصغرى) والطراز الهندي، والطراز المصري، والطراز المغربـي، والطراز الأندلسي، وطراز شرق أفـريقيا، وطراز غـرب أفريقية.

ونضيف على مـا تقدم، فنذكر: أنـه إذا كانت هـذه الطرز الفرعيـة أو المحلية قد ارتبطت في نشأتها ومراحل تطورها بعوامل البيئة المحلية من جهة، فإنها ـ من جهة ثانية ـ قـد ارتبطت أيضًا بالدول الإسلاميـة التي حكمت كل قطر ـ أو عدة أقطار ـ وما تعتنقه من مذاهب دينية، فضلاً عن استقرار الأحوال السياسية والاقتصاديـة، وما كان يصاحب هـذه وتلك من استقرار الأوضاع الاجتماعية، وتحسن العلاقات الخارجية التي كان لها أثرها البالغ في تبادل التأثيرات المعمارية والفنية، وبالتالي في إثراء كل طراز من هذه الطرز.

ومما له دلالته في هذا المقام: أن نشير إلى أنه بالإضافة إلى وجود هذا الطراز الإسلامي العـام، والطراز المحلي الخاص، فقـد يشترك فـي بعض الخصائص والسمـات قطران ـ أو أكثر ـ متجـاوران، أولهما خصائص بيئية مشتركة، أو خضعا لحكم دولـة واحـدة، ومن أمثلة ذلك: الجناح الشرقي لدولة الإسلام، كما هو الحال في إيران، وأسيا الوسطى، وأسيا الصغرى،

والهند، أو قلب العالم الإسلامي؛ كما هو الحال في مصر والشام والحجاز بالجزيرة العربيـة، أو الجناح الغربي للدولـة الإسلاميـة؛ كما هو الحال في المغرب والأندلس في عصري المرابطين والموحدين.

كذلك ينبغي ألا تفوتنا الإشارة ـ في هذا المقام ـ إلى أن المدن الرئيسية التي تنتمي إلى كل طراز من تلك الطرز الفرعية أو المحلية كانت لها سماتها الخاصة، وطابعها العام الذي تتميز به في قليل أو كثير عن بقية المدن الأخرى، ولكن دون أن تفقد صلتها وارتباطها بالطراز الأم الذي تنتمي إليه، والتي هي فرع منه، وامتداد له.

وينطبق ذلك الأمر على جميع طرز العمارة الإسلامية، فالطراز المصري ـ على سبيل المثال ـ تتضح شخصيته وخصائصه وسماته وملامحه في مدينة القاهرة، والمدن المصريـة في الوجهين القبلي والبحري، ومـع ذلك، فإن لكل مدينة من تلك المدن مميزاتها العامـة، وسماتها الخاصة التي تنفرد بها عن غيرها من المدن؛ كما هو الحال في مدينة القاهرة ـ التي تعد بمثابة الطراز الأم للعمارة المصرية الإسلامية ـ وكل من الإسكندرية ودمياط والمحلة الكبرى ورشيد وفوه في طراز الدلتا، والفيوم وجرجا وأخميم وقوص وإسنا وأسوان في طراز الصعيد.

وفي الطراز الشامي نجد أن لكل مدينـة من المدن التي تنتمي إلى هذا الطراز سماتها الخاصة، ومميزاتها العامـة؛ كما هو الحـال في صيدا وصور وطرابلس وبيروت بالجمهورية اللبنانية، والقدس وغزة في فلسطين، ودمشق وحمـاة وبصرى وحلب في سوريا، وغير ذلك. وفي الطراز العراقي ينطبق نفس الشيء على العديد من المدن؛ كما هو الحال في البصرة والكوفة وواسط

وبغداد وسامرا والموصل، وغير ذلك.

وفي الطراز الأناضولي (آسيا الصغرى)؛ كما هو الحال في ديار بكر وقيصرية ومغنيسة (أو مانيسا) وسيواس وبورصة (أو بروسة) وأزنيق وإستانبول، وغير ذلك.

وفي الطراز الإيراني؛ كما هو الحال في أصفهان وكرمان ومشهد والري وخراسان وطوس وقزوين، وغير ذلك.

وفي طراز أسيا الوسطى؛ كما هو الحال في بخارى وسمرقند وخيوه وبلخ وهراة وغزنة، وغير ذلك.

وفي الطراز المغربي؛ كما هو الحال في القيروان والمهدية وسوسة والمنستير وطرابلس الغرب وبجاية وتاهرت وتلمسان وفاس ومراكش والرباط، وغير ذلك.

وفي الطراز الأندلسي؛ كما هو الحال في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة وسرقسطة، وغير ذلك.

وفي طراز الجزيرة العربية؛ كما هو الحال في مكة المكرمة والمدينة المنورة والهفوف والمدن العمانية المختلفة وصنعاء وتعز وزبيد وجبلة وعدن، وغير ذلك.

هذا، وتشتمل العمارة الإسلامية على أربعة أنواع رئيسية، وهي:

أولاً ـ العمارة الدينية:

وتشمل: المساجد والجوامع والمدارس والأربطة والزوايا والخوانق والتكايا.

ثانيًا ـ العمارة الجنائزية :

وتشمل: المدافن والترب، والقباب والمشاهد والعتبات، سواء كانت مستقلة ـ أي: منفردة بذاتها ـ أو ملحقة بغيرها من العمائر الدينية غالبًا، والمدنية والحربية أحياناً.

ثالثًا ـ العمارة المدنية :

وتشتمل هي الأخرى على الأنواع التالية :

١ ـ العمائر والمنشآت الاجتماعية: وتشمل: الأسبلة (السقايات)، ومكاتب السبيل (الكتاتيب)، والمطاعم الخيرية (عمارت)، والحمامات العامة، والبيمارستانات (المستشفيات).

٢ ـ العمائر التجارية: وتشمل: الخانات والفنادق والقيساريات والسماسر والوكالات.

٣ ـ العمائر السكنية: وتشمل: الدور والرباع والقصور والسرايات، وغير ذلك.

٤ ـ العمائر الصناعية: وتشمل: الأفران والمعامل والمصانع والمعاصر والطواحين.

٥ ـ عمائر المنافع العامة: وتشمل: المقاييس والسدود والجسور والقناطر والصهاريج والبرك والمواجل، ودور ضرب العملة، وغير ذلك.

رابعًا ـ العمارة الحربية :

وتشمل: الأربطة والقلاع والحصون والقصبات، وما يرتبط بهذه وتلك من أسوار وبوابات وأبراج ومرافق ومنافع متعددة.

أما قبة الصخرة، فهي نوع خاص جدًا؛ حيث ارتبط بناؤها بتخليد ذكر حادثة بعينها لم تحدث سوى مرة واحدة في التاريخ ـ ولن تحدث بطبيعة الحال مرة ثانية ـ وهي حادثة ليلة الإسراء والمعراج للرسول الكريم سيدنا محمد، ولذلك فإن هذه القبة التي بنيت فوق الصخرة المقدسة إنما كانت أشبه بخزانة محكمة الغلق لحفظ هذه الصخرة من أيدي العابثين، ولما كانت قبة الصخرة هي نوع خاص يصعب أن ندرجه تحت أي نوع من أنواع العمارة الإسلامية المشار إليها، ومن ثم سوف نفرد لها دراسة موجزة لإبراز أهميتها وخصائصها المعمارية والفنية.

وذلك في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب[1]، وقد اصطلحنا على تسمية هذا الفصل بالعمائر التذكارية، وذلك للاعتبار الذي سبقت الإشارة إليه.

وفيما يلي نسلط الضوء على كل نوع من الأنواع الأربعة الرئيسية المشار إليها، وذلك حسب الخطة الموضوعة لهذا الكتاب.

* * *

(١) انظر: الفصل الأول من الباب الثاني.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

العمائر الدينية

تمهيد

تحتل العمائر الدينية المكانة الأولى والمقام الأسمى بين أنواع العمائر الإسلامية الأخرى ـ كما هو معروف ـ، ويرجع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلى أن العاطفة الدينية والرغبة في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى التي صاحبت إنشاء هذه العمائر كانت من أهم العوامل التي ساعدت على بقاء الكثير منها بحالة جيدة حتى الآن، وهو الأمر الذي يمكن في ضوئه دراسة طرز هذه العمائر وتخطيطها من جهة، ودراسة وحداتها ومفرداتها وعناصرها المعمارية ونقوشها الكتابية والزخرفية من جهة ثانية، ودراسة الأصول والتأثيرات المتبادلة من جهة ثالثة.

وتشمل العمارة الدينية: المساجد والجوامع والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة والتكايا، وينبغي قبل أن نتناول طرز هذه العمائر الدينية أن نحدد ـ أولاً ـ مدلول بعض المصطلحات المرتبطة بتخطيط تلك العمائر حتى لا يحدث اللبس أو الخلط أو التضارب بين الدارسين والقراء على السواء.

ـ **البائكة (Arcade)**: هي صف من الأعمدة أو الدعامات (شكلا ٣٨٩ ـ ٣٩٠) تحمل فوقها عقودًا (أقواسًا) Arches يرتكز عليها السقف

(لوحات ١ ـ ٣، ١٥، ١٩، ٣٢، ٨، ٥٨، ٨٨، ٩٠، ٩٣)، وأحياناً يرتكز السقف على الأعمدة أو الدعامات دون وساطة العقود.

ـ **الرواق (البلاطة) Aisle**: تعد الأروقة من أهم مفردات العمارة الإسلامية عامة، وعصب الطراز التقليدي الذي صممت على أساسه غالبية المساجد في دار الإسلام خاصة، وكان مصطلح الرواق هو المصطلح السائد والمتداول في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وأقطار المشرق الإسلامي، بينما يقابله ويرادفه في أقطار الغرب الإسلامي مصطلح آخر هو: البلاطة؛ وقد عبر بذلك المصطلح الأخير ـ أي: البلاطة ـ جميع رحالة الغرب الإسلامي من المغاربة والأندلسيين عند مشاهداتهم للعمائر المختلفة التي شاهدوها خلال رحلاتهم في الأقطار الإسلامية، كذلك لم تغب هذه الحقيقة عن المؤرخين المسلمين، فها هو السمهودي مؤرخ المدينة المنورة يعلق على وصف ابن جبير للمسجد النبوي الشريف قائلاً «. . . هذا ما ذكره ابن جبير، إلا أنه عبر في الجميع بالبلاطات بدل الأروقة وكذا صنع ابن عبد ربه في العقد. . .»؛ وفي موضع آخر يذكر: «. . . وهو مراد ابن جبير في رحلته بعد أن ذكر أن في الجهة القبلية من المسجد خمس بلاطات، يعني: أروقة. . .»[1].

وبرغم ذلك غابت تلك الحقيقة عن العلماء والباحثين المحدثين ممن فضلوا المصطلحات المعروفة والمتداولة في الغرب الإسلامي، وعملوا على ذيوعها وانتشارها، وبصفة خاصة كل من مصطلحي البلاطة والاسكوب،

---

(١) السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، (ت٩١١هـ ـ ١٥٠٥م)، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، ج٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ط٤، (١٩٨٤م)، ص٥١٢، ٦٧٢.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد؛ بل فسر المصطلح الأول منها ـ وهو البلاطة ـ تفسيرًا أدى إلى حدوث الخلط والتضارب في الدراسات المنشورة[1].

غير أن ما يعنينا في هـذا المقام هو أن نشير إلى ما انتهت إليه دراستنا حول هذا الموضوع، وفحواها: أنه لا فرق بين مدلول كل من الرواق والبلاطة والاسكوب، وأن المصطلحات الثلاثة مرادفة لبعضها، وأن المصطلح الأول منها ـ وهو الرواق ـ قـد إختصت به الجزيرة العربية والعراق والشام وأقطار المشرق؛ بينمـا اختصت بالمصطلح الثانـي ـ وهـو البلاطـة ـ أقاليم الغرب الإسلامي، أمـا مصطلح الاسكـوب، فهو مصطلح محلي دارج فـي تونس بصفة خاصة[2].

وعلى ذلك نستطيـع أن نضـع تعريفًا جـديدًا، وهـو أنـه يقصـد بتلك المصطلحات الثلاثـة صفوف البائكات، والمساحات المسقوفة المحصورة بينها، سواء كانت عقودها موازية لجدار القبلة فحسب، أو عمودية على ذلك

---

(١) فكـري، أحمـد، مساجـد القاهرة ومـدارسها، **المدخـل**، القاهـرة (١٩٦١م)، ص٩٢؛ **مسجـد القيـروان**، القاهـرة (١٩٣٦م)، ص١٩؛ الكحـلاوي، محمـد محمد مرسي، **القيم الدينية وأثرها في تخطيط عمـارة المساجـد**، مجلة دراسات في علم الآثار والتراث، العدد (١)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م)، ص١٩١ ـ ١٩٣؛ الحداد، عبدالله عبد السلام، **مقدمة في الآثار الإسلامية**، صنعاء (٢٠٠٣م)، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) الحداد، محمد حمزة، **المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية**، القاهرة، ط١، (١٩٩٦م)، ط٢، (٢٠٠١م)، ص٤٠ ـ ٦٩، ٨٥، ط٣، (٢٠٠٨م)، ص٤٢ ـ ٧٠، ٨٤؛ سلسلة العمـارة الإسلامية في الجزيرة العربية، ج٣، **الرواق في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة**، القاهرة (٢٠٠٤م)، ص٧ ـ ١١.

الجدار فحسب، أو كانت عقوداً متقاطعة؛ أي: تتجه موازية وعمودية على جدار القبلة في ذات الوقت، وهـذه الحالة الأخيرة لا تكون إلا في العمائـر المغطاة بالقباب أو الأقبية، أو الاثنين معًا.

ولا شك أن هـذا التعريف الجديـد من شأنـه أن يمنـع حدوث اللبس والخلط والتضارب لو اقتصر كـل باحث على المصطلح السائـد والمتداول في القطر الذي يتحدث عنه، على أن يضع المصطلحين الآخرين أو أحدهما بين قـوسين، وبالتالـي يحسن الانتفـاع بمـا ينشر من دراسات عن العمـارة الإسلامية عامة، والمساجـد خاصة في الأقطار العربيـة والإسلاميـة؛ فضلاً عن الدراسات الأجنبية.

وهو الأمر الذي طبقناه في دراساتنا العديدة المنشورة، وسوف نطبقه في كتابنا هذا.

ونضيف على ما تقدم، فنقول: إنه في حالة وجود الأروقة (البلاطات) في عمارة المساجـد يستطيع المرء أن ينتقل عبر أجـزاء المسجـد المختلفة (المقدم والمؤخر والمجنبتين) دون أن تطأ قدمه صحن المسجد.

ـ الإيوان Iwan أو Liwan: هـو عبارة عن مساحة مستطيلة أو مربعة ذات ثلاثة جـدران: واحـد في الصـدر، واثنان جانبيان، أمـا الجدار الرابع والأخير، فمفتوح الوجه، ويطل على المساحة الوسطى (الصحن، أو الدرقاعة) بعقد، أيًا كان نوعه، وأحياناً بهيئة مسطحة، (لوحات ٦، ٦١ ـ ٦٢، ١٤٢ ـ ١٤٣).

ونضيف على ذلك فنقول إن هنـاك بعض الإيوانـات التـي تقسم مـن داخلها إلى أروقة (بلاطات) قـد تكون موازية لجـدار القبلة فحسب؛ مثل:

إيوان القبلة بجامع المؤيد شيخ بالقاهرة (شكل ١٤٤)، أو عمودية على جدار القبلة فحسب؛ كما هو الحال في إيوان القبلة بكل من مدرسة المنصور قلاوون، ومدرسة وخانقاه الظاهر برقوق بالنحاسين (شارع المعز) بالقاهرة (أشكال ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٣٥، لوحة ٥٢)، أو تكون أروقة متقاطعة ـ أي: تتجه عقودها عمودية وموازية لجدار القبلة في ذات الوقت ـ كما هو الحال في خانقاه الناصر فرج بن برقوق (شكلا ١٤٨ ـ ١٤٩، لوحة ٦٦) بالقاهرة.

وفي أحيان أخرى يكون الإيوان على هيئة رواق واحد يطل على الصحن أو الدرقاعة ببائكة ثلاثية العقد؛ كما هو الحال في مدرسة الأشرف برسباي (بقرافة صحراء المماليك شرق القاهرة) (شكلا ١٥٠ ـ ١٥١)، ومدرسة أبي بكر مزهر، وغير ذلك، أو ببائكة ثنائية العقد؛ كما هو الحال في الإيوانين الجانبيين بمسجد أحمد المهمندار بالقاهرة[١].

والمهم هو أنه في حالة وجود الإيوانات، بأنماطها المشار إليها، لا يستطيع المرء أن ينتقل من إيوان لآخر داخل المنشأة نفسها دون المرور بالصحن أو الدرقاعة.

ـ الصحن Court Yard أو Open Court:

يقصد به: المساحات المكشوفة التي تتوسط المساجد التي صممت وفق التخطيط التقليدي العربي المتأثر بتخطيط المسجد النبوي الشريف، وقد أطلقت على هذه المساحة المكشوفة عدة مصطلحات، من أشهرها:

---

(١) الحداد، **بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية**، (الكتاب الأول) القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، (أشكال ١٥٤، ٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٩، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠٦ ـ ٢٠٨).

الصحن، وهو مصطلح متعارف عليه قديمًا وحديثًا، ولهذا المصطلح مترادفات أخرى كثيرة، منها: الفناء، والساحة، والرحبة، والباحة، والصرحة (أو الصوح أو الشماسي فـي اليمن) والحائـر (بالنسبة للمشاهـد والمراقـد المقدسة في العراق وإيران)، وحياط (في إيران) والدرقاعة (في مصر)، كذلك أطلق على الجـزء المكـشوف الـذي يتقـدم الجـزء المغطى فـي التخطيط التقليـدي أو الكلاسيكي العثماني للمساجد الإسلامية خلال العصر العثماني مصطلح الحرم (Avlu , Harem) (أشكال ٢٨٤ ـ ٢٨٦، ٢٨٩ ـ ٢٩٧، لوحتا ٤٧، ١٨٩).

* * *

المبحث الأول
المساجد

من المعروف أن عمـارة المساجد[١] تأتي على رأس النظم التخطيطية في العمارة الإسلامية عامة، والعمارة الدينية منها خاصة؛ ولا غرو في ذلك، فالمساجد تحتل المكانة الأولى في الإسلام؛ فهي بيوت الله، وتعميرها من أفضل القربات إلى الله ﷻ، وأُسس المسجد لتقام فيه الصلاة: عماد الدين؛ ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين، ولم تقتصر وظيفة المسجد في

(١) تجدر الإشارة إلى أن مصطلح المسجد المتداول في هذه الدراسة يقصد به: المساجد في العمارة الإسلامية بصفة عامـة، سواء كانت مساجد للصلوات الخمس اليومية (مساجد الأوقات)، أو مساجد جامعة (تقام فيها صلاة الجمعة والعيدين)، وذلك من باب الحرص على التمسك والالتزام بما ورد في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة التي أشارت إلى المساجـد الثلاثة التي تشد إليها الرحال بصيغة المسجد فحسب، أو المساجد فحسب برغم أنها مساجد جامعة كبيرة كما هو معروف.

أول الأمر على الصلاة، بل كـان المسجد مركزًا للحكم والإدارة والدعوة، والتشاور في ذلك كله، كما كان محل القضاء والإفتاء والعلم والإعلام، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، ومن جانب آخر فقد ارتبطت الفنون الإسلامية ـ على اختلافها ـ بالمسجد وبعمارته وأثاثه وشعائره[1].

هذا، وقد كان الشائع والمعتقد ـ حتى وقت قريب ـ: أن العمائر الدينية عامة، وعمارة المساجد خاصة قد اقتصر تخطيطها على أربعة طرز فحسب[2]، وهي:

*** الطراز الأول:**

ويعرف بالطراز النبوي، أو الطراز العربي، أو طراز الأروقة أو الظلات حول صحن أوسط، ونفضل نحن مصطلح: الطراز العربي التقليدي.

*** الطراز الثاني:**

ويعرف بالطراز السني، أو الطراز الإيوانـي، أو طراز الإيوانات حول صحن أو درقاعة، ونفضل نحن مصطلح: الطراز الايواني.

*** الطراز الثالث:**

وهو الطراز الذي يجمع بين الإيوانات والأروقة، ولـم يقدر لهذا الطراز الذيوع والانتشار في جميع الأقطار العربية والإسلامية، وإنما اقتصر ظهوره على المشرق الإسلامي بصفة عامة.

---

(١) الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، ص٢٥ ـ ٢٦، ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) الباشـا، **مـدخل**، ص١٠٩ ـ ١١١؛ شافعي، فريـد، **العمـارة العربيـة فـي مصر الإسلاميـة**، ص١٢٥، ١٢٧، ٢٣٧، ٢٤٨؛ **العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها**، الرياض (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م)، ص٨١ ـ ٨٣، ١٤٠ ـ ١٤١.

* **الطراز الرابع:**

ويعرف بالطراز التركي أو العثماني، وفيه يتكون تخطيط المسجد من قسمين رئيسيين: أحدهما مغطى، والآخر مكشوف، ويعرف هذا الجزء المكشوف في الاصطلاح باسم الحرم (Avlu , Harem) كما سبق القول، ونفضل نحن مصطلح الطراز التقليدي (أو الكلاسيكي) العثماني.

ولكن الدراسات الحديثة قد أثبتت وجود طُرز أخرى ذاعت وانتشرت في العديد من الأقطار العربية والإسلامية.

وفيما يلي نتناول الخصائص العامة، والسمات الرئيسية، وملامح التخطيط العام لغالبية الطرز التي صممت على أساسها المساجد في العمارة الإسلامية، وذلك على النحو التالي:

* **الطراز الأول:**

الطراز العربي التقليدي: وهو أهم طرز عمارة المساجد في دار الإسلام؛ حيث انتشر في غالبية الأقطار الإسلامية؛ وكانت نواته الأولى الرئيسية في عمارة المسجد النبوي الشريف (شكل ٣)، سواء في مرحلته الأولى: وفيها كان المسجد عبارة عن صحن أوسط (رحبة)، ومقدم جهة الشمال (أي: جهة بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى، وذلك قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام في منتصف شعبان ٢هـ - ٦٢٣م)؛ أو مرحلته الثانية: وفيها صار المسجد عبارة عن صحن أوسط، ومقدم جهة الجنوب (أي: جهة المسجد الحرام بمكة المكرمة، وذلك بعد تحويل القبلة في منتصف شعبان ٢هـ - ٦٢٣م)، ومؤخر جهة الشمال (حيث كانت القبلة الأولى، وقد أصبح موضعًا لأهل الصفة)، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية حتى انتقل الرسول

الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى (في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١هـ ـ ٦٣٢م)، وكان مقدم المسجد يشتمل على ثلاث بائكات، تتكون كل بائكة منها من تسعة أساطين (أعمدة).

وتحصر هذه البائكات فيما بينها ثلاثة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة، والمؤخر مثله مثل المقدم[1]. (شكل ٤)، أو مرحلته الثالثة والأخيرة: وفيها اكتمل تخطيط المسجد النبوي الشريف، واتخذ شكله النهائي، فصار يشتمل على: صحن أوسط، ومقدم ومؤخر، ومجنبتين (جناحان)، وذلك في عمارة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه ٢٩هـ ـ ٦٤٩م ترجيحًا[2]

---

(١) عن تفاصيل عمارة المسجد النبوي الشريف في عصر النبي ﷺ وفي عصر الخلفاء الراشدين من بعده، وبخاصة عمر وعثمان رضي الله عنهما انظر: الشهري، محمد هزاع، **عمارة المسجد النبوي منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكي**، القاهرة (٢٠٠١م)، ص٢٣ ـ ١٠١؛ كامل، عبدالله، **المسلمون وآثارهم المعمارية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين**، القاهرة (٢٠٠٣م)، ص٦٥ ـ ٧٧ (هذا وقد أعيد طبع هذا الكتاب تحت عنوان: «**الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية والمشرق والمغرب خلال العصرين النبوي والراشدي**»، القاهرة (٢٠٠٨م)، ص٧١ ـ ١٠٩، ١٤٦ ـ ١٤٧، ١٨٣ ـ ١٩٨)؛ الشمري، حصة بنت عبيد، **تخطيط المدينة المنورة في العهد النبوي والخلافة الراشدة**، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الجوف، السعودية (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م)، ص٦٠ ـ ٨٤، ١١٧ ـ ١٢١، ١٢٨ ـ ١٣٣.

(٢) شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، المجلد الأول، ص٦٦.

ومما له دلالته أن شافعي قد بنى ترجيحه على أنه لما كان عثمان رضي الله عنه هو أول من اتخذ الأروقة في المسجد الحرام، (لوحة ١)، وبالتالي فإنه من المنطقي أنه أمر بإضافة أروقة (بلاطات) جانبية ـ أي في مجنبتي المسجد النبوي الشريف الشرقية =

(شكل ٥)، أو في عمارة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على يدي وإليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فيما بين عامي ٨٨ ـ ٩١هـ ـ ٧٠٦ ـ ٧٠٩م يقيناً[١]. (شكل ٦).

وعلى ذلك صار تخطيط المسجد النبوي الشريف[٢] بمراحله الثلاث هو النموذج الذي نسج على منواله في تخطيط المساجد في دار الإسلام؛ ولكن مع الاختلاف في بعض التفاصيل والعناصر والمفردات؛ ومن بينها

= والغربية (شكل ١٩)، ولم يوافق على هذا الرأي صالح لمعي، والشهري لعدم وجود أي سند لهذا الرأي في المصادر التاريخية التي أرخت لعمارة المسجد النبوي الشريف.

الشهري، **عمارة المسجد النبوي**، ص٩٩؛ لمعي، صالح، **المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري**، بيروت (١٩٨١م)، ص٦٣.

(١) الحداد، **سلسلة العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية**، ج١، **عمارة المسجد النبوي الشريف في العصرين الأموي والعباسي**، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، ص٢٨ ـ ٦١.

(٢) يرى الباشا أن عمارة عثمان ﷺ في المسجد الحرام حين وسعه، وزاد فيه، وأقام الأروقة في جميع جوانبه عام (٢٦هـ ـ ٦٤٦م)، (لوحة ١) كان لها أثرها في تطور عمارة المساجد التي صممت وفق الطراز التقليدي بصورته النهائية التي ذاعت وانتشرت في الشرق والغرب على السواء، ومن أقدم النماذج المؤكدة لذلك الطراز: مسجد الكوفة بعد عمارته وإعادة بنائه بأمر زياد بن أبيه عام (٥١هـ ـ ٦٧١م). (شكل ٣١)؛ الباشا، **أثر عمارة عثمان بن عفان في المسجد الحرام في تخطيط المساجد وفي العمارة الاسلامية**، ضمن دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث (الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين)، ج٢، الرياض (١٤٠١هـ ـ ١٩٨٩م)، ص٢٣٩ ـ ٢٤٥.

كبر المساحـة التي يشغلها المسجد، أو صغرها؛ وفيما إذا كان جدار القبلة يشغل المحور الطولي، أو المحور العرضي لهذه المساحة، واختلاف عدد الأروقة (البلاطات)، سواء في مقدم المسجد، أو في مؤخره، أو المجنبتين؛ فضلاً عن اختلاف اتجاه صفوف البائكات التي تفصل بين الأروقة (البلاطات).

ووجود زيادات تحيط بالمسجد من عدمه، وطرق التسقيف والتغطية، فضلاً عن طبيعـة الطراز المعماري السائـد في كـل عصر من العصور الـذي ينعكس بطبيعة الحال على عمارة المسجد وعناصره ومفرداته ونقوشه الكتابية والزخرفية.

ومجمل القول: أنه إذا كانت المساجـد التي صممت وفق هذا الطراز تتفق مـع بعضها البعض في المميزات الرئيسيـة، والتخطيط العـام، إلا أنها تختلف مـن حيث التفاصيل والعناصر والمفردات حسب الطراز المعمـاري والفني السائـد، وبمعنى آخر: فإنه لكل مسجد منها شخصية قائمـة بذاتها، وطابع مميز له خاص به.

على أنـه ينبغي ـ قبل أن نتحـدث عن أنمـاط هـذا الطراز في العمـارة الإسلامية ـ أن نشير إلى حقيقة مهمة، فحواها: أن الصحن الأوسط المكشوف هـو العنصر المميز الغالب على هـذا الطراز، سواء بصورتـه الأولى ـ أي: غير النهائية ـ (مقـدم فحسب، أو مقدم ومؤخر فحسب، أو مقدم ومجنبتين فحسب)، أو بصورته الثانية ـ أي: الصورة النهائية أو المكتملة ـ (مقدم ومؤخر ومجنبتين)، وبالتالي فإنـه يصعب أن نتصور أي نمط من أنمـاط هذا الطراز بدون وجود الصحن.

أما عن أنماط المساجد التي صممت وفق هذا الطراز، فنستطيع أن نحصرها في الأنماط التالية:

١ ـ النمط الأول:

ويتمثل جوهر التخطيط في هذا النمط في أن جميع عقود البائكات في مقدم المسجد فحسب، أو في مقدم المسجد ومؤخره تسير موازية لجدار القبلة، (ويستثنى من ذلك بعض النماذج التي نشاهد فيها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع الذي يقطع صفوف البائكات الموازية لجدار القبلة، وهو يمتد من الصحن إلى أن ينتهي على جانبي المحراب بجدار القبلة (أشكال ٦ ـ ٧، ٥١ ـ ٥٣، ٩٩ ـ ١٠٣، ٢٤٢).

وقد ساد هذا النمط وانتشر بصفة رئيسية في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، وأقطار المشرق الإسلامي؛ على أن ذلك لا يعني عدم وجود نماذج له في الغرب الإسلامى؛ إلا إنها قليلة، بل ونادرة؛ كما سنشير فيما بعد.

أما عقود بائكات كل من المجنبتين، فتتجه في نماذج هذا النمط عمودية على جدار القبلة غالبًا، وموازية له أحياناً؛ كما سنشير فيما بعد.

ونستطيع أن نحصر نماذج هذا النمط في نموذجين رئيسيين، وهما:

أ ـ النموذج الأول:

وهو الذي يشتمل على الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، وتعد أمثلته الباقية في العمارة الإسلامية قليلة، ومن أقدمها: المسجد الأموي بدمشق (٨٦ ـ ٩٦هـ ـ ٧٠٥ ـ

٧١٥م)، وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف، ومقدم ومؤخر ومجنبتين، والمقدم يشتمل على ثلاثة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها رواق أوسط عمودي (بلاطة وسطى عمودية) يعلو قسمه الأوسط القبة المعروفة بقبة النسر، والمؤخر يشتمل على رواق واحد يتجه هو الآخر موازيًا لجدار القبلة، أما المجنبتان، فبكل مجنبة منهما رواق واحد ـ أيضًا ـ، ولكن عقود بائكته تتجه عمودية على جدار القبلة[1]. (شكلا ٥١ ـ ٥٢، لوحات ١٣ ـ ١٦).

ومنها: المسجد الملحَق بقصر الحير الشرقي ١١٠هـ ـ ٧٢٨م، وهو يعد صورة مصغرة من المسجد الأموي (شكلا ٥٣، ٨٢)، وإن كان هناك اختلاف بطبيعة الحال في بعض المفردات والتفاصيل[2].

---

(١) سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص٢٧؛ شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، ص٢٤٣؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٥٤ ـ ٦٠؛ **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية**، دمشق (١٩٧٩م)، ص٤٧ ـ ٥٣؛ كريزويل، **الآثار الإسلامية الأولى**، ص٧٥ ـ ٨٢؛

Creswell, K.A.C., and Allan, J.W., Ashort Account of Early Muslim Architecture, A.U.C. (1989), P. 51‑55, Hillenbrand, R., Islamic Architecture, A.U.C. (2000), P. 70‑73.

(٢) الريحاوي، **العمارة العربية**، ص٧٥؛ كريزول، **الآثار**، ص١٦١ ـ ١٦٤.

.Creswell, Ashort, P. 156‑157

ولعل ما أشرنا إليه بالنسبة لتخطيط المسجد ينفي ما أشار إليه عبدالله كامل من أن ظلة القبلة ـ أي: مقدم المسجد ـ تنقسم إلى ثلاث بلاطات تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة. كامل، عبدالله، الأمويون وآثارهم المعمارية، القاهرة (٢٠٠٣م)، ص١١٥. فأين الرواق الأوسط العمودي المعروف خطأ بالمجاز القاطع إذن؟

ومن النماذج الباقية بالعمارة المصرية الإسلامية: الجامع الأزهر (٣٥٩ - ٣٦١هـ - ٩٦٩ - ٩٧١م)، وكان تخطيطه في مرحلة إنشائه الأولى عبارة عن صحن أوسط مكشوف، ومقدم، ومجنبتين فقط، والمقدم يشتمل على خمسة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، ويعلو مربعة المحراب بنهاية الرواق الأوسط العمودي قبة، فضلاً عن وجود قبتين أخريين بطرفي الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلي جدار القبلة، أما المجنبتان، فبكل مجنبة منهما أحد عشر رواقًا (بلاطة) تتجه عقودُ بائكاتها العشر موازية لجدار القبلة[1]. (شكل ٩٩).

وقد أضاف الخليفة الحافظ لدين الله أربعة أروقة حول الصحن بواقع رواق (بلاطة) بكل جانب، وبذلك اكتمل الشكل النهائي للطراز العربي التقليدي بالجامع الأزهر، ومن الملاحظ: أن الرواق القبلي المضاف يتميز

---

(١) كريزول، **العمارة الإسلامية في مصر**، المجلد الأول، الإخشيديون والفاطميون، ترجمة عبد الوهاب علوب، راجعه واستخرج نصوصه وقدم له وعلق عليه: محمد حمزة إسماعيل الحداد، القاهرة (٢٠٠٤م)، ص٦٧ - ٦٨؛ فكرى، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها**، الجزء الأول، العصر الفاطمي، القاهرة (١٩٦٥م)، ص٤٨ - ٥٠؛ فهمي، عبد الرحمن، **الجامع الأزهر**، ضمن كتاب القاهرة، **تاريخها فنونها آثارها**، مؤسسة الأهرام، (١٩٧٠م)، ص٤٥٤ - ٤٥٥؛ العمري، آمال، الطايش، علي، **العمارة في مصر الإسلامية (العصرين الفاطمي والأيوبي)**، القاهرة (١٩٩٦م)، ص٧٢ - ٧٣؛ عبد الرازق، أحمد، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، القاهرة (١٩٩٩م)، ص١٤٦ - ١٤٨؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

عن الأروقة الثلاثة الأخرى بأنه تعلوه عند بداية الرواق الأوسط العمودي من جهة الصحن القبة المعروفة بقبة البهو[1](شكل ١٠٠، لوحة ٣٨).

ومنها: جامع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٠ ـ ٤٠٣هـ ـ ٩٩٠ ـ ١٠١٣م)، ويتكون تخطيطه من: صحن أوسط مكشوف، ومقدم ومؤخر ومجنبتين، والمقدم يشتمل على خمسة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة، يقطعها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، ويعلو الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلي جدار القبلة ثلاث قباب غير متجاورات، وهي: قبة مربعة المحراب بنهاية الرواق الأوسط العمودي المعروف خطأ بالمجاز القاطع، وقبتان بطرفي الرواق، بواقع قبة بكل طرف أو ركن، والمؤخر يشتمل على رواقين موازيين لجدار القبلة، أما المجنبتان، فبكل مجنبة ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة[2] (شكل ١٠١).

ومنها: جامع السلطان المملوكي البحري الظاهر بيبرس البندقداري (بيبرس الأول) المعروف بجامع الظاهر (٦٦٥ ـ ٦٦٧هـ ـ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٩م)

---

(١) كريزول، **العمارة**، ص٢٦٩ ـ ٢٧٣؛ فكري، **مساجد القاهرة**، (١/ ٥٠)؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٢٣٩.

(٢) كريزول، **العمارة**، ص٧٩، ٨٦ ـ ٩٥؛ العمري، **العمارة**، ص٧٧ ـ ٧٨، ٨١ ـ ٨٤؛ عبد الرازق، **العمارة**، ص١٧٠ ـ ١٧٣؛ فكري، **مساجد القاهرة**، (١/ ٦٥ ـ ٦٧)؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

Bloom, J. M. , The Mosque of Al _ Hakim in Cairo, Muqarnas, vol 1, (1983), PP. 15 _ 36.

بحي الظاهر بالقاهرة، ويتكون تخطيطه من: صحن، ومقدم ومؤخر، ومجنبتين، والمقدم يشتمل على ستة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، وقد صمم هنا بطريقة غير مسبوقة في العمارة المصرية الإسلامية؛ حيث قسم إلى قسمين: القسم الأول يتقدم المحراب، ويمثل المقصورة، وكانت تعلوها قبة ضخمة على قدر قبة الإمام الشافعي على حد قول المقريزي في «خططه». وليس أدل على ضخامة هذه القبة من القول بأن قاعدتها المربعة قد شغلت مساحة تسعة عقود من عقود بائكات الأروقة (البلاطات) الثلاثة الأولى مما يلي جدار القبلة، والقسم الثاني يتقدم القسم الأول، ويطل على الصحن، وقد قسم من داخله إلى ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية، ويشتمل المؤخر على رواقين موازيين لجدار القبلة، يقطعهما عند المدخل (على محور المحراب) رواق أوسط عمودي، أما المجنبتان، فبكل مجنبة منهما ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة، يقطعها عند المدخل رواق موازٍ لجدار القبلة[1] (شكلا ١٠٢ ـ ١٠٣).

ومنها: مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥هـ ـ ١٣٣٤م (شكل ٣٩٢)، (لوحة ٥٨)، ويتكون تخطيطه من: صحن، ومقدم ومؤخر،

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٠٢؛ نويصر، حسني، **العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك**، القاهرة (١٩٩٦م)، ص١٣٨ ـ ١٣٩، ١٤١ ـ ١٤٣؛ الحداد، محمد حمزة، وآخرين، **اسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة**، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة (١٩٩٠م)، ص٨٩ ـ ٩٣.

ومجنبتين، والمقدم يشتمل على أربعة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، وهو يمثل مقصورة السلطان، وتعلوه قبة ضخمة شغلت هي الأخرى مساحة تسعة عقود من عقود بائكات الأروقة (البلاطات) الثلاثة الأولى مما يلي جدار القبلة؛ حيث إن عقود البائكتين العموديتين اللتين تشكلان الرواق الأوسط العمودي لا تمتد حتى تنتهي عند الصحن كما هو المألوف، وهو الأمر الذي سوف يقابلنا في بعض المساجد في المشرق الإسلامي؛ كما سنشير فيما بعد[١].

ومن النماذج الباقية في اليمن: مسجد الملكة الحرة السيدة بنت أحمد الصليحية في مدينة ذي جبلة ٤٦٠ ـ ٤٦١هـ ـ ١٠٦٧ ـ ١٠٦٨م[٢].

ومنها في ليبيا: كلٌّ من مسجد أجدابية، ومسجد مدينة سلطان[٣] (سرت).

ومنها في فاس بالمغرب الأقصى: كلٌّ من مسجد القرويين، ومسجد الأندلسيين[٤]، وقد صمم في كليهما بطريقة غير مألوفة في عمارة المساجد

---

(١) الحداد، **أسس التصميم**، ص١٠٥ ـ ١١٠.

(٢) فنستر، بربارة، **حول بعض المباني الإسلامية في اليمن**، ضمن كتاب تقارير أثرية من اليمن، ج١، ترجمة عبد الفتاح البركاوي، المعهد الألماني للآثار ـ صنعاء (١٩٨٢م)، ص٥٣ ـ ٦٣؛ كامل، عبدالله، **الفاطميون وآثارهم المعمارية في أفريقية ومصر واليمن**، القاهرة (٢٠٠١م)، ص١٦٩ ـ ١٧١؛ شيحة، مصطفى، **مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية**، القاهرة (١٩٨٧م)، ص٦٠ ـ ٦٤.

(٣) Hillenbrand, Islamic, P. 86, Figs, 2. 144, 2. 148.

(٤) سالم، **تاريخ المغرب**، ص٦٦٦ ـ ٦٧٦، ٧٦٤ ـ ٧٦٨؛ الريحاوي، **العمارة في** =

الإسلامية عامة، ومساجد الغرب الإسلامي والمغرب الأقصى خاصة (أشكال ١٩٦ ـ ١٩٨) (لوحة ٩٧).

وفي المشرق الإسلامي تقابلنا عدة نماذج، ومن بينها: مسجد ديار[١] بكر ٤٨٤هـ ـ ١٠٩١م (شكل ٢٤٢)، ومسجد دنيصر[٢] (قزيل تبه) ٦٠١هـ ـ ١٢٠٤م (شكل ٢٤٣)، وإن كان يلاحظ هنا أن الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع يقطع فقط الرواقين الأول والثاني مما يلي جدار القبلة؛ أي: أنه لا يمتد حتى ينتهي عند الصحن كما هو المألوف.

ومثله في ذلك: مسجد ماردين[٣]، ومسجد علاء الدين[٤] في قونية، وبصفة خاصة مرحلته الأولى ٥٥٠هـ ـ ١١٥٥م (شكل ٢٤٤).

أما مسجد عيسى بك في سلجوق[٥] قرب أفسوس ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م

= **الحضارة**، ص٣٦٧، إسماعيل، عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، الرباط (١٩٩٣م)، ص١٢٧ ـ ١٤٢، الكحلاوي، **مساجد المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، ص٢٩٤ ـ ٣١٦.

(١) آصلان آبا، أوقطاي، **فنون الترك وعمائرهم**، ترجمة: أحمد محمد عيسى، إستانبول (١٩٨٧م)، ص٦٣ ـ ٦٤، تخطيط ١.

(٢) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٦٧ ـ ٦٩، تخطيط ٦؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٠١.

(٣) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٦٦ ـ ٦٧.

(٤) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٧٨ ـ ٨٠، تخطيط ١٢.

(٥) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص١٦٠ ـ ١٦١، تخطيط ٣٧.

(عصر بني أيدين بالأناضول)، فيتميز الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع الذي يقطع رواقي مقدم المسجد بأنه مغطى بقبتين طوليتين متماثلتين (شكل ٢٤٥).

ب ـ النموذج الثاني:

وهو الذي يخلو من وجود الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع، وتعد أمثلته كثيرة، ولا سيما في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، ومنها: المسجد النبوي الشريف قبل عمارة الوليد بن عبد الملك على يدي عمر بن عبد العزيز فيما بين ٨٨ ـ ٩١هـ ـ ٧٠٦ ـ ٧٠٩م (شكل ٤)، وأثناء عمارته في العصرين المملوكي والعثماني (شكل ٩).

ومنها: مسجد الكوفة[1] عقب عمارة زياد بن أبيه له عام ٥١هـ ـ ٦٧١م (٥ × ٢ × ٢ × ٢) (شكل ١٧)؛ ومسجد[2] واسط ٨٣ ـ ٨٦هـ ـ ٧٠٢ ـ ٧٠٥م (٥ × ١ × ١ × ١).

---

(١) الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري**، ج٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة (١٩٦٣م)، ص٤٤، ٤٦؛ ابن جبير، **الرحلة**، ص١٥٣؛ فكري، **المدخل**، ص٢٠٠ ـ ٢٠٣؛ شافعي، **العمارة العربية**، ص٢٣٩ ـ ٢٤١؛ رجب، غازي، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق**، بغداد (١٩٨٩م)، ص٥٨ ـ ٦٠.

(٢) رجب، العمارة، ص٦٤ ـ ٦٧؛ سلمان، عيسى، وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، ج١، بغداد (١٩٨٢م)، ص٧٦ ـ ٧٧؛ فكري، **المدخل**، ص٢١٣ ـ ٢١٦.

ومنها: مسجد صنعاء[1] الأموي (عصر الوليد ٨٦ ـ ٩٦هـ ـ ٧٠٥ ـ ٧١٥م) (٥ × ٣ × ٣ × ٣) (شكل ١٠)، ومسجد بصرى[2] ١٠٢هـ ـ ٧٢٠م (٢ × ١ × ٢ × ٢).

ومنها: مسجد[3] حران ١٢٧ ـ ١٣٢هـ ـ ٧٤٥ ـ ٧٥٠م (٤ × ١ × ١ × ١) (شكل ٥٤).

ومنها: مسجد بغداد[4] ١٤٩هـ ـ ٧٦٦م، (شكل ٢٠) (٥ × ٢ × ٢ × ٢).

ومنها: مسجد الرقة[5] ١٥٥هـ ـ ٧٧٢م (٣ × ٢ × ٢ × ٢).

ومنها: المسجد الملحق بقصر الأخيضر[6] الشهير بالعراق حوالي

---

(١) شيحة، مصطفى، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، القاهرة (١٩٨٧م)، ص٢٩ ـ ٣٦؛
Creswell, Ashort, PP. 83 - 88, Fig 54.

(٢) فكري، **المدخل**، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.
Creswell, Ashort, PP. 121 - 130.

(٣) ابن جبير، **الرحلة**، ص١٧٥؛ فكري، المدخل، ص٢٢٥ ـ ٢٢٧؛
Creswell, Ashort, PP. 218 - 221.

(٤) رجب، **العمارة العربية**، ص١٠٠ ـ ١٠٢؛ سلمان، **العمارات**، (١/ ٨٧ ـ ٨٨)؛
Creswell, Ashort, PP. 240 - 242.

(٥) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١١٩ ـ ١٢٠؛ فكري، **المدخل**، ص٢٣٥ ـ ٢٣٧.
Creswell, Ashort, PP. 247 - 248.

(٦) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١١٦؛ رجب، **العمارة العربية**، ص١١٨؛ =

١٦١هـ ـ ٧٧٨م، وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف، ومقدم، ومجنبتان، والمقـدم يشتمل على رواق (بلاطة) واحـد موازٍ لجـدار القبلة، ويطل على الصحـن ببائكـة ذات خمسة عقود، ويسقف المقـدم قبـو برميلي ينتهي من جانبيه بنصفي قبتين منطقة انتقـال كل منهمـا عبارة عن حنيتين ركنيتين، أما المجنبتان، فبكـل مجنبة رواق (بلاطة) واحد ـ أيضًا ـ، ولكنه عمودي على جـدار القبلة، ويطل على الصحـن ببائكـة ذات ثلاثـة عقود. (شكل ٤٠)، (لوحتا ٢ ـ ٣).

ومنها في مصر: كلٌّ من: مسجد أحمد بن طولون[1] ٢٦٣ ـ ٢٦٥هـ ـ ٨٧٦ ـ ٨٧٨م) (٥ × ٢ × ٢ × ٢)، ويتميز بوجود زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة مكشوفة تحيط بالجامع من ثلاث جهات عدا جهة القبلة. (شكلا ٩٣ ـ ٩٤)، ومسجـد الصالح[2] طلائـع خـارج بـاب زويلـة (بوابـة المتولـي) بالقاهـرة

= سلمـان، **العمارات العربيـة**، (١/ ١٠٥ ـ ١٠٨)؛ فكري، **المدخل**، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥

Creswell, Ashort, P. 255.

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١٢٣ ـ ١٣٠؛ شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، ص٤٦٣ ـ ٤٩٧؛ الياور، طلعت، **العمارة العربية الإسلامية في مصر**، بغداد (١٩٨٩م)، ص٤٩ ـ ٧٤؛ عبـد الرازق، أحمد، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، القاهرة (١٩٩٩م)، ص١٠٢ ـ ١١٨؛ فكري، **المدخل**، ص١٠٣ ـ ١٦٠.

Creswell, Ashort, PP 392 - 406.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٤٦ ـ ٢٥٠؛ عبـد الرازق، **العمارة الإسلامية**، =

٥٥٥هـ - ١١٦٠م (٣ × ١ × ١ × ١)، ويتميز بوجود رواق خارجي، أو سقيفة تتقدم مدخله الرئيسي بالجهة البحرية (الشمالية الغربية)، وتطل على الشارع من خلال بائكة ذات خمسة عقود. (شكل ٩٥) (لوحتا ٤٠ - ٤١).

ومن العصر المملوكي: كل من جامع الماس الحاجب، وجامع لاجين السيفي، وجامع سودون من زادة (مندرس حاليًا)، وغير ذلك.

ومن العصر العثماني: كل من الجامع اليوسفي بملوي (في المنيا) ١٠٢٧هـ - ١٦١٧م، وجامع الأمير محمد باخميم قبل ١١١٦هـ - ١٧٠٤م، والجامع العمري ببهجورة ١١٣٣هـ - ١٧٢٠م، وجامع عثمان بك الجرجاوي (بجرجا) ١١٥٦هـ - ١٧٤٣م، وجامع الأمير همام بفرشوط ١١٧١هـ - ١٧٥٧م بالصعيد؛ وكلٌّ من جامع الجندي، وجامع المحلي برشيد، وجامع عبدالله العمري البرلسي بفوة، والجامع العمري بمحلة مرحوم (مركز طنطا - محافظة الغربية).

وهناك بضعة نماذج تتبع هذا النمط، ولكن صحونها مغطاة، وليست مكشوفة.

ومنها بالقاهرة: كل من جامع مصطفى جوربجي ميرزه ببولاق ١١١٠هـ - ١٦٩٨م، وجامع الأمير عثمان كتخدا المعروف بجامع الكيخيا (على رأس شارع قصر النيل عند تقاطعه مع شارع الجمهورية بميدان الأوبرا القديمة) ١١٤٧هـ - ١٧٣٤م (شكل ٩٨)، وجامع الفكهاني بالعقادين ١١٤٨هـ - ١٧٣٥م.

= ص١٩٥ - ٢٠٢؛ العمري، **العمارة في مصر**، ص٩٤ - ١٠٠؛ كريزول، **العمارة الإسلامية في مصر**، المجلد الأول، ص٢٩٧ - ٣١٠.

وفي الفيوم: جامع الأمير سليمان الشهير بالمعلق ٩٦٦هـ-١٠٥٦م[١].

وفي المشرق الإسلامي تقابلنا عدة نماذج، ومنها: مسجد سيراف في مرحلتيه الأولى والثانية على السواء[٢](شكل ٢٢٩). ومسجد سوسه[٣] (خوزستان) (شكل ٢٣٠). ومنها: المرحلة الثانية بمسجد علاء الدين في قونية[٤] ٦١٦هـ-١٢١٩م (شكل ٢٤٤).

٢ - النمط الثاني:

ويتمثل جوهر التخطيط في هذا النمط في أن جميع عقود البائكات في مقدم المسجد فحسب، أو في مقدم المسجد ومؤخره ومجنبتيه، تسير عمودية على جدار القبلة، ويكون الرواق الأوسط (البلاطة الوسطى) أوسعَ الأروقة (البلاطات)، وأكثرها ارتفاعًا غالبًا، ويستثنى من ذلك بعضُ النماذج التي نشاهد فيها عقود بائكة (أو بائكات) رواق المؤخر أو المجنبتين تسير موازية لجدار القبلة.

وقد ساد هذا النمط وانتشر بصفة رئيسية في المغرب والأندلس؛ على أن ذلك لا يعني عدم وجود نماذج له في العراق والجزيرة العربية والمشرق الإسلامي، إلا أنها قليلة؛ فضلاً عن أنها ذات سمات خاصة، وشخصية قائمة بذاتها. ويعد المسجد الأقصى المبارك في القدس الشريف ١٦٣هـ-٧٧٩م أقدم

---

(١) الحداد، **بحوث ودراسات**، (الكتاب الأول)، ص٢٧٨ - ٢٧٩؛ موسوعة العمارة الإسلامية في مصر، المدخل، ص٧٨ - ٨٠.

(٢) Creswell, Ashort, PP. 346 - 347.

(٣) Creswell, Ashort, PP. 222 - 224.

(٤) آصلان آبا، **فنون الترك وعمائرهم**، ص٨٠، تخطيط ١٢.

أنموذج معروف لهذا النمط من التخطيط (شكلا ٥٦ ـ ٥٨) (لوحة ١٢).

ويشتمل المقدم على ١٤ بائكـة عمودية على جدار القبلة تحصر فيما بينها ١٥ رواقًا (بلاطًا)، أوسعهـا وأكثرها ارتفاعـا الرواق الأوسط (البلاطة الوسطى)، ومن الظواهر الملفتـة للنظر هنا وجـود بائكتين عرضيتين ـ أي: موازيتين لجدار القبلة ـ تسيران قرب جدار القبلة، وتوازيانه[1] كما سبق القول، ولا يخفى أن الغرض من ذلك هو تمهيد قاعدة مربعة لحمل القبة التي تعلو المربعة التي تتقدم المحراب بنهاية الرواق الأوسط (البلاطة الوسطى).

وقـد وصفه المقدسي، فـذكر أنـه يتكون من جزأين همـا: المغطى، والصحن، وأن للمغطى ـ أي: المقدم ـ «. . . ستة وعشرين بابًا. . . وعلى الخمسة عشر رواق على أعمـدة رخام. . . وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخـام وأساطين، وعلى المؤخر أروقة أزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جمل ـ أي: سقف جمالوني ـ عظيم خلف قبة حسنة. . . وليس على الميسرة أروقـة، والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقي. . .»[2]. (شكلا ٥٧ ـ ٥٨).

أما مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس الشهير المتوفى ٩٢٧هـ ـ ١٥٢٠م، فقد وصفه بقوله: «. . . المسجـد الأقصى يشتمل على بناء عظيم، بـه قبـة

---

(١) شافعي، **العمارة العربية**، ص٢٤٣؛ كريزول، **الآثار الإسلامية**، ص٢٨٠ ـ ٢٨٢؛ رجب، غازي، **المسجد الأقصى بالحرم الشريف ببيت المقدس**، سومر، المجلد ٢٨، ج١ ـ ٢، بغداد (١٩٧٢م)، ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) المقدسي، شمس الـدين أبو عبدالله محمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت (١٩٨٧م)، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة، وتحت القبة المنبر والمحراب، وهذا الجامع ممتد من جهة القبلة إلى جهة الشمال، وهو سبع أكوار ـ أي: أروقة ـ متجاورة مرتفعة على العمد الرخام والسواري. . .»[١]. (شكل ٥٦).

ولهذا النص أهمية خاصة، فهو يسجل ما كان عليه تخطيط المسجد الأقصى في أواخر ق٩هـ ـ ١٥م؛ أي: وقت وصف مجير الدين الحنبلي الذي فرغ من تأليف كتابه عام ٩٠٠هـ ـ ١٤٩٤م، وبما أن هذا الوصف يكاد يتطابق مع التخطيط الحالي للمسجد الأقصى (شكل ٥٦، لوحة ١٢)، ولذلك يمكن القول بأن تخطيط المسجد الأقصى لم يتغير منذ ذلك الوقت وحتى الآن[٢].

ـ النماذج الباقية في المغرب والأندلس:

لما كان هذا النمط قد ذاع وانتشر في المغرب والأندلس حتى صار سمة رئيسية لعمارة المساجد في المغرب الإسلامي، ولذلك حسبنا أن نشير إلى أشهر نماذجه الباقية وأهمها، ومنها: كل من: مسجد القيروان[٣] بتونس

---

(١) الحنبلي، القاضي مجير الدين أبو اليمن، (ت٩٢٧هـ ـ ١٥٢٠م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج٢، مصر (١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٦م)، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) الحداد، **المدخل إلى دراسة المصطلحات**، ص٧١ ـ ٧٢.

(٣) فكري، **مسجد القيروان**، القاهرة (١٩٣٦م)، ص١٩ ـ ٢٦، ٦٣ ـ ٨٤؛ **مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل**، القاهرة (١٩٦١م)، ص٢٠٧ ـ ٢٠٩؛ سالم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، ص٣٣٦ ـ ٣٤٥؛ العميد، طاهر مظفر، **آثار المغرب والأندلس**، بغداد (١٩٨٩م)، ص٦٥ ـ ٨١؛ عثمان، نجوى، **مساجد القيروان**، دمشق (٢٠٠٠م)، ص٦٥ ـ ١٣٤.

Creswell, Ashort, PP. 315 - 329.

الـذي اتخـذ شكله النهائي فـي عهد الأمير الأغلبـي إبراهيم بن أحمـد عـام ٢٦١هـ ـ ٨٧٥م، وجوهر تخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف، ومقدم ومؤخر، ومجنبتين، والمقدم يشتمل على ١٦ بائكة عمودية على جدار القبلة تحصر فيمـا بينها ١٧ بلاطًا (رواقًا) أوسعها وأكثرها ارتفاعًا البلاط الأوسط (الرواق الأوسط)، وتعلو بدايته ونهايته قبتان هما: قبة مربعة المحراب، وقبة البهو على مدخل البلاط (الرواق) الأوسط مما يلي الصحن، وقد وصفها البكري بقوله: «. . . القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب»[1].

ومن الظواهـر الملفتـة للنظر هنا: وجود أربع بائكات عرضيـة ـ أي: موازية لجدار القبلة ـ وهي البائكة الأولى، (وتمثل واجهة مقدم المسجد)، والثالثة والسابعـة والعاشرة، (وهي البائكة الأخيرة التي يقف عنـدها امتداد البائكات العمودية، ولا يتعداها حتى نهاية جدار القبلة باستثناء عقود البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) التي تمتـد طولاً حتى نهاية جدار القبلة عن يمين المحراب ويساره) مما يلي صحن المسجد، ولا يخفى أن الغرض من ذلك، ولا سيما بالنسبة لكل من البائكة الأولى والثالثة والعاشرة مما يلي الصحن، هو تمهيد قواعد مربعة عند تقاطع هذه البائكات مع البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) لحمل القبتين اللتين ببدايـة ونهاية هـذه البلاطة الوسطى (وهمـا: قبة مربعة المحراب، وقبة البهو السابق الإشارة إليهما) (شكلا ١٩٢ ـ ١٩٣) (لوحات ٨٨ ـ ٩٢).

---

(١) البكري، أبو عبيد، (ت٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م)، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب: **المسالك والممالك**، بغداد، ط٢، د ت، ص٢٤.

ويعـد ذلك تطويرًا لنمط المسجد الأقصى؛ فقـد استطاع المعمار من جهة أن يوجد بلاطة (رواقًا) عرضية ـ أي: موازية ـ متسعة تتقدم جدار القبلة؛ (حيث إنها أوسع من البلاطات (الأروقة) العمودية باستثناء البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) التي تمتـد عقود بائكتيها طولاً حتى نهاية جدار القبلة عن يمين المحـراب ويساره؛ كمـا سبق القول)، وهو مـا لا نجـده في المسجد الأقصى، ومـن جهة ثانيـة استطاع أن يضيف قبـة ثانيـة على مـدخل البلاط الأوسط (الرواق الأوسط) مما يلي الصحن، وهي القبة المعروفة بقبة البهو. وكان لهذا التطور أثره الكبير على تخطيط المساجد التالية في المغرب والأندلس على السواء.

والمؤخـر يشتمل على بلاطتين (رواقيـن) موازيين لجـدار القبلة، أما بالنسبة لكل من المجنبتين، فبكل مجنبـة منهما بلاطتان (رواقـان) عموديان على جدار القبلة. (شكلا ١٩٢ ١٩٣)، (لوحات ٨٨ ـ ٩٢).

ومن المساجد التالية التي اتبعت هذا النمط: مسجد الزيتونة[١] بتونس ٢٥٠هـ ـ ٨٦٤م، ولكـن على مقياس أصغر، فضلاً عن الاختلاف في بعض التفاصيل والمفردات الأخرى، فلكل مسجد منهما شخصية مستقلة، وطابع خاص به.

---

(١) فكري، **مسجـد الزيتونة الجامع في تونس**، المجلة التاريخيـة المصرية، المجلد الرابع، العـدد (٢)، القاهرة (١٩٥٢م)، ص٦٥ ـ ١١٢؛ سالـم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، ص٣٤٩ ـ ٣٥٧؛ العميد، **آثار المغرب**، ص١٠٣ ـ ١٠٩؛ عثمان، **مساجد القيروان**، ص١٥١ ـ ١٦٠.

ومن النماذج التالية: مسجد المهدية الفاطمي بتونس ٣٠٣ ـ ٣٠٥هـ ـ ٩١٥ ـ ٩١٧م، وهو الآخر له شخصيته المستقلة، وطابعه الخاص، إلا أن أهم ما يميزه هو المدخل التذكاري البارز الذي يظهر لأول مرة في العمارة الإسلامية عامة (شكل ١٩٤)، ومن الملاحظ: أنه لا توجد فيه قبة البهو، كما يرى البعض أنه كان يشتمل على ثلاثة صحون: الصحن الأوسط الرئيسي، وصحنان على جانبي بلاطات (أروقة) مقدم المسجد التسعة من الداخل، وتُظهر المساقط الهندسية للمسجد في عام ١٩٦٠م، هذين الصحنين الجانبيين؛ بالإضافة إلى الصحن الأوسط الرئيسي[١].

وإذا ما انتقلنا إلى الأندلس، يقابلنا مسجد قرطبة الذي اتخذ شكله النهائي عام ٣٧٧هـ ـ ٩٨٧م ـ أي: عقب زيادة المنصور بن أبي عامر، وهي الزيادة الخامسة والأخيرة للمسجد ـ وقد تمت هذه الزيادة شرقي مقدم المسجد، وبذلك أصبح مقدم المسجد يشتمل على ١٩ بلاطة (رواقًا) عمودية على جدار القبلة (شكل ١٩٥).

أما عن تخطيط المسجد منذ إنشائه وحتى زيادة المنصور بن أبي عامر[٢]

---

(١) كريزول، **العمارة الإسلامية في مصر**، المجلد الأول، ص٧ ـ ١١؛

Hillenbrand, Islamic, P.80., Lézine, A., Mahdiya, Paris, (1965), PP. 65-136, Figs, 30, 36, 39, 42, 47, 52-57.,

Golvin, L. , Mahdiya, a la Période Fatimide, Romm, XXVII, (1979), PP. 75 - 89.

(٢) البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، بيروت (١٩٦٨م)، ص١٠١ ـ ١٠٣؛ ابن عذارى المراكشي، =

المشار إليها، فيمكن القول: إن المسجد كان في بادئ أمره ـ أي في عهد منشئه الأول الأمير عبد الرحمن الداخل ١٧٠هـ ـ ٧٨٦م عبارة عن صحن ومقدم فحسب، وكان المقدم يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة، ثم لم يلبث أن زاد فيه الأمير عبد الرحمن الأوسط زيادتين: الأولى ٢١٨هـ ـ ٨٣٤م، وفيها أضيفت بلاطتان (رواقان): واحدة شرقية، وأخرى غربية ـ أي: على جانبي البلاطات التسع السابقة، فصارت إحدى عشرة بلاطة ـ وأضيفت في هذه المرحلة إلى الصحن مجنبتان: واحدة شرقية، والأخرى مقابلة لها في امتداد البلاطتين (الرواقين) الجديدتين.

أما الزيادة الثانية لعبد الرحمن الأوسط، فتمت عام ٢٣٤هـ ـ ٨٤٨م، وفيها تم هدم جدار القبلة، وزيد المسجد من جهتها سبع بائكات على نفس امتداد البائكات السابقة، وبذلك ظل عدد بلاطاته (أروقته) كما هو ١١ بلاطة (رواقًا)، إلا أن المسجد قد امتد طولاً أكثر من ذي قبل.

= **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٢، تحقيق: كولان، ج. س، وبروفنسال، ليفي، بيروت، ط٣، (١٩٨٣م)، ص٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٨٧؛ المقري، **نفح الطيب**، (٢/ ٨٤ ـ ٨٦)؛ فكري، **المدخل**، ص٢٤٤ ـ ٢٤٧؛ سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، الإسكندرية (١٩٦١م)، ص٣٧٧ ـ ٣٩٧؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٤٩ ـ ٣٥٩؛ بالباس، ليوبولدو توريس، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، المجلد الثاني، الجزء الثاني، **الفن والعمارة حتى سقوط الخلافة القرطبية**، ترجمة علي إبراهيم منوفي وآخرين، القاهرة (٢٠٠٢م)، ص٢٨ ـ ٤٧، ٧٢ ـ ٩٥، ١٦١ ـ ١٧٠، ١٧٧ ـ ٢٢٢، ٢٣٧ ـ ٢٤٢.

Barrucand, M, Bednorz, A., Moorish Architecture in Andalusia, italy (1992) P. 39_46.

والزيادة الثالثة تمت في عهد الخليفة الحَكَم المستنصر عام ٣٥١ ـ ٣٥٤هـ ـ ٩٦١ ـ ٩٦٥م، وفيها هدم جدار القبلة مرة ثانية، وزيد المسجد من جهتها ١١ بائكة على نفس امتداد البائكات السابقة؛ ومن ثم فإن عدد بلاطات (الأروقة) مقدم المسجد ظلت كما هي ـ أي: ١١ بلاطة ـ، إلا أن المسجد قد امتد طولاً أكثر من ذي قبل حتى صار جدار القبلة قريبًا من الوادي الكبير، وهو الأمر الذي حال دون زيادة المسجد من هذه الجهة فيما بعد. وبهذه الزيادة «كملت محاسن هذا الجامع، وصار في حد يقصر الوصف عنه»[1]، ولعل أبرز ما في هذه الزيادة هو القباب الأربع والمقصورة والمحراب والمنبر، وهو ما سنشير إليه فيما بعد. (لوحات ١٠٢ ـ ١١٠).

وتمت بعد ذلك الزيادة الرابعة والأخيرة على يدي المنصور بن أبي عامر، وكانت من الجهة الشرقية كما سبق القول، وفيها أضيفت ٧ بائكات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره، وتحصر هذه البائكات فيما بينها ٨ بلاطات (أروقة)، وبذلك صار مقدم المسجد يشتمل على ١٩ بلاطة (رواقًا) عمودية على جدار القبلة.

وإذا كانت هذه الزيادة الأخيرة قد أضافت إلى مسطح المسجد مساحة جديدة تعادل نصفه تقريبًا، وتمتد بطوله من أوله إلى آخره ـ أي: من الجنوب إلى الشمال ـ، إلا أنها قد أفقدت المسجد تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه، وأصبح المحراب متطرفًا عن وسط جدار القبلة، بعد أن كان يقع في محور الجامع[2]. (شكل ١٩٥)، (لوحات ١٠٢ ـ ١١٠).

---

(١) المقري، نفح الطيب، (٢/ ٩٧).

(٢) سالم، تاريخ المسلمين، ص٣٩٧.

ومنها: مسجد مدينة الزهراء[1] الذي أمر بإنشائه الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ٣٢٩هـ ـ ٩٤١م (٥ × ١ × ١ × ١)، ومن الملاحظ عدم وجود قبتي مربعة المحراب والبهو، فضلاً عن أن عقود بائكة رواق المؤخر تسير موازية لجدار القبلة. وقد استمر هذا النمط في المغرب والأندلس، بل وتطور في بعض النماذج، وبصفة خاصة خلال عصري المرابطين والموحدين، وحسبنا أن نشير إلى كل من: مسجد تلمسان بالجزائر ٤٧٥ ـ ٥٣٠هـ ـ ١٠٨٢ ـ ١١٣٦م (العصر المرابطي ـ يوسف بن تاشفين وابنه علي).

ثم كانت المرحلة الأخيرة لهذا المسجد على يدي يغمراسن بن زيان من سلاطين بني عبد الواد، أو بني زيان)[2]، (شكل ١٩٩).

ومسجد الجزائر ٤٦٠هـ ـ ١٣٠٩م أو ٤٧٣ ـ ٤٧٥هـ ـ ١٠٨٠ ـ ١٠٨٢م (الأمير يوسف بن تاشفين أو ابنه علي المرابطي)[3].

ومن المساجد الموحدية: كل من: مسجد تازة ٥٢٩هـ ـ ١١٣٥م، ومسجد الكتبية في مراكش ٥٤١هـ ـ ١١٤٦م، ومسجد تينمل ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م، ومسجد قصبة إشبيلية بالأندلس ٥٦٧ ـ ٥٧٧هـ ـ ١١٧٢ ـ ١١٨٢م، ومسجد

---

(١) المقري، نفح الطيب، (٢/ ١٠٠)؛
Hillenbrand, Islamic, P. Fig, 2. 125, 2. 126. , Maldonado, B.P., las excavacions de la mezquita de Medinat al_zahra, Madrid, (1966), P. 136 _ 137.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٦٤ ـ ٣٦٦، إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٢/ ١٤٦ ـ ١٥١)؛ **تاريخ العمارة**، (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(٣) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٦٨.

القصبة في مراكش ٥٩٠هـ ـ ١١٩٥م، ومسجد حسان بالرباط ٥٩٠هـ ـ ١١٩٥م، وغير ذلك[1]. (أشكال ١٩٦، ٢٠٠ ـ ٢٠١، لوحات ٩٩ ـ ١٠٠، ١١٨).

وبعض هذه المساجد يتكون تخطيطها من صحن، ومقدم، ومجنبتين، ولا يشتمل تخطيطها على المؤخر، ومنها: مسجد تازا، ومسجد تنمل، وتتميز بلاطة (رواق) المحراب العرضية (الموازية لجدار القبلة) بوجود ثلاث قباب بواقع قبة تعلو مربعة المحراب، وقبة بكل من الركنين الجانبيين للبلاطة، وهو نفس عدد القباب التي شاهدناها في الأزهر والحاكم بالقاهرة. (أشكال ٩٩ ـ ١٠١)، (لوحة ٩٨).

أما مسجد الكتبية في مراكش، فيشتمل مقدمه على ١٦ بائكة عمودية

---

(١) عن المساجد الموحدية وأهميتها التاريخية والمعمارية والفنية في العمارة الإسلامية عامة، وفي الغرب الإسلامي خاصة. انظر ـ على سبيل المثال ـ: الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٧١ ـ ٣٧٦؛ سالم، **تاريخ المغرب**، ص٧٥٢ ـ ٧٦٤، ٧٦٨ ـ ٧٧٢؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٣/ ١٨١ ـ ٢١٢، ٢٢٣ ـ ٢٢٨)؛ أعشى، مصطفى، **نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب**، ص٩ ـ ٢٩؛ الكحلاوي، محمد محمد مرسي، **مساجد المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، القاهرة (١٩٩٩م)، ص٩٩ ـ ٣٧٦؛ بالباس، **الفن المرابطي والموحدي**، ترجمة سيد غازي، الإسكندرية (١٩٧٦م)، ص١٦ ـ ٢٣؛ لومبير، إيلي، **تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال أفريقيا**، ترجمة: عطاالله جليان، بيروت (١٩٨٥م)، ص١٩٩ ـ ٢٢٥ (الأشكال ١٩٣ ـ ١٩٦)؛ إسماعيل، عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج٣، **(عصر دولة الموحدين)**، (١٩٩٣م)، أما الدراسات الأجنبية، فكثيرة، ومنها: دراسات تيراس وباسيه ومارسيه وهوج ومونيه وماسلو وكاييه وهيلنبراند.

على جدار القبلة تحصر فيما بينها ١٧ بلاطة (رواقًا)، ويتميز مقدم هذا المسجد بأنه يعلو بلاطة المحراب العرضية (الموازية لجدار القبلة) خمس قباب بنهاية البلاطات (الأروقة) العمودية التي تمتد طولاً حتى نهاية جدار القبلة، وهي البلاطات: الأولى، والخامسة، والتاسعة، (وهي البلاطة الوسطى)، والثالثة عشرة، والبلاطة السابعة عشرة والأخيرة، ولا يخفى أنه لولا وجود البائكة المستعرضة التي تقف عندها غالبية بلاطات (أروقة) مقدم المسجد باستثناء البلاطات الخمس المشار إليها، لما استطاع المعمار (عريف البناء) أن يمهد للقواعد المربعة التي أقيمت فوقها هذه القباب الخمس؛ والمؤخر بلاطة واحدة (رواق واحد) موازية لجدار القبلة، أما كل من المجنبتين، فبكل مجنبة ٤ بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة؛ ومن الملاحظ: أن عقود البائكات الأربع لبلاطات المجنبتين تمثل في ذات الوقت امتداداً للبائكات الأربع بطرفي مقدم المسجد. (شكلا ١٩٦، ٢٠٠، لوحة ٩٩).

أما مسجد القصبة في مراكش، فإنه يبدو للوهلة الأولى أنه يشبه كلاً من مسجدي تازا، وتنمل من حيث التخطيط العام، إلا أنه يتميز عنهما بوجود خمسة صحون: الصحن الرئيسي في الوسط، وأربعة صحون جانبية بواقع صحنين بكل مجنبة، كذلك يتميز هذا المسجد عن المساجد الموحدية الأخرى بأنه يلي المداخل الثلاثة المحورية التي تتوسط أضلاع المؤخر والمجنبتين ثلاثة مجازات: مجاز المؤخر منها على هيئة مربع تعلوه قبة على محور قبة مربعة المحراب، أما كل من مجازي المجنبتين، فكل منهما على هيئة رواق مستطيل تسير عقود بائكتيه موازية لجدار القبلة، ومن الملاحظ: أن مدخل المجنبة اليسرى (الشمالية الشرقية) قد سد موضعه (شكل ١٩٦).

أما مسجد حسان بالرباط، فهو ـ وإن كان ينتمي من حيث تخطيطه العام إلى طراز المساجد الموحدية ـ إلا أنه يتميز عنها بشخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابع مميز لـه خاص بـه، فهو من جهة يتكون من صحـن ومقدم ومؤخـر ومجنبتين، إلا أن المقدم يمتد ليشغل أكثر من ثلثي مساحة المسجد، ويشتمل المقـدم على ٢١ بلاطة (رواق) عموديـة على جـدار القبلة البلاطة الوسطى (البلاطة ١١)، فضلاً عن البلاطتين المتطرفتين (وهما البلاطة الأولى، والبلاطة الواحدة والعشرون) هما أكثر البلاطات (الأروقة) اتساعًا.

ومن الملاحظ: أن عقود بائكات هـذه البلاطات (الأروقـة) لا تمتـد طولاً حتى تنتهي عند جـدار القبلة؛ وإنما تقف عنـد بائكة مستعرضة تتقدم بلاطة المحراب العرضية ـ أي: الموازية لجدار القبلة، ـ وقد اشتملت هذه البلاطة العرضيـة لأول مرة في الغرب الإسلامي على بائكتين أخـريين تسير عقودهما موازية لجدار القبلة، وتحصر هذه البائكات فيما بينها ثلاث بلاطات (أروقة) موازية لجدار القبلة.

ويتميز هذا المسجـد كذلك بوجود ثلاثـة صحـون: الصحن الرئيسي يتقدم مقدم المسجد، وقد اتخذ هو الآخر محورًا عرضيًا؛ أي: موازيًا لجدار القبلة، أما الصحنان الآخران، فيشغلان طرفي مقدم المسجد من أعلاه حيث قطع وجودهمـا في ذلك الموضـع امتـداد عقود ثلاث بائكـات من بائكات البلاطات الثالثة والرابعـة (من اليمين)، والثامنـة عشرة والتاسعة عشرة (من اليسار)، والمؤخر يشتمل على ١١ بلاطة (رواق) عمودى على جدار القبلة، ومن الملاحظ: أن وجود كتلة الصومعة (المئذنة) التي تبرز عن سمات جدار الواجهة الشمالية الغربية قد أثر على شكل ثلاث بلاطات (أروقة) من بلاطات

المؤخر؛ وهي: البلاطات الخامسة والسادسة والسابعة. وتشتمل كل مجنبة من المجنبتين على خمس بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة، وعقود بائكات هـذه البلاطات تمثل امتدادًا لمثيلتها بطرفي مقدم المسجد. (شكلا ١٩٦، ٢٠١) (لوحة ١٠٠).

وبالنسبة إلى مسجد قصبة إشبيلية الموحدي، فهو يشبه مسجد حسان من حيث التخطيط العام؛ حيث إن المقدم يمتد ليشغل أكثر من ثلثي مساحة المسجد، أما من حيث التفاصيل، فإنـه يقتصر على صحن واحد، ويشتمل المقدم على ١٧ بلاطة (رواق) عموديـة على جدار القبلة، البلاطة الوسطى (البلاطة ٩) فضلاً عـن البلاطتين المتطرفتين، (وهما البلاطة رقم ١، ورقم ١٧) هما أكثر البلاطات (الأروقـة) اتساعًا، ويعلو بلاطة المحراب العرضية - الموازية لجدار القبلة - ثلاث قباب: قبة مربعة المحراب في الوسط، وقبتان بطرفي البلاطة (بواقع قبة بكل طرف)، وهو ما لا نجده بمسجد حسان بالرباط، والمؤخـر يشتمل على بلاطة (رواق) موازيـة لجدار القبلة، أما المجنبتان، فبكل مجنبة بلاطتان (رواقان) عموديتان على جدار القبلة، وتمثل بائكتاهما في ذات الوقت امتدادًا لمثيلتهما بطرفي مقـدم المسجد، وهو النمط السائد في المساجد الموحدية غالبًا.

وهناك من يرى أن كل مجنبة كانت تشمل بلاطة واحدة فحسب، وأن بلاطة المحراب العرضيـة - الموازيـة لجـدار القبلة - كـانت تعلوهـا خمس قباب[1]. (شكلا ١٩٦، ٢٠٢)، على أن أهم ما يميز عمارة هذا المسجد:

---

(١) Terrasse, H., L'art Hispano, Mouresque, Paris (1932), P. 311, Fig, 52, =

صومعته الشهيرة المعروفة بالخيرالدا[1] (دوارة الرياح أو الدوارة) والتي يصل ارتفاعها إلى حوالي ٩٦م (لوحة ١١٨).

وقد استمر هذا النمط خلال العصر المريني مع ما أصابه من تطور في بعض النماذج، وحسبنا أن نشير إلى كل من: مسجد سيدي بومدين بتلمسان في الجزائر ٧٤٠هـ ـ ١٣٣٩م (٥ × ١ × ١ × ١)، ومسجد سيدي الحلوي ٧٥٤هـ ـ ١٣٥٣م (٥ × ١ × ١ × ١)، ومسجد المنصورة بتلمسان فيما بين ٧٠٣ ـ ٧٣٧هـ ـ ١٣٠٣ ـ ١٣٣٦م[2].

وهذا المسجد الأخير ـ أي: مسجد المنصورة ـ يعد تخطيط مقدمه تطورًا لتخطيط مقدم مسجد حسان بالرباط، برغم أنه يخلو من وجود الصحنين الجانبيين بطرفي المقدم، ويتمثل ذلك التطور بصفة خاصة في تخطيط بلاطة المحراب العرضية التي تشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، تقطعها بلاطة وسطى (رواق أوسط عمودي) تمثل مقصورة السلطان، وقد غطيت بقبة؛ وهو ما لا نجده في مسجد حسان بالرباط، والمقدم ـ بصفة

= إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٣/ ٢٢٣).

(١) سالم، **بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار**، القسم الثاني، بيروت (١٩٩٢م)، ص٢٦١ ـ ٢٦٨.

(٢) عن هذه المساجد انظر: الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٨٨ ـ ٣٩٨؛ **قمم عالمية**، (٢/ ٤١٣ ـ ٤١٥)؛ ولمزيد من التفاصيل عن مسجد المنصورة انظر: الأعرج، عبد العزيز، **مدينة المنصورة المرينية بتلمسان**، دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها، القاهرة (٢٠٠٦م)، ص١٢١ ـ ١٦٩، (شكلا ٦ ـ ٧).

عامة ـ يشتمل على ١٣ بلاطة (رواق) عمودية على جدار القبلة، والمؤخر بلاطة واحدة موازية لجدار القبلة، وبكل مجنبة من المجنبتين ثلاث بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة، وتمثل عقود البائكات الثلاث بكل مجنبة امتداداً لما يماثلها بطرفي مقدم المسجد.

أما عن بقية التفاصيل والعناصر والمفردات والسمات المعمارية والفنية للمساجد التي عرضنا لنمطها التخطيطي على سبيل الإجمال وفقًا للخطة الموضوعة لهذا الكتاب، فسوف نتطرق إليها تفصيلاً في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

ـ النماذج الباقية في المشرق الإسلامي:

بقيت في المشرق الإسلامي عدة نماذج صممت وفق ذلك النمط، وكان لكل مسجد منها شخصيته المستقلة، وطابعه المميز الخاص به؛ فضلاً عن سمات الطراز الفني السائد خلال الفترة التي شيدت فيها تلك المساجد، وهو الأمر الذي يساعد في تأريخ بعض المساجد التي تخلو من نقوشها التأسيسية.

ومن بين هذه المساجد حسبنا أن نشير إلى كل من: مسجد تاريخانه[1]

---

(١) شافعي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٩٦؛ فكري، **المدخل**، ص٢٨٤؛ جوادي، سيد كمال، **مساجد إيران**، ج١، طهران (١٣٧٥هـ. ش/ ١٤١٧هـ. ق/ ١٩٩٦م)، ص٧٦ ـ ٨٤؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص١٤٩ ـ ١٥٠، قباديان، وحيد، **بررسي إقليمى أبنية سنتي إيران**، تهران (١٩٩٤م)، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦؛

Pope, A. U. , Asurvey of Persian, Art, Vol2, Oxford, (1939), P. 933 _ 934, Fig 314.

Creswell , Ashort, P. 264 _ 266.

(طارق خانه) بدمغان، الـذي يؤرخ بالفترة فيما بين ١٣٠ - ١٧٠هـ - ٧٤٨ - ٧٨٦م في قـول أو النصف الثاني من القرن ٢هـ - ٨م في قـول آخـر. (شكل ٢٤٠) (٧ × ٥ × ٦ × ٦). ومن الملاحظ: أن أروقة كل من المجنبتين تسير عقود بائكاتها موازيـة لجـدار القبلة، أمـا عقود بائكات المقدم والمؤخـر، فعمودية على جدار القبلة.

ومنها: مسجد بقريـة فهرج بإقليم كرمـان في إيران، ويشتمل المقدم على أربع بائكـات تحصر فيمـا بينها خمسة أروقـة (بلاطات) عموديـة على جدار القبلة، وهي مغطاة بأقبية برميلية، وبكل مجنبة رواق (بلاطة) واحد، تمثل عقود بائكتـه امتـداداً لما يماثلها بطرفي مقـدم المسجد، ويؤرخ هـذا المسجـد؛ اعتماداً على تخطيطه وخصائصه المعماريـة بالنصف الثاني مـن القرن ٣هـ - ٩م[١].

ومنها: الجامع الكبير (أولو جامع) في سيواس[٢] ٥٩٣هـ - ١١٩٧م، وهو يتكـون من صحـن ومقدم فحسب، والمقـدم يشتمل على ١٠ بائكات تحصر فيما بينها ١١ رواقًا (بلاطة) عموديًا على جدار القبلة، ومما يتميز به هـذا المسجـد: هو أنـه يتقدم مقدمـه رواق خارجي (أو سقيفـة) يطل على الصحن، ويوجد بصدر هذا الرواق محرابان صغيران (شكل ٢٤١).

ومن النماذج المتميزة لهذا النمط في المشرق: مسجد وزيري خان[٣]

---

(١) Creswell, Ashort, P. 410 - 413.

(٢) آصلان آبا، **فنون الترك وعمائرهم**، ص٧٠ - ٧١ تخطيط ٨.

(٣) رجب، أحمد، **تاريخ وعمارة المساجد الأثرية بالهند**، القاهرة (١٩٩٧م)، =

بلاهور في باكستان ١٠٥٣هـ ـ ١٦٤٣م، وتخطيطه عبارة عن صحن كبير مستطيل الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب، ومقدم يشغل الضلع الغربي للصحن، وهو عبارة عن رواق واحد (بلاطة واحدة) قسم إلى خمسة مربعات، بصدر كل مربع منها محراب، ويغطي هذا الرواق خمس قباب، أكبرها القبة الوسطى التي تعلو المربع الذي يتقدم المحراب الرئيسي، ويتميز هذا المسجد باشتماله على أربع مآذن في الأركان الأربعة، بواقع مئذنة بكل ركن، كما أنه يشغل المؤخر والمجنبتين حجرات أو خلوات للتدريس، وهذه من السمات المميزة للمساجد في شبه القارة الهندية، كذلك يوجد على جانبي كتلة المدخل الرئيسي بالجانب الشرقي للمسجد سوق مسقوف تتوزع الحوانيت (الدكاكين) على جانبيه من الداخل والخارج. (شكل ٢٣٤).

وإذا ما انتقلنا إلى الأقطار العربية، وجدنا بضعة نماذج صممت وفق ذلك النمط الثاني، ومنها في العراق: مسجد سامرا[١] الجامع ٢٣٤ ـ ٢٣٧هـ ـ

= ص١٧٥ ـ ١٧٧؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٥٧١ ـ ٥٧٢.

Khan, A, N., Monuments of islamic civilization in Islamic Republic of Pakistan, Isesco (2000), P. 67, Fig 21.

(١) كريزول، **الآثار الإسلامية الأولى**، ص٣٦١ ـ ٣٦٨؛ سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص١٠٥ ـ ١٠٩؛ العميد، طاهر مظفر، **العمارة العباسية في سامرا في عهدي المعتصم والمتوكل**، بغداد (١٩٧٦م)، ص١٢٩ ـ ١٦٤؛ سلمان، عيسى، وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، ج١، بغداد (١٩٨٢م)، ص١١٠ ـ ١٢٥؛ رجب، غازي، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق**، بغداد (١٩٨٩م)، ص١٤١ ـ ١٥٥؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص١٠٠ ـ ١٠٣.

٨٤٩ ـ ٨٥٢م، وتخطيطه عبارة عن مقدم ومؤخر ومجنبتين، والمقدم يشتمل على ٢٥ رواقًا (بلاطة) عموديًا على جـدار القبلة، أوسطها أوسعها وأكثرها ارتفاعًا، والمؤخـر يماثل المقدم في عدد أروقتـه ونظامها، أما المجنبتان، فبكل مجنبة ٢٣ رواقا (بلاطة) موازيًا لجدار القبلة (لوحة ٤). ومن مميزات هذا المسجد: أنـه كانت تحيط بـه زيادة من ثلاث جهات، عـدا جهة القبلة مثل الجامع الطولوني بالقاهرة ـ فيما بعد ـ. إلا أن أهم ما يميز هذا المسجد هو: مئذنتـه الشهيرة المعروفـة بالملويـة، وسوف نتحـدث عنها فيما بعد. (شكلا ٢١ ـ ٢٢)، (لوحتا ٤ ـ ٥).

ومنهـا بسامـرا أيضًا: مسجـد أبي دلف[(١)] الجامـع ٢٤٧هـ ـ ٨٦١م، والمقـدم يشتمل على ١٧ رواقًا (بلاطة) عموديًا على جدار القبلة، أوسطها أوسعها، إلا أن عقود هذه البائكات لا تمتد طولاً حتى تنتهي بجدار القبلة، وإنما تقف عنـد بائكة عرضية (أي: موازية لجدار القبلة)، وهو الأمر الذي أدى إلى وجـود رواق عرضي (بلاطة عرضية) عمقه ١٠,٦٠م يتقدم جـدار القبلة، ويشغل هذا الرواق ١٨ قاعدة دعامة، اثنتان منها ملتصقتان بجداري المسجد الجانبيين، والمؤخر يشتمل على ١٣ رواقًا (بلاطة) عموديًا على جدار القبلة، أوسطها أوسعها، أما المجنبتان، فبكل مجنبة رواقان (بلاطتان) عموديان على جـدار القبلة، وتمثل عقود بائكتيهمـا امتدادًا لما يماثلهما بطرفي مقدم

---

(١) كريزول، **الآثار**، ص٣٦٩ ـ ٣٧٤؛ العميد، **العمارة العباسية**، ص١٧٩ ـ ٢١٢؛ سلمان، **العمارات العربية**، (١/ ١٢٦ ـ ١٤٣)؛ رجب، **العمارة العربية**، ص١٥٨ ـ ١٦٦؛ الريحـاوي، **العمـارة في الحضارة**، ص١٠٤ ـ ١٠٦؛ فكري، **المدخل**، ص٢٤٠، (شكل ٩٨).

المسجد (أي على نفس النمط الذي ساد وانتشر في المساجد المغربية والأندلسية التي سبقت الإشارة إليها. (شكلا ٢٣ ـ ٢٤).

وفي اليمن تقابلنا بضعة نماذج، ومنها: مسجد سليمان بن داود في مأرب، ومسجد ظفار ذى بين، ومسجد ذي أشرق ٤١٠هـ ـ ١٠١٩م[1].

٣ ـ النمط الثالث:

ويتميز هذا النمط بأنه يغلب عليه طراز الأروقة (البلاطات) المتقاطعة؛ أي: التي تتجه عقود بائكاتها عمودية على جدار القبلة، وموازية له في ذات الوقت، ولا سيما في المساجد التي تغطى بالقباب أو الأقبية، أو الاثنين معًا، سواء في مقدم المسجد فحسب، أو في مقدمه ومؤخره ومجنبتيه، أو في مقدمه ومجنبتيه.

وتعد النماذج الباقية التي صممت وفق هذا النمط من الطراز التقليدي العربي قليلة في العمارة الإسلامية بصفة عامة؛ ومن جهة أخرى: فإن أكثر ما بقي منها يوجد في شبه القارة الهندية.

وحسبنا أن نشير إلى عدد من هذه النماذج، ومنها: مسجد سوسه[2]

---

(١) فنستر، **حول بعض المبانى الإسلامية في اليمن**، ص٤٥ ـ ٥٢، ٧٩ ـ ٨٦؛ شيحة، **مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية**، ص٦٤ ـ ٧٠؛ هاشم، أحمد محمد، **من معالم الحضارة الإسلامية في الجمهورية اليمنية**، إيسيسكو (١٩٩٩م)، ص٤٢ ـ ٤٣، ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٢) كريزول، **الآثار الإسلامية**، ص٣٥٤ ـ ٣٦٠؛ سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص١٥١ ـ ١٥٣؛ شافعي، **العمارة العربية**، ص٢٤٥، (شكل ١٦٨)؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١٤٣ ـ ١٤٥.

الجامع ٢٣٦هـ ـ ٨٥١م، وهو يجمع في تسقيفه بين الأقبية البرميلية (بالنسبة للمسجد الأصلي)، والأقبية المتقاطعة (بالنسبة للزيادة)، فضلاً عن قبة مربعة المحراب الأصلي، وقبة مربعة محراب الزيادة. (لوحة ٩٣).

ومنها في مصر: مسجد الأقمر[١] بالقاهرة ٥١٩هـ ـ ١١٢٥م (لوحة ٣٩)، وتسقيفه يعتمد على القباب الضحلة المقامة على مثلثات كروية، ويستثنى من ذلك سقف الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلي جدار القبلة بمقدم المسجد، فهو سقف خشبي مسطح.

ومنها أيضًا: الأروقة المتقاطعة بخانقاه الناصر[٢] فرج بن برقوق بالقاهرة ٨٠١ ـ ٨١٣هـ ـ ١٣٩٨ ـ ١٤١٠م (شكلا ١٤٨ ـ ١٤٩).

ومنها: مسجد الأمير آق سنقر[٣] المعروف بالجامع الأزرق (بشارع باب الوزير) بالقاهرة ٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ ـ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧م؛ وبصفة خاصة مقدم

---

(١) عبد الرازق، **العمارة الإسلامية**، ص١٨٣ ـ ١٩٢؛ العمري، **العمارة في مصر**، ص٨٦ ـ ٩٣؛ فكري، **مساجد القاهرة**، (١/ ٩٥ ـ ١٠٢)؛ كريزول، **العمارة الإسلامية في مصر**، المجلد الأول، ص٢٥٣ ـ ٢٥٧؛

Williams, C., The Cult of Alid Saints in the Momuments of Cairo, Part I: The Mosque of al_Aqmer, Muqarnas, vol 1, New Haven and London, (1983), PP. 37 _ 52.

(٢) نويصر، **العمارة الإسلامية في مصر**، ص٣١٦ ـ ٣٢٥؛ الحداد، **أسس التصميم المعماري**، ص١٧٣ ـ ١٨٠.

(٣) إمام، سامي عبد الحليم، **مسجد الأمير آق سنقر الناصري**، مجلة كلية الآداب ـ جامعة المنصورة، العدد (٣ ـ ٤)، (مايو ١٩٨٢م)، ص٢٨٩ ـ ٢٩٧.

المسجد، ويعتمد تسقيفه على الأقبية المتقاطعة، ويستثنى من ذلك مربعة المحراب التي تغطيها قبة. (شكل ٩٦).

وفي بلاد الشام يقابلنا الجامع المنصوري[1] الكبير بطرابلس الشام ٦٩٣هـ ـ ١٢٩٣م و٧١٥هـ ـ ١٣١٥م، ويعتمد التسقيف هنا على الأقبية المتقاطعة. ويستثنى من ذلك: القبة التي تعلو مربعة المحراب (شكل ٥٥، لوحة ١٩).

وإذا ما انتقلنا إلى المشرق الإسلامي، يقابلنا مسجد نايين[2] بإيران، وقد أرخه فلوري بأواخر ق٣هـ ـ ٩م، أو أوائل ق٤هـ ـ ١٠م، بينما أرخه بوب بمنتصف ق٤هـ ـ ١٠م. (شكل ٢٣١).

وفي شبه القارة الهندية تقابلنا عدة نماذج، ومنها: مسجد قوة الإسلام[3]

---

(١) سالم، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية (١٩٦٦م)، ص٤٠٠ ـ ٤٠٧؛ تدمري، عمر عبد السلام، **آثار طرابلس الإسلامية**، طرابلس (١٩٩٤م)، ص١٩ ـ ٧٢.

Liebich, H, S., The Architecture of the Mamluk city of Tripoli, Harvard, University (1983) PP.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١٥٠؛ جوادي، **مساجد إيران**، (١/ ٨٦ ـ ٩٤)؛ قباديان، بررسي، ص٢٥٠، (شكل ٣٤/ ٩).

.Pope, Asurvey, vol ٣, PP. ٩٣٤ - ٩٣٩ , Fig ٣١٥

(٣) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٦٤ ـ ٥٦٦؛ رجب، **تاريخ وعمارة المساجد الأثرية في الهند**، ص٣٢ ـ ٤٢؛

Havel, E.B., Indian Architecture, London (1927), PP.47_52.

المعروف بمسجد قطب منار بدلهي ٥٨٩ ـ ٥٩٤هـ ـ ١١٩٣ ـ ١١٩٧م، ومسجد بيجمبوري قرب دلهي ٧٤٦هـ ـ ١٣٤٥م، ومسجد خيركي شمال دلهي ٧٥٣هـ ـ ١٣٥٢م، ويتميز هذا المسجد باشتماله على أربعة صحون، ومثله في ذلك مسجد كالان بحي نظام الدين شمال دلهي ٧٦٢هـ ـ ١٣٦٠م.

ومنها: مسجد كالان بمدينة شاه چهان آباد ٧٨٩هـ ـ ١٣٨٧م[١].

ومنها: مسجد شامبانير الجامع ٩٠٦هـ ـ ١٥٠٠م ولا سيما مقدم المسجد (شكلا ٢٣٢ ـ ٢٣٣)، ومسجد موتى (أو مسجد اللؤلؤة) في أجرا ١٠٥٦ ـ ١٠٦٦هـ ـ ١٦٤٨ ـ ١٦٥٥م ولا سيما مقدم المسجد[٢].

ومنها: المسجد الجامع في بيجابور[٣]، ويؤرَّخ بمنتصف القرن ١١هـ ـ ١٧م، وهو من النماذج المتميزة التي تتسم بشخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابع مميز خاص به، وبصفة خاصة: مقدم المسجد، والقبة الكبرى التي تتوسطه، فضلا عن قباب المجنبتين؛ إذ أن هذا المسجد لا يشتمل على مؤخر. (شكل ٢٣٧).

ومن النماذج المتميزة لهذا النمط: مسجد Adina الذي أمر بإنشائه

---

(١) رجب، **تاريخ وعمارة**، ص٥٤ ـ ٦١، ٦٤؛ الحليبة، سعد بن زيد بن محمد، **مساجد مدينة دهلي (دلهي) في الهند**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب ـ قسم الآثار والمتاحف ـ جامعة الملك سعود بالرياض (١٩٩٦م)، ص٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) رجب، **تاريخ وعمارة**، ص٩٤ ـ ٩٦، ١٩٩ ـ ٢٠٨؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٧٩ ـ ٥٨٠؛

.Havel, Indian, P. 135 - 142

(٣) .Havel, Indian, PP. 190 - 193

إسكندر شاه عام ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م في عاصمة البنغال القديمة (فيروز آباد) بجانب الطريق الرئيسي المؤدي إلى شمال البنغال، وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف، ومقدم ومؤخر ومجنبتان، واللافت للنظر: أنه يقطع أروقة المقدم رواق أوسط (بلاطة وسطى) عمودي على جدار القبلة هو المعروف خطأ بالمجاز القاطع، ويعتمد التسقيف هنا على الأقبية البرميلية، وليس القباب، وهي النمط الشائع والسائد للتسقيف في شبه القارة الهندية[1]. (شكل ٢٣٨).

٤ ـ النمط الرابع:

لم يخرج هذا النمط في تخطيطه العام عن الطراز العربي التقليدي في صورته النهائية، وجوهرها يتمثل في الصحن الأوسط المكشوف، والمقدم والمؤخر والمجنبتين، إلا أنه صمم بطريقة جديدة غير مألوفة؛ وبصفة خاصة في تصميم مقدم المسجد؛ إذ لم يسبق أن شاهدناها في الأنماط الثلاثة السابقة، وقد أضفى هذا التصميم الجديد على مساجد ذلك النمط شخصية جديدة قائمة بذاتها، وطابعًا مميزًا خاصًا بها.

هذا، وقد اقتصر ظهور هذا النمط ـ بملامحه المميزة، وسماته الخاصة ـ على مساجد شبه القارة الهندية، ومنها: مسجد فتح يورسكري ٩٧٩هـ ـ ١٥٧١م، ومسجد دلهي الجامع ١٠٤٥هـ ـ ١٦٤١م، ومسجد فتحبوري بيجم (بمدينة شاه جهان آباد شمال دلهي) ١٠٥٤هـ ـ ١٦٥٠م، ومسجد باديشاهي في لاهور (باكستان) ١٠٨٤هـ ـ ١٦٧٤م[2].

---

(١) Michel, G. , The Islamic Heritage of Bengal , Unesco (1994), PP.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٥٦٨ ـ ٥٧٥، ٥٧٩؛ رجب، =

وأول ما يلاحظ في تصميم هذه المساجد: أنها اتخذت شكلاً مستطيلاً يمتـد من الشرق إلى الغـرب، وأن مساحـة الصحن كبيرة جدًا، وهـو نفس التصميم الذي يميز غالبية المساجد الهندية بصفة عامة.

أما الملمح الجديد هنا، فيتمثل في أن مقدم المسجد لا يشغل الضلع الغربي (جهة القبلة) بكامله من جهة، وفي تصميمـه من جهة ثانيـة، أما عن هـذا التصميم، فهو عبارة عـن قلب وجناحين، ويتكـون القلب من الإيوان والكنبدخانة بصدرها المحراب الرئيسي للمسجد، أما الجناحان فكل جناح منهما يشتمل على أروقـة يتوسطها تجاه المحـراب مربعـة مغطاة بقبة أصغر من قبة الكنبدخانة، وعلى ذلك فإن هذا التصميم الجديد إنما كان نتيجة لتأثره بالمساجد الإيرانيـة التي صممت وفق الطراز المعروف بالطراز الجامـع بين الإيوانات والأروقـة، والذي ظهر لأول مرة في العمارة الإسلاميـة في إيران خلال العصر السلجوقي؛ كما سنشير فيما بعد.

أما المؤخر والمجنبتان، فبكـل منها رواق (بلاطة) واحد موازٍ لجدار القبلة في المؤخر، وعمودي في المجنبتين، وتوجد خلف الأروقة (البلاطات) الثلاثة حجرات للتدريس، أو للصوفية، وهو الطابع المميز لغالبية المساجد الهنديـة ـ أيضًا ـ. ومـن السمـات التـي يتميز بهـا هـذا المسجـد ـ أيضًا ـ: المداخل التذكارية الثلاثة، ومن أهمها وأشهرها: المدخل الجنوبي المعروف بـ «بولاند دروازه». (شكل ٢٣٦)، (لوحة ١٦٣).

واتبع مسجد دلهي الجامع نفس النمط في تصميم مقدمه، ولكن جناحَي

= تاريخ وعمارة، ص١٢٦ ـ ١٣٤، ١٥٨ ـ ١٧٤؛

.Havel, Indian, PP. 170_173

المقدم هنا قد صُمما بطريقة مغايرة عن جناحي مسجد فتح بورسكري، ويشغل ركني الجناحين المطلين على الصحن مئذنتان عاليتان، بواقع مئذنة بكل ركن.

وهنا ـ أيضًا ـ نشاهد المداخل التذكارية الثلاثة البارزة، والأروقة (البلاطات) الثلاثة بالمؤخر والمجنبتين، وخلفها حجرات للتدريس.

أما باديشاهي مسجد في لاهور، فمن الواضح أن مقدمه متأثر بطريقة مباشرة بمسجد دلهي الجامع، إلا أن أركانه الأربعة قد زودت بالشادروانات المميزة لعمارة المساجد الهندية بصفة عامة، والمؤخر يشتمل على عدد من الحجرات للتدريس، وبكل من المجنبتين رواق مسقوف مقسم بطريقة غير مألوفة في المساجد بصفة عامة، وزود هذا المسجد بأربعة مآذن عالية في أركانه الأربعة، ولا يوجد به سوى مدخل تذكاري بارز واحد يتوسط الضلع الشرقي على محور المحراب بالضلع الغربي. (لوحة ١٦٤).

أما مسجد فتحبوري بيجم، فقد صمم مقدمه بطريقة مغايرة لما شاهدناه في المساجد الثلاثة السابقة، فالقلب هنا يقتصر فقط على الكنبدخانة (المربعة المغطاة بقبة، وبصدرها المحراب الرئيسي) دون وجود الإيوان المطل على الصحن، كذلك جناحا القلب، فكل جناح منهما يشتمل على ثلاث بائكات موازية لجدار القبلة، تحصر فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات)، وبصدر كل جناح ثلاثة محاريب، ويوجد بكل من ركني الجناحين المطلين على الصحن مئذنتان عاليتان، بواقع مئذنة بكل ركن، كذلك يلاحظ: أن بائكتي الجناحين الأولى والثانية، مما يلي جدار القبلة، تمتدان إلى الخارج (أي: عن يمين ويسار الجناحين) لتتصلا برواقي مجنبتي الصحن العموديين على جدار

القبلة، والمؤخر يشتمل كذلك على رواق واحد (بلاطة) موازٍ لجدار القبلة، إلا أنه لا يوجد خلف الأروقة الثلاثة في هذا المسجد حجرات للتدريس؛ كما هو الحال في المساجد السابقة.

*** الطراز الثاني:**

ويعرف بالطراز السني، أو الطراز الإيواني، أما عن تسميته بالطراز السُّني، فترجع إلى أن هذا الطراز قد ارتبط عند نشأته بالمدارس التي أنشئت لتدريس ودعم المذاهب السنية الأربعة في مقابل هدم وتقويض دعائم المذهب الشيعي - على حد قول فريد شافعي -[1].

ولكن أثبتت الدراسات التالية: أن هذا الطراز قد استخدم في تصميم المساجد قبل ظهوره وانتشاره في المدارس؛ كما هو الحال في مسجد نيريز[2] في فارس ٣٦٣هـ - ٩٧٣م، هذا من جهة، ومن جهة ثانية: فإن هذا الطراز كان معروفًا في عمارة الدور والقصور الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة؛ كما سنشير فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الطراز قد استخدم في تصميم العديد من العمائر الدينية في العمارة الإسلامية، ومنها: المساجد والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة، فضلاً عن بعض العمائر المدنية والحربية.

---

(١) شافعي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٨١ - ٨٢؛ **العمارة العربية في مصر**، ص٢٤٨.

(٢) Pope, Asurvey, vol 2, P. 939. Godard, A., L'art de L'iran, Paris (1962), PP. 344 - 345.

وجوهر التخطيط العام في عمائر هذا الطراز: هو أنه يتكون من صحن أوسط مكشوف، تحيط بـه الإيوانـات، سواء إيوان واحـد فقط، أو إيوانان فقـط، أو ثلاثـة إيوانـات فقـط، أو أربعـة إيوانـات، وهي الصورة النهائيـة لتخـطيط عمائـر هذا الطراز، وقـد اصطلح على تسميتهـا بالطراز الصليبـي (The Cruciform Plan)، ونفضل نحـن استبدال هذا المصطلح المغرض بمصطلح: طراز الإيوانات المتقابلة.

كذلك ينبغي أن نشير إلى أن الصحـن في هـذا النمط قد يكون كبيرًا، أو صغيرًا، وقـد يكون مكشوفًا، أو مغطى، أو يكون مجـرد ممر، أو مجاز أرضي، أو استطراق، ولا سيمـا في النمـاذج المتأخرة، وبصفـة خاصة في المساجد المصرية خلال العصرين المملوكي والعثماني.

وحسبنا أن نشير هنا إلى النماذج الباقية من المساجد التي صممت وفق هـذا الطراز، أما نماذج العمائـر الدينيـة الأخرى، فسوف نشير إليهـا ونحن نتحدث عن كل نوع منها.

ويعد مسجد نيريز قرب مدينة سروستان في إقليم فارس ٣٦٣هـ - ٩٧٣م هو أقـدم النماذج الباقيـة المعروفة في العمارة الإسلاميـة حتى الآن لمسجد صمم وفق الطراز الإيواني، وهو عبارة عن صحن، وإيوان واحد، (وقد جرت عليه إضافات لاحقة ليس هنا مجال للحديث عنها).

ولحسن الحظ تحتفظ العمارة المصرية الإسلامية بالنصيب الأوفى من العمائر الدينية التي صممت وفـق هذا الطراز بصفة عامـة، والمساجد بصفة خاصة.

ونستطيع أن نحصر تخطيطات المساجد التي صممت وفق هذا الطراز في مصر في الأنماط التالية:

١ ـ النمط الأول:

وهو عبارة عن صحن أو درقاعة، يشغل الضلع القبلي له إيوان رئيسي واحد هو إيوان القبلة؛ كما هو الحال في مسجد فرج بن برقوق المعروف بزاوية الدهيشة (تجاه باب زويلة، أو بوابة المتولي بشارع تحت الربع، أو أحمد ماهر حاليًا) ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م، ومسجد داود باشا (بسويقة اللالا) ٩٥٥ ـ ٩٦١هـ ـ ١٥٤٨ ـ ١٥٥٤م، ومسجد البرديني (بالداودية) ١٠٢٥هـ ـ ١٦١٦م، وغير ذلك.

٢ ـ النمط الثاني:

وهو عبارة عن صحن أو درقاعة وإيوانين رئيسيين هما: إيوان القبلة (الجنوبي الشرقي)، والمقابل له (الشمالي الغربي، أو الإيوان البحري)؛ كما هو الحال في مسجد السنبغا البوبكري (بحارة درب سعادة) ٧٧٢هـ ـ ١٣٧٠م، ومسجد المحمودية (بميدان صلاح الدين بحي القلعة) ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م، ومسجد عبد اللطيف القرافي (بالخرنفش) ٩٩٥هـ ـ ١٥٨٦م، ومسجد تغري بردي (بالمقاصيص) ١٠٤٤هـ ـ ١٦٣٤م، بالقاهرة، وغير ذلك.

٣ ـ النمط الثالث:

وهو عبارة عن صحن وثلاثة إيوانات، ونشاهد ذلك في أنموذج فريد في تخطيط المساجد المصرية بالقاهرة، وهو مسجد الدشطوطي (بباب الشعرية) ٩٢٤هـ ـ ١٥١٨م، وهو في ذلك يذكرنا بتخطيط مدرسة تتر الحجازية

(بالجمالية) ٧٦١هـ - ١٣٥٩م، وهي نموذج فريد بالنسبة للمدارس؛ كما سنشير فيما بعد.

٤ - النموذج الرابع:

وهو عبارة عن صحن أو درقاعة، يحيط به أربعة إيوانات؛ كما هو الحال في مسجد آل ملك الجواكندار ٧١٩هـ - ١٣١٩م، ومسجد أحمد المهمندار ٧٢٥هـ - ١٣٢٤م، ومسجد أصلم السلحدار ٧٤٦هـ - ١٣٤٥م، والمسجد بقلعة قايتباي بالإسكندرية ٨٨٢ - ٨٨٤هـ - ١٤٧٧ - ١٤٧٩م، وغير ذلك. أو يحيط بالصحن إيوانان رئيسيان كبيران (الإيوان القبلي، والإيوان البحري)، وسدلتان (إيوانان صغيران) جانبيان؛ كما هو الحال في مسجد جاني بك الأشرفي ٨٣٠هـ - ١٤٢٦م، ومسجد القاضي يحيى زين الدين (بالموسكي) ٨٤٨هـ - ١٤٤٤م، ومسجد قراقجا الحسني (بدرب الجماميز) ٨٤٥هـ - ١٤٤١م، ومسجد قجماس الإسحاقي (أبو حريبة) بالدرب الأحمر ٨٨٥ - ٨٨٦هـ - ١٤٨٠ - ١٤٨١م بالقاهرة.

ومن العصر العثماني: جامع محب الدين أبو الطيب (بالخرنفش) ٩٣٤ - ٩٣٦هـ - ١٥٢٧ - ١٥٢٩م، وجامع يوسف الحين (بباب الخلق قرب متحف الفن الإسلامي ومديرية أمن القاهرة) ١٠٣٥هـ - ١٦٢٥م[1].

وبرغم أن المساجد السابقة تكاد تتفق مع بعضها في التخطيط العام،

---

(١) الحداد، **بحوث ودراسات**، (الكتاب الأول)، ص٢١٤ - ٢١٨، ٢٨٢ - ٢٨٦، موسوعة العمارة الإسلامية في مصر (الكتاب الأول) المدخل، القاهرة (١٩٩٨م)، ص٨٧ - ٩٢.

إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث بعض المفردات والعناصر والتفاصيل، فلكل مسجد منها شخصيته المستقلة، وطابعه المميز، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن غالبية المساجد السابقة لم تكن مجرد مساجد، أو مساجد جامعة فحسب، وإنما تعددت بها الوظائف على النحو الذي تميزت به عمائر القاهرة الدينية خلال العصر المملوكي.

*** الطراز الثالث:**

وهو الطراز الذي يجمع بين الإيوانات والأروقة، ومن الملاحظ: أن هذا الطراز قد اقتصر ظهوره وانتشاره على العمارة الإسلامية في المشرق[1] (إيران وآسيا الوسطى والهند)، كما أسهم هذا الطراز في ظهور نمط جديد من أنماط الطراز العربي التقليدي وهو النمط الرابع الذي اقتصر على شبه القارة الهندية ـ كما سبق القول ـ.

ويتمثل جوهر التخطيط العام لهذا الطراز في أنه عبارة عن صحن أوسط مكشوف، يتوسط أضلاعه أربعة إيوانات (بواقع إيوان بكل ضلع)، وقد شغلت المساحات المحصورة بين هذه الإيوانات بعدد من الأروقة (البلاطات) يختلف من مسجد لآخر، وتنتمي غالبية هذه الأروقة (البلاطات) إلى النمط المعروف بالأروقة المتقاطعة (أي: التي تسير عقود بائكاتها موازية لجدار القبلة، وعمودية عليه في ذات الوقت)، أما بقية الأروقة، فتنتمي إلى الأنماط التقليدية المعروفة، وهي إما أن تكون موازية لجدار القبلة فحسب، أو عمودية على ذلك الجدار فحسب.

---

(١) شافعي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٨٢.

ولا يقف الأمر عنـد ذلك فحسب، وإنما أضاف المعمار خلف إيوان القبلة كنبدخانة (قاعة القبة التي كانت بمثابـة مقصورة للسلطان)، وبصدرها المحراب الرئيسي للمسجد.

وكانت بدايـة ظهور هـذا الطراز خلال العصر السلجـوقي، ثم استمر خلال العصر الإيلخـاني والتيموري فالصفوي والقاجـاري في إيران، وآسيا الوسطى، والمغولي الهندي في شبه القارة الهندية.

وحسبنا أن نشير إلى أهم وأشهر المساجد التي تنتمي إلى هذا الطراز، ويأتي على رأسها: المسجد الكبير فـي أصفهان ٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ ـ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م (لوحتا ٤٥٩ ـ ٤٦٠)، ومسجد گـلبايـگان ٤٩٩ ـ ٥٠٢هـ ـ ١١٠٥ ـ ١١٠٨م، ومسجد زواره ٥٣٠هـ ـ ١١٣٥م، ومسجد أردستان ٥٥٣ ـ ٥٥٥هـ ـ ١١٥٨ ـ ١١٦٠م، ومسجـد ملك في كرمان، وغير ذلك[1] (أشكال ٣٠٩ ـ ٣١١).

وإذا كانت المساجد السابقة يجمع تخطيطها في جهة القبلة بين الإيوان والكنبدخانة، فإن هناك من مساجد هـذا الطراز ما يقتصر على الإيوان جهة القبلة دون الكنبدخانة؛ كما هو الحال في مسجد كرمان.

ومـن العصر الإيلخـاني. . . . .

---

(١) الريحـاوي، **العمارة فـي الحضارة**، ص١٦٦ ـ ١٧١؛ شافعي، **العمـارة العربية الإسـلاميـة**، ص٨٢ ـ ٨٣؛ جـوادي، **مساجـد إيـران**، (١/ ١١٢ ـ ٢١٩، ٣٤٣ ـ ٣٤٦، ٢٧١ ـ ٢٧٣)؛ آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٣٢ ـ ٣٦؛

Pope, Asurvey , vol 2, PP. 949_963, 1004_1024 , Godard, L'art de L'iran, PP. 350_355., Hillenbrand, Islamic, P. 102_106.

حسبنا أن نشير إلى مسجد: فرامين ٧٢٦هـ ـ ١٣٢٥م[١].

ومن العصر التيموري: كلٌّ من مسجد بيبي خانم بسمرقند (بجمهورية أوزبكستان الإسلامية) ٨٠١ ـ ٨٠٨هـ ـ ١٣٩٨ ـ ١٤٠٥م، ومسجد جوهر شاد ضمن مجمعها بمشهد ٨٢٣هـ ـ ١٤٢٠م (لوحة ١٣٣)، ومسجد كالان ببخارى ٨٣٤ ـ ٩٢٠هـ ـ ١٤٣٠ ـ ١٥١٤م (أشكال ٣١٢ ـ ٣١٥)، والمسجد الجامع بهرات ٩٠٣ ـ ٩٠٥هـ ـ ١٤٩٧ ـ ١٤٩٩م[٢].

وقد بلغ هذا الطراز غايته معماريًا وفنيًا في مساجد العصر الصفوي[٣]،

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٢٦ ـ ٥٢٧؛
Wilber, D., The Architecture of Islamic Iran, The Il_Khanid Period, Princeton, (1955), PP.

(٢) Hillenbrand, Islamic, PP. 107_112, Golombek, L., and Wilber, D., The Timurid Architecture of Iran and Turan, vol. I, Princeton, (1988), PP228 - 230,255 - 260,315 - 318,328 - 331. Paugachenkova, G.A., The Architectural of central Asia at the Time of the Timurids, Afghanistan (1970), pp.

(٣) عن أهمية المساجد الصفوية المعمارية والفنية انظر ـ على سبيل المثال ـ:
Pope, Asurvey, vol 2, PP. 1185_1191., Hillenbrand., Islamic, PP. 112 - 114.

هنرفر، لطف الله، **كنجينه آثار تاريخي أصفهان**، چاب دوم، أصفهان، (مهرماه ١٣٥٠ ش/ ١٩٧٤م) فصل هفتم، ص٤٠١ ـ ٤١٥، ٤٢٧ ـ ٤٦٤، ٤٦٧ ـ ٤٧٠، ٤٧٥ ـ ٤٧٨، ٥٠١ ـ ٥٠٥، ٥٤٧ ـ ٥٥٢، ٥٨٥ ـ ٥٨٧، ٦١٢ ـ ٦٢٠؛ مهر آبادي، أبو القاسم رفيعي، **آثار ملي أصفهان**، (تهران ١٣٥٢ ش/ ١٩٧٦م)، ص٥١٠ ـ ٥١٤، ٦٠٤ ـ ٦١٠، ٦٣٣ ـ ٧١٠؛ كنجنامه، فرهنگ آثار معماري إسلامي إيران، =

ومـن بينهـا: مسجـد الشاه (الإمـام) بأصفهـان ١٠٢٠ ـ ١٠٣٨هـ ـ ١٦١١ ـ ١٦٢٨م، ومن بين ملامح التطوير والتجديـد في تخطيط هذا المسجد: أنـه يوجد خلف كل إيوان من الإيوانين الجانبيين في الصحن كنبد خانة مثل إيوان القبلة، وغير ذلك من الخصائص والسمات التي سنشير إليها في كتابنا الموسوم بـ: «العمارة في المشرق الإسلامي، المجلد الثاني بمشيئة الله تعالى. (شكل ٣١٦)، (لوحات ١٤٠ ـ ١٤٧).

ومـن العصـر القاجـاري حسبنا أن نشيـر إلـى مسجـد إمـام بتهران[1] ١٢٢٥هـ ـ ١٨١٠م (شكلا ٣١٧ ـ ٣١٨).

ومن العصر المغولي الهندي حسبنا أن نشير إلى مسجـد شاه چـهان في تهتا (باكستان) ١٠٥٤هـ ـ ١٦٤٤م[2]. (شكل ٣١٩).

= دفتر دوم، مساجد أصفهان، (صيف ١٩٩٦م)، (١٧٣ صفحة)؛ قباديان، وحيد، بررسي إقليمي أبنية سنتي إيران، تهران (١٩٩٤م)، ص١١٦؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٥٤٥ ـ ٥٤٨؛ الجميعي، غادة عبد المنعم، **مساجد أصفهان في العصر الصفوي عهد الشاه عباس الأول، والشاه عباس الثاني**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار ـ جامعـة القاهرة (٢٠٠٣م)، (٥٦١ صفحة، فضلاً عن الأشكال واللوحات).

(١) گـنجنامة، دفتر سـوم، بناهاي مذهبي تهران، تهـران (١٩٩٨م)، ص١٢ ـ ٢٠؛ بلاغي نائيني، سيد عبد الحجة، مساجد **تهران**، قم (١٣٥٠هـ. ش/ ١٣٩٤هـ. ق)، ص٩٠؛ (١٩٧٤م)؛ مصطفوي، محمد تقي، **آثار تاريخي طهران**، تهران (١٣٦١هـ. ش/ ١٤٠٥هـ. ق/ ١٩٨٤م)، ص٧٩.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٧٥ ـ ٥٧٩.

* **الطراز الرابع:**

ويعرف بالطراز العربي غير التقليـدي، أو طراز الأروقـة دون الصحن الأوسـط. ويتمثل جوهـر التخطيط في هـذا الطراز في خلوه مـن الصحـن الأوسط؛ ومن ثم أصبح يتكون من مساحة مستطيلة أو مربعة تقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات يختلف من مسجـد لآخر، وتتكون هذه البائكات مـن صفوف من الأعمـدة (حجريـة أو رخاميـة، وأحياناً مـن الجـرانيت أو الخشب)، أو الدعامات تعلوها عقود غالبًا، إما أن تتجه موازية لجدار القبلة فحسب، أو تتجه عمودية على جدار القبلة فحسب، وإما أن تكون متقاطعة (أي: تتجه عقود البائكات عموديـة على جدار القبلة، وموازيـة له في ذات الوقت، ولا سيمـا في المساجـد التي تغطى بالقباب أو الأقبيـة، أو الاثنين معًا)، وأحيانا كان لا يعلو الأعمـدة أو الـدعامات عقود، وفي هـذه الحالة كان السقف الخشبي للمسجـد يرتكز على كمرات أو عوارض خشبية فـوق الأعمدة أو الدعامات مباشرة.

وقد أثبتت دراساتنا السابقـة: أن هذا الطراز من التخطيط يمثل النظام التخطيطي الثاني الـذي صممت على أساسه المساجد في العمارة الإسلامية ـ بل وغيرها من أنواع العمائر الأخرى الدينية وغير الدينية ـ منذ الفترة المبكرة جنبًا إلى جنب مع الطراز العربي التقليدي الذي تحدثنا عنه من قبل.

ونستطيع في ضوء الأدلة الآثارية المتوافرة أن نحصر تخطيطات المساجد التي صممت وفق هذا الطراز في ثلاثة أنماط رئيسية[1]، وهي:

---

(١) عن هذا الطراز وأنماطه وأمثلتها انظر: دراساتنا السابقة، ومنها: بحوث ودراسات =

١ ـ النمط الأول:

وفيـه تسير عقود البائكات موازيـة لجدار القبلة، ويتراوح عـدد هـذه البائكـات بين بائكـة واحـدة، وست بائكـات، وبالتالي فـإن عدد الأروقـة (البلاطات) في هذا النمط يتراوح بين رواقين، وبين سبعة أروقة.

وحسبنا أن نشير إلى بعض النمـاذج التي صممت وفـق هذا النمط في العمارة الإسلامية.

فمن المساجد التي تشتمل على بائكة واحدة تحصر فيما بينها رواقين موازيين لجـدار القبلة كـلٌّ مـن: المسجـد الملحـق بقصر جبل سيس ٨٦ ـ ٩٦هـ ـ ٧٠٥ ـ ٧١٥م (شكل ٥٩)، وبالقاهرة كل من: مسجد سيدي عقبة بن عامر ١٠٦٦هـ ـ ١٦٥٥م، ومسجد ذو الفقار بك ١٠٩١هـ ـ ١٦٨٠م، ومسجد عبد الرحمن كتخدا المعروف بجامع الشوازلية (بالموسكي) ١١٦٨هـ ـ ١٧٥٤م، وهذه المساجـد تشتمل على بائكة واحدة تحصر فيمـا بينها رواقين موازيين لجدار القبلة.

ومن المساجد التي تشتمل على بائكتين تحصران فيما بينها ثلاثة أروقة (بلاطات) كلٌّ من: مسجد قصر الحلابات بالأردن ٩٦ ـ ١٠٥هـ ـ ٧١٥ ـ ٧٢٣م (شكل ٦١)، ومسجد محمد بن خيرون المعافري المعروف بمسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان بتونس ٢٥٢هـ ـ ٨٦٦م (شكل ٢٠٤)، ومسجد تيثد باليمن

= في العمارة الإسلامية (الكتاب الأول)، (الفصل الرابع والفصل السادس، وما ورد بهوامشهما من مراجع عديدة عربية وتركية وأجنبية)؛ **موسوعة العمارة الإسلامية في مصر، المدخل**، ص٨٠ ـ ٨٧، ١١٣ ـ ١١٨، وكتابنا الموسوم بـ: «**العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**»، المجلد الأول، الكويت (٢٠٠٢م)، ص٢٠٠ ـ ٢٠٦.

أوائل ق٧هـ ـ ١٣م (شكل ١٢)، ومسجد بارسيما في سيواس ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، ومسجد ساري علي بقيصرية بالأناضول (آسيا الصغرى أو تركيا) (شكلا ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، ومسجد مراد باشا بالموسكي بالقاهرة ٩٧٦ ـ ٩٧٩هـ ـ ١٥٦٨ ـ ١٥٧١م (شكل ١٠٥)، وغير ذلك.

ومن المساجد التي تشتمل على ثلاث بائكات، وبالتالي أربعة أروقة (بلاطات) كلٌّ من: مسجد قصر الوليد بن عبد الملك المعروف بقصر المنية ٨٦ ـ ٩٦هـ ـ ٧٠٥ ـ ٧١٥م (شكل ٦٠)، ومسجد تمور باليمن ٤٣٠هـ ـ ١٠٣٨م (شكل ١١)، ومسجد محرم أفندي المعروف بجامع الكردي (بسويقة اللالا بالسيدة زينب) ١١٣٦هـ ـ ١٧٢٣م، ومسجد الشيخ العريان (بباب البحر) ١١٧١ ـ ١١٧٣هـ ـ ١٧٥٧ ـ ١٧٥٩م، وغير ذلك من النماذج في الوجهين القبلي والبحري على السواء.

ومن المساجد التي تشتمل على أربع بائكات، وبالتالي خمسة أروقة (بلاطات) كل من: مسجد إبراهيم تربانة بالإسكندرية ١٠٩٧هـ ـ ١٦٨٥م، ومسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية ـ أيضًا ـ ١١٧١هـ ـ ١٧٥٨م، ومسجد نصر الله بفوه ١١١٥هـ ـ ١٧٠١م، ومسجد أبو المكارم بفوه ـ أيضًا ـ، وغير ذلك.

ومن المساجد التي تشتمل على خمس بائكات، وبالتالي ستة أروقة (بلاطات) كل من: مسجد إسماعيل بك إيواظ بقرية جناج (مركز بسيون ـ محافظة الغربية) ١١٣٤هـ ـ ١٧٢١م، ومسجد سيدي جلال بجرجا بصعيد مصر ١١٨٩هـ ـ ١١٧٥م.

ومن المساجد التي تشتمل على ست بائكات، وبالتالي سبعة أروقة

(بلاطات): مسجد الأمير حسن بأخميم بصعيد مصر ١١١٦هـ ـ ١٧٠٤م.

٢ ـ النمط الثاني:

وفيه تسير عقود البائكات عمودية على جدار القبلة، وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة، إذا ما قورنت بنماذج النمطين الأول والثالث، ومنها: مسجد فنيانة بالأندلس، ويؤرخ بأواخر العصر الموحدي، وأوائل عصر بني نصر، أو بني الأحمر (شكل ١٩٩)، ومسجد بيرجي الجامع بالأناضول ٧١٢هـ ـ ١٣١٢م، وهو يشتمل على أربع بائكات عمودية على جدار القبلة، تحصر فيما بينها خمسة أروقة (بلاطات)، إلا أن مربعة المحراب بالرواق الأوسط (الثالث) تعلوها قبة صغيرة، كما يتميز هذا المسجد بأنه يتقدمه سقيفة أو رواق خارجي، ومسجد آلتي برمق (بسويقة المسيب من شارع سوق السلاح بالقاهرة قبل ١٠٣٣هـ ـ ١٦٢٣م)، وهو من النماذج الفريدة؛ إذ يسقف كل من الرواقين الجانبيين أقبية متقاطعة بواقع أربعة أقبية بكل رواق، أما الرواق الأوسط، فيسقف المساحة التي تتقدم المحراب قبوة مدببة، أما بقية المساحة، فيسقفها سقف خشبي ذو زخارف نباتية ملونة ومذهبة، إلا أنها بحالة سيئة. (شكل ١٠٦).

٣ ـ النمط الثالث:

وفيه تسير عقود البائكات في الاتجاهين العمودي والموازي (الطولي والعرضي) لجدار القبلة في ذات الوقت، وتسقف مساجد هذا النمط بالأقبية، أو القباب، أو الاثنين معًا.

ويعد هذا النمط أكثر أنماط هذا الطراز ذيوعًا وانتشارًا في العمارة

الإسلامية، فضلاً عن أنه قد استخدم في تصميم العديد من أنواع العمائر الدينية والجنائزية والمدنية في الأقطار العربية والاسلامية على السواء.

وحسبنا أن نستشهد بعدد من النماذج الباقية في العمارة الإسلامية، ومنها: صهريج الرملة بفلسطين ١٧٢هـ ـ ٧٨٨م، وتسقفه الأقبية البرميلية (شكل ٦٢).

ومسجد بوفتاتة في سوسة بتونس ٢٢٣ ـ ٢٢٦هـ ـ ٨٣٨ ـ ٨٤١م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تسقفها ٩ أقبية برميلية، ويتميز بأنه يتقدمه سقيفة (شكل ٢٠٣). ومسجد السيدة بالمنستير بتونس ٤١٢هـ ـ ١٠٢١م) (وتسقفه ٦ أقبية متقاطعة، ويقع أسفل إحداها مقبرة السيدة أم ملال عمة الأمير المعز ابن باديس (شكل ٢٠٥)، وفي مصر مشهد آل طباطبا بعين الصيرة بالقاهرة حوالي ٣٣٤هـ ـ ٩٤٥م (العصر الإخشيدي)، (وهو عبارة عن ٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تسقفها ٩ قباب متساوية، ويتميز بأن دعاماته متقاطعة ـ صليبية الشكل ـ) (شكلا ١١٢ ـ ١١٣).

ومنها: مشهد السبع وسبعين ولي، ويؤرخ بالنصف الثاني من ق٥هـ ـ ١١م، والمشهد القبلي بأسوان، ويؤرخ بأواخر ق٥هـ ـ ١١م، أو أوائل ق٦هـ ـ ١٢م، جنوب مصر (شكلا ١١٤ ـ ١١٥).

ومنها: مسجد عابدي بك بمصر القديمة ١٠٧١هـ ـ ١٦٦٠م، ومسجد مصطفى بك ابن بنت غزال المعروف بمسجد أبو علي بحي الجمرك بالإسكندرية ١١١٧ ـ ١١٢١هـ ـ ١٧٠٥ ـ ١٧٠٩م (شكلا ١١٦ ـ ١١٧).

ومنها: مسجد سيدي محمد المشيد بالنور برشيد ١١٧٨هـ ـ ١٧٦٤م.

وفي الأندلس: مسجد الباب المردوم المعروف حاليًا بكنيسة الكريستو دي لالوث ٣٩٠هـ - ٩٩٩م، ويتميز بقبابه التي تمثل أولى مراحل تطور القباب ذات الضلوع البارزة المتقاطعة. (شكل ٢٠٨)، (لوحتا ١١٢ - ١١٣).

ومنها: مسجد المدجنين بطليطلة، ويؤرخ بالنصف الثاني من القرن ٦هـ - ١٢م. (شكل ٢٠٩).

وفي ليبيا: مسجد مراد أغا في تاجوراء ٩٥٩ - ٩٦٤هـ - ١٥٥١ - ١٥٥٦م، (وتسقفه الأقبية البرميلية، ويمكن مقارنته بصهريج الرملة بفلسطين ١٧٢هـ - ٧٧٨م (شكل ٦٢) مما يؤكد مدى صلاحية التخطيط لتأدية عدة وظائف دينية ومدنية، بل وحربية أيضًا) (شكل ٢٠٧).

ومنها: جامع الخروبة ق٩هـ - ١٥م، وجامع شائب العين محمد باشا ١١١٠هـ - ١٦٩٨م، وجامع أحمد باشا القرة مانللي ١١٥٠ - ١١٥١هـ - ١٧٣٧ - ١٧٣٨م، وجامع مصطفى قورجي ١٢٤٩هـ - ١٨٣٣م بطرابلس الغرب بليبيا (أشكال ٢١٠ - ٢١٢، ٢١٨ - ٢١٩).

وفي بغداد: مسجد الخفافين ٩٩٩هـ - ١٥٩١م، ومسجد العاقولي ١١١٧هـ - ١٧٠٥م، ومسجد قمرية ١١٧٩هـ - ١٧٦٥م، وترجع كلها إلى أعمال إعادة بناء وتجديد، ولكن على الطراز الأصلي الذي كان سائدًا في بغداد منذ النصف الثاني من ق٦هـ - ١٢م.

وفي آسيا الوسطى: مسجد بلخ، ويؤرخ بالربع الثاني من القرن ٣هـ - ٩م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تعلوها ٩ قباب متساوية) (شكل ٢٥١).

ومنها: مسجد ترمز، ومسجد الشيخ خراسان في أذربيجان (شكلا ٢٥٢، ٢٦٠)، والأول ٩ قباب، والثاني ٦ قباب.

وفي شبه القارة الهندية تقابلنا نماذج كثيرة، ولا سيما في البنغال (بنجلاديش)، ومنها: مسجد ظفر خان غازي ٦٩٦هـ ـ ١٢٩٦م، ومسجد بابا آدم في رامبال ٨٨٨هـ ـ ١٤٨٣م (شكل ٢٥٧)، ومسجد چهانيان ٩٤١هـ ـ ١٥٣٥م (٦ قباب)، ومسجد قطب شاهي ٩٩٠هـ ـ ١٥٨٣م (١٠قباب).

ومنها: مسجد Saith gumbad، ويؤرخ بمنتصف ق٩هـ ـ ١٥م (١١ رواقًا عموديًا تتقاطع مع ٧ أروقة موازية يغطيها ٧٠ قبة، والرواق الأوسط العمودي (الرواق السادس) مغطى بأقبية) (شكل ٢٥٨)، ومسجد Gunmant في غور (غرب البنغال)، ويؤرخ بأواخر ق٩هـ ـ ١٥م وأوائل ق١٠هـ ـ ١٦م، (ويتميز بوجود رواق أوسط عمودي (بلاطة وسطي) يقطع صفوف الأروقة (البلاطات) المتقاطعة، وهو المعروف خطأ بالمجاز القاطع، ويغطي المسجد ٢٤ قبة ١٢ عن يمين الرواق الأوسط، ومثلها عن يساره) (شكل ٢٣٩)، ومسجد باراسونا ٩٣٢هـ ـ ١٥٢٦م (١١ رواقًا عموديًا تتقاطع مع ٤ أروقة موازية، ويغطي المسجد ٤٤ قبة) (شكل ٢٥٩)، وغير ذلك[1].

ومن أشهر المساجد الهندية: مسجد گلبرجا[2] الجامع ٧٦٩هـ ـ ١٣٦٧م (عصر سلاطين بهمن)، وهو ذو تصميم فريد، ويأخذ شكل مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب، وقد قسم إلى ثلاثة أقسام، أوسطها أوسعها وأهمها؛

---

(١) Michell, G. , The Islamic Hertiage of Bengal, Unesco (1984), PP. 10 _ 190.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٦٦ ـ ٥٦٧؛ رجب، **تاريخ وعمارة**، ص٦٢ ـ ٦٣؛

.Havel, Indian Architecture, PP. 60 _ 63

حيث يشتمل على عدد من الأروقة المتقاطعة (البلاطات المتقاطعة) بواقع ٧ أروقة عمودية يتقاطع معها ١٢ رواقًا موازيًا، ويغطي هذه الأروقة ٧٥ قبة صغيرة متساوية، فضلاً عن قبة مربعة المحراب الكبيرة، والتي حلت محل ٩ قباب صغيرة من قباب الأروقة (البلاطات) الأولى مما يلي جدار القبلة؛ وهي الأروقة العمودية رقم ٣ ـ ٤ ـ ٥، والتي تتقاطع معها الأروقة الموازية رقم ١ ـ ٢ ـ ٣ مما يلي جدار القبلة، أما القسمان الجانبيان، فيتصلان بالقسم الأوسط بواسطة عقود موازية لجدار القبلة، وبأركان هذين القسمين ٤ قباب متساوية، بواقع قبتين بكل ركن، وبذلك يصبح المجموع الكلي لقباب المسجد ٨٠ قبة (شكل ٢٥٣).

وإذا ما انتقلنا إلى تركيا، تقابلنا نماذج كثيرة، ومنها: مسجد القلعة في أرضروم، ويؤرخ بأواخر ق٦هـ ـ ١٢م، وأوائل ق٧هـ ـ ١٣م (عصر السلطقيين)[1]. (شكل ٢٤٩).

ومنها: مسجد علاء الدين في نيگده[2] ٦٢٠هـ ـ ١٢٢٣م (٥ أروقة موازية تقطعها ٣ أروقة عمودية، وتغطيها الأقبية والقباب)، ويستثنى من ذلك سقف المساحة الوسطى من الرواق الأوسط، (وهو الرواق الثالث الموازي الذي يتقاطع مع الرواق الثاني العمودي)؛ حيث حل محل القبو منور سماوي للإضاءة والتهوية) (شكل ٢٥٠).

ومن أشهر النماذج التركية: المسجد الكبير (أولو جامع) في بروسة

---

(١) آصلان آبا، فنون الترك، ص٧١، تخطيط ٩.

(٢) آصلان آبا، فنون الترك، ص٨١ ـ ٨٢، تخطيط ١٣.

(أو بورصــة) ٧٩٩ ـ ٨٠٣هـ ـ ١٣٩٦ ـ ١٤٠٠م (٥ أروقـة عمودية تقطعها ٤ أروقة موازيــة، ويغطي جميع الأروقة ٢٠ قبـة صغيرة متساوية)، والمسجد القديم أو العتيق في أدرنــة (أسكى جامع) ٨٠٦ ـ ٨١٧هـ ـ ١٤٠٣ ـ ١٤١٤م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعـة تغطيها ٩ قباب متساوية)، ومسجد عتيق علي باشا في ذنجـرلي قـويو بإستانبـول ٩٠٣هـ ـ ١٤٩٧م، ومسجـد بيالـي باشا بإستانبول ـ أيضًا ـ ٩٨١هـ ـ ١٥٧٣م (أشكال ٢٥٤ ـ ٢٥٦) (لوحة ١٩٧).

*** الطراز الخامس**[1]:

وهو طراز المسجد على هيئة حرف T المقلوب (The Reverse T)، ويعـرف ـ أيضًا ـ بطراز بورصــة (أو بروسة) الثالث، أو طراز المسجـد ذي الــوظائف المتعـددة، أو طـراز المسجـد الزاويـة على اعتبار أن الحجـرات الجانبية كانت تستخـدم نزلاً للدراويش، أو طراز المسجـد ذي المساحـات الجانبيـة، أو طراز المسجـد ذي التخطيط المحـوري الصليبي أو المتقاطـع (Cross _ Axial Masque).

ويرى العلماء: أن هذا التخطيط قد اشتق أساسًا من تخطيط المدارس السلجوقية ذات القباب المرتبة على هيئة حرف T المقلوب مثل: مدرسة كل من قـره طاي، وانجـه مناره لي بقونيـة، وسنشير إليهمـا عنـد الحديث عن المدارس.

---

(١) عن هذا الطراز وأمثلته الباقية انظر: دراساتنا المنشورة، وما بها من مراجع عديدة، ومنها بحـوث ودراسات (الكتاب الأول)، ص٢٨٩ ـ ٢٩٢؛ موسوعـة العمارة، المدخل، ص٩٣ ـ ٩٦، **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، المجلد الأول، ص١٩٤ ـ ١٩٩.

والحق أن هذا الطراز ينتمي إلى الطراز الإيواني الذي سبقت الإشارة إليه، على اعتبار أن جوهر التخطيط في هذا الطراز هو المساحة الوسطى المربعة، وإيوان واحد جهة القبلة، ويغطي المساحة الوسطى قبة غالبًا، بينما يغطي الإيوان قبة، أو نصف قبة، أو قبو، وفي أحيان قليلة بل ونادرة يغطي الإيوان نصف قبة يتقدمها قبو، أما المساحات التي تكتنف المساحة الوسطى المربعة من جانبيها، فهي تشغل نفس امتداد تلك المساحة الوسطى من جانبيها (أي: المحور العرضي)، ومن هنا يظهر إيوان القبلة بارزًا عن سمت جداري جهة القبلة لتلك المساحات الجانبية، وبسبب ذلك اتخذ المسجد شكله المميز على هيئة حرف T، وهذه المساحات الجانبية غالبًا ما تكون على هيئة حجرتين، بواقع حجرة بكل جانب، قد تفتح على المساحة الوسطى بكامل اتساعها، أو بفتحة باب، وأحيانا تضاف حجرتان، وبذلك تصبح الحجرات أربعًا بواقع حجرتين بكل جانب، وفي أحيان ثالثة تكون هذه المساحات الجانبية على هيئة إيوانين صريحين، بواقع إيوان بكل جانب، وفي هذه الحالة يصبح المسجد ذا ثلاثة إيوانات حول المساحة الوسطى، وهنا ـ أيضًا ـ يشغل كل من الإيوانين نفس امتداد تلك المساحة الوسطى (أي: المحور العرضي)؛ وبالتالي يظهر إيوان القبلة بارزًا (أي: على هيئة حرفT).

وتوجد غالبية النماذج الباقية لهذا الطراز في الأناضول والبلقان، ومنها: مسجد أورخان في أزنيق ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٥م أو ٧٣٥هـ ـ ١٣٣٤م، ومسجد أورخان بك في بورصة ٧٤٠هـ ـ ١٣٣٩م، والجامع الأخضر في بورصة (يشيل جامع) ٨٢٨هـ ـ ١٤٢٤م، ومسجد يخشى بك في تيره ٨٥٠هـ ـ ١٤٤٦م، ومسجد حمزة بك في بورصة، ويؤرخ بالنصف الثاني من ق٩هـ ـ ١٥م،

ومسجـد إسحـاق باشـا فـي آينـة گـول ٨٨٧هـ ـ ١٤٨٢م. (أشكـال ٢٩٨ ـ ٣٠١، ٣٠٦).

ومن النماذج العثمانية الأخرى كل من: مسجد شهاب الدين باشا في فيلبه (بلوفديف ببلغاريا) ٨٤٨هـ ـ ١٤٤٤م، ومسجد عيسى بك في أسكوب ٨٨٠هـ ـ ١٤٧٥م، ومسجـد غازى خسرو بك فـي سراييفو (بوسنـه سراي) ٩٣٨هـ ـ ١٥٣١م.

ومن المطاعم الخيرية (عمارت) التي صممت وفق هذا الطراز حسبنا أن نشير إلى عمارت غازي أورنوس في كوموتيني (كومولجينة) باليونان ٧٧٧ ـ ٧٨٢هـ ـ ١٣٧٥ ـ ١٣٨٠م، وعمـارت ميخال أوغلو محمـد بك في أهتمان ببلغاريا ٧٩٣ ـ ٧٩٨هـ ـ ١٣٩٠ ـ ١٣٩٥م، وعمارت نيلوفر خاتون المعروفة بزاويـة نيلوفر خاتون بأزنيق ٧٨٩هـ ـ ١٣٨٧م، وعمـارت يعقوب چلبي في أزنيق ـ أيضًا ـ قبل ٧٩٢هـ ـ ١٣٨٩م. وغير ذلك. (أشكال ٣٠٢ ـ ٣٠٥).

ومن النماذج المتميزة لهذا الطراز: الجامع الأزرق في تبريز ٨٧٠هـ ـ ١٤٦٥م عصر القرة قيونلو (أصحـاب الشاه السوداء) (شكـلا ٣٠٧ ـ ٣٠٨) (لوحتا ١٣١ ـ ١٣٢).

وتحتفظ مصر كذلك بنموذج فريـد لمسجـد صمم وفـق هذا الطراز، وهو: مسجد سليمان باشا المعروف بجامـع سارية الجبل، أو سيدي سارية بالقلعـة ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨م، ويكفي لبيان أهميـة هذا المسجد القول بأنـه هو النموذج الوحيد المعروف حتى الآن لمسجد صمم على هيئة حرف T (الجزء المغطي)، ويتقدمـه الحـرم (الجـزء المكشوف)؛ حيث إن غالبيـة النماذج المعروفـة في تركيا والبلقان يتقدمها سقيفـة، أو رواق خارجي، كمـا يتميز

ـ أيضًا ـ بأن الجزء المغطى فيه تغطيه قبة مركزية في الوسط، وثلاثة أنصاف قباب بواقع نصف قبة بكل إيوان من الإيوانات الثلاثة التي تحيط بدرقاعة الجزء المغطى (شكل ١٥٤).

كذلك تحتفظ ليبيا بنموذج فريد لمسجد صمم على هيئة حرف T، ومغطى باثنتين وثلاثين قبة، وهو مسجد درغوت باشا بطرابلس الغرب ٩٦٤ ـ ٩٧١هـ ـ ١٥٥٦ ـ ١٥٦٣م، وهو المسجد الوحيد المعروف حتى الآن الذي صمم على هذا الطراز، وغطي بهذا العدد الكبير من القباب. (شكل ٢١٣).

*** الطراز السادس ـ طراز المسجد القبة:**

من المعروف أن القبة لم تكن شيئًا مستحدثًا في العمارة الإسلامية؛ فقد كان استخدامها شائعًا ومعروفًا قبل العصر الإسلامي بقرون عديدة، سواء كانت من الآجر، أو الحجر[1]، أو من الأدم، وهذا النوع الأخير كان يعرف

---

(١) شكري، محمد أنور، **العمارة في مصر القديمة**، القاهرة (١٩٧٠م)، ص٣٦٨؛ الحديني، عطا، وآخرون، **القباب المخروطية في العراق**، بغداد (١٩٧٤م)، ص١٠ ـ ١٢؛ لمعي، صالح، **القباب، أشكالها، مصادرها، تطورها**، بيروت (١٩٧٧م)، ص٣ ـ ٦؛ فخري، أحمد، **الصحراء المصرية جبانة البجوث في الواحة الخارجة**، ترجمة عبد الرحمن عبد التواب، القاهرة (١٩٨٩م)، ص٤٥ ـ ٤٨؛ بدوي، إسكندر، **تاريخ العمارة المصرية القديمة**، ج١، ترجمة محمود عبد الرازق وصلاح رمضان، القاهرة (١٩٩١م)، ص١٠٢، ٣٧١؛

Badawy, A., Brick vaults and Domes in the Giza Necropolis, Cairo, (1953), PP. 129_143, Pope, A.U., Asurvey of Persian Art, voll, London and New York, (1938), P. 501 _ 503; Smith, B., the Dome, Astudy in the History of ideas, Princeton, New Jersey (1950), P. 3 _ 44.

بقبة المبناة، وكان شائعًا عند العرب قبل ظهور الإسلام، وكانت هذه القباب تخصص للسادات الأشراف والأغنياء، أو لأصحاب الجاه وسادات القبائل الكبار؛ ممن كانوا يفدون على ملوك الحيرة (المناذرة أو اللخميين)؛ مما يعني أن هذا النوع من القباب كان يعد من أمارات التعظيم والتفخيم والجاه عند الملوك[1]؛ كما كانت تطلق على نوع من الهوادج المستخدمة في السفر عند المسلمين في العصور الوسطى[2].

على أن استخدام القباب في تصميم مساجد قائمة بذاتها فضلاً عن بعض أنواع العمائر الدينية الأخرى؛ كالزوايا والخوانق يعد بلا شك من الإضافات التي استحدثها المعمار المسلم؛ بل وقام بتطويرها وابتكار أنماط جديدة منها لم يسبق إليها.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الطراز يتكون في جوهره من مساحة مربعة، تختلف من مسجد لآخر، يتوسط صدرها المحراب، وتغطي هذه المساحة قبة يختلف قطرها وارتفاعها من مسجد لآخر أيضًا، وتقوم هذه القبة على منطقة انتقال من الحنايا الركنية، أو المثلثات الكروية، أو المثلثات التركية، أو المقرنصات، وكانت هذه المساجد، في حالة استخدامها كمساجد جامعة، تزود بالمنابر، رخامية كانت أم خشبية، هذا ويتقدم غالبية تلك

---

(١) علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، مج٥، بيروت (١٩٧٠م)، ص٥ ـ ٧، ١٧٣.

(٢) ياسين، عبد الناصر، **وسائل السفر عند المسلمين، تاريخها وآثارها**، دراسة عن الهودج وشاكلاته في ضوء المصادر المكتوبة والأثرية، القسم الأول، القاهرة (٢٠٠٥م)، ص٢٧٩ ـ ٣٠١.

المساجد رواق خارجى (سقيفة Portico) تغطى بالقباب أو الأقبية، أو الاثنين معًا، وفي أحيان قليلة كانت تغطى بأسقف خشبيـة مسطحة؛ كما هو الحال في بعض مساجد البلقان (جنوب شرقي أوروبا)، أما النماذج التي تخلو من وجود مثل هذا الرواق الخارجي، فتعد قليلة، بل واستثناءً لتلك القاعدة التي لازمت مساجد هذا الطراز خلال مراحل تطوره المختلفة.

كذلك تشتمل غالبية تلك المساجد على مئذنة، وأحياناً على مئذنتين.

هذا وقد مر ذلك الطراز بعـدة مراحل من التطور كان الهدف الرئيسي منها هو توسعة المسجد ليستوعب عدداً أكبر من المصلين، وهو نفس الهدف الذي تحقق في كثير من طرز المساجد الإسلامية الأخرى التي سبقت الإشارة إليها، عن طريق ما اصطلح على تسميته بالزيادة، أو التوسعة، أو الإضافة، سواء من داخل المسجد نفسه، أو من خارجه.

وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نحصر نماذج هـذا الطراز بمراحل تطوره المختلفة في العمارة الإسلامية في عدة أنماط[1]، وذلك على النحو التالي:

١ ـ النمط الأول:

وهو يمثل النمط البسيط من أنماط طراز المسجد القبة، والذي ينحصر تخطيطه في جوهره في مساحـة مربعة تعلوها القبـة، ويتقدم هـذه المساحة

---

(١) عن هـذه الأنماط ونماذجها الباقيـة انظر: دراساتنا المنشورة ومـا بها من مراجـع متعددة، ومنها: بحوث ودراسات (الكتاب الأول)، (الفصل الثاني والثالث والرابع والسادس)؛ موسوعة العمارة، المدخل، ص١٠٣ ـ ١١٢؛ **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، المجلد الأول، ص١٦٨ ـ ١٩٤، ١٩٩ ـ ٢٠٠، **طراز المسجد القبة في المدينة المنورة والهفوف** (الكتاب الأول)، القاهرة (٢٠٠٤م)، ص١١ ـ ٥٨.

المربعة رواق خارجي، أو سقيفة غالبًا، وأحياناً تخلو هذه المساجد من مثل هذا الرواق الخارجي أو السقيفة ـ كما سبق القول ـ.

هذا، ويستدل من خلال الإشارات التاريخية المتناثرة في المصادر المختلفة: أن بعض مساجد القبائل العربية في خطط مدينة الفسطاط كانت مصممة وفق هذا النمط البسيط، ومنه ما كان يتقدمه رواق خارجي أو سقيفة[١].

إلا أنه لسوء الحظ قد اندرست هذه المساجد المبكرة؛ ومع ذلك، فهي تمثل الإرهاصات الأولى لهذا النمط البسيط خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة.

أما عن أقدم النماذج الباقية، فتوجد في مدن المشرق الإسلامي، ومنها: كل من: مسجد يزدي ـ كاشت، ومسجد أبرقوه، ومسجد بيرون، ومسجد قرفة في بلاد فارس[٢].

ومنذ القرن ٥هـ ـ ١١م فصاعدًا انتشر هذا النمط في غالبية الأقطار العربية والإسلامية، وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج التي تؤكد مثل هذا الذيوع، وذلك الانتشار، ومنها كل من:

المسجد الملحق بقصر الجعفرية بسرقسطة (إسبانيا) ٤٣٨ ـ ٤٧٤هـ ـ

---

(١) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن، (ت٢٥٧هـ ـ ٨٧٠م)، **فتوح مصر وأخبارها**، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، القاهرة (١٩٧٤م)، ص٨٦ ـ ٨٧؛ ابن دقماق، إبراهيم ابن محمد بن أيدمر العلائي، (ت٨٠٩هـ ـ ١٤٠٦م)، **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، ق١، بيروت، د. ت، ص٣٤، ٤٩.

(٢) Ferrier, R. W. , The Arts of Persia, Yale University Press, New Havan and London, (1989), P. 810.

١٠٤٦ ـ ١٠٨١م، وهو مربع الشكل، طول ضلعه ٥,٤٦م، أما قبته المثمنة، فهي تمثل مرحلة جديدة من مراحل تطور القباب ذات الضلوع، وهي المرحلة التي استهدفت الناحية الزخرفية الخالصة على النحو الذي سنشاهده بعد ذلك في قبة المحراب بمسجد تلمسان ٥٣٠هـ ـ ١١٣٥م.

ويكفى لبيان الأهمية الزخرفية أن نشير إلى ما ذكره أحد مؤرخي الفن الإسبان بقوله من أن هذا المسجد ليس بيتًا للصلاة، وإنما هو «بيت للفن يضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسي»[1]. (شكل ٢١٤)، (لوحة ١١٧).

ومنها: مسجد الحيدرية بقزوين (شكل ٢٦١).

وكل من: مسجد طاش ٦١٢هـ ـ ١٢١٥م، ومسجد صرجالي، ويؤرخ بالنصف الثاني من القرن ٧هـ ـ ١٣م بقونية (عصر سلاجقة الروم بآسيا الصغرى أو الأناضول). (شكلا ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

وكل من: مسجد حاجي أوزبك في أزنيق ٧٣٤هـ ـ ١٣٣٣م، ومسجد علاء الدين بك في بورصة (أو بروسة) ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م، ومسجد بايزيد يلدريم في مودورنو ٧٨٤هـ ـ ١٣٨٢م، ومسجد حاجي شهاب الدين باشا في أدرنه ٨٤٠هـ ـ ١٤٣٦م، ومسجد قاسم باشا في أدرنه ٨٨٣هـ ـ ١٤٧٨م، ومسجد فيروز أغا في إستانبول ٨٩٦هـ ـ ١٤٩١م، وغير ذلك. (أشكال ٢٦٤ ـ ٢٦٩).

وفي بلغاريا كل من أسكي جامع (المسجد القديم أو العتيق، أو مسجد

---

(١) الحداد، **بحوث ودراسات**، (الكتاب الأول)، ص١٩٤ ـ ١٩٨، (وما بها من مراجع بالهوامش).

حمزة بك) في أسكي زغرا (شتارا زاجور حاليًا) ٨١١هـ ـ ١٤٠٩م، ومسجد الفاتح في كستنديل قبل ٨٦٨هـ ـ ١٤٦٣م، وغير ذلك. (شكلا ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

وفي المجر: مسجد ياكوفالي حسن باشا في Pécs، ويؤرخ بالنصف الثاني من ق١٠هـ ـ ١٦م، ومسجد علي باشا في Szigwtvar ٩٩٧ ـ ٩٩٨هـ ـ ١٥٨٨ ـ ١٥٨٩م، وغير ذلك. (شكلا ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

وفي اليونان: يني جامع (المسجد الجديد) في كوموتيني ١٠١٧ ـ ١٠١٨هـ ـ ١٦٠٨ ـ ١٦٠٩م، وغير ذلك. (شكل ٢٧٦).

وفي دول الاتحاد اليوغسلافي السابق نماذج عديدة، منها: مسجد نيش ٩٢٨ ـ ٩٣٠هـ ـ ١٥٢١ ـ ١٥٢٣م، ومسجد قرا گوز محمد باشا في موستار ٩٦٥هـ ـ ١٥٥٧م، ومسجد Hadun في ياكوفكا Djakovica ١٠٠٣هـ ـ ١٥٩٤م، وغير ذلك. (شكلا ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

وفي شبه القارة الهندية نماذج عديدة.

أما أغلب النماذج، ففي بنجالاديش (البنغال)، ومنها: مسجد خيزرخان بحي نظام الدين بدهلي ٧٢١هـ ـ ١٣٢١م.

مسجد القبة (Gopol gami) ٨٦٥هـ ـ ١٤٦٠م، ومسجد باري ٨٧٠هـ ـ ١٤٦٥م، ومسجد شامكاتي (Chamkati) ٨٨٣هـ ـ ١٤٧٨م، ومسجد لاتان (Lattan) أواخر ق٩هـ ـ ١٥م، وأوائل ق١٠هـ ـ ١٦م، ومسجد جولدي (Goaldi) ٩٢٥هـ ـ ١٥١٩م، ومسجد سورا (Sura) ق١٠هـ ـ ١٦م، ومسجد عطية ١٠١٨هـ ـ ١٦٠٩م، وغير ذلك.

وفي سوريا كل من: مسجد خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب ٩٤٣ ـ ٩٤٤هـ ـ ١٥٣٦ ـ ١٥٣٧م، ومسجد عثمان باشا ضمن مجمعه بحلب ـ أيضًا ـ

١١٤٠هـ ـ ١٧٣٠م، وكذلك المسجد الملحق بكل من التكية السليمانية ٩٦٢ ـ ٩٦٧هـ ـ ١٥٥٤ ـ ١٥٥٩م، والمدرسة السليمانية المجاورة لها ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، بدمشق (أشكال ٦٣ ـ ٦٤، ٧٥).

وفي اليمن: مسجد المرادية ٩٨٤هـ ـ ١٥٧٦م في صنعاء، ومسجد حاجي محمد باشا في يريم ١٠٣٠هـ ـ ١٦٢٠م، ومسجد قبة دادية بمدينة ذمار القديمة، ويؤرخ بالنصف الأول من ق١١هـ ـ ١٧م، ومسجد طلحة ١٠٢٩هـ ـ ١٦١٩م بصنعاء، والملاحظ: أن الرواق أو السقيفة التي تتقدم هذا المسجد الأخير لا تقع على محور المحراب كما هي العادة، وإنما تقع إلى الغرب من المسجد، وتشرف على الفناء الغربي ببائكة ذات عقدين، ويغطي هذه السقيفة أربع قباب صغيرة، ومنها ـ أيضًا ـ: البكيرية بصنعاء، والتي تختلف في بعض التفاصيل من جهة، ومن جهة ثانية فإن الرواق الذي يتقدمها يشرف على الفناء (الصوح أو الصرحة حسب الاصطلاح اليمني) المكشوف. (شكلا ١٣ ـ ١٤).

وفي المدينة المنورة كل من: مسجد أبي بكر الصديق ﷺ ١٢٤٥هـ ـ ١٨٣٨م، ومسجد عمر بن الخطاب ﷺ ١٢٦٦هـ ـ ١٨٤٩م، ومسجد الحميدية المعروف بمسجد العنبرية ١٣٢٥ ـ ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨م.

وفي ليبيا: المسجد الملحق بزاوية (مدرسة) عمورة بجنزور ١١٣٤هـ ـ ١٧٢١م، (شكل ٢٢٠) ومسجد مدرسة الكاتب بطرابلس الغرب ١١٨٣هـ ـ ١٧٦٩م، ومسجد الباش بمدينة الخمس ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م.

وفي إيران يقابلنا: مسجد الشيخ لطف الله بأصفهان[1] ١٠١١ ـ ١٠٢٨هـ ـ

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٥٤٧ ـ ٥٤٨؛ الجميعي، مساجد =

١٦٠٢ ـ ١٦١٨م (أشكال ٢٧٩ ـ ٢٨١).

وهو من أبدع وأروع النماذج الباقية المصممة وفق طراز المسجد القبة، ولا سيما الطابقين الأول والثاني (الأوسط والأعلى)؛ حيث إن الطابق الأرضي (البدروم) يمثل الشبستان، (وهو مصلى للصلوات الخمس، ومصلى شتوي صمم وفق طراز الأروقة المتقاطعة المغطاة بالأقبية المتقاطعة)، أما الطابقان الأول والثاني، فكل منهما عبارة عن مساحة مربعة مغطاة بقبة ضخمة ذات نقوش زخرفية بديعة، ويحيط بمربع القبة من جانبين فقط رواقان بواقع رواق بكل جانب مغطى بالقباب الصغيرة.

وقد خصص الطابق الأول (الأوسط) لإقامة حلقات الدرس، بينما خصص الطابق الثاني، (العلوي) لإقامة الشيوخ والمدرسين (أشكال ٢٧٩ ـ ٢٨١)، (لوحات ١٣٤ ـ ١٤٠).

وفي مصر: زاوية الأحمدية الرفاعية المعروفة بقبة معبد الرفاعي قرب منتصف ق٩هـ ـ ١٥م، وزاوية الدمرداش بالعباسية أواخر ق٩هـ ـ ١٥م. (شكلا ١٠٧ ـ ١٠٨).

وإذا كانت المساجد السابقة تكاد تتفق مع بعضها في التخطيط العام، وفي المميزات الرئيسية؛ إلا أنها تختلف فيما بينها في التفاصيل والمفردات وبعض العناصر، فضلاً عن طبيعة الطراز المعماري والفني السائد خلال الفترة التي صمم فيها كل مسجد من تلك المساجد، أو بمعنى آخر: فإن لكل

= **أصفهان**، ص١٠٣ ـ ١٣٣؛ قباديان، بررسي إقليمي، ص٢٠٥؛ كنجنامة، **مساجد أصفهان**، ص١٢٣ ـ ١٣٥.

مسجد منها شخصية مستقلة، وطابعًا خاصًا مميزًا له.

٢ ـ النمط الثاني:

وهـو يمثل حلقـة من حلقات تطور طراز المسجـد القبـة في العمـارة الإسلاميـة، وفي هذا النمط لم يعـد التخطيط ينحصر في المساحـة المربعة المغطاة بقبة، وتتقدمها من الخارج السقيفة (الرواق الخارجي) أم لا فحسب، وإنما قام المعمار بزيادة مساحـة المسجد الداخلية، وذلك عن طريق إضافة رواق (بلاطة) داخلي يلي باب الدخول للمسجد مباشرة، ويتقدم القبة، ويغطي هذا الرواق غالبًا ثلاث قباب صغيرة، أو أقبية، أو الاثنان معًا، وتعد النماذج الباقية لمساجد هـذا النمط قليلة بصفة عامـة، ومنها: المسجد الأخضر في أزنيق ٧٨٠ ـ ٧٩٥هـ ـ ١٣٧٨ ـ ١٣٩٢م.

ومسجد شاه ملك في أدرنـة ٨٣٢هـ ـ ١٤٢٨م، ومسجد دار الحديث في أدرنه ـ أيضًا ـ ٨٣٨هـ ـ ١٤٣٤م، (شكلا ٢٧٠ ـ ٢٧١).

٣ ـ النمط الثالث:

وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة في العمارة الإسلامية؛ حيث قام المعمار بزيادة مساحـة المسجد الداخلية من الجانبين (المحور العرضي) عن طريق إضافة رواقين غالبًا، أو إيوانين أحياناً عموديين على جـدار القبلة، ويشرفان على المساحـة الوسطى ـ أي: القبـة ـ ويغطي كلاً منهما القباب، أو الأقبيـة، أو الاثنان معا، وفي أحيان قليلة استخدمت الأسقف المسطحـة، وبهذه الإضافة ظهر نمط جديد في العمـارة الإسلامية أطلقت عليه الوثائق المختلفة مصطلح: «القلب والجناحين».

ومن الملاحظ: أنـه يغلب على تصميم المساجد وغيرها من العمائر التي صممت وفـق ذلك النمط الاتجاه الطولي (العمودي على جدار القبلة) غالبًا، بينما توجد بعض النماذج الأخرى التي يغلب عليها الاتجاه العرضي (أي: الموازي لجدار القبلة) أحياناً.

وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج الباقية، ومن أقدمها: مسجد طلختان بابا (الـذي يقع على بعـد ٣٠كم من مدينـة مرو القديمـة)، ويؤرخ بأواخـر ق٥هـ - ١١م أو أوائـل ق٦هـ - ١٢م (عصر القـرة خـانيين بآسيـا الوسطى). (شكل ٢٨٧).

ومنهـا: مسجـد رستم چـلبي (كودوك منار) في توقـات بالأناضول، ويؤرخ بالنصف الأول من ق٩هـ - ١٥م. (شكل ٢٨٨).

وقد استخدم في تصميم بعض المساجد الملحقة بالمدارس، ومنها: المسجد الملحق بالمدرسة المرجانيـة ببغداد ٧٢٨هـ - ١٣٥٦م (شكلا ٣٣ - ٣٤)، والمسجـد الملحـق بالمدرسة الأشرفيـة الكبرى بتعز اليمنيـة ٨٠٠ - ٨٠٣هـ - ١٣٩٨ - ١٤٠٠م (عصر الدولة الرسولية) (شكل ١٥).

وترجع غالبية المساجـد اليمنية الأخرى إلى عصري الدولة الرسولية، والدولة الطاهرية باليمن (٦٢٦ - ٩٢٣هـ - ١٢٢٩ - ١٥١٧م)، ومنها: مسجد الموفى الأعلى، ومسجد المدرسة (الياقوتية) في مدينة حيس اليمنية، وغير ذلك.

ومنها: المساجد الملحقة ببعض مدارس حلب بسوريا؛ مثل: مدرسة أبو الفوارس في معرة النعمان ٥٩٥هـ - ١١٩٨م، والمدرسة السلطانية ٦٢٠هـ - ١٢٢٣م (شكـل ٧٢)، والمـدرسـة الشرفيـة ٦٤٠هـ - ١٢٤٢م، والمدرسـة

الكاملية، وتؤرخ بالنصف الأول من ق٧هـ ـ ١٣م.

ومن المساجد الأخرى: الجامع المجاهدي في الموصل ٥٧٢ ـ ٥٧٦هـ ـ ١١٧٦ ـ ١١٨٠م، وجامع الخاتونية في مغنيسة (مانسيا) ٨٩٦هـ ـ ١٤٩٠م، وجامع مصطفى بك في سيريز (باليونان) ٩٢٥هـ ـ ١٥١٩م، وغير ذلك.

وفي بغداد: مسجد الأحمدية ١٢١٠هـ ـ ١٧٩٥م، ومسجد الحيدرخانة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦م، (شكلا ٢٦ ـ ٢٧).

ومن المساجد الباقية بالمدينة المنورة: مسجد الجمعة ٩٣٩ ـ ٩٤٨هـ ـ ١٥٣٢ ـ ١٥٤٢م، ومسجد علي بن أبي طالب ﷺ ضمن مساجد الفتح (غربي جبل سلع بالمدينة المنورة في الساحة المعروفة الآن باسم المساجد السبعة) ١٢٦٨ ـ ١٢٦٩هـ ـ ١٨٥١ ـ ١٨٥٢م.

وفي دراسة سابقة أثبتنا أن هذا النمط من التخطيط قد عرف في العمارة الجنائزية الإسلامية المبكرة؛ كما هو الحال في مقابر الطراز الثالث بأنماطه الثلاثة بجبانة أسوان التي يرجّح أنها ترجع إلى عصر الولاة بمصر قبل ٢٥٤هـ ـ ٨٦٨م، ثم استمر هذا التخطيط خلال العصر الفاطمي، وبصفة خاصة في تصميم المشاهد، ومنها: المشهد بأسوان جنوب مصر ٤٩٤ ـ ٥٠٤هـ ـ ١١٠٠ ـ ١١١٠م (شكلا ١٥٩ ـ ١٦٠)، ومشهد خضرة الشريفة بالقرافة الكبرى (عزبة خير الله الجديدة بعين الصيرة جنوب القاهرة) ٥٠١هـ ـ ١١٠٧م، ومشهد السيدة رقية (بشارع الأشرف قرب السيدة نفيسة) ٥٢٧هـ ـ ١١٣٢م. (شكل ١٦٣).

٤ ـ النمط الرابع:

وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة في العمارة

الإسلامية؛ حيث لم يقتصر التطور على مجرد توسيع المساحة الداخلية للمسجد من الجانبين (المحور العرضي) فحسب، وإنما امتد التطور، فشمل أيضًا ـ علاوة على ذلك ـ توسيع هذه المساحة من العمق (المحور الطولي)، ويمكن أن نميز بين أربعة نماذج في هذا النمط، وهي:

أ ـ النموذج الأول:

وفيه قام المعمار بزيادة عمق المسجد (المحور الطولي) من جهة القبلة (الجنوب)، وذلك بإضافة نصف قبة تتقدم القبة الوسطى المركزية، ويكتنفها من جانبيها (المحور العرضي) قبتان صغيرتان، بواقع قبة بكل جانب، وبذلك صار قلب المسجد في هذا النموذج يشتمل على قبة مركزية كبرى تتقدمها جهة القبلة نصف قبة، أما الجناحان فيغطي كلاً منهما ست قباب، بواقع ثلاث قباب بكل جناح، ومن أمثلة ذلك: مسجد ترخان بكوزلوه بالقرم (روسيا) ٩٦٠هـ ـ ١٥٥٢م، ومسجد السليمية بقونية ٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ ـ ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م، ويتقدم كلاً من هذين المسجدين رواق خارجي (أو سقيفة) مغطاة بخمس قباب صغيرة في المسجد الأول، وبسبع قباب في المسجد الثاني.

ومن النماذج المتميزة لهذا النموذج: مسجد محرمه سلطان في أسكدار بإستانبول ٩٥٥هـ ـ ١٥٤٨م، وفيه يشتمل القلب على قبة مركزية وسطى، يتقدمها جهة القبلة نصف قبة، أما الجناحان، فيشتملان على نصف قبتين على جانبي القبة المركزية، وقبتين صغيرتين (جهة القبلة) على جانبي نصف القبة التي تتقدم القبة المركزية جهة القبلة بواقع نصف قبة، وقبة صغيرة بكل جناح، ويتقدم هذا المسجد رواق خارجي (سقيفة) مغطى بخمس قباب صغيرة.

ب ـ النموذج الثاني:

وهو يشبه النموذج الأول من حيث إن زيادة عمق المسجد (المحور الطولي) كانت من جهة القبلة ـ أيضًا ـ، إلا أنه يختلف عنه من حيث إن الزيادة لم تستوعب داخل كيان المساحة الداخلية للمسجد، وبصفة خاصة جدار القبلة، وإنما قام المعمار في هذا النموذج بإضافة إيوان بارز عن سمت جدار القبلة يتوسط صدره المحراب، ويغطي هذا الإيوان قبة، أو نصف قبة، وأحياناً قبو، وبهذه الإضافة صار تخطيط المسجد على هيئة حرف T.

وبذلك صار قلب المسجد في هذا النموذج يشتمل إما على قبة مركزية كبرى تتقدمها جهة القبلة نصف قبة، وفي الجناحين أربع قباب، بواقع قبتين بكل جناح، كما هو الحال في مسجد عتيق علي باشا في إستانبول ٩٠٢هـ ـ ١٤٩٦م.

أو قبتين طوليتين في القلب، وست قباب في الجناحين، بواقع ثلاث قباب بكل جناح؛ كما هو الحال في مسجد السلطان بايزيد في أماسيا ٨٩١هـ ـ ١٤٨٦م.

أو قبتين طوليتين في القلب، ونصفي قبتين في الجناحين، بواقع نصف قبة بكل جناح، وذلك على جانبي القبة الصغرى؛ كما هو الحال في مسجد أحمد بك أورنوس في يانيس فردار باليونان ٨٩٦هـ ـ ١٤٩٠م.

أما مسجد المرادية في مغنيسة (مانيسا) ٩٩١ ـ ٩٩٤هـ ـ ١٥٨٣ ـ ١٥٨٥م، فهو من النماذج القليلة الباقية التي يشتمل قلب المسجد فيها على قبة مركزية وسطى، يتقدمها قبو جهة القبلة، وفي الجناحين قبوات، بواقع قبو بكل

جناح. ويتقدم هـذا المسجد رواق خـارجي (سقيفـة) مغطى بخـمس قباب صغيرة متساوية.

ج ـ النموذج الثالث:

وهو يشبه النموذج الأول، إلا أن الإضافـة لم تقتصر على زيادة عمق المسجد من جهة القبلة (الجنوب) (كما هو الحال في النموذج الأول) فحسب، وإنما شملت ـ أيضًا ـ الجهة المقابلة (الشمال)، وذلك بإضافة نصف قبة ثانية تتقدم القبة الوسطى المركزية من هذه الجهة (الشمال)، وعلى جانبيها قبتان صغيرتان، بواقع قبة بكل جانب، وبذلك صار قلب المسجد في هذا النموذج يشتمل على قبـة مركزية وسطى يحـيط بها من الجـنوب والشمال (المحـور الطولي) نصفا قبتين، أما الجناحان، فبهما ثمان قباب، بواقع أربع قباب بكل جناح، كما هو الحال في مسجد السلطان بايزيد بإستانبول ٩١١هـ ـ ١٥٠٥م، أو عشر قباب بواقـع خمس قباب بكـل جنـاح؛ كمـا هو الحـال في مسجد السليمانية بإستانبول ٩٥٧ ـ ٩٦٥هـ ـ ١٥٥٠ ـ ١٥٥٧م، ومن الملاحظ: أن هذه القباب العشر قد رتبت بالتبادل، وذلك بواقع قبة كبيرة تليها قبة صغيرة، وهكذا، وهو أسلوب جذاب غير مألوف في قباب رواقي الجناحين قبل عهد المعمار سنان (شكل ٢٩٣) (لوحتا ١٨٩ ـ ١٩٠).

ويتقدم كلاً من مسجدي السلطان بايزيد والسليمانية حرم.

ومن النمـاذج المتميزة: مسجـد قليـج على باشا بإستانبـول ٩٨٨هـ ـ ١٥٨٠م، ويشتمل القلب على القبة، ونصفي القبتين، أما الجناحان، فيغطي كلاً منهما أقبية متقاطعـة بواقع أربعة أقبية بكل جناح، ويتقـدم هذا المسجد

رواق خارجي (سقيفة)، وغير ذلك من السمات التي سنعرض لها في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

د ـ **النموذج الرابع:**

وهو يشبه النموذج الثالث، إلا أنه يختلف عنه في أسلوب التغطية؛ حيث أصبحت عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أنصاف قباب غالبًا، أو أربعة أقبية أحياناً، فضلاً عن وجود أربع قباب صغيرة في الأركان (بواقع قبة بكل ركن) غالبًا، أو أربعة أقبية أحياناً.

ومن أقدم الأمثلة الباقية في العمارة الإسلامية: مسجد خزار قرب بخارى، ويؤرخ بالقرن ٥هـ ـ ١١م (عصر القرة خانيين بآسيا الوسطى)، وهو عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أقبية، فضلاً عن أربع قباب صغيرة بالأركان.

ومنها: مسجد محمد چلبي في ديموتيقا باليونان ٨٢٤هـ ـ ١٤٢١م، ومسجد الفاتحية الصغيرة في أثينا باليونان ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٨م، والمسجد الكبير (أولو جامع) في البستان جنوب الأناضول، ويؤرخ بأواخر ق٩هـ ـ ١٥م أو أوائل ق١٠هـ ـ ١٦م، ومسجد فاتح باشا بديار بكر ٩٢٢ ـ ٩٢٧هـ ـ ١٥١٦ ـ ١٥٢٠م، وجامع سيدي محرز في تونس (يقع في حي باب السويقة)، ويؤرخ فيما بين عامي ١١٠٤ ـ ١١١١هـ ـ ١٦٩٢ ـ ١٦٩٩م[1].

ويتقدم الأمثلةَ السابقةَ، باستثناء مسجد خزار قرب بخارى، رواق

---

(١) عبد الحافظ، عبدالله عطية، **دراسات في الفن التركي**، القاهرة (٢٠٠٧م)، ص٣٦٠ ـ ٣٨٢.

خارجي (سقيفة) مغطى بثلاث قباب في مسجد محمـد چلبي، وخمس قباب في مسجد الفاتحية الصغير، وسبع قباب في مسجد فاتح باشا، وثلاثة أقبية متقاطعة في مسجد البستان.

أما جامع سيدي محـرز بتونس، فبرغم أنـه صمم وفق هذا النموذج، إلا أنه ينفرد بوجود ثلاثة أروقة تحيط به من الخارج من ثلاثة جهات عدا جهة القبلة، وعلى ذلك يعـد الجامع الوحيـد المعـروف حتى الآن لهذا النموذج في العمارة الإسلامية عامة، وخلال العصر العثماني خاصة.

ومن النمـاذج الأخرى: مسجـد لالـه مصطفى باشا بأرضروم ٩٧٠ ـ ٩٧١هـ ـ ١٥٦٢ ـ ١٥٦٣م، وهو عبارة عن قبة مركزية تحيط بها أربعة أقبية، فضلاً عن أربع قباب صغيرة في الأركان والرواق الخارجي (السقيفة) المغطى بخمس قباب صغيرة متماثلة.

ومسجد نصوح باشا بديار بكر ١٠١٥ ـ ١٠٢٠هـ ـ ١٦٠٦ ـ ١٦١١م، وهو عبارة عن قبة مركزيـة وسطى تحيط بها أربعة أقبية متقاطعة، فضلاً عن أربعة أقبية متقاطعة أخرى في الأركان الأربعة، ويخلو هذا المسجد من وجود الرواق الخارجي (السقيفة).

وكذالك صممت مكتبة راغب باشا بإستانبول ١١٧٦هـ ـ ١٧٦٢م وفقَ هذا النموذج، وهي عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أقبية، فضلاً عن أربع قباب صغيرة في الأركان الأربعة والرواق الخارجي (السقيفة) المغطى بقبتين صغيرتين جانبيتين يتوسطهما قبو.

٥ ـ النمط الخامس:

وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة في العمارة

الإسلامية؛ حيث تم توسيع أو زيادة المساحة الداخلية للمسجد عن طريق إضافة أربعة إيوانات أو دخلات صغيرة غير عميقة في أغلب الأحيان ـ ولكنها أكثر امتداداً ـ تحيط بمربع القبة من جهاته الأربع، وفي هذه الحالة تشرف هذه الإيوانات أو تلك الدخلات الصغيرة على المساحة الوسطى من خلال أربعة عقود (أقواس) تحصر فيما بينها ـ أي: في كوشاتها ـ منطقة الانتقال التي تقوم فوقها قبة المسجد، (وهى لا تخرج بطبيعة الحال عن أي من مناطق الانتقال المشار إليها من قبل).

وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة للغاية، ومنها: مسجد أورخان غازي في بيلاچك ٧٥٧ ـ ٧٧٦هـ ـ ١٣٥٦ـ ١٣٧٤م، ومسجد خوجه Hoca Yadigar في اينونو Inonü ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م، والمسجد العتيق أو القديم (أسكي جامع) في يامبول ببلغاريا، وقد رجحنا تأريخه بالربع الأخير من ق٨هـ ـ ١٤م، أو العقد الأول من ق٩هـ ـ ١٥م.

ومسجد أحمد كتخدا العزب خلف باب العزب بقلعة القاهرة ١١٠٩هـ ـ ١٦٩٧م، (شكل ١١١)، ومسجد خان Han Cami في طلاس بالأناضول ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٩م. (شكل ٢٨٢).

وقد أثبتنا في دراسة سابقة: أن هذا النمط من التخطيط قد عرف كذلك في العمائر الجنائزية، كما هو الحال في تصميم القبة الملحقة بمدرسة الأمير صرغتمش (بجوار جامع أحمد بن طولون بشارع الصليبة بالقاهرة)، ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م (شكلا ١٣١، ١٦٩)، والقبة الملحقة بمدرسة الأمير إينال اليوسفي (بالخيامية بالقاهرة) ٧٩٤ ـ ٧٩٥هـ ـ ١٣٩١ ـ ١٣٩٢م، وقبة الشيخ علي الروبي بالفيوم ١١٢٠هـ ـ ١٧١٧م.

وهو الأمر الذي يضيف قرينة جديدة على مدى ملاءمة التخطيط في العمارة الإسلامية لتأدية أكثر من وظيفة ـ كما سبق القول ـ.

٦ ـ **النمط السادس:**

وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة في العمارة الإسلامية، وفيه تمت الإضافة خارج كيان المساحة الداخلية للمسجد عن طريق زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة (بلاطات) تحيط بمربع القبة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة.

ويغطي هذه الأروقة قباب صغيرة، ومن الملاحظ: أنه يتوسط صدرَ كل رواق من الرواقين الجانبيين لهذه الزيادة محراب صغير غالبًا.

وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة للغاية، ومنها: مسجد لاري چلبي بأدرنة (تركيا) ٩٢٠هـ ـ ١٥١٤م، وجامع سنان باشا ببولاق بالقاهرة ٩٧٩هـ ـ ١٥٧١م، ومسجد ومدرسة علي باشا بالهفوف (الأحساء) بالمملكة العربية السعودية ٩٧٩هـ ـ ١٥٧١م، والجامع الخزفي في أسكدار بإستانبول ١٠٥٠هـ ـ ١٦٤٠م، وجامع محمد بك أبو الدهب (تجاه الأزهر بالقاهرة) ١١٨٨هـ ـ ١٧٧٤م. (أشكال ١٠٩ ـ ١١٠، ٢٨٣) (لوحة ٤٥).

أما المسجد الملحق بمشهد الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م، فهو ينتمي إلى طراز المسجد القبة بنمطه البسيط، ولكن أضيفت له في عام ١٠٨٥هـ ـ ١٦٧٤م زيادة بأمر الوزير حسين باشا السلحدار، وتحيط هذه الزيادة بالمسجد من ثلاث جهات عدا جهة القبلة، وتتكون هذه الزيادة من رواقين بكل جهة، لا رواق واحد كما هو الحال في النماذج المشار إليها سابقًا. (شكل ٢٥).

وقد أثبتنا في دراسة سابقة: أن هذا النمط قد عرف هو الآخر في تصميم العمائر الجنائزية في العمارة الإسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ومن أمثلة ذلك: نموذج المقبرة رقم ٤٢ من مقابر جبانة أسوان جنوب مصر، وتؤرخ بعصر الولاة قبل ٢٥٤هـ ـ ٨٦٨م، ثم استمر ذلك النمط خلال العصر الفاطمي، ولا سيما في تصميم المشاهد، ومنها: مشهد كلثوم (كلثم) ٥١٦هـ ـ ١١٢٢م، ومشهد القاسم الطيب، ويؤرخ بمنتصف ق٦هـ ـ ١٢م، ومشهد يحيى الشبيه حوالي ٥٤٥هـ ـ ١١٥٠م، بالقرافة جنوب الإمام الشافعي بالقاهرة.

وهو الأمر الذى يضيف قرينة جديدة على مدى ملاءمة التخطيط في العمارة الإسلامية لتأدية أكثر من وظيفة ـ كما سبق القول ـ.

*** الطراز السابع**[1]:

ويعرف بالطراز التركي أو العثماني، ونفضل نحن تسميته بالطراز التقليدي (أو الكلاسيكي) العثماني، ويشتمل جوهر التخطيط العام في هذا الطراز في أن المسجد أو الجامع صار يتكون من قسمين رئيسيين، أحدهما مغطى، ويمثل المسجد نفسه (Harem) (وهو ما يعرف خطأ في الدراسات الأجنبية والمعرّبة والعربية باسم بيت الصلاة)، والآخر مكشوف (وهو ما يعرف في الاصطلاح باسم الحرم Avlu, Harem كما سبق القول).

والحق، فإن هذا الطراز لا يقتصر فقط على النموذج المثالي له، وهو

---

(١) عن هذا الطراز بنماذجه المختلفة انظر: دراساتنا المنشورة، وما بها من مراجع متعددة، ومنها: بحوث ودراسات (الكتاب الأول)، ص١٤٩ ـ ١٦٢؛ موسوعة، **المدخل**، ص٩٣ ـ ١٠٣، **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، المجلد الأول، ص٢٠٧ ـ ٢٢٠.

النموذج الذي يشتمل على القبة المركزية، وأنصاف القباب الأربع، والقباب الأربعة الصغيرة في الأركان (كما هو شائع في غالبية الدراسات المنشورة) فحسب، وإنما يندرج تحت هذا الطراز كل النماذج التي أضيف إليها حرم (بدلا من الرواق الخارجي أو السقيفة)، سواء أكانت تتبع طراز المسجد القبة بنمطه البسيط، أو بأنماطه المتطورة التي سبقت الإشارة إليها، أو طراز المسجد على هيئة حرف T.

وعلى ذلك نستطيع أن نحصر هذا الطراز في النماذج التالية:

أ ـ النموذج الأول:

وهو عبارة عن النمط البسيط الأول (مسجد قبة)، ولكن يتقدمه حرم، ومن أمثلة ذلك: مسجد الخنكار في سراييفو (بوسنة سراي) ٨٦٦هـ ـ ١٤٦٣م، ومسجد بايزيد ضمن مجمعه بأدرنة ٨٨٩ ـ ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٤ ـ ١٤٨٨م، (شكلا ٢٨٤ ـ ٢٨٥)، ومسجد السليمية (سليم الأول) بإستانبول ٩٢٩هـ ـ ١٥٢٢م.

ب ـ النموذج الثاني:

وهو عبارة عن النمط الثالث (النمط المعروف بالقلب والجناحين) يتقدمه حرم، ومن أمثلة ذلك: مسجد أوچ شرفلي بأدرنة ٨٤١ ـ ٨٥١هـ ـ ١٤٣٧ ـ ١٤٤٧م، ومسجد جوزليج حسن بك في خير أبولو ٩٠٥هـ ـ ١٥٩٩م (أشكال ٢٨٩ ـ ٢٩١)، والمدرسة السكندرية في زبيد باليمن قبل ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م (شكل ١٦).

ومنها: مسجد السليمية (سليم الثاني) في أدرنة ٩٧٦هـ ـ ٩٨٣هـ ـ ١٥٦٩ ـ ١٥٧٤م، ويمثل آخر إبداعات وتجليات المعمار العظيم قوجه

سنان. (شكل ٢٨٦) (لوحة ١٩٢)، ومسجد الوالدة الجديد في أسكدار بإستانبول ١١٢٠ ـ ١١٢٢هـ ـ ١٧٠٨ ـ ١٧١٠م.

ومنها: مسجد الدرويشية بدمشق ٩٨٢هـ ـ ١٥٧٤م (شكل ٦٦)، (لوحتا ٤٦٣ ـ ٤٦٤)، ومسجد سنان باشا بدمشق ٩٩٥ ـ ٩٩٩هـ ـ ١٥٨٦ ـ ١٥٩٠م، (شكل ٦٥)، (لوحتا ٤٦٥ ـ ٤٦٧)، ومن الملاحظ في هذه المساجد الأربعة الأخيرة اختلاف تصميم الجناحين أو الرواقين الجانبيين عن النماذج السابقة؛ فضلاً عن بعض السمات والخصائص الأخرى التي ينفرد بها كل مسجد، وهو ما سنشير إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

ج ـ النموذج الثالث:

وهو عبارة عن النموذج الثاني من النمط الرابع، ولكن يتقدمه حرم، ومن أمثلة ذلك: مسجد الملكة صفية بالداودية بالقاهرة ١٠١٩هـ ـ ١٦١٠م، (شكل ١٥٥).

د ـ النموذج الرابع:

وهو عبارة عن النموذج الأول من النمط الرابع، ولكن يتقدمه حرم، ومن أمثلة ذلك: مسجد الفاتح القديم (قبل تجديده عام ١١٨٥هـ ـ ١٧٧١م) ٨٦٧ ـ ٨٧٥هـ ـ ١٤٦٢ ـ ١٤٧٠م (شكل ٢٩٢).

هـ ـ النموذج الخامس:

وهو عبارة عن النموذج الثالث من النمط الرابع، ولكن يتقدمه حرم، ومن أمثلة ذلك: مسجد بايزيد بإستانبول ٩١١هـ ـ ١٥٠٥م، ومسجد السليمانية بإستانبول ٩٥٧ ـ ٩٦٥هـ ـ ١٥٥٠ ـ ١٥٥٧م، (شكل ٢٩٣، لوحتا ١٨٩ ـ ١٩٠).

و ـ النموذج السادس :

وهو عبارة عن النموذج الرابع من النمط الرابع، ولكن يتقدمه حرم، ويمثل هذا النموذج النموذج المثالي للطراز التقليدي (أو الكلاسيكي) في العمارة الإسلامية خلال العصر العثماني، ويحلو للبعض تسميته بالطراز الإمبراطوري، ومن أمثلته: جامع شاهزاده بإستانبول ٩٥١ ـ ٩٥٥هـ ـ ١٥٤٤ ـ ١٥٤٨م، وجامع السلطان أحمد الأول المعروف بالجامع الأزرق بإستانبول ١٠١٨ ـ ١٠٢٧هـ ـ ١٦٠٩ ـ ١٦١٧م، (لوحة ١٩١)، وجامع الوالدة الجديد (يني جامع) بإستانبول ١٠٢٣ ـ ١٠٧٤م، ١٦١٤ ـ ١٦٦٣م، وجامع السلطان محمد الفاتح بإستانبول بعد تجديده عام ١١٨٥هـ ـ ١٧٧١م (أشكال ٢٩٤ ـ ٢٩٧)، وجامع محمد علي بقلعة القاهرة ١٢٤٦ ـ ١٢٦٥هـ ـ ١٨٣٠ ـ ١٨٤٨م. (شكل ١٥٦) (لوحتا ٤٦ ـ ٤٧).

ز ـ النموذج السابع :

وهو عبارة عن طراز المسجد على هيئة حرف T، ولكن يتقدمه الحرم (بدلاً من الرواق الخارجي أو السقيفة)، والمعروف منه حتى الآن ـ فيما أعلم ـ أنموذج وحيد باق بالقاهرة، وهو مسجد سليمان باشا المعروف بجامع سيدي سارية بقلعة القاهرة ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨م (شكل ١٥٤).

* * *

المبحث الثاني
المدارس

دارت مناقشات عديدة بين العلماء والباحثين حول أصل المدرسة

ونشأتها في الحضارة الإسلامية بصفة عامة من جهة، وحول العوامل التي كانت وراء ظهورها وانتشارها في العمارة الإسلامية بصفة خاصة من جهة ثانية؛ بل وحول نظم تخطيطها ومصادرها وأصوله من جهة ثالثة.

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة كل الآراء والنظريات التي انتهى إليها العلماء والباحثون[1]، ولذلك سوف نؤجل مثل هذه الدراسة المطولة إلى كتابنا المفصّل بمشيئة الله تعالى.

ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى أن المدرسة ـ من حيث كونها كياناً معماريًا مستقلاً ـ تعد طرزًا مستحدثًا، بعد المساجد، في العمارة الدينية الاسلامية؛ فلم يكن يعرف قبل القرن ٢هـ ـ ٨م؛ ثم لم تلبث أن انتشرت في مدن المشرق

---

(١) حسبنا أن نحيل القارئ والمتخصص إلى بعض الدراسات التي دارت حول هذه الموضوعات، ومنها: فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ج٢، **العصر الأيوبي**، القاهرة (١٩٦٩م)، ص٩٩ ـ ١٩٢ ـ شميساني، حسن، **مدارس دمشق في بيروت** (١٩٨٣م)، ص١٠ ـ ١٥؛ سعد الدين، محمد منير، **المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى**، بيروت ـ صيدا (١٩٩٥م)؛ الديوه جي، سعيد، **التربية والتعليم في الإسلام**، الموصل (١٩٨٢م)؛ معروف، ناجي، **نشأة المدارس المستقلة في الإسلام**، بغداد (١٩٦٦م)؛ حيدر، كامل، **العمارة العربية الإسلامية**، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، بيروت (١٩٩٥م)، رؤوف، عماد عبد السلام، **مدارس بغداد في العصر العباسي**، بغداد (١٩٦٦م)؛ المقدسي، جورج، **نشأة الكليات، معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب**، ترجمة محمود سيد محمد، مراجعة وتعليق: محمد علي حبشي، وعبد الوهاب أبو سليمان، جدة (١٩٩٤م)؛ الجاسر، لمياء، **مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها**، حلب (٢٠٠٠م)، ص٢٤ ـ ٧٦.

الإسلامي خلال القرن ٤هـ ـ ١٠م، فها هو المقدسي الذي كتب كتابه الموسوم بـ: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» عام ٣٧٥هـ ـ ٩٨٥م، يذكر في مقدمته: أنه قد أمَّ في المساجد، واختلف إلى المدارس، وأكل مع أهل الخانقاوات الثرائد[١].

وفي بعض المصادر التاريخية الأخرى أسماء لعدد من المدارس التي أنشئت في المشرق خلال القرن ٤هـ ـ ١٠م[٢].

واستمر ذلك الانتشار خلال القرن ٥هـ ـ ١١م، إلا أن التطور المهم في ذلك الوقت يتمثل في أن المدارس أصبحت مؤسسات سياسية تخضع للإشراف الرسمي للدولة، وكان وراء هذا التطور: الوزير نظام الملك الطوسي (ت٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢م) الذي أمر بإنشاء عدة مدارس عرفت كلها بالنظامية، نسبة إلى لقبه، وكانت أقدمها وأولها نظامية بغداد ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٦م، وتلتها مدارس نظامية أخرى في البصرة والموصل وأصبهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وبلخ[٣].

---

(١) المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبعة بريل (١٩٠٦م)، ص٤٤.

(٢) انظر: الدراسات المذكورة في: الحاشية (رقم: ١٠٧)، وانظر ـ أيضًا ـ: معروف، ناجي، **مدارس قبل النظامية**. مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٢، بغداد (١٩٧٣م)، ص١١١ ـ ١٥٥ (وفية إحصاء لعدد ٣٣ مدرسة بنيت قبل النظامية).

(٣) السبكي، أبو نصر عبد الوهاب، (ت٧٧١هـ ـ ١٣٧٠م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٤، القاهرة (١٩٠٦م)، ص٣١٣ ـ ٣١٤؛ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج١، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة (١٩٥٦م)، ص٦٢ ـ ٦٣.

وبعد ذلك انتشرت المدارس في دار الإسلام انتشارًا كبيرًا، وهو ما يستدل عليه من خلال ما ورد في المصادر التاريخية المختلفة؛ فضلاً عن الأدلة المادية الآثارية الباقية.

ومهما يكن من أمر، فإن إنشاء المدارس كان بداية عهد جديد في تطور العمارة الإسلامية ـ وبخاصة العمائر الدينية ـ من جهة، وفي ازدهار الحركة العلمية في أقطار العالم الإسلامي من جهة ثانية.

وفيما يلي نتحدث عن أهم وأشهر الطرز التي صممت على أساسها عمارة المدارس في الأقطار الإسلامية المختلفة.

١ ـ مصر:

من المعروف أن المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر في أواخر العصر الفاطمى في الإسكندرية أولاً، ثم في القاهرة ثانيًا[١]، وخلال العصر الأيوبي أنشئت بمصر ٢٥ مدرسة، منها ٢٢ مدرسة بالقاهرة، و٢ مدرسة بالفيوم، ومدرسة واحدة بالإسكندرية، ولم يتبق منها جميعًا سوى بقايا مدرستين، وهما: دار الحديث الكاملية (بشارع النحاسين) ٦٢٢هـ ـ ١٢٢٥م، والمدارس الصالحية النجمية (بذات الشارع) ٦٣٩ ـ ٦٤١هـ ـ ١٢٤١ ـ ١٢٤٣م[٢].

وفي العصر المملوكي بني بمصر من المدارس ما لا يحيط به أحد

---

(١) سيد، أيمن فؤاد، **المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي**، ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٠م)، ص١١٤ ـ ١٢٦.

(٢) فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، (٢/ ٤٩ ـ ٧٥)؛ صبرة، عفاف سيد، **المدارس في العصر الأيوبي**، ضمن كتاب تاريخ المدارس المشار إليه ص١٤٣ ـ ٢٠٤؛ الحداد، محمد حمزة، **بحوث ودراسات (الكتاب الأول)**، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

لكثرتها، على حد قول الرحالة ابن بطوطة[1]، وقد بني منها بالقاهرة وحدها «ما ملأ الأخطاط (الأحياء) وشحنها» على حد قول القلقشندي[2]. إلا أنه لم يتبق من كل ذلك سوى ٤٨ مدرسة بالقاهرة؛ ولو أضفنا إليها المدارس الأربع الفرعية الملحقة بمدرسة السلطان حسن، يصير العدد الكلي للمدارس الباقية ٥٢ مدرسة مملوكية[3].

ونستطيع أن نحصر تخطيطات هذه المدارس الباقية في ثلاثة أنواع رئيسية، وهي:

ـ التخطيط الإيواني[4]:

يعد هذا النوع من التخطيط أكثر أنواع التخطيطات شيوعًا وانتشارًا، حيث يبلغ عدد المدارس المصممة وفق ذلك النوع ٤٤ مدرسة مملوكية؛ فضلاً عن بقايا المدرستين الأيوبيتين المشار إليهما.

---

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، (ت٧٧٩هـ ـ ١٣٧٧م)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة برحلة ابن بطوطة**، بيروت، ط٢، د ت، ص٣٣.

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ ـ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (٣/ ٣٦٨).

(٣) الحداد، محمد حمزة، **بحوث ودراسات** (الكتاب الأول)، ص٢١٢ حاشية ١.

(٤) عن هذا النوع من التخطيط بنماذجه الخمسة الرئيسية التي ترجع إلى العصر المملوكى انظر: دراستنا المطولة الموسومة بـ: **«العلاقة بين النقش التأسيسي والوظيفة والتخطيط المعماري لمدارس القاهرة في العصر المملوكي»**، ضمن كتابنا: بحوث ودراسات، المشار إليه ص٢٢٢ ـ ٢٢٥.

ويمكـن أن نحصر تخطيطات هـذا النوع فـي خمسة نمـاذج رئيسية، وذلك على النحو التالي:

أ ـ النموذج الأول:

وهـو عبارة عن صحـن (أو درقاعـة) أوسط مكشوف تحيط بـه أربعة إيوانات، أكبرها وأعمقهـا إيوان القبلة غالبًا، ومن أمثلتـه الباقيـة: كل من: مدرسة الناصر محمـد (بالنحاسين) ٧٠٣م/ ١٣٠٣م، ومـدرسة صرغتمش (بجوار جامع ابن طولون) ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧ ـ ٧٦٤هـ ـ ١٣٥٦ ـ ١٣٦٢م، ومدرسة خوند بركة (أم السلطان شعبان) (بالتبانة) ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٨م، ومدرسة أولجاي اليوسفي (بشارع سوق السلاح) ٧٧٤هـ ـ ١٣٧٢م، ومدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (بالنحاسين) ٧٨٦ ـ ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦م، ومدرسة جمال الدين يوسف الأستادار (بالجمالية) ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م، ومـدرسـة الأشرف برسباي (بالصاغـة) ٨٢٦ ـ ٨٢٩هـ ـ ١٤٢٢ ـ ١٤٢٥م، ومدرسة عبد الغني الفخري (جامع البنات) بشارع بور سعيد ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م، ومدرسة القاضي عبد الباسط (بالخرنفش) ٨٢٣هـ ـ ١٤٢٠م. (أشكال ١٣١ ـ ١٣٦، ٣٩٤) (لوحات ٥٣ ـ ٥٤، ٥٩ ـ ٦٣، ٦٥).

ب ـ النموذج الثاني:

وهو عبارة عن صحن (أو درقاعـة) أوسط مكشوف أو مغطى، يحيط به إيوانان رئيسيان هما: الإيوان القبلي (الجنوبي الشرقي)، والإيوان البحري (الشمالي الغربي)، وسـدلتان جانبيتان (أي: إيوانان صغيران همـا الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي)، ومن أمثلته الباقية: كل من: مدرسة قلاوون (قبل تغيير معالمها) ٦٨٣ ـ ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥م، كمـا يستدل من الوثيقة،

ومدرسة مثقال (بدرب قرمز) ٧٦٣هـ ـ ١٣٦١م، ومدرسة جوهر اللالا (بدرب اللبان) ٨٣٣هـ ـ ١٤٢٩م، والمدرسة الجوهرية الملحقة بالأزهر قبل ٨٤٤هـ ـ ١٤٤٠م، ومدرسة تغري بردي بالصليبة ٨٤٤هـ ـ ١٤٤٠م، ومدرسة جقمق (بدرب سعادة ٨٥٥هـ ـ ١٤٥١م، ومدرسة السلطان إينال (بقرافة الغفير) ٨٦٠هـ ـ ١٤٥٥م، ومدارس السلطان قايتباى الثلاث: (بالقرافة) ٨٧٧ ـ ٨٧٩هـ ـ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤م، والثانية (بقلعة الكبش) ٨٨٠هـ ـ ١٤٧٥م، والثالثة (بالمنيل) ٨٨٦ ـ ٨٩٦هـ ـ ١٤٨١ ـ ١٤٩٠م، ومدرسة أبو بكر مزهر (بحارة برجوان) ٨٨٤هـ ـ ١٤٧٩م، ومدرسة أزبك اليوسفي (ببركة الفيل) ٩٠٠هـ ـ ١٤٩٤م، ومدرسة قاني باي أمير آخور (بدرب اللبان) ٩٠٨هـ ـ ١٥٠٢م.

ومدرسته الأخرى (بالناصرية) ٩١١هـ ـ ١٥٠٥م، ومدرسة الغوري (بالغورية) ٩٠٩ ـ ٩١٠هـ ـ ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م، ومدرسة قرقماس أمير كبير (بقرافة الغفير) ٩١١ ـ ٩١٣هـ ـ ١٥٠٥ ـ ١٥٠٧م، ومدرسة بيبرس الخياط (بالجودرية) ٩٢١هـ ـ ١٥١٥م. (أشكال ١٠٠، ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٣٧ ـ ١٤٣) (لوحات ٥٢، ٦٩ ـ ٧٥، ٧٨).

ج ـ النموذج الثالث:

وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) أوسط مغطى غالبًا، ومكشوف أحياناً، يحيط به إيوانان رئيسيان هما: إيوان القبلة (الجنوبي الشرقي)، والإيوان البحري (الشمالي الغربي) المقابل له، ومن أمثلة المدارس ذات الصحون المكشوفة: كل من: مدرسة دار الحديث الكاملية ٦٢٢هـ ـ ١٢٢٥م، إلا أن الإيوان القبلي قد حل محله مسجد في العصر العثماني على يدي الأمير حسن كتخدا مستحفظان ١١٦٦هـ ـ ١٧٥٢م، (وهو الذي تطل واجهته على شارع

المعز الآن)، وقد أثبتت الحفائر الأثارية أنه كان يتقدم الحجرات في الضلعين الجانبيين للصحن رواق بكل جانب[1].

والمدرسة الشمالية، وهي الجزء المتبقي من المدارس الصالحية ٦٣٩ ـ ٦٤١هـ ـ ١٢٤١ ـ ١٢٤٣م، فضلاً عن الواجهة الغربية لكلا المدرستين الجنوبية والشمالية، ويتوسطها كتلة المدخل الرئيسي، وتعلوه المئذنة، وكانت هذه المدارس الصالحية هي أول المدارس التي خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة في مصر، بواقع مذهبين في المدرسة الجنوبية الدارسة (وهما: المذهب الحنفي، والمذهب الحنبلي)، ومذهبين في المدرسة الشمالية التي لا تزال بقاياها قائمة (وهما: المذهب الشافعي، والمذهب المالكي)، وثاني المدارس في دار الإسلام بعد المدرسة المستنصرية في بغداد ٦٣١هـ ـ ١٢٣٣م، كما سنشير فيما بعد. وكان يتقدم حجرات الضلعين الجانبيين للصحن رواق بكل جانب كما أثبتت الحفائر الأثارية.

هذا، وقد حل محل قاعة شيخ المالكية بالمدرسة الشمالية ضريح

---

(١) فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، ج٢، **العصر الأيوبي**، ص٥٥ ـ ٥٩؛ نويصر، **العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك**، ص٦٨ ـ ٧٥؛ العمري، **العمارة في مصر الإسلامية (العصرين الفاطمي والأيوبي)**، ص١١٨ ـ ١٢٢؛ يحيى، سوسن سليمان، **منشآت السيف والقلم في الجهاد الإسلامي، العمارة الأيوبية**، القاهرة (١٩٩٤م)، ص٩٨ ـ ١٠٥؛ موسى، رفعت، **معلومات جديدة عن نشأة المدرسة الكاملية ووظيفتها في العصر العثماني بمدينة القاهرة في القرن** (١١هـ ـ ١٧م)، مجلة كلية الآداب ـ جامعة حلوان، العدد (٧)، (يناير ٢٠٠٠م)، ص٥٦٧ ـ ٦٢٠.

للسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب أمرت بإنشائه له زوجته شجر الدر عقب وفاته في المنصورة (أثناء الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع) في منتصف شعبان ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م[1]. (شكل ١٢٣) (لوحة ٤٨).

أما المدارس المملوكية التي صممت وفق ذلك النموذج، فكلها ذات صحون مغطاة، ومن أمثلتها: كل من: مدرسة إينال اليوسفي ٧٩٤ ـ ٧٩٥هـ ـ ١٣٩١ ـ ١٣٩٢م، ومدرسة جمال الدين محمود الأستادار المعروفة بجامع الكردي (بالخيامية) ٧٩٧هـ ـ ١٣٩٥م، ومدرسة قاني باي المحمدي (بالصليبة) ٨١٦هـ ـ ١٤١٣م، ومـدرسة السويـدي (بمصر القديمة) ٨٢٩هـ ـ ١٤٢٦م، ومدرسة الجمـالي يوسف (بالحمزاوي) ٨٥٠هـ ـ ١٤٤٦م، ومـدرسة جانم البهلوان (بالسروجيـة) ٨٨٣هـ ـ ١٤٧٨م، ومدرسـة خاير بك (بباب الوزير) ٩٠٨هـ ـ ١٥٠٢م. (أشكال ١٢٤ ـ ١٢٦، ١٥٠ ـ ١٥١)، (لوحة ٧٧).

د ـ النموذج الرابع:

وهو عبارة عن صحـن (أو درقاعة) مكشوف أو مغطى، يشغل ضلعَه القبلي إيوان رئيس واحد هو إيوان القبلة، ومن أمثلة ذلك: المدارس الأربع الفرعية الملحقة بمدرسة السلطان حسن ٧٥٧ ـ ٧٦٤هـ ـ ١٣٥٦ ـ ١٣٦٢م، والمـدرسة البشيريـة ٧٦١هـ ـ ١٣٥٩م، ومدرسـة أيتمش البجاسي ٧٨٥هـ ـ

---

(١) فكري، مساجد، (٢/ ٤١)، ٦٠ ـ ٧٥؛ نويصر، **العمارة الإسلاميـة**، ص٧٦ ـ ٩٥؛ العمـري، **العمـارة فـي مصر**، ص١٢٣ ـ ١٣١، ١٧٠؛ يحيى، منشـآت، ص١٠٦ ـ ١١٩، ١٤٤؛

Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, PP. 87 - 91.

١٣٨٣م، ومدرسة فيروز الساقي ٨٣٠هـ ـ ١٤٢٦م، أما مدرسة قطلوبغا الذهبي ٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧م، فإن إيوانها الرئيسي يشغل الضلع الشمالي الغربي للصحن أو للدرقاعة، أما صدر الصحن أو الدرقاعة، فيتوسطه المحراب (وهو من الأمثلة النادرة لهذا الوضع) (أشكال ١١٨ ـ ١٢٠، ١٣٢ ـ ١٣٣).

هـ ـ النموذج الخامس:

وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به ثلاثة إيوانات؛ كما هو الحال في مدرسة تتر الحجازية (شكل ١٢٨) (بحبس الرحبة بالجمالية) ٧٦١هـ ـ ١٣٥٩م، وهي أنموذج فريد في عمارة المدارس المصرية الإسلامية. وإذا كانت المدارس المشار إليها سابقًا تكاد تتفق مع بعضها البعض في المميزات العامة والتخطيط العام (حسب النموذج الذي تنتمي إليه كل مدرسة)، إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث بعض العناصر والمفردات والتفاصيل والملحقات؛ فضلاً عن الخلاوي والطباقات وغير ذلك؛ أو بمعنى آخر: فإن لكل مدرسة منها شخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابعًا خاصًا مميزًا لها خاص بها.

وأعظم هذه المدارس هي مدرسة السلطان حسن الشهيرة (٧٥٧ ـ ٧٦٤هـ ـ ١٣٥٦ ـ ١٣١٢م) (أشكال ١٣٢ ـ ١٣٤، لوحات ٥٩ ـ ٦٣)، وليس في مصر وحدها، بل في عمارة المدارس الإسلامية عامة، وصدق فيها قول القائل:

في جامعِ السلطانِ قُم يا من أَتى ... مصرًا وطُفْ سعيًا بذَيَّاك الحَرَمْ

وانظر بناءً ينجلي للناس في ثوب ... الشبابِ واطَّرِحْ ذِكْرَ الهَرَمْ

ـ التخطيط المتأثر بالتخطيط العربي التقليدي للمساجد الإسلامية[1] :

وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) مكشوف أو مغطى، ومقدم ومؤخر ومجنبتين، ومن أمثلته: المدرسة الأقبغاوية (الملحقة بالأزهر) ٧٤٠هـ ـ ١٣٣٩م، ومدرسة قاني باي الچركسي ٨٤٥هـ ـ ١٤٤١م.

والمدرسة الأولى عبارة عن درقاعة وسطى مغطاة تحيط بها أربعة أروقة (بلاطات)، بواقع رواق واحد بكل من المقدم والمؤخر والمجنبتين، وتشرف هذه الأروقة (البلاطات) الأربعة على الدرقاعة ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس) أوسطها أوسعها. (شكل ١٠٠)،

أما المدرسة الثانية، فهي تشبه المدرسة الأولى، إلا أن الدرقاعة مكشوفة، فضلاً عن أن المجنبتين تشرفان عليها ببائكة ذات عقدين فقط، وليس ثلاثة كما هو الحال في الأقبغاوية، أما بائكتا المقدم والمجنبتين، فمتماثلتان في كلا المدرستين من حيث الإشراف على الدرقاعة بثلاثة عقود.

ـ التخطيط المتأثر بالتخطيط العربي غير التقليدي للمساجد الاسلامية[2] :

وهو التخطيط الذي اصطلحنا على تسميته بـ: التخطيط ذي الأروقة دون الصحن الأوسط أو الدرقاعة، ومن أمثلة ذلك: المدرسة البندقدارية (بالسيوفية)، وتعرف بزاوية الآبار ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م، والمدرسة الطيبرسية (الملحقة بالأزهر) ٧٠٩هـ ـ ١٣٠٩م (شكلا ١٠٠، ١٠٤).

أما عن تقرير أي درس من الدروس، بل وأي وظيفة من الوظائف في

---

(١) الحداد، **العلاقة**، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) الحداد، **العلاقة**، ص٢٢٦.

المدارس السابقة، فكـان يتوقف أولاً وأخيرًا على رغبة الواقف وإمكانياته، فهو وحده الذي كان يقرر الدروس والوظائف في منشآته، أيا كان نوع التخطيط الـذي صممت على أساسه من الأنواع الثلاثـة السابقة، وفي ضوء ذلك فإنه لا يصح مطلقًا الربط بين عـدد الإيوانات في المدرسة، وبين عدد المذاهب التي كانت تدرس بها؛ كما هو شائع في العديد من الدراسات، ويؤيد ذلك الحقائق التالية:

أ ـ لم يقتصر تـدريس المـذهب الواحـد على المـدارس ذات الإيوان الواحـد؛ مثل: البقريـة، وأيتمـش، بل درس ـ أيضًا ـ فـي المـدارس ذات الإيوانين؛ مثل: مـدرسة السويـدي، وذات الأربعـة إيوانات؛ مثل مدرسة صرغتمش، بل وفي مـدارس صممت وفـق التخطيط العربي غير التقليـدي للمساجد الإسلامية؛ مثل: المدرسة الطيبرسية بالأزهر الشريف.

ب ـ لم يقتصر تدريس المذهبين على المدارس ذات الإيوانين؛ مثل: مدرسة قاني باي المحمدي، بل درس في مدارس ذات ثلاثة إيوانات، مثل: مدرسة تتر الحجازية، ومدارس رباعية الإيوانات؛ مثل: أم السلطان شعبان، وأولجاي اليوسفي، بل وفي مدارس صممت وفق التخطيط العربي التقليدي للمساجد الإسلامية؛ مثل: المدرسة الأقبغاوية بالأزهر الشريف.

ومهما يكن من أمـر، فإنـه يمكن القول: إنه قـد حدث خلال العصر المملوكي في مصر نوع من التشابـه والتقارب المعماري بين العمائـر الدينية الثلاث الرئيسية (المساجـد ـ المدارس ـ الخوانق)، فلم يعد هناك ثمة فرق كبير بينها، سواء في التخطيط المعماري، أو في الوحدات والعناصر والمفردات والملحقات، وهو الأمر الذي كان له أثره الكبير في إيجاد ما يمكن أن يطلق

عليه تجاوزًا مصطلح التقارب الوظيفي، فأصبح المبنى الواحد بتخطيطه (سواء ذو الإيوانات، أو ذو الأروقة حول صحن أو دون الصحن) ملائمًا وصالحًا للقيام بالوظيفة أو الوظائف التي تقرر فيه، والتي كانت تتوقف أولاً وأخيرًا على رغبة الواقف وإمكانياته[1] ـ كما سبق القول ـ.

٢ ـ العراق:

من المعروف: أن المدارس انتشرت في العراق بدرجة كبيرة، فها هو الرحالة ابن جبير ـ الذي زار بغداد في أواخر ق٦هـ ـ ١٢م ـ يذكر أن المدارس بها «نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية... أشهرها وأعظمها النظامية...»[2].

إلا أنه لم يتبق من هذه المدارس سوى القليل، وحسبنا أن نشير إلى أهمها، وهي المدرسة الشرابية المعروفة بالقصر العباسي ٦٢٨هـ ـ ١٢٣٠م، (وتقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من وزارة الدفاع الحالية، ويفصل بينها وبين الوزارة جامع القلعة)[3]، والمدرسة المستنصرية ٦٣١هـ ـ ١٢٣٣م، وتقع بوسط بغداد الحالية على الضفة الشرقية لنهر دجلة قريبًا من رأس الجسر

---

(١) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر: دراستنا الموسومة بـ: «**العلاقة**» المشار إليها، ص٢٢٧ ـ ٢٦٨.

(٢) ابن جبير، **الرحلة**، ص١٨٣.

(٣) حيدر، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٥٠ ـ ٦٣؛ معروف، ناجي، **المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة**، بغداد، ط٢، (١٩٧٧م)، ص١٤٩ ـ ١٩٧؛ وعن القول بأن هذا المبنى هو القصر العباسي وليس المدرسة الشرابية انظر عبد الرسول، سليمة، **القصر العباسي في بغداد**، بغداد (١٩٨١م)، (٩٠ صفحة)؛ رجب، غازي، **العمارة العربية**، ص١٤٩ ـ ٢٥٧.

الشمالي المسمى بجسر الشهداء من جهته السفلى) (العصر العباسي)[1]، والمدرسة المرجانية ٧٥٨هـ ـ ١٣٥٦م (العصر الجلائري)[2] (أشكال ٣٠ ـ ٣٤، لوحة ٦).

ويرى بعض العلماء أن المشهد المعروف بمزار الأربعين في تكريت إنما هو مدرسة يرجح أنها أنشئت في أواخر ق٥هـ ـ ١١م[3]، أو الربع الأخير من ق٦هـ ـ ١٢م[4].

وبرغم ذلك، فإنه يمكن ـ في ضوء تلك النماذج القليلة الباقية ـ أن نحدد الخصائص العامة والسمات الرئيسية التي تميز طراز عمارة المدارس العراقية، وذلك على النحو التالي:

ويمكن القول ـ بادئ ذي بدء ـ: إن المدارس الثلاث الباقية في بغداد تكاد تتشابه فيما بينها من حيث الشكل العام، والتخطيط العام من طابقين،

---

(١) حيدر، العمارة، ص٧٤ ـ ١٠٠؛ الأعظمي، خالد خليل، **المدرسة المستنصرية في بغداد**، بغداد (١٩٨١م)، (٤٦ صفحة)؛ أمين، حسين، **المدرسة المستنصرية ببغداد**، بغداد (١٩٦٠م)؛ ص١٠٤ ـ ١١٦، معروف، ناجي، **تاريخ علماء المستنصرية**، جزءان، القاهرة، ط٣، (١٩٧٦م)؛ رجب، غازي، **العمارة العربية**، ص٢٦١ ـ ٢٧٧.

(٢) رجب، غازي، العمارة العربية، ص٣٦٩ ـ ٣٨١؛ النقشبندي، ناصر، **المدرسة المرجانية**، سومر، ج١، المجلد الثاني، (كانون الثاني ١٩٤٦م)، ص٣٣ ـ ١٢٦.

(٣) حميد، عبد العزيز، **عمارة الأربعين في تكريت**، مجلة سومر، المجلد ٢١، ج١ ـ ٢، بغداد (١٩٦٥م)، ص١٢٣ ـ ١٥٦؛ فكرى، **مساجد**، (٢/ ١٠١ ـ ١٠٣).

(٤) حيدر، **العمارة العربية**، ص٣٥ ـ ٤٩.

ومـا يشتمل عليـه من المساجـد والإيوانات والأروقـة، والقاعـات الكبرى والحجرات والغرف، والمجازات والدهاليز والمداخل، والسلالـم الصاعدة إلـى الطابق العلـوي؛ فضلاً عـن الأسقف والعقود والمقرنصات والنقـوش الكتابية والزخرفيـة، ومع ذلك نستطيـع أن نميز بين نمطين في عمـارة هذه المدارس، وهما:

١ ـ النمط المربع:

ويتمثل في كل من المدرسة الشرابية، والمدرسة المرجانية ببغداد (شكلا ٣٣ ـ ٣٤) فضلاً عن مشهد الأربعين في تكريت الذي يرجّح أنه كان مدرسة ـ كما سبق القول ـ.

ويشتمل هذا النمط على: صحن مكشوف يشغل ضلعه القبلي مسجد المدرسـة، ويقابله إيوان رئيسي واحـد يرتفع إلى مـا يوازي ارتفاع الطابقين في الشرابية والمرجانيـة، أما في الأربعين في تكريت، فلا نجد هذا الإيوان المقابل للمسجد، بل نجـد إيوانين صغيرين متقابلين فـي الضلعين الآخرين للصحن (وهما: الإيوان الشرقي، والإيوان الغربي).

وفي المدرسة الشرابية رواق يحيط بالصحن من ثلاث جهات عدا جهة القبلة (مسجد المدرسة)، وتوجد خلف هذا الرواق حجرات الطلبة، وتعلوها غرف في الطابق الأول، ويناهز عدد هذه وتلك الأربعين حجرة وغرفة.

والمسجـد في هذه المدارس الثلاث متشابه إلى حد كبير، فهو عبارة عن مساحـة مستطيلة تطل على الصحن بثلاثـة أبواب أو فتحـات، ويسقف هذه المساحة قبة في الوسط، وقبوان جانبيان، أو ثلاث قباب أوسطها أكبرها

وأكثرها ارتفاعًا، وهو نفس الطراز الذي شاع في غالبية مدارس حلب ـ كما سنشير فيما بعد ـ.

كذلك يتميز هذا النمط بوجـود مدافـن ذات قباب ملحقة بالمدارس؛ كما هو الحال في الأربعين بتكريت، والمرجانية ببغداد، أما الشرابية ببغداد، فتفتقر إلى مثل هذه القباب المدافن. وتنفرد المدرسة المرجانية ببغداد بوجود مئذنتين على جانبي كتلة المدخـل الرئيسي، وهو مـا لا نجـده في الأربعين بتكريت، أو الشرابية ببغداد، أو حتى المستنصرية ببغداد.

٢ ـ النمط المستطيل:

ويتمثل في المدرسة المستنصرية ببغداد ٦٣١هـ ـ ١٢٣٣م (أشكال ٣٠ ـ ٣٢، لوحة ٦)، وهي عبارة عن مساحة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب (المحور العرضي)، وتشتمل هـذه المساحـة في ضلعها القبلي على مسجد المدرسة، وهو يشبه مساجد المدارس الثلاث السابقة، ويقابل المسجد إيوان المدخل، وهو مـا لا نجـده في المدارس السابقـة، أمـا الضلعان القصيران للصحـن، فيشتملان على إيوانين صغيرين (همـا الإيوان الشرقي، والإيوان الغربـي) يشبهان إيوان مـدرسة الأربعين في تكـريت من حيث موضعهمـا، وتشغل حجرات المدرسة المساحات المحصورة بين الإيوانات والمسجد، وتعلوها غرف في الطابق الأول، ومن الملاحظ: أن حجرات الطابق الأرضي تفتح على الصحن مباشرة، بينما يتقـدم غرف الطابق الأول رواق مسقوف. ويبلغ عدد الحجرات والغرف في المستنصرية نحو المئة.

هذا، وتنفرد المستنصريـة عن المدارس المشار إليها باشتمالها على: دار للقرآن، ودار للحديث، ودار الشفاء (بيمارستان)، فضلاً عن كونها أول

مدرسة خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة في الحضارة الإسلامية، وكان يبلغ عدد طلاب هذه المذاهب ٢٤٨ طالبًا بواقع ٦٢ لكل مذهب، بالإضافة إلى ٣٠ طالبًا في دار القرآن، و١٠ طلاب في دار الحديث، و١٠ طلاب في دار الشفاء (البيمارستان)، فضلاً عن المدرسين والشيوخ والمعيدين والطبيب، وغيرِهم من أرباب الوظائف بالمدرسة[1].

والحق فإن المدرسة المستنصرية كانت من أعظم المدارس في الحضارة الإسلامية عامة، وفي العراق خاصة، وقد بلغت شهرتها وعظمتها درجة كبيرة، حتى قيل عنها: إنها «أعظم من أن توصف، وشهرتها تغني عن وصفها»، وقال آخر: «لم يعمر في الدنيا مثلها، فعمرت على أعظم وصف في صورتها وآلاتها، واتساعها وزخرفتها، وكثرة فقهائها وأوقافها»[2].

مما سبق يمكن القول: إنه إذا كانت المدارس العراقية قد صممت وفق الطراز الإيواني (سواء إيوان واحد، أو إيوانان أو ثلاثة إيوانات) إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية؛ مما أكسبها شخصية مستقلة، وطابعًا مميزًا لها.

٣ ـ سوريا:

من المعروف أن المدارس قد انتشرت كذلك في سوريا انتشارًا كبيرًا، وبخاصة في مدينتي دمشق وحلب، فها هو الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في أواخر القرن ٦هـ ـ ١٢م، يذكر ٢٠ مدرسة بدمشق، وقد أحصى النعيمي عام ٩٢٧هـ ـ ١٥٢٨م، بدمشق: ٦٠ مدرسة شافعية، و٥٢ مدرسة حنفية،

---

(١) انظر: ص٧٦ من هذا الكتاب.

(٢) ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج، (ت٦٨٥هـ ـ ١٢٨٦م)، **مختصر تاريخ الدول**، بيروت (١٩٥٨م)، ص٤٢٥.

و٤ مدارس مالكية، و١٠ مدارس حنابلة، و٣ مدارس للطب، و٧ دور للقرآن، و١٦ دارًا للحديث، و٣ دور للحديث والقرآن معًا، ويعود أغلبها إلى القرن ٧هـ - ١٣م، وفي حلب بلغ عدد المدارس في عهد أولاد صلاح الدين الأيوبي نحو ٤٤ مدرسة[١].

وأقدم مدرسة باقية في سوريا هي مدرسة كومشتكين (جامع مبرك الناقة) في بصرى ٥٣٠هـ - ١١٣٦م (شكل ٦٧)، وكانت مخصصة للمذهب الحنفي، وهي عبارة عن صحن أوسط مربع مغطى بقبة، وعلى ذلك فهي تعد أقدم مدرسة معروفة حتى الآن ذات صحن مغطى بقبة في العمارة الإسلامية على الإطلاق[٢]، وكان لهذه المدرسة أثرها على عمارة المدارس السلجوقية في الأناضول - كما سنشير فيما بعد -.

---

(١) الجاسر، **مدارس حلب**، ص٢٥ - ٢٦؛ ولمزيد من التفاصيل عن حركة إنشاء المدارس في سوريا خلال العصرين الزنكي والأيوبي، انظر: الجاسر، **مدارس حلب**، ص١٠٠ - ٢٥٨؛ شميساني، حسن، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، بيروت (١٩٨٣م)، (٢٨٤ صفحة)؛ مرسي، محمود مرسي، **العمارة الإسلامية بسورية**، الجزء الأول، **دور الحديث والمدارس الباقية بمدينة دمشق من العصرين الزنكي والأيوبي**، القاهرة (٢٠٠٥م)، (١٥٠ صفحة، فضلاً عن الأشكال واللوحات).

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١٩٧ - ١٩٨؛ الجاسر، **مدارس حلب**، ص٢٩ - ٣٠؛ حيدر، **العمارة**، ص١٠١؛ فكري، **مساجد القاهرة**، (٢/ ١٠٠ - ١٠١)؛ آصلان آبا، **فنون الترك وعمائرهم**، ص٥١؛

Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, vol 2, Oxford, (1959), P. 108.

ويحيط بهذا الصحن المغطى أربعة إيوانات، أكبرها وأعمقها الإيوان القبلي، وبصدره المحراب، وعلى جانبيه أربع حجرات، بواقع حجرتين بكل جانب، يتوصل إليها من أربعة أبواب بالضلعين الجانبيين للإيوان، بواقع بابين بكل ضلع، ويطل الإيوان على الصحن ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس)، أوسطها أوسعها، وإذا كان الإيوان القبلي يغلب عليه الاتجاه العمودي (المحور الطولي)، فإن الإيوان المقابل له يغلب عليه الاتجاه الموازي لجدار القبلة (المحور العرضي)، ويطل هذا الإيوان هو الآخر على الصحن المغطى ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس)، أوسطها أوسعها، وبالضلعين الجانبيين للإيوان بابان، باب بكل ضلع، يؤديان لمدخلي المدرسة عبر دركاة مربعة، أما الإيوانان الآخران للمدرسة، فيطل كل إيوان منهما على الصحن بعقد. (شكل ٦٧).

والحق أنه لا يوجد في سوريا أنموذج آخر صمم على غرار هذه المدرسة.

أما المدارس السورية الأخرى التي ترجع إلى العصرين الزنكي والأيوبي، فتكاد تتشابه في الشكل العام والتخطيط العام مع المدارس العراقية المشار إليها؛ من حيث اشتمالها على الصحن الأوسط المكشوف والإيوانات ومسجد المدرسة وقبة الدفن، إلا أنها هنا قد عولجت - أيضًا - بطريقة محلية؛ مما أكسبها شخصية مستقلة، وطابعًا مميزًا خاصًا بها، وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه المدارس، ومنها: المدرسة النورية[1] بدمشق ٥٦٧هـ - ١١٧٢م، وكانت

---

(١) حيدر، **العمارة**، ص١٠٣ - ١٠٤؛ آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٥٢، الجاسر، **مدارس حلب**، ص٣٠، مرسي، **العمارة الإسلامية**، ص٦٢ - ٦٧؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص١٩١ - ١٩٢؛ سوفاجيه، جان، **الآثار التاريخية في** =

مخصصة لفقهاء المذهب الحنفي، ويتكون تخطيطها العام من صحن مكشوف تتوسطه بحرة، ويشغل الضلع القبلي مسجد المدرسة، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوسط صدرها المحراب، وتطل هذه المساحة على الصحن من خلال ثلاثة أبواب، أوسطها أكبرها، ويقابل المسجد (الضلع الشمالي) إيوان، فضلاً عن إيوانين متقابلين بالضلعين الجانبيين للصحن، بواقع إيوان يتوسط كل ضلع، وتوجد على جانبيه حجرات تعلوها غرف في الطابق الأول، وملحق بالمدرسة بالركن الجنوبي الشرقي تربة تعلوها قبة مقرنصة، وهي من طراز القباب المقرنصة ـ كما سنشير فيما بعد ـ. (شكل ٦٨)، (لوحتا ٤٦٨ ـ ٤٦٩).

وتشبه المدرسةُ العادليةُ الكبرى بدمشق ٦١٢هـ ـ ١٢١٥م، وكملت ٦١٩هـ ـ ١٢٢٢م، (وهي الآن مقر المجمع العلمي العربي بدمشق) المدرسةَ النورية، مع الاختلاف في بعض المفردات والتفاصيل[1] (شكل ٧٣)، (لوحتا ٤٧٠ ـ ٤٧١).

وكانت هذه المدرسة مخصصة لفقهاء الشافعية، أما المدرسة الصاحبية في الصالحية بدمشق قبل ٦٤٣هـ ـ ١٢٤٥م، فهي عبارة عن صحن، وأربعة

= دمشق، ترجمة أكرم حسن العلبي، دمشق (١٩٩١م)، ص٧٠ ـ ٧١؛ عبو، عادل نجم، **المدرسة في العمارة الأيوبية في سوريا**، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٢٤، الجزءان ١ ـ ٢، دمشق (١٩٧٤م)، ص٨٠ ـ ٨١.

(١) حيدر، **العمارة**، ص١٠٥ ـ ١٠٦؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٦٢؛ **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية**، ص١٤٩ ـ ١٥٤؛ مرسي، **العمارة الإسلامية بسورية**، ص٩٤ ـ ١٠١؛ سوفاجيه، **الآثار التاريخية**، ص٧٩ ـ ٨١؛ عبو، **المدرسة**، ص٨٦ ـ ٨٧.

إيوانـات متقابلة، وغير ذلك مـن المفردات والتفاصيل التـي أكسبتهـا طابعًا خاصًا مغايرًا للمدارس الدمشقية السابقة[١].

أما مدارس حلب، فمنها: مـدرسة شاد بخت[٢] (الجوانيـة، وتعرف ـ أيضًا ـ بجامـع الشيخ معروف) ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م، وهي عبارة عـن صحن أوسط مكشوف مستطيل المساحة يشغل ضلعه القبلي المسجد، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة، يتوسط صـدرها المحراب، وتطل هذه المساحة على الصحن بثلاثـة عقود، أوسطها أوسعها، ويسقف المسجـد قبة في الوسط، وقبوان جانبيان، ويقابل المسجد إيوان مقبى، وفي الضلعين الجانبيين للصحن حجرات وممرات ومنافع عامة، وكانت هذه المدرسة مخصصة لفقهاء المذهب الحنفي. (شكل ٦٩).

ومنها: المدرسة السلطانيـة[٣] (الظاهرية الجوانية) ٦٢٠هـ ـ ١٢٢٤م، وكانت مخصصة لفقهاء الشافعية والحنفية، وهي عبارة عن صحن مكشوف، ومسجد يشغل الضلع القبلي، يتوسط صدره المحراب، ويطل على الصحن بثلاثة عقود، أوسطها أكبرها، ويغطي المسجد قبة كبيرة في الوسط، وقبوان جانبيان، ويقابل العقد الأوسط للمسجد إيوان المدخل، وبالضلعين الجانبيين للصحن حجرات، وملحق بالمدرسة تربة تعلوها قبة ـ أيضًا ـ. (شكل ٢٧).

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٦٢، (شكل ١٨٢).

(٢) الجاسر، **مدارس حلب**، ص١٦٤ ـ ١٧١؛ عبو، **المدرسة**، ص٨١ ـ ٨٢؛ لوفري، ج، **المدرسة السلطانية في حلب**، دراسة عن عمارتها، الحوليات الأثرية السورية، المجلد ٣، ج١ ـ ٢، دمشق (١٩٥٣م)، ص١٠٩ ـ ١١٣.

(٣) الجاسر، **مدارس حلب**، ص١٩٠ ـ ٢٠١؛ عبو، **المدرسة**، ص٧٧ ـ ٨٨.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن الطراز الإيواني في المدارس السورية قد عولج بطريقة محلية؛ مما أكسبها شخصية مستقلة، وطابعًا مميزًا خاصًا بها، على أن أهم ما يميز المدارس الحلبية عن الدمشقية هو أن مساجد الأولى مغطاه بقبة في الوسط، وقبوين جانبيين غالبًا، أو ثلاث قباب، أكبرها أوسطها، أما مساجد المدارس الدمشقية، فالغالب عليها الأسقف المسطحة، وأحيانا أقبية، كذلك فإن غالبية المدارس السورية لا تشتمل على مئذنة، وإن وجدت فيها، فإنها لا ترجع إلى عصر الإنشاء، وإنما إلى عهود لاحقة[1].

٤ ـ الأناضول (آسيا الصغرى):

أ ـ مدارس المرحلة الأولى: من المعروف أن المدارس قد انتشرت بدرجة كبيرة في الأناضول (آسيا الصغرى) على يدي الدول الإسلامية هناك، ومنها: الدانشمنديون والأرتقيون، والسلاجقة، والإيلخانيون، وملوك الطوائف أو البكوات (بگلربگى)، وقد حصر بعض العلماء عدد المدارس الباقية في الأناضول خلال الفترة من منتصف ق٦هـ ـ ١٢م، إلى أواخر ق٩هـ ـ ١٥م بنحو ٦٧ مدرسة[2].

ويغلب على تصميم هذه المدارس الطراز الإيواني ـ أيضًا ـ إلا أنها عولجت بطريقة محلية؛ مما أكسبها شخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابعًا خاصًا مميزًا لها، ونستطيع أن نحصر نماذج هذا الطراز في نمطين رئيسيين، وذلك على النحو التالي:

---

(١) الجاسر، مدارس حلب، ص٣١.

(٢) آصلان آبا، فنون الترك، ص٩٥.

١ ـ النمط الأول:

وتمثله المدارس الإيوانية ذات الصحن المغطى بقبة، وإذا كانت جذور هذا النمط في مدرسة كومشتكين في بصرى ٥٣٠هـ ـ ١١٣٦م، (شكل ٦٧) ـ كما سبق القول ـ إلا أن نظرة واحدة إلى النماذج الأناضولية الباقية تؤكد مدى اختلاف أسلوب المعالجة والتصميم؛ مما اكسبها طابعًا مغايرًا ذا سمة أناضولية محلية خاصة[١].

ومن أمثلة ذلك: كل من: مدرسة ياغي باسان في توقات ٥٤٦ ـ ٥٥٢هـ ـ ١١٥١ ـ ١١٥٧م، ومدرسته الأخرى في نيكسار ٥٥٢هـ ـ ١١٥٧م، وكل منهما عبارة عن صحن مربع مغطى بقبة قطرها في الأولى ١٤م[٢]، وفي الثانية ١١م[٢]، ويحيط به إيوانان مقبيان، ولكنهما ليسا متقابلين، فضلاً عن عدد من الحجرات المقبية (شكل ٣٢٠).

ومنها: مدرسة قرة طاي في قونية ٦٤٩هـ ـ ١٢٥١م، وهي عبارة عن صحن مغطى بقبة، وإيوان رئيسي واحد توجد على جانبيه حجرتان مربعتان، بواقع حجرة بكل جانب تغطيها قبة (شكلا ٣٢١ ـ ٣٢٣)، (لوحتا ١٧٢ ـ ١٧٣).

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مدارس هذا النمط ومفرداتها وخصائصها المعمارية والفنية انظر: آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٩٥ ـ ١٠١؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٠٨ ـ ٢١٣؛ الشعبان، طلال محمد، **المدارس الباقية في قونية والقاهرة خلال عصر سلاجقة الروم والمماليك البحرية**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة (١٩٩٥م)، ص٣٨ ـ ٤٥، ٤٨ ـ ٥٦، ٦٠ ـ ٦٥، ٢٩٤ ـ ٢٩٨؛ Kuran, A. , Anadolu Medreseleri , I. Cilt, Ankara (1969), PP. 44-59, . 15-18.

ومثلها في ذلك: مدرسة أنجه مناره لي في قونية ٦٥٩هـ ـ ١٢٦١م. إلا إنها تتميز بأنه ملحق بها مسجد قبة ذو رواق خارجي (سقيفة) فضلاً عن المئذنة (شكلا ٣٢٢ ـ ٣٢٣ أسفل)، (لوحتا ١٧٤ ـ ١٧٥).

ومنها: مدرسة يوسف بن يعقوب في چاي بولاية أفيون ٦٨٠هـ ـ ١٢٧٨م؛ ومدرسة أرتكوش في أتاباي (عطابك) قرب أسبارطة ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م، ولكن قبة الصحن مقامة على أربعة أعمدة تتوسط الصحن، والمدرسة ذات إيوان واحد على جانبيه الحجرتان المقببتان.

أما مدرسة جاجا بك في قير شهر ٦٧١هـ ـ ١٢٧٣م، فقد بنيت في الأصل لتكون مرصدًا فلكيًا، وتتميز بأنه يحيط بالقبة المركزية ثلاثة إيوانات صغيرة مقبية، وغير ذلك من السمات التي تنفرد بها عن المدارس السابقة، وهو ما سنعود إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

٢ ـ النمط الثاني(١):

وتمثله المدارس الإيوانية ذات الصحن المكشوف، ومنها مدارس مفردة، وأخرى ملحقة بالمسجد أو المجمعات، ومنها مدارس توأم (چفته مدرسة).

ومن أمثلة ذلك: المدرسة المسعودية الملحقة بمسجد ديار بكر الجامع ٥٩٥ ـ ٦٢٠هـ ـ ١١٩٨ ـ ١٢٢٣م (شكل ٢٤٢)، وجفته مدرسة (المدرسة

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مدارس هذا النمط ومفرداتها وخصائصها المعمارية والفنية انظر: آصلان آبا، **فنون الترك**، ص١٠١ ـ ١٠٧، ١٥٣ ـ ١٥٤، ١٥٩؛ الريحاوى، **العمارة في الحضارة**، ص٢١٣ ـ ٢١٧؛ الشعبان، **المدارس الباقية في قونية**، ص١٤ ـ ٢١، ٢٧٦ ـ ٢٨١؛

Kuran, Anadolu, PP. 63 - 113, 116 - 124 , 128 - 130.

التوأم أو المزدوجة) في قيصرية ٦٠٢هـ ـ ١٢٠٥م. (شكل ٣٢٤).

والمدرسة بمجمع خواندخاتون في قيصرية ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م (شكلا ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، ومدرسة صرجالي بقونية ٦٤٠هـ ـ ١٢٤٢م (لوحة ١٧١)، ومن العصر الإيلخاني المدرسة الخاتونية (جفته مناره أي: المنارة المزدوجة أو التوأم) في أرضروم ٦٧٠هـ ـ ١٢٧١م، (شكل ٣٢٧)، ومن عصر البكوات (أو ملوك الطوائف): المدرسة الملحقة بالجامع الكبير في مغنيسة (مانيسا) ٧٧٨هـ ـ ١٣٧٦م (عصر بني صاروخان). (شكل ٢٤٦).

ب ـ مدارس المرحلة الثانية: وتمثلها المدارس التي أنشئت خلال العصر العثماني، سواء كانت مدارس مفردة، أو ملحقة بالمساجد، أو ضمن المجمعات المعمارية (الكليات).

وإذا كانت غالبية مدارس هذه المرحلة تعد استمرارًا لمدارس النمط الثاني من المرحلة الأولى في مدارس الأناضول (آسيا الصغرى)، وهي المدارس التي صممت وفق الطراز الإيواني ذي الصحن المكشوف، والمشار إليها سابقًا، إلا أنها قد عولجت خلال العصر العثماني بطريقة خاصة، وأسلوب متميز؛ مما أكسبها شخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابعًا جديدًا لا يختلف عليه اثنان في نسبته إلى معماري العصر العثماني، ومن جهة ثانية: فإنه ظهرت خلال ذلك العصر أنظمة معمارية جديدة للمدارس، لم يسبق إليها في عمارة المدارس الإسلامية.

وحسبنا أن نتحدث في هذه العجالة عن بعض أنماط المدارس[1] الباقية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مدارس كل من النمطين الأول والثانى انظر: الحداد، =

من العصر العثماني، وذلك على النحو التالي:

١ ـ النمط الأول:

وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به ثلاثة أروقة (بلاطات) مغطاة بقباب أو أقبية، بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة، وتشغل الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة خلاوي، وهي عبارة عن حجرات مربعة مغطاة بقباب غالبًا، أو حجرات مستطيلة مغطاة بأقبية أحياناً، وتشغل هذه الخلاوي ثلاثة أضلاع فقط، ويحوي هذا النمط قاعة الدرس (درس خانة)، وهي إما أن تكون على هيئة حجرة مربعة مغطاة بقبة، أو على هيئة إيوان صريح مغطى بقبة ـ أيضًا ـ، وغالبًا ما يكون الإيوان أو الحجرة بارزًا عن سمت الجدار، وهناك نموذجان رئيسيان لهذا النمط: الأول: وفيه يظهر تخطيط المدرسة على هيئة حرف U ـ أي: أن المدرسة يقتصر تخطيطها على ثلاثة أضلاع فحسب ـ وهو أنموذج جديد لم يسبق إليه، وتعد أمثلته الباقية قليلة، ومنها: مدرسة سليمان باشا في أزنيق ٧٣٧هـ ـ ١٣٣٦م، ومدرسة إسحاق باشا في اينه گول ٨٨٧هـ ـ ١٤٨٢م (شكلا ٣٣١ ـ ٣٣٢) وغير ذلك.

أما النموذج الثاني، فيتميز بوجود أربعة أضلاع للمدرسة؛ إلا أن الضلع الرابع للصحن يقتصر على الدرس خانة (قاعة الدرس) فحسب، وغالبًا ما تكون على هيئة إيوان صريح مغطى بقبة، أو حجرة مغطاة بقبة أحياناً، وهذا يعني: أن ذلك النموذج يخلو من وجود الرواق الرابع، وخلاوي الطلبة في

= محمد حمزة، **بحوث ودراسات** (الكتاب الأول)، ص٣١٠ ـ ٣١٥؛ موسوعة العمارة الإسلامية، **المدخل**، ص١٢٨ ـ ١٣١؛ **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، ص٢٢٠ ـ ٢٢٤.

هذه الجهة كما هو الحال في مدرسة بايزيد الأول ضمن مجمعه في بروسة (أو بورصة) ٧٩٣ ـ ٧٩٨هـ ـ ١٣٩٠ ـ ١٣٩٥م، والمدرسة الخضراء في بروسة ٨٢٥هـ ـ ١٤٢١م، ومدرسة السلطان بايزيد الثاني في إستانبول، وغير ذلك (شكلا ٣٢٨ ـ ٣٣٠).

٢ ـ النمط الثاني:

وهو عبارة عن صحن، وأربعة أروقة (بلاطات) بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة، وتشغل خلاوي الطلبة الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة الأربعة، ويتوسط أحد هذه الأروقة والخلاوي درس خانة، سواء على هيئة حجرة مربعة مغطاة بقبة، أو على هيئة إيوان صريح مغطى بقبة ـ أيضًا ـ. ومن أمثلة ذلك: مدرسة السلطان بايزيد الثاني ضمن مجمعه بأدرنة ٨٨٩ ـ ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٤ ـ ١٤٨٨م (شكل ٢٨٤ رقم ٤ شكل ٢٨٥)، وبعض مدارس السلطان سليمان القانوني ضمن مجمعه بإستانبول ٩٥٧ ـ ٩٦٥هـ ـ ١٥٥٠ ـ ١١٥٧م، إلا أن الأروقة مغطاه بأقبية متقاطعة (شكل ٢٩٣، المدرستان رقم ٥ ـ ٦).

هذا، وقد كان لطراز المدارس العثمانية أثره في الأقطار العربية التي خضعت للحكم العثماني بدءًا من عام ٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م، وحسبنا أن نشير إلى بعضها، ومنها في مصر: المدرسة السليمانية (بالسروجية) ٩٥٠هـ ـ ١٥٤٣م، والمدرسة المحمودية (بشارع بور سعيد) ١١٦٤هـ ـ ١٧٥٠م، وفي المدرسة الأولى إيوان واحد حل محله في المدرسة الثانية مسجد.

وبرغم وضوح التأثير العثماني في هاتين المدرستين، إلا أن هذا لا يعني

عدم وجود صيغة مصرية محلية في كلتيهما[1]. (شكلا ١٥٧ ـ ١٥٨).

وفي سوريا تقابلنا التكية والمدرسة السليمانيتان بدمشق[2]، وقد أنشئت التكية ٩٦٢ ـ ٩٦٧هـ ـ ١٥٥٤ ـ ١٥٥٩م، والمدرسة المجاورة لها ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، ويذكرنا تخطيط التكية بنموذج المدارس على هيئة حرف U، وبرغم وضوح التأثير العثماني في المنشأتين، إلا أن هذا لا يعني عدم وجود صيغة سورية محلية في كلتيهما. (شكل ٧٥).

أما مدرسة عبدالله باشا العظم بدمشق[3] ١١٩٣هـ ـ ١٧٧٩م، فتعيد إلى ذاكرتنا نمط المدارس ذات الإيوان الواحد، والصحن المكشوف الذي انتشر في الأناضول (آسيا الصغرى) خلال العصر السلجوقي وما تلاه، وفي العصر العثماني، ولكن على نطاق أصغر، فضلاً عن أن الإيوان يتميز بطابع خاص بين إيوانات المدارس المصممة وفق هذا النمط (وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى). (شكل ٧٦).

وفي ليبيا: مدرسة عثمان باشا الساقزلي بطرابلس الغرب ١٠٦٤هـ ـ ١٦٥٣م، وزاوية (مدرسة) عمورة بجنزور ١١٣٤هـ ـ ١٧٢١م، ومدرسة

---

(١) الحداد، محمد حمزة، **عمائر القاهرة الدينية في العصر العثماني**، ضمن كتابنا: بحوث ودراسات المشار إليه، ص٣١٠ ـ ٣١.

(٢) الريحاوي، عبد القادر، **الأبنية الأثرية بدمشق ١: التكية والمدرستان السليمانيتان بدمشق**، الحوليات الأثرية السورية، مج٧، ج١ ـ ٢، دمشق (١٩٥٧م)، ص١٢٦ ـ ١٢٨؛ **العمارة في الحضارة**، ص٤٩٦ ـ ٤٩٩؛ سوفاجيه، **الآثار التاريخية في دمشق**، ص٩٩ ـ ١٠٢.

(٣) الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٢٢٩.

أحمد باشا القره مانللي ١١٥٠ ـ ١١٥١هـ ـ ١٧٣٧ ـ ١٧٣٨م، ومدرسة قورجي ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤م، بطرابلس الغرب أيضًا[1].

وإذا كانت هذه المدارس تكاد تتفق مع بعضها في التخطيط العام، إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث بعض العناصر والمفردات والتفاصيل (وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى). (أشكال ٢١٢، ٢١٨ ـ ٢٢٠).

٣ ـ النمط الثالث:

وهو نمط نادر في عمارة المدارس الإسلامية عامة، والعثمانية خاصة، ولدينا منه أنموذجان: الأول: هو المدرسة المثمنة التخطيط، والثاني: هو المدرسة التي يجمع تخطيطها بين الشكل المربع من الخارج والمثمن من الداخل، ولم يتبق من مدارس هذا النمط سوى مدرستين: الأولى: تتبع النموذج الأول، وهي مدرسة قابي آغاسي في أماسيا (الأناضول أو آسيا الصغرى) ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٨م، (شكل ٣٣٣)، (لوحة ١٧٥مكرر)، وكانت هذه المدرسة مصدر الوحي المباشر والرئيسي لابتكار النموذج الثاني، وتمثله

---

(١) شقلوف، مسعود رمضان، **موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا**، (١/ ٨١ ـ ٨٢)، ٩٨ ـ ١٠٧؛ البهنسي، صلاح، **العمارة الدينية في طرابلس في العصر العثماني الأول**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة (١٩٩٤م)، ص١٤٨ ـ ١٤٩؛ نجيب، محمد مصطفى، **مدرستان مستقلتان بطرابلس الغرب** (الساقزلي والكاتب)، مجلة كلية الآثار، المجلد الخامس، مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٦م)، ص١٤٥ ـ ١٦٠؛ ميسانا، غاسبري، **العمارة الإسلامية في ليبيا**، ترجمة علي الصادق حسنين، بيروت، طرابلس الغرب (١٩٩٨م)، ص٩٨ ـ ١٠٧.

مدرسة رستم باشا بإستانبول لعبقري العمارة الإسلامية عامة، والعثمانية خاصة قوجه معمار سنان عام ٩٥٧هـ ـ ١٥٥٠م[1]، (شكل ٣٣٤).

٥ ـ آسيا الوسطى:

ترجع أهم المدارس الباقية في آسيا الوسطى إلى العصرين التيموري، والشيباني، ومن المدارس التيمورية: المدرسة الملحقة بمجمع گورامير بسمرقند ٨٠٧ ـ ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥م، ومدرسة أولوغ بك في بخارى ٨٢٠هـ ـ ١٤١٧م، ومدرسته الأخرى في سمرقند ٨٢٠ ـ ٨٢٣هـ ـ ١٤١٧ ـ ١٤٢٠م، والمدرسة الغياثية في خرجرد (بإقليم خراسان شرقي إيران) ٨٤٦هـ ـ ١٤٤٢م، وتتكون هذه المدارس من طابقين غالبًا[2].

وبرغم أن هذه المدارس قد صممت وفق الطراز الإيواني الغالب على عمارة المدارس الإسلامية بصفة عامة، إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية

---

(١) آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٠٥؛ الحداد، محمد حمزة، **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، ص٢٢٤ ـ ٢٢٦؛ بدر، متى محمد، **المدارس التركية العثمانية ذات التخطيط المثمن بالتطبيق على مدرستي قابى أغاسي ورستم باشا بإستانبول**، ضمن كتاب ندوة الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار، (١٩٩٨م)، ص٢٩٤ ـ ٢٩٨؛

Goodwin, A History, P. 151 _ 152.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٣٤ ـ ٥٣٥، ٥٣٧ ـ ٥٣٨، ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

Hillenbrand, Islamic, PP. 226 _ 228., Galombek, L., and Wilber, D., The Timurid Architecture of Iran and Turan, vol I, Princeton _ New Jersey (1988), PP. 47 _ 48, 73 _ 78.

خاصة؛ مما أكسبها طابعًا معماريًا وفنيًا متميزًا، ليس فقط في آسيا الوسطى وإيران، بل وفي عمـارة المدارس الإسلاميـة على الإطلاق، ويتمثل جوهر التخطيط العام في هذه المدارس في وجود الصحن الأوسط المكشوف وتحيط به أربعة إيوانات متماثلة بواقـع إيوان يتوسط كل ضلع من الأضلاع الأربعـة للصحن، وفي الفراغات المحصورة بين الإيوانات تتوزع الحجرات والغرف في طابقين، وإذا كانت المدرسة الغياثية تخلو من وجود المسجد (شكل ٣٣٦)، فإن مدرسة أولوغ بك في سمرقند تشتمل على مسجد خلف الإيوان القبلي، وهو يجمع في تسقيفه بين الأقبية والقباب، وأكبرها الوسطى (شكل ٣٣٥).

كذلك تتميز هذه المدارس باشتمالها على أربع قاعات متماثلة للدراسة في الأركان الأربعة للمدرسة، بواقع قاعة بكل ركن منها، وقد صممت هذه القاعات وفـق الطراز الإيواني ـ أيضًا ـ، فكل منها عبارة عن مساحة وسطى (صحن أو درقاعة) مربعـة مغطاه بقبة، وتحيط بهذه المساحة الوسطى أربعة إيوانات صغيرة متقابلة، ومن السمات الأخرى: المآذن، وقد تزود المدرسة بمئـذنتين في ركنـي الواجهة الرئيسية؛ كما هو الحـال في المدرسة الغياثيـة (شكل ٣٣٦)، أو أربعـة مآذن في الأركان الأربعة للمدرسة؛ كما هو الحال في أولوغ بك بسمرقند (شكل ٣٣٥).

وقد استمرت المدارس خلال عصر الشيبانيين وما تلاه على نفس النمط الإيواني، ولكن مع اختلاف المعالجة، وبعض العناصر والتفاصيل والمفردات (وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى).

ومهما يكن من أمر، فإن عدد الإيوانات في هذه المدارس يتراوح بين إيوان واحد، وأربعة إيوانات، فضلاً عن بناء المدارس المتقابلة التي أخذت

في الظهور، سواء في بخارى، أو سمرقند، وتعرف في المصطلح: (قوش مـدرسة)، وحسبنا أن نشير إلى بعض هـذه المدارس، ومنها: مدرسة براق خان (نوروز أحمد خان المتوفى ٩٦٣هـ ـ ١٥٥٥م) في طشقند، (وهي اليوم مقر الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان)، ومدرسة كوكلتاش بطشقند ـ أيضًا ـ ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، ومـدرسة مير عرب في بخارى ٩٤٢هـ ـ ١٩٣٥م، ومدرسة مادرخان ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٧م، ومدرسة عبدالله خان ٩٩٦ ـ ٩٩٨هـ ـ ١٥٨٨ ـ ١٥٩٠م، ومـدرسة عبـد العزيز خـان ١٠٦٢هـ ـ ٦٥٢م، تجاه مـدرسة أولوغ بك في بخـارى (شكلا ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، (لوحـة ١٥٧). وفي ريجستان سمرقند أقيمت أمـام مدرسة أولوغ بك مـدرستان، الأولى: مدرسة شيردار ١٠٢٩ ـ ١٠٤٦هـ ـ ١٦١٩ ـ ١٦٣٦م، (لوحة ١٥٨)، والثانية: مدرسة طلا كاري (المزينة بالذهب) ١٠٥٦ ـ ١٠٧١هـ ـ ١٦٤٦ ـ ١٦٦٠م[١].

أما المدرسة الملحقة بمجمع زنكي أتا بقرية زنكي أتا من أعمال طشقند ١٢٨٦هـ ـ ١٨٣٢م، فتنفرد بتخطيطهـا بين مـدارس آسيا الوسطى الباقيـة[٢]

---

(١) الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى، آثار الإسلام التاريخية في الاتحاد السوفيتي، طشقند (١٩٦٢م)، ص٩ ـ ١٢؛ عبيد، شبل إبراهيم، دراسة **أثرية معمارية لمدرسة براق خان بمدينـة طشقنـد**، ضمن كتاب نـدوة الآثار الإسلاميـة فـي شرق العالم الإسلامي المشار إليه سابقًا، ص١٦٨ ـ ١٧٥؛ **دراسة أثرية معمارية لمجمع زنكي أتا بقرية زنكي أتا من أعمال طشقنـد**، مجلة كلية الآداب ـ جامعة حلوان، العدد (٧)، (يناير ٢٠٠٠م)، ص٦٤٤؛

.Hillenbrand , Islamic, PP. 228,234

(٢) عبيد، **دراسة أثرية معمارية لمجمع زنكي أتا**، ص٦٣٥ ـ ٦٣٧، ٦٤٤٥.

المشار إليها سابقًا، وغيرها، وهو ما سوف نعود إلى مناقشته تفصيلاً في كتابنا «العمارة الإسلامية في المشرق» بمشيئة الله تعالى.

٦ ـ إيران:

من المعروف: أن إيران كانت من أوائل الأقطار الإسلامية التي ظهرت فيها عمارة المدارس قبل القرن ٤هـ ـ ١٠م، كما يستدل من الإشارات التاريخية في المصادر المختلفة، وبخاصة كتب البلدانيين والرحالة.

ومنذ العصر السلجوقي وما تلاه انتشرت المدارس في إيران انتشارًا كبيرًا، وحسبنا في هذه العجالة أن نشير إلى الخصائص العامة والسمات الرئيسية للمدارس التي أقيمت في إيران خلال العصرين الصفوي والقاجاري.

ويحسن بنا أن نشير ـ بادئ ذي بدء ـ إلى أن المساجد الصفوية قامت ـ أيضًا ـ بوظيفة المدرسة، سواء كان تخطيطها يتبع طراز المسجد القبة؛ مثل: مسجد الشيخ لطف الله بأصفهان، أو كان يتبع طراز التخطيط الذي يجمع بين الإيوانات والأروقة الذي سبقت الإشارة إليه، ومنها: مسجد الشاه (الإمام)، ومسجد سرخى، ومسجد آقانور، ومسجد مصرى، ومسجد حكيم بأصفهان، وغير ذلك[١].

أما المدارس، فقد بنيت إما مفردة، أو ملحقة بالمساجد، أو المنشآت التجارية، ومن أمثلة هذه وتلك: كل من المدرسة السليمانية، والمدرسة الناصرية بمسجد الشاه بأصفهان، ومسجد ومدرسة علي أكبر بأردبيل، ومدرسة

---

(١) الجميعي، **مساجد أصفهان**، ص١٠٩ ـ ١١٣، ١٤٦ ـ ١٤٧، ١٦٢، ١٦٧ ـ ١٦٨، ٢١٤ ـ ٢١٦، ٢٣٥، ٢٥٣، ٢٧٢، ٢٨٦ ـ ٢٨٧، ٥٣٢.

نجفي الملحقة بمسجد ساروتقي بأصفهان، ومسجد ومدرسة أقابرزك بقاشان وكروان سراي، ومدرسة مادر شاه (چهار مدرسة) بأصفهان، ومدرسة معز الدولة بتهران، ومدرسة خان بشيراز، وغير ذلك[1].

وعن التخطيط العام لهذه المدارس فإنه من الملاحظ: أن غالبيتها قد صممت وفق الطراز الإيواني، إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية خاصة، مما أضفى عليها شخصية مستقلة قائمة بذاتها، وطابعًا خاصًا بها مميزًا لها، فضلاً عن الخصائص المعمارية، والسمات الفنية التي يتميز بها الطراز الإيراني خلال العصرين الصفوي والقاجاري، وبصفة خاصة: المداخل والعقود والقباب والإيوانات، والمحاريب والنقوش الزخرفية والكتابية، وغير ذلك مما سنشير إليه إجمالاً في هذا الكتاب وتفصيلاً، سواء في كتابنا المفصل في تاريخ الحضارة الإسلامية، أو العمارة الإسلامية في المشرق بمشيئة الله تعالى.

وبعض هذه المدارس عبارة عن صحن أوسط مكشوف (حياط وفق الاصطلاح الفارسي) تحيط به أربعة إيوانات، ويوجد خلف إيوان القبلة غالبًا الكنبدخانة؛ كما هو الحال في مدرسة مادرشاه (چهارباغ) ١١١٨هـ ـ ١٧٠٦م، بأصفهان (شكل ٣٧٠) ومدرسة شهيد مطهري ١٢٩٨هـ ـ ١٨٨٠م، وتتوزع

---

(١) الجميعي، **مساجد أصفهان**، ص١٧٦، ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ٢١٠، ٢٤٠؛
Hillenbrand, Islamic, PP. 234 - 235.

قباديان، بررسي إقليمي أبنيـة سنتي إيران، ص٢٤١ ـ ٢٥٧؛ هنرفر، **كنجينه آثار تاريخي أصفهان**، ص٤٧٠ ـ ٤٧٥، ٥٥٣ ـ ٥٥٦، ٥٨٩ ـ ٥٩٢، ٦١٠، ٦٤٩ ـ ٦٥٠، ٦٦٠ ـ ٦٦٧، ٦٨٥ ـ ٧٢٢؛ مهر آبـادي، **آثار ملي أصفهـان**، ص٤٣١ ـ ٥٠٩؛ گـنجنامه، **دفتر سوم**، بناهاي مذهبي تهران (١٩٩٨م)، ص٤٠ ـ ١٣٩.

بيوت الطلاب فيما بين الإيوانات، إلا أن هناك ـ بطبيعة الحال ـ بعضَ الاختلاف في التفاصيل والمفردات والعناصر والمعالجة، ومن أبرزها: تصميم الكنبد خانة في كل من المدرستين المشار إليهما، فضلاً عن الملحقات الأخرى.

ومن المدارس التي تشتمل فقط على الصحن والإيوانات الأربعة دون وجود الكنبدخانة: مدرسة خان في شيراز، كما أن القباب الأربع بأركان المدرسة قد صممت بطريقة مغايرة لمثيلتها في مدرسة مادر شاه.

وتتميز مدرسة خان بشيراز بوجود مئذنتين بطرفي الواجهة الرئيسية، وهي في ذلك مثل مدرسة مادر شاه بأصفهان، إلا أن المئذنتين بهذه المدرسة الأخيرة توجدان على جانبي إيوان القبلة.

وهناك مدارس عبارة عن صحن (حياط) مكشوف، وبيوت الطلبة، وكتابخانة (الكتاب).

ومنها: مدرسة ميرزا علي أكبر في أردبيل ق١٣هـ ـ ١٩م، وتشتمل على صحن (حياط) مكشوف، وبيوت الطلبة، ودرس خانه (قاعة الدرس).

ومنها: مدرسة نجفي الملحقة بمسجد ساروتقي بأصفهان؛ ومدرسة أقا بزرك بقاشان ١٢٦٤هـ ـ ١٨٤٧م.

أما عن بقية المدارس والأنماط الأخرى للتخطيط، فضلاً عن خصائصها المعمارية، وسماتها الفنية، فسوف نتطرق إليها في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

٧ ـ الغرب الإسلامي:

من الثابت تاريخيًا: أن المدارس قد وجدت طريقها إلى أقطار الغرب الإسلامي خلال عصر الدولة الموحدية ٥٢٤ ـ ٦٦٨هـ ـ ١١٣٠ ـ ١٢٦٩م،

وبدأت أول ما بدأت على يد أول خلفائهم: عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ ـ ١١٣٠ ـ ١١٦٣م، في المغرب الأقصى، وهو ما يستدل عليه من خلال الإشارات التاريخية ومشاهدات الرحالة، ومنهم: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، ومارمول كرفچال، فضلاً عن بعض النصوص الوقفية (الحبسية حسب الاصطلاح المغربي)، إلا أن هذه المدارس ـ للأسف ـ قد اندرست، ولم يتبق منها أي آثر. وخلال العصر المريني انتشرت المدارس في المغرب الأقصى انتشارًا كبيرًا، وبذلك أضحى المرينيون أعظم بناة المدارس في الغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأقصى خاصة[1]، وقد شيدت المدارس المرينية الباقية فيما بين ٦٧٤ ـ ٧٥٦هـ ـ ١٢٧٥ ـ ١٣٥٥م[2]، وفي تونس يرجع الفضل إلى الحفصيين (ورثة الموحدين في

---

(١) عن الآراء المختلفة التي أثيرت حول موضوع نشأة المدارس في الغرب الإسلامي، وفيما إذا كانت قد عرفت قبل العصر المريني من عدمه انظر: عبد الحميد، سعد زغلول، **العمارة والفنون في دولة الإسلام**، الإسكندرية (١٩٨٦م)، ص٥١٦؛ الكحلاوي، **المدارس المغربية**، مجلة العصور، المجلد ٦، ج١، (جمادى الثاني ١٤١١هـ ـ يناير ١٩٩١م)، ص٧٢ ـ ٧٦؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، ج٤، الرباط (١٩٩٣م)، ص١٩١ ـ ١٩٢؛ أبو رحاب، محمد السيد، **مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي (١٩٩٩م)، ص٨٢ ـ ٨٣، ٩٢ ـ ١٠١؛ مراد، حسين سيد عبدالله، الأوقاف مصدرًا لدراسة مجتمع فاس في العصر المريني، القاهرة (٢٠٠٢م)، ص٧٧ ـ ٨١؛ صلاح، عبد العزيز، **مشآت الرعاية الاجتماعية المرينية الباقية بالعدوتين: الرباط وسلا**، مجلة كلية الآثار، العدد (١٢)، (٢٠٠٧م)، مطبعة جامعة القاهرة (٢٠٠٨م)، ص١٦٧ ـ ١٦٩.

(٢) أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص١٠٩.

تونس) في إنشاء المدارس بها، منها: المدرسة الشماعية التي أنشأها أبو زكريا يحيى الأول في حدود عام ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م، حسب رواية ابن الشماع[١].

وقد قام بتجديدها الداي أحمد خوجة (١٠٥٠ ـ ١٠٥٧هـ ـ ١٦٤٠ ـ ١٦٥٧م)، وما زالت قائمة حتى الآن، ومنها: المدرسة التوفيقية قبل ٦٥٧هـ ـ ١٢٦١م، والمدرسة المعرضية والعصفورية والمغربية والمرجانية والعنقية، وغيرها، إلا أن أشهر المدارس الحفصية هي: المدرسة المنتصرية (نسبة إلى الخليفة أبي عبدالله محمد المنتصر) (٨٢٧ ـ ٨٣٩هـ ـ ١٤٣٤ ـ ١٤٣٥م)، وأكملها ابنه الخليفة أبو عمرو عثمان (٨٣٩ ـ ٨٩٣هـ ـ ١٤٣٥ ـ ١٤٨٨م) من بعده، فيما بين ٨٣٨ ـ ٨٤٠هـ ـ ١٤٣٤ ـ ١٤٣٦م، وهي عبارة عن صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات[٢].

أما عن طراز المدارس الحفصية الأخرى وغيرها، من المدارس التي أنشئت في العصر العثماني، فقد أفردنا لها دراسة مفردة سوف تنشر في القريب بمشيئة الله تعالى.

أما الأندلس، فإنه برغم ما شهدته من ازدهار الحركة العلمية والفكرية فيها بشكل منقطع النظير؛ كما هو ثابت ومعروف؛ إلا أن المدارس لم تعرف طريقها إليها إلا في عصر دولة بني نصر، أو بني الأحمر في غرناطة ـ وهي

---

(١) ابن الشماع، أبو عبدالله محمد بن أحمد، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم الطاهر محمد المعموري، الدار العربية للكتاب (١٩٨٤م)، ص٥٦.

(٢) المعموري، الطاهر، **جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصى والتركي**، الدار العربية للكتاب (١٩٨٠م)، ص٨١ ـ ٩٠.

آخر القواعد الأندلسية الكبرى، وبسقوطها ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م، انتهت دولة الاسلام بالأندلس، وكان ذلك على يد حاجب السلطان أبي الحجاج يوسف، وهو الحاجب أبو النعيم رضوان النصري، فهو الذي أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد ـ على حد قول صاحب الإحاطة ـ، وقد عرفت هذه المدرسة بالمدرسة النصرية، أو المدرسة اليوسفية، وكان إنشاؤها عام ٧٥٠هـ ـ ١٣٤٩م[١].

أما عن المدارس المرينية[٢] الباقية بالمغرب الأقصى، فيمكن أن نحصرها في نمطين رئيسيين، وهما:

١ ـ النمط الأول:

وهو المدرسة المسجد، ويقصد به: تلك المدارس التي وقفت للدراسة والتعليم، وخصصت كمسجد للصلوات الخمس فحسب (ومما له

---

(١) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد (ت٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، المجلد الأول، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة (١٩٧٣م)، ص٥٠٨؛ شبانة، محمد كمال، **يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة**، القاهرة (١٩٦٩م)، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الدراسة الوصفية والتحليلية للمدارس المرينية بالمغرب الأقصى انظر: الكحلاوي، **المدارس المغربية**، ص٧١ ـ ١١٢؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٤/ ١٩٤ ـ ٢٣٤)؛ أبو رحاب، **مدارس المغرب الأقصى**، ص١٥٤ ـ ٣٥٣؛

Marcais, G., Manuel d' Art Musulman, Architecture, Tunisie, Algerie, Maroe, Espagne, Sicile, vol 2, Paris (1927), PP. 505 _ 520.

دلالتـه: أن هـذا المكان الـذي خصص للصلاة فـي المدارس المغربيـة قد عرف باسم القبـة، وهو ما تؤكـده النقوش الكتابيـة المسجلة على لوحـات الحـبوس (الأوقـاف)، ومنهـا نقوش المـدرسة المصباحيـة بفاس القديمـة ٧٤٧هـ ـ ١٣٤٦م)[١]، ومن ثم كان لا يسمح لأحـد ـ غير طلبتها ـ بالدخول إليها، والانتفاع بمرافقها ومنافعها؛ كالمسجـد والميضأة، وقد صرح بذلك بعض الفقهاء المغاربـة، فمنهم من قـال: إن بناء مسجـد في المدرسة كـان لتمييزهـا عن الفنادق أو الخـانقاوات، ومنهم من أضاف قائلاً: إن مسجـد المدرسة ليس في الحكم كغيره من المساجد المباحة لعموم المسلمين، ولهذا قيل في الأذان فيها ما قيل[٢].

ومن الملاحظ: أن هـذا النمط كان هو الغالب والسائـد خلال العصر المريني، ولـذلك لم تـزود كل المدارس بمنبر أو مئذنـة، باستثناء مـدرسة الصفارين ٦٧٥هـ ـ ١٢٧٦م، فهي المدرسة الوحيدة التي زودت بمئذنة تعلو كتلة المدخل الرئيسي بالواجهة الشمالية للمدرسة[٣].

هذا، وتتميز مدارس هـذا النمط بصغر مساحتها، وبساطة تخطيطها، فهي عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الجنوبي غالبًا القبة (مسجد المدرسة)، وتخطيطها قـد يكون مجرد مساحـة مستطيلة مسقوفـة لا تحوي

---

(١) عن: أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص٢٥١، ٢٥٥.

(٢) عن: أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦.

.Hillenbrand, Islamic PP. 242 - 251

(٣) الكحلاوي، **المدارس**، ص٩٠ ـ ٩٢؛ أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص٣٠٠.

سوى المحراب؛ مثل: مدرسة الشهود أو القاضي بمكناس ٦٧٤هـ ـ ١٢٧٥م، ومدرسة الصهريج بفاس القديمة ٧٢١ ـ ٧٢٣هـ ـ ١٣٢١ ـ ١٧٢٣م، ومدرسة أبي الحسن بمكناس ٧٣٦ ـ ٧٤٢هـ ـ ١٣٣٦ ـ ١٣٤١م.

وقد تكون مساحة مربعة تحوي محرابًا؛ مثل: مدرسة الصفارين بفاس القديمة ٦٧٥هـ ـ ١٢٧٦م، أو مساحة مربعة لا تحوي محرابًا؛ كما هو الحال في المدرسة المصباحية بفاس القديمة ٧٤٧هـ ـ ١٣٤٦م، وقد كان ذلك راجعًا إلى أن القبة وضعت بالجهة الشمالية للصحن، ومن ثم فإن جدار القبلة (الجنوبي) أصبح هو الذي يطل على الصحن، ولذلك استبدل المحراب بفتحة باب الدخول التي تصل القبة بالصحن.

وقد تكون القبة (مسجد المدرسة) عبارة عن مساحة مستطيلة تقسم إلى بلاطتين (رواقين) غير متساويتين غالبًا بواسطة بائكة ترتكز عقودها على الأعمدة أو الدعامات، أو كليهما؛ كما هو الحال في مدرسة دار المخزن ـ أي: القصر الملكي ـ بفاس الجديدة ٧٢٠ ـ ٧٢١هـ ـ ١٣٢٠ ـ ١٣٢١م، والبائكة ذات خمسة عقود حدوة الفرس، ومدرسة العطارين بفاس القديمة ٧٢٣ ـ ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥م، والبائكة ذات ثلاثة عقود حدوة الفرس (ومن الملاحظ أن قبة مدرسة العطارين (أي: مسجد المدرسة) تشغل الجهة الشرقية للصحن، ويتوسط المحراب جدارها الجنوبي).

وفي بعض النماذج تقسم قبة المدرسة (مسجد المدرسة) إلى ثلاثة بلاطات (أروقة)، أوسطها أوسعها، وذلك بواسطة بائكتين عموديتين على جدار القبلة، ويرتكز عقدا البائكتين على دعامتين مستطيلتين مدمجتين في

كل من الجدارين الشمالي والجنوبي؛ كما هو الحال في مدرسة أبي الحسن في سلا ٧٤٢هـ ـ ١٣٤١م.

ومن الملاحظ في جميع الحالات السابقة: أن واجهة قبة المدرسة (مسجد المدرسة) قد حجبت بالكامل عن الصحن، باستثناء فتحات الدخول، سواء كانت فتحة واحدة، أو ثلاث فتحات، أكبرها أوسطها، ويغلق عليها حجاب من خشب الخرط، كذلك فإن واجهة قبة المدرسة المطلة على الصحن كانت ترتفع إلى ما يوازي ارتفاع بيوت الطلبة، سواء كانت من طابقين، أو ثلاثة طوابق ـ كما سنشير فيما بعد ـ.

أما عن الأضلاع الثلاثة الأخرى للصحن، فكانت تشغلها ـ بطبيعة الحال ـ أروقة تتقدم بيوت الطلبة غالبًا، وهى إما أن تكون عبارة عن رواقين في الضلعين الجانبيين للصحن (وهما: الضلع الغربي والضلع الشرقي) غالبًا، بواقع رواق بكل ضلع؛ كما هو الحال في كل من مدرسة الشهود أو القاضي بمكناس، ومدرسة الصفارين بفاس القديمة، ومدرسة الصهريج بفاس القديمة، ومدرسة دار المخزن بفاس الجديدة، وتتقدم هذه الأروقة بيوت الطلبة في هذه المدارس، وهي تتكون من طابقين، أو ثلاثة طوابق. ويستثنى من ذلك: مدرسة العطارين بفاس القديمة؛ حيث يوجد الرواقان في الضلعين الشمالي والجنوبي للصحن، بواقع رواق بكل ضلع؛ لأن قبة المدرسة (مسجد المدرسة) تشغل الجهة الشرقية للصحن ـ كما سبق القول ـ.

ولا يوجد بهذه المدرسة بيوت للطلبة في طابقها الأرضي، وبالتالي: فإن هذين الرواقين لا يتقدمان بيوتًا للطلبة؛ كما هو الشائع، وهي في ذلك

مثل مدرسة أبي الحسن بسلا؛ حيث تتوزع بيوت الطلبة على الطابقين الأول والثاني.

وفي بعض النماذج الأخرى تشغل الأروقة الأضلاع الثلاثة للصحن (الشمالي والشرقي والغربي)؛ كما هو الحال في مدرسة أبي الحسن في مكناس ٧٣٦ ـ ٧٤٢هـ ـ ١٣٣٦ ـ ١٣٤١م، بواقع رواق بكل ضلع يتقدم بيوت الطلبة، وهي من طابقين (أرضي وأول).

وفي أنموذج آخر توجد في الأضلاع الأربعة للصحن أربعة أروقة، بواقع رواق بكل ضلع، وهذا يعني: أن قبة المدرسة (مسجد المدرسة) يتقدمها رواق؛ كما هو الحال في مدرسة أبي الحسن في سلا، وعلى ذلك: فهي تعد النموذج الوحيد الذي يشتمل على رواق يتقدم قبة المدرسة (المسجد)، ومن جهة ثانية: فإن الطابق الأرضي لا يشتمل على بيوت للطلبة، ولذلك فقد وزعت البيوت في الطابقين الأول والثاني من ثلاث جهات: الشرقية والغربية والشمالية[1].

٢ ـ النمط الثاني:

وهو المدرسة الجامع، ويقصد به: تلك المدارس التي خصصت للدراسة والتعليم، ووُقفت مسجدًا جامعًا مباحًا لعموم المسلمين، ومن ثم زُودت بمنبر، ومئذنة، ومصلى جنائزي، وميضأة خارجية؛ بخلاف الميضأة الداخلية، ولا توجد سوى مدرسة واحدة تتبع هذا النمط، وهي المدرسة

---

(١) الكحلاوي، **المدارس**، ص١٠٢؛ أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص٢٨٦ ـ ٢٩٩، ٣٠٤ ـ ٣٣٠.

البوعنانية (أو الفارسية، أو المتوكلية) بفاس القديمة ٧٥١ ـ ٧٥٦هـ ـ ١٣٥٠ ـ ١٣٥٥م[1] (شكلا ٢١٦ ـ ٢١٧)، (لوحة ١٠١).

وقد امتازت هذه المدرسة بكبر حجمها، وبعظمتها وفخامة وثراء نقوشها الزخرفية والكتابية، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة، ووصفها بقوله: «... لا نظير لها في المعمور اتساعًا وحسنًا وإبداعًا وكثرةَ ماء وحسنَ وضع، ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها»[2].

أما عن مدارس عصر الأشراف السعديين، فحسبنا أن نشير إلى: مدرسة ابن يوسف بمراكش (المدرسة الغالبية) التي أمر بإنشائها السلطان السعدي الغالب بالله عام ٩٧٢هـ ـ ١٥٦٤م، وتعد هي الأخرى من المدارس الرائعة المتميزة، وهي عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الشرقي قبة المدرسة (مسجد المدرسة)، وهي عبارة عن مساحة مستطيلة قسمت إلى ثلاثة بلاطات (أروقة)، أوسطها أوسعها، وذلك عن طريق بائكتين، تتكون كل بائكة منهما من ثلاثة عقود حدوة الفرس عمودية على جدار القبلة، ويشغل الضلعين الجانبيين للصحن (الجنوبي والشمالي) رواقان، بواقع رواق بكل ضلع يطل على الصحن ببائكة ذات خمسة عقود، وبيوت الطلبة من طابقين، وقد وزعت في الطابق الأرضي على ضلعي المدرسة الجنوبي والشمالي منفصلة

(١) الكحلاوي، **المدارس**، ص١٠٨ ـ ١١٠؛ أبو رحاب، **مدارس**، ص٢٥٨ ـ ٢٨٥؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٣٨٤ ـ ٣٨٧؛ **قمم عالمية**، (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٢)؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة**، (٤/ ٢٢٧ ـ ٢٣٤).

(٢) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص٦٦٢.

تمامًا عن صحنها الأوسط، ومن ثم صار كل عدد من البيوت يطل على صحن داخلي مستقل، وبـذلك وصل عـدد الصحـون الصغيرة بالمدرسة إلى ستـة صحون: ثلاثة بالضلع الجنوبي، ومثلها بالضلع الشمالي. (شكل ٢١٥).

ويبلغ عدد بيوت الطلاب بالطابق الأرضي ٥٤ حجرة، والطابق الأول ٨٢ غرفة، في ثلاث جهات: الشمالية والجنوبية والغربية[١].

أما عن السمات المعمارية والفنية للعناصر المعمارية والنقوش الكتابية والزخرفية المنفذة على كافـة المواد، فسوف نفرد لها دراسة لاحقـة بمشيئة الله تعالى.

٨ ـ اليمن:

من الثابت والمعـروف تاريخيًا: أن المدارس قـد وجدت طريقها إلى اليمن في أواخر العصر الأيوبي ٥٦٩ ـ ٦٢٦هـ ـ ١١٧٣ ـ ١٢٢٩) حينما أنشئت للملك المعز إسماعيل بن طغتكين مدرستان إحداهما: في تعز، وسماها: المدرسة السيفيـة، نسبة إلى أبيـه سيف الإسـلام طغتكين المتوفى ٥٩٣هـ ـ

---

(١) أبو رحاب، **مدارس المغرب**، ص٤٢٤ ـ ٤٣٥؛ **العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعـديين**، القاهـرة (٢٠٠٨م)، ص٣١٣ ـ ٣٣٦؛ خصيف، محمد، **مدرسة ابن يوسف أكبر مـدرسة عتيقة بالمغرب العربي**، مجلة المتحف العـربي، السنة الثالثـة، العـدد (٣)، (جمـادى الأولى ـ رجـب ١٤٠٨هـ ـ يناير ـ مارس ١٩٨٨م)، ص٥٢ ـ ٥٧؛ إسماعيل، عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقيـة بالمغـرب الأقصى**، ج٥، الرباط (١٩٩٣م)، ص٩٧ ـ ١٠٢. ولمزيد من التفاصيل عن المدارس السعدية الأخرى، انظر: أبو رحاب، **العمارة الدينية**، ص٣٤٦ ـ ٣٥٦.

١١٩٧م، والأخرى: في زبيد عام ٥٩٤هـ ـ ١١٩٨م، وقد عرفت بالمدرسة المعزية؛ نسبة إليه، ثم عرفت ـ فيما بعد ـ بمدرسة الميلين[١].

وفي العصر الرسولي (٦٢٦ ـ ٨٥٨هـ ـ ١٢٢٠ ـ ١٤٥٤م) انتشرت المدارس انتشارًا كبيرًا في تعز، والجند، وذي جبلة، وزبيد، وعدن ونواحيها، وامتدت إلى ظفار الحبوضى شرقًا، وإلى مكة المكرمة شمالاً، وعلى ذلك: كانت المدارس الرسولية سمة من سمات دولتهم، ومظهرًا بارزًا من مظاهر الحضارة الإسلامية في عصرهم.

واستمر إنشاء المدارس بعد بني رسول في عهد الدولة الطاهرية، فبنيت مدارس في جبن، ورداع، وتعز، وزبيد، والمقرانة، وظل الحال على ذلك خلال العصر العثماني؛ حيث بنيت مدارس في صنعاء وزبيد[٢].

ويمكن تقسيم المدارس اليمنية الباقية إلى مجموعتين[٣] متميزتين:

---

(١) الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، **المدارس الإسلامية في اليمن**، بيروت ـ صنعاء، ط٢، (١٩٨٦م)، ص٥م ـ ٦م؛ شيحة، **مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية**، ص٨٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن انتشار المدارس الإسلامية في اليمن من العصر الرسولي إلى العصر العثماني انظر: الأكوع، **المدارس الإسلامية في اليمن**، (٤٥٣ صفحة فضلاً عن الفهارس والمصادر والمراجع).

(٣) عن الدراسة الوصفية والتحليلية للمدارس اليمنية بمجموعتيها انظر: شيحة، **مدخل**، ص٨٦ ـ ١٠٧؛ دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية المشار إليه سابقًا، ص٤٣٨ ـ ٤٦٧؛ أبو الفتوح، محمد سيف النصر، **نظرة عامة إلى المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية**، مجلة الإكليل، السنة ٣، العدد (١)، صنعاء (١٩٨٥م)، =

الأولى: المدارس الكبرى، والثانية: المدارس الصغرى، ومن المدارس التي تنتمى إلى المجموعة الأولى: المدرسة المعتبية بتعز قبل ٧٩٦هـ ـ ١٣٩٣م، والمدرسة الأشرفية الكبرى بتعز ٨٠٠ ـ ٨٠٣هـ ـ ١٣٩٧ ـ ١٤٠٠م، والمدرسة الظاهرية بتعز قبل ٨٤٢هـ ـ ١٤٣٨م، والمدرسة المنصورية في جبن ٨٨٧هـ ـ ١٤٨٢م، والمدرسة العامرية في رداع ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٩م.

ومن المدارس التي تنتمي إلى المجموعة الثانية المدرسة المنصورية العليا، والمدرسة المنصورية السفلى بزبيد قبل ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م، والمدرسة الدعاسية بزبيد قبل ٦٦٧هـ ـ ١٢٦٩م، والمدرسة الجبرتية بزبيد قبل ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣، والمدرسة النظارية في إبّ ٩٢١هـ ـ ١٥١٥م، والمدرسة الوهابية في زبيد ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م.

ومن مدارس العصر العثماني: المدرسة الكمالية ٩٢٧ ـ ٩٣٠هـ ـ ١٥٢٠ ـ ١٥٢٣م، والمدرسة السكندرية قبل ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م، في زبيد، والمدرسة

= ص١٠٥ ـ ١٢٥؛ **المدرسة الدعاسية بمدينة زبيد باليمن**، دراسة أثرية ووثائقية، مجلة كلية الآداب بقنا ـ جامعة أسيوط (١٩٩٢م)، ص٨٤ ـ ١٢٦؛ الراشد، عبدالله، **المنشآت المعمارية الرسولية في اليمن**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض (١٩٩٢م)؛ المصري، آمال حامد، **مدارس مدينة تعز باليمن في عصر بني رسول**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٩٨م)؛ الحداد، عبدالله عبد السلام، **مدينة حيس اليمنية، تاريخها وآثارها الدينية**، القاهرة (١٩٩٩م)؛ **مقدمة في الآثار الإسلامية**، ص٣٤ ـ ٣٦؛ وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن الاستغناء عن كتاب المدارس الإسلامية في اليمن للقاضي الأكوع، فهو عصب دراسة المدارس اليمنية، لا سيما وأنه قد اعتمد على الوقفية الغسانية، وهي من أهم المصادر لدراسة المدارس اليمنية كما لا يخفى.

البكيرية ١٠٠٥هـ ـ ١٥٩٦م، في صنعاء.

أما عن تخطيط هـذه المدارس، فيمكن القول: إن المـدارس الكبرى تكاد تتفق فيما بينها من حيث السمات العامة والتخطيط العام، مع الاختلاف في بعض العناصر والمفردات والتفاصيل؛ حيث يوجد صحن أوسط مكشوف (الصوح أو الصرحـة أو الشماسي أو الشمسيـة حسب الاصطلاح اليمني)، تحيط به الأروقـة من ثلاث جهات، كمـا في المدرسة المعتبيـة في تعز، أو أربع جهات؛ كما في المدرسة العامرية في رداع.

ويشغل صدر المدرسة (الضلع الشمالي للصحن، وهو الضلع القبلي بالنسبة لليمن) مسجـد المدرسة (البنية وفق الاصطلاح اليمني)، أو مجلس قبلي على ضوء ما ورد في الوقفيـة الغسانية، ويتبع تخطيطه إما الطراز الذي اصطلحنا على تسميتـه بطراز القلب والجناحين، أو على حـد قول الوقفيـة الغسانية مجلس قبلي وجناحـان شرقي وغربي، وتعلو المجلس القبلي قبـة كبيرة فيها المحراب ـ أي: بصدر المجلس القبلي ـ محمولة على أربعة عقود، أما الجناحان، فبكل جناح أربع قباب؛ كما هو الحال في المدرسة الأشرفية الكبرى بتعز (شكل ١٥).

والمدرسة الظاهرية قبل ٨٤٢هـ ـ ١٤٣٨م، بتعز ـ أيضًا ـ.

واستمر نفس هذا الطراز في العصر العثماني، ولكن على مقياس أصغر؛ كما هو الحال في المدرسة الكماليـة، والمدرسة السكندرية بزبيد، فالقلب تعلوه قبة كبرى، بينما يشتمل كل جناح على قبتين متماثلتين، ومن الملاحظ ـ أيضًا ـ في هاتين المدرستين: وجود الصحن المكشوف، والأروقة الأربعة حوله. (شكل ١٦).

ويتبع التخطيط الآخر لمساجد المدارس اليمنية الكبرى الطراز الذي اصطلحنا على تسميته بطراز الأروقة (البلاطات) المتقاطعة؛ حيث توجد بائكة ذات ثلاثة عقود موازية لجدار القبلة، تقطعها بائكتان عموديتان على جدار القبلة، وهو الأمر الذي نتج عنه رواقان موازيان يتقاطع معهما ثلاثة أروقة عمودية، ويغطي المسجد ست قباب متماثلة غالبًا؛ كما هو الحال في المدرسة المعتبية في تعز، والمدرسة العامرية في رداع.

ومن مفردات التخطيط في هذه المدارس ـ أيضًا ـ: الإيوانات والدهاليز والخانقاه والحمامات والمطاهير، وفي بعضها ـ كالأشرفية ـ الترب، وغير ذلك من المنافع والمرافق والملحقات، وهو الأمر الذي أكسب المدارس اليمنية طابعًا محليًا متميزًا، وشخصية مستقلة قائمة بذاتها، وهو ما سوف نعود إليه لإبرازه في دراسة لاحقة مفصّلة بمشيئة الله تعالى.

أما في المدارس الصغرى، فالمسجد فيها إما أن يكون على هيئة مساحة مستطيلة يتوسط صدرها المحراب؛ كما هو الحال في المدرسة المنصورية العليا في زبيد، أو تقسم هذه المساحة إلى رواقين (بلاطتين) بواسطة بائكة واحدة ذات خمسة عقود؛ كما هو الحال في المدرسة الياقوتية في زبيد والتغطية غالبًا ما تكون الأقبية، وهناك بعض النماذج التي غطيت بقبة مركزية؛ كما في المدرسة الدعاسية، والمدرسة الوهابية في زبيد، وإن كانت هذه المدرسة الأخيرة تتميز بوجود إيوانين جانبيين صغيرين (شرقي وغربي) يطل كل إيوان منهما على المساحة الوسطى بعقد؛ ليساعدا مع العقدين الآخرين (الشمالي والجنوبي) في إقامة القبة الوسطى المركزية.

أما المدرسة البكيرية بصنعاء، فتتميز بأنه يتقدم مسجدها المغطى بقبة

كبرى رواق خارجي (سقيفة) مغطى بثلاث قباب صغيرة متماثلة يشرف على الفناء (الصوح أو الصرحة) المكشوف[1] ـ كما سبق القول ـ. (شكل ١٣).

* * *

المبحث الثالث
الأربطة

انتشرت الأربطة في العمارة الإسلامية انتشارًا كبيرًا، ونهضت بدور بارز جليل الشأن، عظيم الأثر في الحضارة الإسلامية، خلال العصور الوسطى، وهو ما يستدل عليه من خلال ما ورد في المصادر التاريخية المتنوعة، وبصفة خاصة كتب الفتوح والبلدان، وكتب التاريخ المحلي والخطط، وكتب التاريخ العام والحوليات، وكتب الجغرافيا والرحلات، وكتب النظم والموسوعات، وكتب الأنساب والتراجم، والطبقات والسير، وكتب الصوفية من جهة، ووثائق الوقف المتعددة من جهة ثانية. إلا أنه لسوء الحظ قد اندثرت غالبية تلك الأربطة، ولم يتبق من نماذجها سوى القليل؛ فضلاً عن بعض النقوش الآثارية الباقية الخاصة بإنشاء ووقف العديد من الأربطة التي درست وأصبحت أثرًا بعد عين.

ومن بين هذه النقوش حسبنا أن نشير إلى نقوش كل من رباط رامشت

---

(١) الحداد، محمد حمزة، **بحوث ودراسات** (الكتاب الأول)، ص١١٨، ١٥١؛ خليفة، ربيع حامد، **البكيرية المسجد والمدرسة**، **الإكليل**، السنة ٥، العدد (١)، صنعاء (صيف ١٩٨٧م)، ص١٣٤ ـ ١٤٤؛ (فضلاً عن المراجع المشار إليها سابقًا وبصفة خاصة: الأكوع، وشيحة، وأبو الفتوح).

٥٢٩هـ ـ ١١٣٤م، ودار السلامي التي وقفت على هذا الرباط ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م، ونقش رباط المراغي ٥٧٥هـ ـ ١١٧٩م، ونقش رباط المغاربة ٦٠٤هـ ـ ١٢٠٧م بمكة المكرمة[١]، ونقش رباط ياقوت المارداني المعروف برباط مظفر (كان بحارة الأغوات) ٧٠٦هـ ـ ١٣٠٦م بالمدينة المنورة[٢].

هـذا، وقد اختلفت الآراء قديمًا وحـديثًا حول اشتقاق لفظة الرباط، والـدلالات المتعـددة للمصطلح في الأقطار الإسلاميـة المختلفـة، وأنواع الأربطة، ومواضـع إقامتها، وتاريـخ نشأة كـل نوع منهـا، ومـدى انتشاره، ومراحل تطوره، وما مـدى ارتباط هذا المصطلح بمصطلحات أخرى عربية ومعرّبة؛ كالزاوية، والخانقاه، والتكيـة، وهل هناك تصميم معماري خاص للأربطة يميزها عن غيرها من أنواع العمائر الدينية الأخرى[٣]؟.

(١) الفعر، محمد فهد، **تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري**، جـده (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م)، ص٢٨٤ ـ ٢٩١، ٢٩٦ ـ ٣٠٢، ٣١٨ ـ ٣٣٢؛ إضافـات جديـدة لرباطات مكة المكرمـة في مطلع القرن السادس الهجري/ ١٢م، مجلة دراسات آثارية إسلامية، المجلد ٥، المجلس الأعلى للآثار المصرية، القاهرة (١٩٩٥م)، ص٢٥٥ ـ ٢٧٦.

(٢) الزيلعي، أحمد، **نقش تأسيس من حارة الأغوات** بالمدينة المنورة مؤرخ في سنة (٧٠٦هـ ـ ١٣٠٦م)، ضمن كتـاب دراسات فـي الآثار، الكـتاب الأول، تحـريـر عبد الرحمن الأنصاري وآخرين، الرياض، إصدارات مركز البحوث بكلية الآداب، جامعـة الملك سعود، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م)، ص٢٨٣ ـ ٢٨٧؛ الحـداد، محمد حمزة إسماعيل، **النقوش الأثارية مصدرًا للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، المجلد الأول، القاهرة (٢٠٠٢م)، ص٧٤ ـ ٧٩.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ: مارسيه، جورج، (مادة: الرباط)، **دائرة المعارف** =

وقد ترتب على ذلك: حدوثُ الخلط حيناً، والاضطراب والتضارب أحياناً، وهو ما أفردنا له دراسة تحليلية مطولة في كتابنا الجامع للمصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية على حروف المعجم(١).

ومهما يكن من أمر، فسوف نركز في هذا المقام على الأربطة الصوفية، والأربطة النسائية، أما الأربطة العسكرية، فسوف نشير إليها ضمن العمارة الحربية في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب.

أما الأربطة الصوفية، فمن بينها: رباط أم الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (ت٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م) التي أمرت بعمارته بمكة المكرمة عام ٥٠٩هـ ـ ١١١٥م، وجعلته «مسكناً لطائفه الصوفية، وجعلته وقفاً عليهم

= **الإسلامية**، المجلد العاشر، ص١٩ ـ ٢٥؛ الآلوسي، عادل، **مدخل لدراسة الربط الإسلامية**، المورد، المجلد ٢، العدد (٢)، بغداد (حزيران ١٩٧٣م)، ص٢٣ ـ ٣٠؛ عبو، عادل نجم، **الرباط في العمارة الأيوبية في سوريا**، مستخرج من الكتاب الذهبي، عدد خاص من مجلة كلية الآثار، ج٢، القاهرة (١٩٧٨م)، ص٣٧ ـ ٤٠؛ جواد، مصطفى، **الربط والبغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية**، سومر، المجلد ١٠، ج٢، بغداد (١٩٥٤م)، ص٢١٨ ـ ٢٤٩؛ المجلد ١١، ج٢، بغداد (١٩٥٥م)، ص١٨٨ ـ ٢٠٦ (وقد أعيد نشر هذين البحثين في كتاب بعنوان: الربط الصوفية البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، بيروت (٢٠٠٦م)، ص٥ ـ ٩٦)؛ شافعي، حسين عبد العزيز، **الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي**، مؤسسة الفرقان، جدة (٢٠٠٥م)، ص١٣ ـ ١٧؛ الدراجي، حميد محمد حسن، **الربط والتكايا البغدادية في العهد العثماني**، بغداد (٢٠٠١م)، ص٩ ـ ٢٥؛ غنيم، سمير عبد المنعم، **الأربطة الباقية بالقاهرة من العصر المملوكي**، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٩٩٨م)، ص١ ـ ٦٤.

(١) هذا الكتاب لا يزال قيد النشر.

مؤبدًا خالصًا لله. . .»؛ كما يستدل من نقشه الإنشائي المحفوظ بمتحف قسم الحضارة والنظم الإسلامية بجامعة أم القرى[1].

ورباط رامشت بمكة المكرمة الذي أوقفه الشيخ أبو القاسم رامشت الفارسي عام ٥٢٩هـ ـ ١١٣٤م على «جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعة من سائر العراق وخراسان الحاج والمجاورين وقفًا مؤبدًا وصدقة محرمة محبسة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. . .»؛ كما يستدل من نقشه الإنشائي[2].

ورباط المراغي بمكة المكرمة الذي وقفه الشيخ أبو بكر محمد بن عبدالله المراغي عام ٥٧٥هـ ـ ١١٧٩م على «المتصوفة والواصلين إلى محرمه تعالى النازلين فيه من المجاورين والمجتازين وغيرهم من العرب والعجم تقربًا إلى الله تعالى. . .» كما يستدل من نقشه الإنشائي[3].

أما أربطة المدينة المنورة، فمن بينها: رباط مراغة، وقد أوقف على الفقراء الصوفية المجردين، وسكنه المغاربة وبعض الأفارقة الآخرين، ومنها: رباط الفاضل الذي نزل فيه الصوفي عبد الرحمن الجبرتي، وكان من أرباب

---

(١) شافعي، **الأربطة في مكة المكرمة**، ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) الفعر، **تطور الكتابات والنقوش**، ص٢٨٧؛ شافعي، **الأربطة**، ص٤٨ ـ ٤٩.

(٣) الفعر، **تطور الكتابات والنقوش**، ص٢٩٨؛ شافعي، **الأربطة**، ص٦٥؛ ولمزيد من التفاصيل عن الأربطة المكية في العصرين المملوكي والعثماني، انظر: شافعي، **الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي**، ص١١٦ ـ ١٨٧؛ الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني، مؤسسة الفرقان، جدة (٢٠٠٥م)، ص٣٧ ـ ١٩٨.

القلوب والكرامات، ويخبر أحياناً بالمغيبات[1]. ورباط ياقوت الماردادتي الذي وقفه عام ٧٠٦هـ ـ ١٣٠٦م على «. . . الفقراء والمساكين الغرباء من الرجال خاصة دون النساء. . .»؛ كما يستدل من نقشه الإنشائي[2].

أما الربط البغدادية، فمن بينها: رباط الزوزني المتوفى عام ٤٥١هـ ـ ١٠٥٩م، ورباط البسطامي ٤٩٣هـ ـ ١٠٩٩م، ورباط ابن الإبري المتوفى ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م، وقد أوقف عليه أوقافًا حسنة، ورباط الحريم الطاهري الذي أمر بعمارته الخليفة الناصر لدين الله ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م، ورتب به «عشرة من الصوفية أرباب المجاهدات طعامًا كل يوم خارجًا عن راتب الصوفية المذكورين. . .». وبالجملة: كان هذا الرباط من أحسن الربط البغدادية[3].

وإذا انتقلنا إلى سورية، وجدنا نماذج من أروع الأمثلة الباقية للأربطة، ومنها: الفردوس بحلب ٦٣١هـ ـ ١٢٣٥م (شكلا ٧٠ ـ ٧١، لوحتا ١٧ ـ ١٨). ورباط الفرافرة المعروف بخانقاه الفرافرة بحلب ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م[4].

أما مصر فبرغم كثرة ما أقيم فيها من أربطة للصوفية ـ كما يستدل من المصادر التاريخية، ووثائق الوقف المختلفة ـ إلا أنه لم يبق منها سوى القليل النادر، ومنها: رباط أحمد بن سليمان الرفاعي بحارة حلوات من شارع سوق السلاح بالقاهرة قبل ٦٩٠هـ ـ ١٢٩١م.

---

(١) المديرس، عبد الرحمن، **المدينة المنورة في العصر المملوكي**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض (٢٠٠١م)، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) الحداد، **النقوش**، ص٧٤.

(٣) جواد، **الربط الصوفية البغدادية**، ص١٤، ٤١، ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) عبو، **الرباط**، ص٣٩ ـ ٤٥.

ولم يبق من هـذا الرباط المعروف برواق أحمـد بن سليمـان الرفاعي سوى القبة المدفن، وجدار القبلة، وأطلال الجدار الشمالي الشرقي من رواق القبلة، وأطلال أعمدة ثلاثة بالرواق[١].

وبالنسبة للأربطة النسائيـة، فكان منها رُبُطٌ خاصة بالنساء الصوفيات، وربط أخرى كانت منشآت للرعاية الاجتماعية ضمنت لأفرادها من النزيلات الإعاشة الكاملة، فكفتهن مذلّة السؤال أو الانحراف، مع العمل على تثقيفهن ووعظهن في الدين، والاعتكاف على الطاعات والعبادات، وقد وقفت مثل هـذه الأربطة للعجـائز والأرامل والمنقطعـات والمطلقات، ومن قعـد بهن الزمان[٢].

ومن أربطة النوع الأول ـ أي: الربط النسائية الصوفية ـ: رباط الساحة بمكة المكرمـة، وقد أوقفته جماعة من النسوة، منهن: والـدة الشيخ قطب الدين القسطلاني على الفقيرات الغريبات المتدينات بمكة المكرمة، ورباط بنت التـاج (ت٦١٠هـ ـ ١٢١٣م) بمكـة المكرمـة الـذي أوقفتـه على النساء الصوفيات الأخيار، كما أوقف رباط ابن السوداء بمكة المكرمة عام ٥٩٠هـ ـ ١١٩٣م على النساء الصوفيات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب.

ومـن أشهر هـذا النوع مـن الأربطة بمكـة المكرمـة: رباط الظاهريـة ٨٣٧هـ ـ ١٤٣٣م، وخصص يوم السبت من كل أسبوع لاجتماع النساء[٣].

---

(١) غنيم، **الأربطة**، ص٢٨ ـ ٣٧، ٩٩ ـ ١١٣.

(٢) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٣٦٣.

(٣) الجابري، خالـد محسن، **الحياة العلميـة في الحجاز خـلال العصر المملوكي**، مؤسسة الفرقان، جدة (٢٠٠٥م)، ص٤٣٩ ـ ٤٤١.

وفي دمشق أنشأت السيدة فاطمة بنت الملك العادل محمد عام ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م رباطًا للنساء، ونقش فوق بابه: «وقفت هذه الخانكاه الرباط فاطمة بنت الملك العادل محمد بن الكامل بن أبي بكر بن أيوب على الفقيرات المقيمات بها، وإظهارًا للصلوات الخمس، والمبيت فيها»[(١)].

ومنها في مصر: رباط الحجازية بالقرافة الكبرى، وقد أنشأته الست فوز جارية الوزير علي بن أحمد الجرجرائي ٤١٥هـ - ١٠٢٤م، ووقفته على واعظة زمانها السيدة أم الخير الحجازية، وكانت تعظ المقيمات بهذا الرباط، وترشدهن إلى الخير والصلاح.

ورباط البغدادية بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس الجاشنكير، وقد أنشأته السيدة تذكار باي خاتون بنت الملك الظاهر بيبرس ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م، وأوقفته على الشيخه الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به، ومعها مجموعة من النساء الخيرات، وقد اشتهر هذا الرباط بشدة الضبط، وغاية الاحتراز والحفاظ على الأخلاق، والمواظبة على العبادة[(٢)].

ومنها: رباط بنت الخواص، وقد بنى هذا الرباط الرجل الصالح المعروف بالخواص، وكان بيد ابنته من بعده المرأة الصالحة، لهذا كان يعرف برباط بنت الخواص، وكانت من الفضلاء، وزاهدة تلبس المرقعة الصوف، وخصص هذا الرباط للأرامل والعجائز، ومجالس الوعظ والمقامات المشهودات

---

(١) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٣٦٣.

(٢) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية**، ص٣٦٥ - ٣٦٦؛ غنيم، **الأربطة**، ص١٨.

ومواقف الزهد على مذهب أهل الطريقة وسالكي منهاج الحقيقة[1].

أما النوع الآخر من الأربطة النسائية، فمن أمثلته: رباط الفقاعية بمكة المكرمة، وقد أوقفته قهرمانة الخليفة العباسي المقتدي لأمر الله في سنة ٤٩٢هـ ـ ١٠٩٨م على المنقطعات الأرامل.

ورباط البعداني الذي أوقفته بمكة المكرمة زوجة الأشرف إسماعيل ابن الأفضل صاحب اليمن عام ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣م على الفقراء والنساء المستحقين للسكن.

وأوقفت ستيتة بنت ناصر الدين محمد عام ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م رباط المسيكينة بأجياد بمكة المكرمة على النسوة الفقيرات العربيات الواردات إلى مكة من أجل الإقامة، تقدم في ذلك الأحوج فالأحوج منهن، ومن انقطعت عن الرباط أكثر من عشرة أيام من غير عذر، فليخرجها الناظر، ويسكن غيرها.

كذلك رباط عطية بن خليفة بسوق الليل بمكة المكرمة، وقد أوقفه على النسوة، وسمح لهن أن يكرين (يؤجرن) مساكنهن زمن المواسم؛ ليكتسبن بذلك[2].

ومنها في بغداد: دار الشط المجاورة لدار الملك التي أوقفها الخليفة المستعصم بالله في عام ٦٥٢هـ ـ ١٢٥٤م رباطًا للنساء المحتاجات، وجعل

---

(١) الحداد، **قرافة القاهرة من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر المملوكي**، القاهرة (٢٠٠٦م)، ص٦٠.

(٢) الجابري، **الحياة العلمية في الحجاز**، ص٤٣٩ ـ ٤٤١.

شيخته الشريفة ابنة المهتدي بالله، وهي التي كانت تتولى تعليمهن وإرشادهن[1].

وفي مصر انتشرت هذه الأربطة، سواء بالقرافة، أو بمدينة القاهرة نفسها، ومنها: رباط الأشراف، ورباط الأندلس، ورباط رياض[2].

ورباط الخوند زينب ابنة العلاء زوجة السلطان إينال الذي ما تزال بقاياه قائمة بحارة الرباط بالخرنفش بالقاهرة، ويؤرخ بالفترة الواقعة فيما بين ٨٦٥ ـ ٨٨٤هـ ـ ١٤٦١ ـ ١٤٧٩م[3].

أما عن عمارة الأربطة، فحسبنا أن نقتصر على نموذجين باقيين، أحدهما: هو رباط الفردوس بحلب، والآخر: رباط الخوند زينب زوجة السلطان إينال بالقاهرة.

أما رباط الفردوس بحلب، فيعد من أبدع وأروع الأربطة الإسلامية عامة، وفي سوريا خاصة، وهو عبارة عن صحن مكشوف، تتوسطه بركة ماء (بحرة)، ويشغل الضلع القبلي للصحن مسجد مغطى بثلاث قباب، أكبرها أوسطها، وفي الركنين الجانبين حجرتان مربعتان تتصلان بالمسجد من جهة، وبالحجرات الجانبية للصحن من جهة ثانية، ويغطي كل حجرة منهما ـ أيضًا ـ قبة، وربما كانت هاتان الحجرتان تمثلان الترب الوارد ذكرهما في المصادر التاريخية[4]، ويتقدم واجهة المسجد رواق يطل على الصحن ببائكة ثلاثية

(١) جواد، **الربط الصوفية البغدادية**، ص٤٨ ـ ٤٩؛ أبو الفتوح، منشآت، ص٣٦٣.

(٢) الحداد، **قرافة القاهرة**، ص٦٠ ـ ٦١.

(٣) أبو الفتوح، منشآت، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨؛ غنيم، **الأربطة**، ص١٢٢ ـ ١٣٧.

(٤) عبو، **الرباط**، ص٤١.

العقد، كما يوجد على جانبي الصحن رواقان آخران، بواقع رواق بكل جانب، يطل على الصحن ببائكة ذات أربعة عقود، ويوجد خلف كل رواق ثلاث حجرات مغطاة بقباب متماثلة.

أما الجانب المقابل للمسجد، فيشغله إيوان المدرسة (الإيوان الشمالي) المقبي وخلفه إيوان آخر يفتح على الخارج، كذلك يحتل الركنين الشماليين فيما بين الإيوان الخارجي للمدرسة جناحان مستقلان ربما كانا خاصين بالدراسة والإقامة على غرار ما عرف بعد ذلك في المدارس المملوكية بالمدارس الفرعية، كما هو الحال في مدرسة السلطان حسن بالقاهرة (شكلا ١٣٢ ـ ١٣٣)، ولكن مع الاختلاف في بعض التفاصيل والمفردات، كذلك فإن محراب مسجد هذه المدرسة يعد من أروع وأبدع المحاريب في العمارة الإسلامية بصفة عامة، وفي سوريا بصفة خاصة[1]. (شكلا ٨٠ ـ ٨١)، (لوحتا ١٧ ـ ١٨).

أما رباط الخوند زينب بالقاهرة، فيتكون من درقاعة، وإيوانين، وهما: إيوان القبلة (الجنوبي الشرقي)، والإيوان البحري (الشمالي الغربي) المقابل له، ويشغل كلاً من الضلعين الجانبيين للدرقاعة (وهما: الضلع الجنوبي الغربي، والضلع الشمالي الشرقي) ستةُ أبواب، بواقع ثلاثة بكل ضلع، تؤدي

---

(١) الجاسر، **مدارس حلب**، ص٢٠٩ ـ ٢٢١؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٧٩ ـ ٢٨٤؛ **العمارة العربية الإسلامية**، ص١٣٨ ـ ١٣٩؛ **قمم عالمية**، (٢/ ٣٧٤ ـ ٣٨٠)، (أشكال ١٢٦، ١٢٨ ـ ١٣٧)؛ عبو، عادل نجم، **الرباط في العمارة الأيوبية في سوريا**، مجلة كلية الآثار ـ عدد خاص، ج٢، القاهرة (١٩٧٨م)، ص٤٠ ـ ٤٢. (أشكال ٢ ـ ٥).

إلى حجـرات الرباط، والسلَّم الذي يتوصل منـه للطابق العلوي؛ فضلاً عن الدهليز الواصل بين دركاة الدخول والدرقاعـة، ودهليز آخر يربط في نهايته بين دهليزين، أحدهما: يسير خلف الحجرتين اللتين بالجانب الجنوبي الغربي للإيوان البحـري، والدهليز الثاني: ينتهي بالجـزء المهدم الـذي يقع خلف السلم الرئيسي للرباط.

كذلك يشتمل الرباط على مجموعة من الحجرات بكل من إيواني القبلة، والإيوان البحـري المقابل لـه. فضلاً عن اثنتي عشرة غرفـة بالطابق العلوي للرباط، وعدة دهاليز تربط بين تلك الغرف وقاعة لشيخة الرباط.

وهذا الرباط بحالة سيئة للغايـة؛ إذ تحاصره العمائر المجاورة لـه من جميـع جهـاتـه؛ ولا تخلو المنـازل عنـه إلا عنـد مـدخله الوحيـد بالطرف الجنوبي[1]، أما داخل الرباط، فحدِّث ولا حـرج؛ حيث آل إلى الخراب، وتم الاعتداء عليه من قبل الأهالي، وإذا لم تتم صيانة وترميم هذا الأثر الفريد والنادر بين عمائر القاهرة الدينية، فسوف نفقده هو الآخر إلى الأبد.

* * *

المبحث الرابع
الزوايا

مفردها زاويـة، وتعني لغويًا: ركـن البناء؛ لأنهـا جمعت بين قطرين منه، وضمت ناصيتين[2].

---

(١) غنيم، **الأربطة**، ص١٢٥ ـ ١٣٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المعربة، (مادة: زاويـة)، مصطفى، إبراهيم، **المعجم** =

وقد أطلق مصطلح الزاوية على الحلقات العلمية بالجوامع الكبرى، ومنها: زوايا العلم بجامع عمرو بن العاص؛ كزاوية الإمام الشافعي، والزاوية المجدية، والزاوية الصاحبية، وغيرها، وقد أوقفت على هذه الزوايا بعض الأوقاف؛ مما كان له أثره الكبير في استمرارها في أداء رسالتها العلمية على خير وجه[1].

وهناك زوايا مستقلة، لكل منها مصلى أو مسجد، وأماكن للإقامة، بالإضافة إلى الملحقات والمنافع، وكانت مسكنًا للصلحاء من الشيوخ؛ ممن يشتهر أمرهم؛ حيث يتجمع حولهم تلاميذهم ومريدوهم، وهم غالبًا من الفقراء والصوفية، بالإضافة إلى العابرين والمترددين وأبناء السبيل، وكان شيخ الزاوية يتولى الوعظ والإرشاد لمن يتردد على الزاوية، أو يقيم فيها[2].

وكانت بعض الزوايا تُنشأ لأفراد من الصلحاء، وتحمل أسماء ساكنيها أو منشئيها، ومن أمثلة ذلك: زاوية الشيخ خضر، وزاوية ابن منظور، وزاوية الحلاوي، وزاوية خضر، وزاوية الشريف مهدي، وزاوية الركراكي، وزاوية المغربل، وزاوية الجعبري، وزاوية القصري، وزاوية الجاكي، وزاوية الإيناسي، وزاوية إبراهيم الصائغ، وغير ذلك[3].

= **الوسيط**، ج١، القاهرة (١٩٦٠م)، ص٤١٠.

(١) المقريزي، **الخطط**، (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)؛ أمين، محمد محمد، **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر**، القاهرة (١٩٨٠م)، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) أبو الفتوح، **منشآت**، ص٣٧٤.

(٣) المقريزي، **الخطط**، (٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣٥)؛ الطويل، توفيق، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، ص٤٢ ـ ٤٣.

كذلك كانت هناك زوايا تخصص لطوائف معينة من الأغراب الذين كانوا يفدون إلى القاهرة؛ كالأحباش، والأعاجم، وغيرهم، ومن أمثلة ذلك: زاوية الشيخ تقي الدين رجب بن أشيرك التي أمر بإنشائها السلطان حسام الدين لاجين ٦٩٧هـ ـ ١٢٩٧م، ووقفها على الفقراء أهل الطريق الأعاجم العزاب المنقطعين؛ كما يستدل من نقشها الإنشائي[1].

ومنها: الزاوية المعروفة بقبة النصر (مندرسة)، وكان يسكنها فقراء الأعاجم ـ أيضًا ـ، وهي من عصر الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ ـ ١٣٤٠م)، ومثلها زاوية حسن الرومي ٩٢٩هـ ـ ١٥٢٣م (تقع بسكة المحجر أسفل القلعة بالقاهرة)، وقد خصصت لطائفة العجم، واشترط الواقف أن يستقروا فيها على الدوام، وإذا أراد أحد هؤلاء الأعاجم أن يخرج لطلب العلم على مشايخ الأزهر، سمح له بذلك؛ بحيث لا تفوته صلاة الظهر بالزاوية، وكان الواقف قد أوقف هذه الزاوية مسجدًا لله تعالى تقام فيه الصلوات الخمس المعهودة[2].

وقد استخدمت بعض الزوايا كمسجد تؤدى فيه الصلوات الخمس المفروضة، ومنها: زاوية الخدام التي كانت منزلاً للخدام الأحباش، وأصبحت مسجدًا له إمام ومؤذن وقومة. ومنها ـ أيضًا ـ: زاوية البراشمة التي كانت

---

(١) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ عثمان، محمد عبد الستار، **نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة**، الإسكندرية (٢٠٠٠م)، ص١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) الحداد، **بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية**، الكتاب الأول، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، ص٢٩٩.

توجد بخط المصنع بالقلعة، وغير ذلك[1].

أما الزوايا بالمغرب، فقد عرفت في مطلع القرن ٧هـ ـ ١٣م على أقل تقدير، فها هو ابن جبير يطلق المصطلح السائد في المغرب حتى أواخر ق٦هـ ـ ١٢م، وهو الرباطات على الخوانق بالمشرق، فيقول عن دمشق: «وأما الرباطات التي يسمونها: الخوانق، فكثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر...»[2].

وأقدم العمائر التي أطلق عليها مصطلح زاوية بالمغرب الأقصى كانت في مطلع القرن ٧هـ ـ ١٣م، وهي زوايا الشيخ أبي محمد صالح بن ينصارن الماجري (ت٦٣١هـ ـ ١٢٣٤م)، وذلك على طول الطريق البري الموصل إلى الشرق فيما بين المغرب ومصر، ويقال: إن عدد هذه الزوايا بلغ ٤٦ زاوية.

وفي عهد الدولة المرينية انتشرت الزوايا على نطاق واسع، ووقفت عليها الأوقاف المغلة، وقد لقب السلطان أبو عنان فارس بلقب: باني الزوايا، وفي عهد الوطاسيين كثرت الزوايا بشكل لم يسبق له نظير في داخل المدن والبوادي، وقامت الزوايا بدور كبير دينيًا وتعليميًا، بل وسياسيًا ـ أيضًا ـ، ومن هذه الزوايا: زاوية القورجة، وزاوية المشاورين، وزاوية النساك بسلا، وغير ذلك[3].

---

(١) عبدالله، دولت، **معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي**، القاهرة (١٩٨٠م)، ص٥٦ ـ ٥٧.

(٢) ابن جبير، **الرحلة**، ص٣٥٨.

(٣) أبو رحاب، **العمائر الدينية**، ص١٦٠ ـ ١٦٤؛ صلاح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١٦٩ ـ ١٧١.

وليس أدل على انتشار مصطلح الزاوية بالمغرب من الإشارة إلى ما ذكره ابن بطوطة عن مصر بقوله: «وأما الزوايا بمصر، فكثيرة، وهم - أي: المصريون - يسمونها: الخوانق، واحدتها خانقه، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرها الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب...»[1].

ويستدل من هذا النص الهام على أن مصطلح الخانقاه بمصر يرادفه ويقابله مصطلح الزاوية في المغرب، وأن هذا المصطلح الأخير - أي: الزاوية - قد حل محل مصطلح الرباط الذي كان شائعًا ومتداولاً حتى أواخر القرن ٦هـ - ١٢م؛ كما يستدل من رحلة ابن جبير[2].

وفي عهد الأشراف السعديين (أي: خلال القرنين ١٠ - ١١هـ - ١٦ - ١٧م) كثرت الزوايا بالمغرب الأقصى، حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد، وأصبحت أكثر من أن تحصى، ومن أهمها: الزاوية الجزولية بمراكش، وزاوية الأقاوي، وزاوية البرزوزي، وزاوية الخياط، وزاوية السملالي، والزاوية الدلائية البكرية، والزاوية الناصرية، وغير ذلك[3].

ولا تفوتنا الإشارة إلى الزوايا السنوسية، ودورها الكبير في القرن ١٣هـ - ١٩م، والتي انتشرت بدرجة كبيرة في الجزيرة العربية ومصر وشمال

---

(١) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص٣٣.

(٢) الحداد، **المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية**، القاهرة، ط٣، (٢٠٠٨م)، ص٢٤.

(٣) أبو رحاب، **العمائر الدينية**، ص١٦٤ - ١٧٠.

أفريقيا، والسودان الشرقي، والصحراء الإفريقية، وقد اختلفت الأراء حول أعداد هذه الزوايا ومواضعها، ومن أكثر الأراء دقة: رأي بريتشارد الذي حصر عدد هذه الزوايا بدقـة، وحدد مواقعها، ورسم خريطة تبين موقع كل منها، فذكر أنها ١٤٦ زاوية، منها ٤٥ في برقة، و٣١ في مصر، و١٧ في الحجاز، و١٨ في طرابلس الغرب، و١٥ في فزان، و٦ في الكفرة، و١٤ في السودان، وهناك من أضاف زاوية في إستانبول، بل وفي جنوب شرقي آسيا[١].

أما عن عمارة هـذه الزوايا، فهي لم تخـرج في تخطيطها عن تخطيط غيرها من العمائر الدينيـة الأخرى كالمساجد والمدارس والخوانق والأربطة إلا نادرًا، فبعضها صمم وفق الطراز العربي التقليدي، أو الطراز غير التقليدي، وبعضها صمم وفق طراز الزاوية القبة (شكلا ١٠٧ ـ ١٠٨)، وبعضها صمم وفق الطراز الإيواني، فضلاً عن المنافع والمرافق والملحقات، ومنها: السبيل (السقاية)، ومكتب السبيل (الكتاب)، والمدفن أو المدافن، ومصلى الجنائز (في المغرب)، والميضأة والحمـام، وفرن أو أكثر، ومساكن لشيخ الزوايـة والقومة، وحجرات وغرف للمقيمين فيها، أو الغرباء والوافدين وأبناء السبيل[٢].

* * *

---

(١) الشيخ، رأفت غنيمي، **الزوايا السنوسية**، الكتاب الذهبي، ج١، عدد خاص من مجلة كليـة الآثار ـ جامعة القاهرة (١٩٧٨م)، ص١٥٣ ـ ١٧٣؛ الدجاني، أحمد صدقي، **الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، طرابلس الغرب، ط٢، (١٩٨٨م)، ص٢٣٦ ـ ٢٧٩.

(٢) الحداد، **بحوث ودراسات**، الكتاب الأول، ص٣٠١ ـ ٣٠٧؛ أبو رحاب، **العمائر**، ص١٦٨، ٣٤٩ ـ ٣٧٠.

المبحث الخامس

الخوانق

قيل: إن أصلها: «الخوانك، جمع خانكاه ـ بالكاف بعد النون ـ، وهي كلمة فارسية معناها: بيت، أو دار الصوفية، ثم كثر استعمالها على الألسنة، فقيل: خانقاه ـ بالقاف بدلاً من الكاف ـ، وقيل: أصلها: خَرْنُقاه؛ أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك، والخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربع مئة من سني الهجرة، وجعلت لتتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى»[1].

ويضيف المقريزي فيذكر «وأول من اتخذ بيتًا للعبادة زيدُ بن صوحان ابن صبرة، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة، وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دورًا، وأسكنهم فيها، وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره»[2] وكان ذلك في ولاية عبدالله بن عامر على البصرة من قبل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت٣٥هـ ـ ٦٥٥م).

على أن أول ظهور لمصطلح الخانقاه كان خلال النصف الأول من القرن ٣هـ ـ ٩م؛ فقد كانت الخوانق جزءًا من النظام الديني للفرقة الكرامية، وقد شاهد المقدسي لهم ببيت المقدس خوانق ومجالس حول قبر أبي عبدالله محمد بن كرام (ت٢٥٥هـ ـ ٨٦٩م)، وقد أقامت هذه الفرقة خوانق لهم في خراسان وما وراء النهر، وفي جرجان وطبرستان، وكانت بمثابة مراكز للتعليم

---

(١) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع (٢)، ص٧٢٤.

(٢) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع (٢)، ص٧٢٦ ـ ٧٢٧.

والدعوة والتبشير وحياة التقشف[1].

وليس أدل على انتشار الخوانق من قول المقدسي في مقدمة كتابه: «أممت في المساجد، واختلفت إلى المدارس، وأكلت مع الخانقائيين الثرائد...»[2].

ثم لم تلبث أن انتشرت الخوانق انتشارًا كبيرًا، وبصفة خاصة في مصر والشام والمشرق.

ومن الخوانق المصرية: خانقاه سعيد السعداء بخط رحبة باب العيد من شارع الجمالية بالقاهرة، وهي أول خانقاه للصوفية بمصر، وقد وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٩هـ ـ ١١٧٤م «برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، وولى عليهم شيخًا، ووقف عليهم بستان الحيانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، وقيسارية الشرب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارًا فما دونها، كانت للفقراء، ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، ومن أراد منهم السفر، يعطى تسفيره، ورتب للصوفية في كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا، وبنى لهم حمامًا بجوارها، وكانت أول خانكاه عملت بديار مصر، وعرفت بـ: دويرة الصوفية، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، وما زال ينعت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانكاه سرياقوس (٧٢٥هـ ـ ١٣٢٥م)، فدعا شيخها بشيخ

---

(١) عن: سيد، أيمن فؤاد، **المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي**، **تاريخ المصريين**، القاهرة (٢٠٠٠م)، ص٩٨ ـ ٩٩؛ مقدمة تحقيق المجلد الرابع (١) من خطط المقريزي، ص٤٩، ٨٢.

(٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم**، ص٤٤.

الشيوخ[١]. . . وكـان سكانها (أي: سعيـد السعـداء) من الصوفيـة يعرفون بالعلم والصلاح، وترجى بركتهم، وولي مشيختها الأكابر والأعيان. . .»[٢].

وبالإضافـة إلى الخانقاه الصلاحيـة سعيـد السعداء (دويرة الصوفيـة) تحدث المقريزي عن ٢١ خانقاه، منها ١٧ خانقاه ترجع إلى عصر المماليك البحريـة، وهي: الخانقاه الركنية بيبرس الجـاشنكير بالجماليـة، والخانقاه الجمالية قـرب درب راشد (قصر الشوق)، والخانقاه الشرابشية بين الجامع الأقمر وحارة برجوان، والخانقاه المهمنداريـة بالتبانة، وخانقاه بشتاك على البر الشرقي للخليج الكبير، والخانقاه البندقدارية بالقرب من الصليبية، وخانقاه شيخو بسويقـة منعم، والخانقاه الجاولية على جبل يشكر، وخانقاه الجيبغا المظفري بالصحراء خارج باب النصر، والخانقاه الناصرية بسرياقوس، وخانقاه أرسلان على شاطئ النيل، وخانقاه بكتمر بآخـر القرافة الصغرى، وخانقاه قوصون شمالي القرافة مما يلي قلعة الجبل، وخانقاه طغاي تمر النجمي خارج باب البرقية، وخانقاه أم أنوك خارج باب البرقيـة، وخانقاه طيبرس بأراضي بستان الخشاب، وخانقاه أقبغا بجوار الجامع الأزهر، والخوانق الأربع الأخرى ترجع إلى أوائل العصر الجركسي، وهي: الخانقاه الظاهريـة المستجدة بين القصرين. (مدرسـة وخانقاه الظاهر برقـوق)، وخـانقاه ابن غراب على البر الشرقي للخليج الكبير (شارع بورسعيد حاليًا)، وخانقاه يونس من جملة ميدان

---

(١) عن خانقاه الناصر محمـد انظر: الحجي، **حياة ناصر**، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس، الكويت (١٩٨٣م)، ص١٢٦ ـ ٤٢٧.

(٢) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع (٢)، ص٧٢٧ ـ ٧٢٩.

القبق (بجوار خانقاه الناصر فرج بقرافة الغفير حاليًا)، والخانقاه الخروبية بساحل الجيزة تجاه المقياس (٨٢٢هـ ـ ١٤١٩م)[١].

أما الخوانق الأخرى، فلم ترد في النسخ المنشورة والمحققة التي بين أيدينا من كتاب «الخطط»، فهل هذا يدل على أن ما وصل إلينا من كتاب الخطط به نقص يتعلق ـ على الأخص ـ بفترة سلطنة الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج على حد قول محقق الكتاب[٢].

ومن هذه الخوانق التي لم ترد في الخطط: خانقاه منجك اليوسفي تجاه جامعه بالحطابة ٧٥١هـ ـ ١٣٥٠م من عصر المماليك البحرية.

والخانقاه الناصرية فرج، وخانقاه الأشرف برسباي بقرافة صحراء المماليك من عصر المماليك الجراكسة (أشكال ١٤٨ ـ ١٥١).

ومما له دلالته: أن المقريزي قد تحدث عن بعض الخوانق التي أشار إليها عند حديثه عن المدارس ـ أيضًا ـ، ومنها: الجاولية (شكلا ١٤٥ ـ ١٤٦، لوحة ٥٥)، فقد ذكرها في المدارس وفي الخوانق، مع أن نقش الإنشاء هو «المكان المبارك»، والمهمندارية ذكرها في المدارس والخوانق، مع أن نقش الإنشاء هو «التربة والمسجد المبارك»، والجمالية مغلطاي ذكرها في المدارس والخوانق، ونقش إنشائها هو «الخانقاة المباركة السعيدة»، وأم أنوك ذكرها في المدارس والخوانق تتضمن نقش إنشاء، والظاهر برقوق (الظاهرية المستجدة بين القصرين) ذكرها في المدارس والخوانق، ونقش إنشائها يجمع

---

(١) المقريزي، **الخطط**، ٤ / ٢، ص٧٣٢ ـ ٧٩٣.

(٢) تعليقات أيمن فؤاد سيد محقق الكتاب، ٤ / ٢، ص٧٥٠ حاشية (رقم: ١).

بين المصطلحين بصيغة «المدرسة المباركة والخانقاه» (شكل ١٣٥ ، ٣٩٤، لوحة ٦٥).

كذلك فإن بعض الخوانق الأخرى التي ذكرها المقريزي لا تزال نقوشها الآثارية باقية، أو حفظت ونشرت قبل اندراسها، ومنها: الخانقاه البندقدارية، ونقشها «المدرسة المباركة» (شكل ١٠٤)، وخانقاة شيخو، ونقشها «المكان المبارك والموطن الذي ساهم العمل فيه النية»، والخانقاه الناصرية سرياقوس، ونقشها «الخانقاه السعيدة الملكيـة الناصرية»، وخانقاه بكتمر، ونص وقفية الربعة «وجعل مستقرها بالقبة التي بالتربة المعروفة بإنشائه بالقرافة الصغرى المجاورة لحوش الملك الظاهر».

وخانقاه بيبرس الجانشكير، ونقشها «الخانقاه السعيـدة» «وافق الفراغ من هـذه القبة والخـانقاه». (شكل ١٤٧، لوحـة ٥٦)، وخانقاه ابن غـراب نقشها «الخانقاة المباركة».

وليس أدل على عظمة ما كانت تشتمل عليه الخوانق من تحف وأثاث من الإشارة إلى ما كان بخانقاه بكتمر الساقي من «الفرش والآلات النحاس، والكتب والربعات، والقناديل النحاس المكفت، والقناديل الزجاج المذهب، وغير ذلك من الأمتعة والنفائس الملوكية. . .»، وقد تمزق كل ذلك وتفرق، وخرب ما حول الخانقاة عقب محنـة عام ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣م ـ على حـد قول المقريزي ـ.

وكانت الخوانق تشتمل على عـدد من المنافع والمرافق والملحقات؛ كقاعات لسكن الشيوخ، وخلاوي الصوفيـة، والأسبلة، ومكاتب السبيل،

وأحواض السبيل، والمطابخ والحمامات والحوانيت، والإسطبل والبساتين، والترب والمدافن والأحواش الجنائزية والمقاعد، وغير ذلك، وكانت تصرف لصوفيتها الكسوة والمعلوم من الـدراهم، فضلاً عن الطعام واللحم والخبز في كل يوم، والحلوى والزيت والصابون في كل شهر، وغير ذلك مما ورد في العديد من المصادر التاريخية ووثائق الوقف المختلفة.

أما عـن تخطيط الخوانق المصريـة الباقيـة، فهو الآخـر لم يخرج عن النظام التخطيطي السائد في العمائر الدينية الأخرى، وبصفة خاصة: المساجد والجوامع، والمدارس والزوايا والأربطة إلا في القليل النادر، وإن كان يغلب على النماذج الباقيـة التخطيط الإيواني الـذي صمم في كل خانقاه بمعالجـة خاصة؛ مما جعل لكل منهـا شخصية مستقلة، وطابعًا معماريًا مميزًا، ومن ذلك: الخانقاة الجاولية (شكلا ١٤٥ ـ ١٤٦، لوحة ٥٥) ٧٠٣هـ ـ ١٣٠٣م، وخانقاة شيخـو ٧٥٦هـ ـ ١٣٥٥م (شكل ٣٩٣) وكلتاهمـا من صحن وإيوان واحد، ولكن المعالجة مختلفة.

وكذلك خـانقاه بيبرس الجـاشنكير ٧٠٦ ـ ٧٠٩هـ ـ ١٣٠٦ ـ ١٣٠٩م (شكل ١٤٧، لوحة ٥٦)، وتتكون من صحن (أو درقاعة) وإيوانين، أحدهما قبلي، (وهـو الإيوان الرئيسي بالضلع الجنوبـي الشرقي)، والآخـر بحري، (وهو الإيوان الشمـالي الغربي المقابل للإيوان القبلي)، ومجلسين بكل من الضلعين الجانبيين للصحن (وهما الضلع الجنوبي الغربي، والضلع الشمالي الشرقي) بواقع مجلس بكل ضلع، كذلك يتميز الإيوان القبلي بوجود جناحين شرقي وغربي.

أما مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق ٧٨٦ ـ ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦م، فقد سبق أن تناولنا تخطيطها عند الحديث عن المدارس في هذا الباب (شكل ١٣٥، ٣٩٤، لوحة ٦٥).

وخانقاه الناصر فرج بن برقوق ٨٠١ ـ ٨١٣هـ ـ ١٣٩٨ ـ ١٤١٠م (شكلا ١٤٨ ـ ١٤٩، لوحة ٦٦)، فبرغم أنها تتكون من صحن (أو درقاعة) أوسط مكشوف، وأربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة، إلا أن المعالجة المعمارية مغايرة تمامًا؛ مما أضفى على هذه الخانقاه ذلك الطابع المعماري الفريد بين الخوانق في العمارة الإسلامية عامة، والعمارة المصرية الإسلامية خاصة، سواء من حيث التخطيط العام، أو من حيث مفرادته وملحقاته من القباب الصغيرة وقباب الدفن الكبيرة بجانبي الإيوان القبلي، وتتوسطها القبة التي تعلو مربعة المحراب بالإيوان القبلي؛ فضلاً عن السبيلين، ومكتبي السبيل، أعلاهما بطرفي الواجهة البحرية (الشمالية الغربية)، والمئذنتين بطرازهما المعماري والفني المتميز.

وخانقاه الأشرف برسباي ٨٣٥هـ ـ ١٤٣١م بقرافة صحراء المماليك تتكون من درقاعة وإيوانين، أحدهما قبلي (وهو الإيوان الجنوبي الشرقي)، والآخر بحري (وهو الإيوان الشمالي الغربي)، ويطل كل إيوان على الدرقاعة ببائكة ثلاثية العقد. (شكلا ١٥٠ ـ ١٥١).

أما خانقاه الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٩ ـ ٩١٠هـ ـ ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م بالغورية (شكلا ١٥٢ ـ ١٥٣، لوحات ٧٣ ـ ٧٥)، فذات تصميم خاص، فهي تتكون من قلب وجناحين، وملحق بها السبيل ومكتب السبيل؛ فضلاً عن القبة والمقعد القبطي والحوش الجنائزي.

أما عن موضع خلاوي الصوفية، فقد اختلف من خانقاه لأخرى، وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

ولا تفوتنا الإشارة إلى رباط بيبرس الجاشنكير الذي بني بجانب خانقاته بالجمالية (شكل ١٤٧، لوحة ٥٦)، وكان «يتوصل إليه من داخلها، ومن باب آخر يسلك إليه من الزقاق المقابل لخانقاه سعيد السعداء»، ويضيف المقريزي فيذكر: «ولما كملت في سنة تسع وسبع مئة (١٣٠٩م) قرر بالخانقاه أربع مئة صوفي، وبالرباط مئة من الجند، وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت»[١].

وتزودنا حجة الوقف بتفاصيل أكثر عن هذا الرباط، ومن ذلك: «وقف جميع المكان الكامل أرضًا وبناءً المعروف ببعض دار الوزارة الذي هو بالقاهرة المحروسة ذات الإيوان الكبير القديم البناء والباذهنج الكبير (الملقف) الذي بصدره والمجلس الكبير الذي بدور قاعته الكبرى والمراحيض والبير الماء المعين والساقية الخشب المركب على فوهتها المكتملة العدة والآلة والمرافق والحقوق...».

وقد وقف الإيوان الكبير القديم البناء، ودور قاعته التي من أمامه، والمجلس المجاور لذلك «رباطًا على مئة نفر من المسلمين المتصفين بالفقر والمسكنة، يكون ظاهرهم الخير، وهم متصفون بصفة أرباب الزوايا، غير مبتدعين ما لا يجوز شرعًا أو عادة، أو هو مشهور بذلك، يكون منهم ثلاثون بالصفة التي يراها الناظر والشيخ يقيمون بالرباط المذكور، وباقيهم مترددون، ومن جميعهم الشيخ والإمام والمؤذن والخادم والبواب... ويقدم من يرغب

---

(١) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع (٢)، ص٧٣٢ ـ ٧٣٤.

في الانقطاع بهذا الرباط من عتقاء الواقف المذكور وذريتهم من الذكور ـ أيضًا ـ على غيرهم من سائر الناس أجمعين، ولا يكلفون إثبات استحقاق ولا ذي الفقر، فإن تعذر ذلك، فيقدم من يرغب في الانقطاع من الجند البطالين من المسلمين على غيرهم»[1].

وإذا ما انتقلنا إلى دمشق، فقد انتشرت فيها الخوانق، ويؤكد ذلك الرحالة ابن جبير بقوله: «وأما الرباطات التي يسمونها: الخوانق، فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يُبصر، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد؛ لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب معايشها، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة، وهم على طريقة شريفة، وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماعات للسماع المشوق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المتأثر رقة وتشوقًا. وبالجملة: فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشا طيبًا هنيئًا»[2].

ويضيف ابن جبير فيقول: «ومن أعظم ما شاهدناه لهم: موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم يُر أجمل إشراقًا منها، وهو من البلد (أي: دمشق) بنحو الميل، وله بستان عظيم يتصل

---

(١) عن: غنيم، **الأربطة**، ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) ابن جبير، **الرحلة**، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

به . . . ووقفه (أي : السلطان نور الدين محمود زنكي) برسم الصوفية مؤبدًا لهم . . . »[1].

هذا، ومـا يزال باقيًا بدمشق ثـلاث خوانق، وهي : الخانقاه اليونسيـة ٧٨٤هـ ـ ١٣٨٣م، وهي المعروفة حاليًا بجامع الطاووسية، والخانقاه والتربة الجقمقية (لوحتا ٤٧٨ ـ ٤٧٩) ٨٢٤هـ ـ ١٤٢١م، والخانقاه النحاسية ٨٦٢هـ ـ ١٤٥٧م، وهي المعروفة بجامع النحاسين[2].

الخانقاه والتربة المعروفـة بالمدرسة الجقمقيـة (متحف الخط العربي حاليًا)؛ وتقع في حي الكلاسة بدمشق ٨٢٤هـ ـ ١٤٢١م (شكل ٧٤)، ونقشها الإنشائي بصيغة « . . . أنشأ هذه الخانقاه والتربة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري . . . سيـد الأمراء في العالمين سيف أمير المؤمنين جقمق الدوادار المؤيدي كافل الممالك الشامية المحروسة . . . في شهور ستة أربع وعشرين وثمان مئة» .

أمـا عـن تصميم هـذه الخانقاه[3]، فهو الآخـر لـم يخـرج عن الطراز الإيواني، إلا أنـه عولج بطريقـة خاصة جديـدة؛ مما أضفى عليها شخصيـة مستقلة، وطابعًا معماريًا مميزًا، فضلا عن مفرداتها وعناصرهـا المعمارية،

---

(١) ابن جبير، **الرحلة**، ص٣٥٩.

(٢) الريحـاوي، **العمارة العربية الإسلاميـة**، ص١٧٤، ١٧٦؛ العلبي، أكرم حسن، **خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة**، دمشق (١٩٨٩م)، ص٣٣٨، ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٣) لمزيـد من التفاصيل عن الدراسة الوصفية والتحليليـة انظر: الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٢٠٠ ـ ٢٠٩.

ونقوشها الكتابيـة والزخرفيـة التي جعلت منها أنموذجًا يحتـذى في العمائر اللاحقة.

وقد خلص الريحاوي من دراسته لها بأن فيها من «الأصالة في التصميم والفن في الزخرفة ما يجعلها نموذجًا لفنون هذا العصر (أي العصر المملوكي) في العمارة والزخرفة... وفيها تصميمًا فريدًا مبتكرًا...»[1].

* * *

المبحث السادس
التكايا

من المصطلحات التي عرفت بها العمائر الصوفية إبان العصر العثماني، وعلى ذلك، فإن شيوع هـذا اللفظ في الأقطار العربية التي خضعت للحكم العثماني إنمـا يعـد مظهرًا من مظاهر هـذه المرحلة التـي تربو على الأربعـة قرون. أما المعنى اللغوي للتكيـة، فقيل: إن التكيـة من فعل «توكأ» يقال: توكـأ على الشيء، واتكـأ: تحمّل واعتمـد، فهو متكئ ورجـل تُكَأة: كثير الاتكاء والتوكؤ؛ أي: التحامل على العصا في المشي[2].

وقـد ورد هذا اللفظ بصيـغ مختلفة في القرآن الكـريم (سورة الطور، الآية ٢٠، وسورة الزخرف، الآية ٣٤)، ومن هذا يظهر أن التكية لفظ عربي الأصول، وتعني: بناء يسكنه الدراويش الذين ليس لهم كسب، وإنما مرتبهم الشهري أو السنوي من أوقاف التكية، وسمي محل إقامتهم التكية؛ لأن أهلها

---

(١) الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص٢٠٨.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، (١/ ٢٠).

متكئون؛ أي: معتمدون في رواتبهم ومعيشتهم على ما يقدم لهم[1]. وقد عرّفها دوزي في معجمه بقوله: «التكية تجمع على تكايا: رباط يأوي إليه عادة فقراء المسافرين، أو أشخاص يوصى بهم ويضيفون بها مجاناً، والتكية في الهند وفارس ومصر تشبه الزاوية في أفريقيا».

ويضيف دوزي فيذكر: أن هذه الكلمة مشتقة من اتكأ، وأنها يجب أن تلفظ: تَكِيّة، وليس تِكية[2].

ويرى آخرون: أن أصلها من: متكأ المهموز الآخر، فأهملوا همزتها، وقالوا: متكى، وجمعها تكيات، ثم تصرفوا فيها، فحذفوا الميم، وقالوا في جمعها: تكيات وتكايا؛ كما جمعها المولدون[3].

ومن التكايا العثمانية في الأقطار العربية حسبنا أن نشير إلى تكية الكلشني بشارع تحت الربع (شكل ٣٩٦) (شارع أحمد ماهر) بالقاهرة ٩٢٦ ـ ٩٣١هـ ـ ١٥١٩ ـ ١٥٢٤م[4]. والتكية السليمية بالصالحية (شكل ٣٩٥، لوحتا ٤٦١ ـ ٤٦٢) بدمشق ٩٢٤هـ ـ ١٥١٨م، والتكية السليمانية بدمشق ٩٦٢ ـ ٩٦٧هـ ـ ١٥٥٤ ـ ١٥٥٩م، وبجوارها المدرسة السليمانية ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م[5] (شكل ٧٥).

---

(١) مبارك، **الخطط التوفيقية**، (٦/ ٥٤).

(٢) دوزي، رينهارت، **تكملة المعاجم العربية**، ج٢، ترجمة وتعليق محمد سليم النعيمي، (١٩٨٢م)، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٣) الدراجي، **الربط والتكايا البغدادية**، ص٢٢ ـ ٢٤.

(٤) Abouseif, the Takiyyat ibrahim AL_Kulshani in Cairo, PP. 43 _ 60.

(٥) الريحاوي، **الأبنية الأثرية في دمشق**، دراسة وتحقيق (١) **التكية والمدرسة السليمانيتان** =

وفي القدس تكية خاصكي سلطان (زوجة السلطان سليمان القانوني) ٩٥٩/ ١٥م[1].

وفي بغـداد تكية البندنيجي (المندولاي) ١١٥٦هـ ـ ١٧٤٣م، والتكية الخـالديـة ١٢٣١ ـ ١٢٣٢هـ ـ ١٨١٥ ـ ١٨١٦م، وتكيـة الشيخ عبـد القادر الرفاعي ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م، وغيرها[2].

وقبل أن نتحـدث عن التكايا العثمانية في الأناضول والبلقان ينبغي أن نشير إلى أن بعض الروايات تذهب إلى أن بعض الصوفية الأوائل قد وصلوا إلى أوروبا[3]، وكـان منهم: الشيخ صاري سلتق دده الـذي حل في البلقان

= **بدمشق**، مجلة الحوليات الأثريـة السورية، المجلد ٧، الجـزءان الأول والثاني، دمشق (١٩٥٧م)، ص١٢٥ ـ ١٣٤؛ (٢) **التكيـة السليميـة في الصالحيـة**، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلدان الثامن والتاسع، دمشق (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩م)، ص٦٧ ـ ٧٣.

(١) العسلي، كامل جميل، **من آثارنا في بيت المقدس**، عمان (١٩٨٢م)، ص٩ ـ ٣٨.

(٢) الدراجي، **الربط والتكايا البغدادية**، ص٧٠ ـ ١١١، (أشكال ١٦ ـ ٣٨).

(٣) مما لـه دلالتـه في هـذا الصـدد: أنـه ثبت أن الإسلام قـد وصل إلى البلقـان قبل الفتوحات العثمانية بوقت طويل؛ حيث انتقل الإسلام مع قبائل البلغار إلى بلغاريا، ومـع قبائل البوشناق إلى البوسنة، ودليل ذلك ورد ذكـره في المصادر التاريخية، وبخاصـة كتب الجغرافيا والرحـلات، ومنهـا: رحلة ابـن فضلان زمـن الخليفـة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) الموسومة بـ: «**رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبـة**»، وقد حققها سامي الدهان، بيروت، ط٢، (١٩٨٧م)؛ ومنها: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، (مادة: باشغرد)، كذلك وصل إلى هذه المنطقة مسلمون من المغرب والأندلس =

في عام ٦٦٠هـ ـ ١٢٦١م أو عام ٦٦٢هـ ـ ١٢٦٣م، ولا تزال تربته التي دفن فيها بعد وفاتـه عام ٧٠٠هـ ـ ١٣٠٠م باقيـة حتى الآن في دو بريجه (باباداغ) التي ضمت إلى رومانيا عام ١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٨م[1]، وتوافدت بعد ذلك الكثير

= عملوا على نشر الإسلام كما ذكر أبو حامد الغرناطي (ت٥٦٥هـ ـ ١١٦٩م) في كتابه **«تحفة الألباب ونخبة الآداب عند زيارته لبشغرديا عام ٥٤٥هـ ـ ١١٥٠م»**. شاكر، كوسوفو، ص٢٨ ـ ٣٦، ٥٨ ـ ٥٩؛ الصقار، سامي، **المسلمون في يوغوسلافيا**، دار الشواف، الرياض (١٩٩٢م)، ص١٥ ـ ١٨؛ قاروط، **المسلمون في يوغسلافيا**، ص٤٩ ـ ٥١؛ الـدغيم، **البوسنـة**، ص٢٥٦، ٢٥٩ ـ ٢٧٢. ويـرى آخـرون: أن الإسلام قـد وصل إلى هـذه المناطق عـن طريق التجـارة تارة وعن طريق الـدعاة المسلمين تارة أخـرى، أو على أيـدي مغول القبيلة الذهبيـة، أو خلال عهدهم، ولا سيما في منطقة دو بريجه بين البحر الأسود ونهر الدانوب (وهي تقع في رومانيا حاليًا)، وممن حل بهذه المنطقة ـ أيضًا ـ الشيخ صاري سلتق دده في عام (٦٦٠هـ ـ ١٢٦١م) أو عام (٦٦٢هـ ـ ١٢٦٣م)، ولهذا الشيخ تكايا تنسب إليه في البلقان ـ كما سنشير فيمـا بعـد ـ، قـاروط، **المسلمـون**، ص٤٨، ٥٣؛ الصقار، **المسلمون**، ص١٧ ـ ١٨؛ يونس، السيد محمد، **الإسلام والمسلمون في ألبانيا**، سلسلة دعوة الحق، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، السنة ١٢، العدد (١٤٣)، (ذو القعدة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م)، ص٢٦ ـ ٢٧؛ حسون، علي، **محنة المسلمين في البلقان**، بيروت، دمشق، عَمّان، المكتب الإسلامي، (١٩٩٧م)، ص٢٩.

ومهما يكـن من أمر، فإن تأثير هذه المرحلة لم يكن بالدرجـة الكبيرة التي وصل إليها الإسلام والثقافـة الإسلامية عقب الفتوحات العثمانيـة في البلقان والأراضي المتاخمة لها.

(١) Kiel, the turbe of sari saltik At Babadag - DOBRUDJA, Brief historical and Architectonical Notes, Guney - Dogu Avrupa A rastirmalari, Dergisi 6 - 7, Istanbul (1978), PP. 205 - 220., =

من الطرق الصوفية؛ كالمولوية، والخلوتية، والبيرامية، والبكتاشية، والرفاعية، وغيرها[1]، لاسيما عقب حركة الجهاد والفتوحات العثمانية في الروملي، وما أعقبها من الهجرات المتتالية من الأناضول، وكان لهذه الطرق أثرها الكبير في نشر الإسلام، وتثبيت دعائمه في البلقان، وقد أقيمت إبان العصر العثماني الكثير من التكايا في العديد من المدن والقرى (السناجق والأقضية والنواحي)؛ بحيث يمكن القول بأنه لم تخل أية مدينة وقرية منها إلا فيما ندر، ولعل فيما أوردناه من إحصائيات عن التكايا عند دراستنا لمظاهر النشاط العمراني في دراسة سابقة[2] ما يؤكد ذلك، إلا أنه لسوء الحظ اندثرت غالبية التكايا، كما أن القلة القليلة الباقية تعرضت للتخريب والإهمال، أو للتجديد والإصلاح؛ مما أفقدها كثيرًا من معالمها وعناصرها الأصلي.

وأبدع التكايا العثمانية وأروعها توجد في المدن الأناضولية المختلفة، فضلاً عن أسكدار في الجزء الآسيوي من إستانبول، ويمكن أن نميز بين

= ومما له دلالته: أنه توجد له تربة أخرى في أزنيق (نيقية) مصممة وفق طراز التربة المفتوحة، ووجود أكثر من تربة للشيوخ والمتصوفة والدراويش بل ومشاهد آل البيت كثيرًا ما يقابلنا في العمارة الإسلامية، وهو أمر يحتاج إلى دراسة متعمقة للتثبت من موضع التربة الأصلية لهؤلاء وأولئك؛ لما لذلك من أهمية كبيرة حول معرفة مراحل التطور العمراني لبعض المدن الإسلامية وما يتبعها من أقضية وقرى ونواح.

(١) عن الجوانب المختلفة للدراويش ومدى تأثيرهم في المجتمع العثماني عامة، انظر:

Lifchez, The Dervish Lodge, University of California press, (1992), PP, 15 _ 53, 209 _ 235.

(٢) الحداد، **العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية**، ص١٠٤ _ ١٣٩.

طرازين شاع استخـدامهما في تصميم التكايا في أوروبا العثمانيـة على ضوء ما هو باق منها حتى الآن.

*** الطراز الأول:**

وهو يعد الطراز التقليدي، والذي كان لا يختلف عن تخطيط المدارس العثمانية إلا في بعض المفردات والتفاصيل، حتى إن ذلك التشابه وصل إلى الحد الـذي كان من نتيجتـه إطلاق اسم التكايا على المـدارس، والعكس، ولم يقتصر ذلك على أوروبا العثمانية فحسب، بل وجد ـ أيضًا ـ طريقه إلى المدرستين العثمانيتين الباقيتين في القاهرة العثمانية، وهما: المدرسة السليمانية بالسـروجيـة ٩٥٠هـ ـ ١٥٤٣م، والمدرسـة المحموديـة بشـارع بـورسعيـد ١١٦٤هـ ـ ١٧٥٠م من تسميتهما بالتكيـة السليمانيـة والتكيـة المحمودية[١] (شكلا ١٥٧ ـ ١٥٨).

ويتكـون هـذا الطراز في جوهره من صحن أوسط مكشوف تحيط بـه الأروقة، وتوجـد خلفها حجرات (الخلاوي)، ثم قاعـة الشيخ، وهي تشبه قاعة الدراسة (درس خانة) في المدرسة، فضلاً عن بعض المنافع والملاحق الأخـرى؛ مثل: المطابخ والمراحيض والحمـامات ودور الضيافـة (مسافـر خانه)، وأحياناً يلحق بها مطعم خيري (عمارت)، ومسجد وقبة دفن، وحوش للدفن، وغير ذلك.

ومن نماذج ذلك الطراز: تكية الشيخ سنان في سراييفو ق١١هـ ـ ١٧م،

---

(١) عيسى، ميرفت، **الطراز العثمانـي في منشآت التعليم بالقاهرة**، رسالـة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٨٧م)، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

والتي لم يتبق منها سوى الحجرة المربعة، وبعض الخلاوي[1]، كما أن التكايا الكبرى كانت تزود بالسمعخانة، ولدينا نموذج نادر لها، وهومسجد كوجك أفندي في إستانبول ١٢٤١هـ - ١٨٢٥م، وهو يعرف - أيضًا - باسم «Fevziye cami»، وتشغل التكية الركن الشمالي الغربي للحديقة، وحوش الدفن[2]، والملفت للنظر: أن هذا المسجد يعد غاية ما وصل طراز الباروك من طمس هوية المسجد الإسلامي عامة، والعثماني خاصة؛ حيث صار لدينا لأول مرة مسجد اتخذ الشكل البيضي (SHAPE Oval) نمطًا له، وكنا قد شاهدنا حرم مسجد نور عثمانية قد اتخذ هو الآخر الشكل نصف البيضي كما سبق القول، ولم يقف استخدام هذا المسجد للصلاة فحسب، وإنما استخدم في نفس الوقت سمعخانة لدراويش التكية الملحقة به.

*** الطراز الثاني:**

وهو الطراز الأغلب في التكايا الباقية، وهو متأثر بشكل مباشر بعمارة الدور والمنازل مثلما تأثر الطراز الأول بعمارة المدارس، وبعضها بطابق واحد، أو بطابقين، وبعضها بثلاثة طوابق، ومن هذه وتلك كل من: تكية بابا HARABATI في قالقاندلن (tetovo) ق١٠ - ١١هـ - ١٦ - ١٧م، وتكية Halasulten في لارنكا بجنوب قبرص ١١٧٤هـ - ١٧٦٠م، وتكية أخرى غير مؤرخة في نفس المدينة بجنوب قبرص تعرف بتكية Zuhuri، وتكية الخلوتية في بيرات بألبانيا ١١٩٧هـ - ١٧٨٢م، وتكية بلاجاي في بانيالوكا ق١٣هـ - ١٩م، وتكية الرفاعية في أسكوب ١٢٣٣هـ - ١٨١٧م، والتكية

---

(١) Pasic, Islamic A rchitecture, P. 78.

(٢) Goodwin, AHistory, PP. 414 - 417.

الخلوتية في أوخري، وتكية حسن بابا في مناستر (بيتولا)، وبعضها تسقف بالأسقف المسنمة، أو الجمالونية، وهنالك نماذج قليلة تحتوي على حجرات وأروقـة خارجية (سقائف) تعلوها القباب؛ مثل: تكيـة توران بابا البكتاشية في كورتزه[١].

ومـن المساجـد الملحقـة بالتكـايا، وتسقفهـا الأسقـف المسنمـة أو الجمالونية: مسجد زين العابدين بالتكية الخلوتية في أوخري، ومسجد التكية الخلوتية في Struga[٢]، وهناك تكايا أخرى انـدثرت، ولـم يتبق منها سوى التربة، ومنها: تكية Kidemli baba البكتاشية في Kalugerevo (نوفازاجورا) في بلغاريا ٨١٦ ـ ٨٢٣هـ ـ ١٤١٣ ـ ١٤٢٠م، وتكية Akyazili Baba، وتكية Osman Baba قرب خاصكوي (Haskovo) أواخـر ق٩هـ ـ ١٥م، وتكية Kutuklu في Boru باليونان ق٩هـ ـ ١٥م، وغير ذلك[٣].

* * *

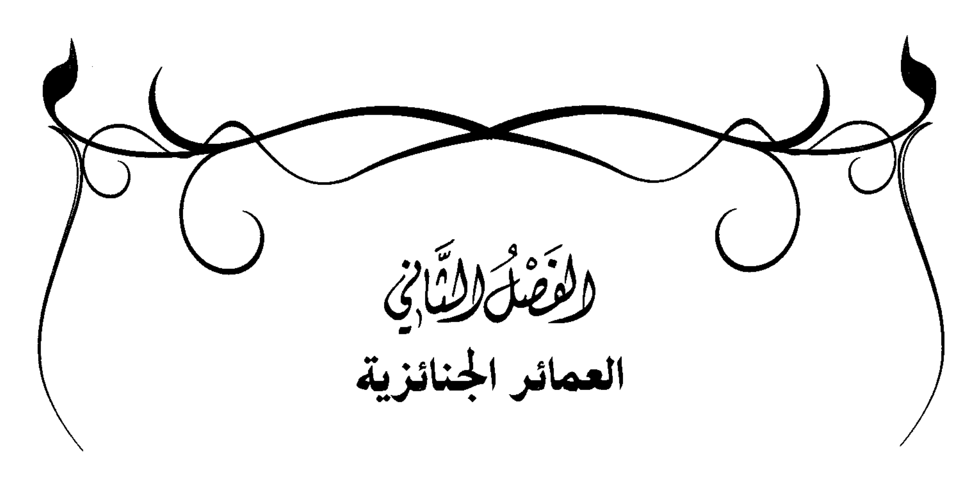
---

(١) Yenisehirleoglu, Turkiye, s. 6, 66, 188, 194, 199, 212, 221, Ibrahim, M. , Eski Yugoslavya Sinirlari dahilinde Tariksat Hareketlerinin Tarih icindeki Gelisimi ve ONemi, Vakiflar dergisi, XX Iv, Ankara, (1994), s. 291 - 305.

(٢) .Ibrahim, Eski Yugoslavya, s. 301, 303, Resim, 2, 10

(٣) Kiel, A monument of early ottoman A rchitecture in Bulgaria, PP. 57-60., Bulgaristanda eski Osmanli Mimarisinin BIR yapiti, Belleten, Gilt, xxx v, sayi 137 - 140, Ankare, (1971) PP. 49 - 52., Eyice, Akyazili sultan Tekkesi, Belleten, Gilt xxxi, sayi, 121-124, Ankara (1967), s. 551-592.





الفصل الثاني
العمائر الجنائزية

تعد العمائر الجنائزيـة فرعًا هامًا من أفـرع العمارة الإسلاميـة يستحق البحث والـدراسة والتحليل، سـواء مـن حيث طرزهـا، وتخطيط أنمـاطها المختلفـة، وتكـوين الكتل الرئيسة فيهـا، أو من حيث مفرداتها وتفاصيلها المعمارية، ونقوشها الكتابيـة والزخرفيـة؛ لما أصاب هـذه وتلك من تطور وازدهار عظيمين خلال العصور الإسلاميـة المتعاقبة في الأقطار المختلفة، وليس أدل على ذلك من تلك الأمثلة العديدة المتنوعة التي لا تزال باقية في غالبية الأقطار العربية والإسلامية.

هذا، ويقصد بالعمائر الجنائزية: تلك الأبنية التي أُعدت للإنسان عقب وفاته، سواء ما كان مخصصًا منها لغَسل جسد المتوفَّى وتجهيزه وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ثم القيام بتأديـة صلاة الجنازة عليه في مصلى أو مسجد أعد خصيصًا لـذلك الغرض، ومن ثم عرفت هذه الأبنيـة واشتهرت باسم: مغاسـل الموتى، ومصليات الجنائـز، ومن أمثلتها الباقيـة: مصلى المؤمني بالقاهرة ٩٠٩هـ ـ ١٥٠٣م. (بأول شارع السيدة عائشة بحي الخليفة)(١).

---

(١) الحداد، **مصليات الجنائز في العمارة المصرية الإسلامية**، دراسة آثارية (تحليلية مقارنة) وثائقية تاريخية، مجلة كلية الآثار، العـدد (٨)، (١٩٩٧م)، مطبعة جامعة =

أو ما كان مخصصًا منها لـدفن الإنسان؛ أي: مواراة جسـده وستره، وتنحصر هذه الأخيرة فـي نموذجين، أولهمـا: القبر نفسه، وثانيهما: البناء المقام فوق القبر، وقـد يكون هذا الأخير عبارة عن مـدفن تعلوه قبة غالبًا، ومن ثم يطلق عليه اسم: القبـة المدفن، أو القبـة الجنائزية، أو القبة فقط، على اعتبار أنها السمـة المميزة للمدفـن، ومن ثم أطلق الجـزء على الكل، وأحياناً يكون البناء على القبر عبارة عن مدفن يعلوه سقف مسطح، أو سقف هـرمي أو مسنَّم، ومن ثم يطلق عليـه اسم المدفـن فقط، سواء في النقوش الإنشائية، أو في وثائق الوقف المختلفة، وبصفـة خاصة في مصر، وأحياناً يكون المدفـن مجـرد حوش للـدفن يضم عـدة تراكيب، وبعض المـلاحق والمنافـع، ومنهـا: المصطبـة لجلوس القراء، والسبيل، ومكـتب السبيل، وحوض السبيل، وغير ذلك.

ومن أنواع أبنية القبور، ويدخل في عـداد العمائر الجنائزية ـ أيضًا ـ: ما يعرف باسم مقاصير الـدفن، ومن أمثلتها الباقيـة: مقصورة الأمير نوروز المعروفة بإيوان ريحان (بقرافة السيوطي بالقاهرة) ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م[1]. (شكلا ١٧٠ ـ ١٧١).

وهناك تنوع في الطُّرز والأنماط المعمارية للعمائر الجنائزية، وبصفة خاصة في أقطار المشرق الإسلامي ـ كما سنشير فيما بعد ـ.

هذا ويثير الكلام على البناء فـوق القبر سؤالاً تقليديًا: هل هو جائز،

= القاهرة (٢٠٠٠م)، ص١٤٥ ـ ٢٤٤.

(١) الحداد، **بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية**، الكتاب الثاني، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

أم محرم، أم مكروه؟ والواقع أنه يستدل من الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والمفسرين والعلماء أن البناء على القبور منهي عنه مطلقًا؛ بل أنه يعد كبيرة من الكبائر؛ لأن اللعن الوارد في تلك الأحاديث، ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يمكن أن يكون في حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى[1].

وعلى الرغم من وضوح كل ذلك، إلا أن هذه الأحاديث وتلك الأقوال قد أغفلت من قبل الحكام المسلمين وغيرهم، فرفعت القبور، وأقيمت عليها القباب العظيمة، وزينت بأجمل الزينة، فضلاً عن إيقادها بالسُّرج، والسفر إليها، والتمسح بها، ولا سيما قبور المشايخ والفضلاء والصالحين، وذلك من قبل العامة والجهلة وغيرهم.

ومهما يكن من أمر، فقد أطلقت على أماكن دفن الموتى، أو بعبارة أخرى: على التجمعات الجنائزية عدةُ مسميات، منها: مدافن، وجبانات، وترب، ومقابر، وقرافات، ولكل لفظة من هذه الألفاظ مدلول لغوي يتفق مع الاستخدام الجنائزي له، فيما عدا لفظ القرافة الذي لم يكن له أبدًا مدلول لغوي كالألفاظ السابقة، وبرغم ذلك، فقد شاع إطلاقه، وأصبح عَلَمًا على أماكن التجمعات الجنائزية أو الجبانات في مصر، وبصفة خاصة بالقاهرة دون غيرها من أقطار العالم الإسلامي، ويكاد ينعقد الإجماع على أن القرافة

---

(١) ناقشنا هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا: **القباب في العمارة المصرية الإسلامية**، القاهرة (١٩٩٣م)، ص٢١ ـ ٣٦؛ وعن حكم بناء المساجد فوق القبور انظر: الفايز، إبراهيم محمد، **البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي**، دراسة مقارنة، الجزء الأول، الرياض (١٩٩٧م)، ص٣٦٢ ـ ٣٧٧.

عرفت بهذا الاسم نسبة إلى بني قرافة، وهم بطن من بطون قبيلة المعافر اليمنية التي شهدت فتح مصر، وأنهم نزلوا بهذه الخطة بالفسطاط من مصر، فسميت بهم مقبرة مصر القرافة[1].

هذا، وليس بغريب أن تتسمى جبانة أو مقبرة مصر باسم قبيلة من القبائل؛ لأنه شاع في الأقطار الإسلامية الأخرى أن تسمى المقابر أو الجبانات إما بأسماء القبائل والأشخاص، وإما بمواضعها، ومن ذلك: جبانة كندة، والسبيع، وبشر بن ربيعة، وسالم بن عمار، وميمون، وجبانة الأزد، وغيرها من أسماء المقابر بالكوفة[2].

ومنها: مقبرة شيباني، ومقبرة حصين، ومقبرة بني مازن، ومقابر بني تميم بالبصرة[3].

ومنها: مقبرة باب الشام، وباب الكوفة، وباب التبن، وباب البردان، وباب حرب، ومقبرة جامع المنصور، ومقبرة الخيزران زوجة المهدي،

---

(١) الحداد، **سلسلة الجبانات في العمارة الإسلامية (١) قرافة القاهرة من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر المملوكي**، القاهرة (٢٠٠٦م)، ص١٨ ـ ٢١.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، (ت٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، ق٢، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة (١٩٥٩م)، ص٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٩؛ الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، مج٣، ص٤٥، ماسينيون، لويس، **خطط الكوفة وشرح خريطتها**، ترجمة تقي المصعبي، صيدا (١٩٣٩م)، ص١٨ ـ ١٩؛ جعيط، هشام، **الكوفة**، الكويت (١٩٨٦م)، ص٣٠٥.

(٣) البلاذري، **فتوح**، ق٢، ص٤٤٤؛ الحموي، **معجم**، مج٣، ص٤٥، العلي، صالح أحمد، **خطط البصرة**، مجلة سومر، مج٨، ج٢، بغداد (١٩٥٢م)، ص٢٨٤.

ومقبرة العباسة بنت المهدي، ومقبرة معروف، ومقبرة الشونيزي الصغير التي عرفت فيما بعد بمقابر قريش ببغداد[١].

وفي الموصل: مقابر قريش، ومقبرة الجامع العتيق، ومقبرة لباب العمادي، ومقابر تل توبة، ومقابر العلويين، وغيرها[٢].

وفي قرطبة: مقبرة الربض العتيقة، ومقبرة مؤمرة، ومقبرة نجم، ومقبرة بني العباس، ومقبرة قريش، ومقبرة أم سلمة، ومقبرة باب عامر، ومقبرة روضة الصلحاء قبلي قرطبة، وغيرها[٣].

وفي القدس: مقبرة ماملا، ومقبرة باب الرحمة، ومقبرة باب الساهرة[٤].

---

(١) الأطرقجي، رمزية، **الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول**، بغداد (١٩٨٢م)، ص١٩٤ ـ ١٩٥ ؛ مقدسي، جورج، **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري**، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد (١٩٨٤م)، ص٤٩ ـ ٥١ ؛ ليسز، يعقوب، **خطط بغداد في العهود العباسية الأولى**، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد في **العهود العباسية الأولى**، ترجمة صالح العلى، بغداد (١٩٨٤م)، ص١٢٩ ـ ١٣٦ ؛ العلي، صالح أحمد، **بغداد مدينة السلام**، مج١ ، بغداد (١٩٨٥م)، ص٤٩ ـ ٥٠ ، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٤ ـ ٣٣٥؛ مج٢، ص١٤٢ ـ ١٤٣ ، ١٩٤، ٢٠٦، ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢) الديوه جي، سعيد، **تاريخ الموصل**، بغداد (١٩٨٢م)، ص٣٦٥، ٣٦٧ .

(٣) خلاف، محمد عبد الوهاب، **قرطبة الإسلامية**، تونس (١٩٨٤م)، ص٥٧ ـ ٥٨ ؛ بالياس، ليوبولدوتورس، **المدن الأسبانية الإسلامية**، ترجمة اليودورودي لابفيا، مراجعة: نادية جمال الدين، وعبدالله العمير، الرياض (٢٠٠٣م)، ص٣٧٨ ـ ٣٨٢ .

(٤) العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**، عمان (١٩٨١م)، ص١١٧ ـ ١٤٥ .

وفي الإسكندرية: الجبانة الشرقية خارج باب رشيد شرق المدينة، ومقبرة كوم الدكة (كوم الديماس)، ومقبرة الباب الأخضر (جبانة وعلة) في الجانب الغربي من المدينة، ومقبرة القرافة، وتقع خارج باب الإسكندرية الغربي الذي عرف بباب القرافة، ومقبرة بين الميناءين، أو مقبرة خارج باب البحر نسبة إلى موقعها خارج هذا الباب جهة الشمال فيما بين الميناءين الشرقي والغربي للمدينة؛ حيث شبه جزيرة المنار، وتعرف ـ أيضًا ـ بقرافة الجزيرة، وقد أطلق عليها بعض الرحالة اسم: مقبرة الإسكندرية؛ لكثرة من دفنوا بها من أعلام المدينة وعلمائها وشيوخها[1].

وفي مكة المكرمة: كل من: مقبرة المعلاة، ومقبرة الشبيكة، ومقبرة الخرمانية، ومقبرة المهاجرين[2].

هذا، وتعد مقبرة المعلاة أكثر تلك المقابر شهرة وأهمية، وقد وصفها الرحالة ابن جبير بقوله: «. . . الجبانة المباركة، وهي بالموضع الذي يعرف بالحَجون. . . والجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء قد دَثَرت مشاهدُهم المباركة، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم. . .»[3].

أما عن أهمية هذه المقبرة التاريخية والأثرية، فترجع إلى بقاء عدد كبير من النقوش الشاهدية (شواهد القبور، أو الأحجار الشاهدية) للعديد

---

(١) عزب، خالد، والسايح، شيماء، **شواهد قبور من الإسكندرية**، مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٧م)، ص٣٧ ـ ٤٠.

(٢) الراشد، سعد عبد العزيز، وآخرون، **أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة**، الرياض (٢٠٠٤م)، ص١٦ ـ ١٩.

(٣) ابن جبير، **الرحالة**، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

من الأشخاص المدفونين فيها، وقد كانت هذه النقوش من المصادر الرئيسة لبعض المؤرخين المكيين في العصور الوسطى الـذين عوّلوا عليها كثيرًا في كتابة تاريخهم، وعلى رأس هؤلاء: الفاسي (ت٨٣٢هـ ـ ١٤٢٨م)، والشيبي (ت٨٣٧هـ ـ ١٤٣٣م)[١]، وفي عصرنا الحالي حظيت غالبية النقوش الشاهدية لمقبرة المعلاة بالنشر والدراسة العلمية[٢].

---

(١) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي، (ت٨٣٢هـ ـ ١٤٢٨م)؛ **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، ٨ أجزاء، تحقيق محمد حامد الفقي؛ وفؤاد سيد، ومحمود الطناحي، بيروت، ط٢، (١٩٨٦م)؛ **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، جزءان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت (١٩٨٥م)؛ الشيبي أبو عبدالله جمال الدين (ت٨٣٧هـ ـ ١٤٣٣م)، **الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة باب المعلا**، تحقيق: الشريف منصور صالح أبو رياش، مكة المكرمة (٢٠٠٠م)؛ الحداد، **النقوش الآثارية**، ص١١ ـ ١٥.

(٢) الراشد، **أحجار المعلاة الشاهدية**، وفيه نشر وتوثيق لـ (٥٨٦) نقشًا شاهديًا، ويقع هذا الكتاب في ٦٧١ صفحة من القطع الكبير؛ الزهراني، عبد الرحمن، **كتابات إسلامية من مكة المكرمة** (ق١ ـ ٧هـ ـ ٧ ـ ١٣م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض (٢٠٠٣م)، وهو في الأصل رسالة دكتوراه للباحث المذكور من كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود بالرياض (قسم الآثار والمتاحف) عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م)، وفيه دراسة علمية لـ (١٠٠) نقشًا شاهديًا من بين نقوش مقبرة المعلاة، ويقع هذا الكتاب في ٦٣٧ صفحة من القطع المتوسط؛ الحارثي، ناصر علي، **أحجار شاهدية من متحف الآثار والتراث بمكة المكرمة**، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض (٢٠٠٥م)، وفيه نشر وتوثيق لـ (٧٣) نقشًا شاهديًا، ويقع هذا الكتاب في ١١٧ صفحة؛ شاهد قبر من مقبرة المعلاة بمكة المكرمة يؤرخ لمتوفاة من أسرة الصحابي الجليل عمرو بن العاص، **عالم المخطوطات والنوادر**، =

وفي المدينة المنورة: مقبرة البقيع، أو بقيع الغرقد، والبقيع في اللغة: الموضع الذي بـه أروم الشجر من ضروب شتى، والغرقـد: كبار العوسج، وقد قطع عند إتخاذها مقبرة لأهل المدينة، وكان عثمان بن مظعون ﵁ هو أول من دفن فيها من المهاجـرين، وكان الشخص القائم عند قبره يرى بيت الرسول ﷺ وليس دونه حجاب، وأول من دفن فيها من الأنصار: أسعد بن زُرارة ﵁[(١)].

وقد وصف هذه المقبرة الرحالة ابن جبير بقوله: «وبقيع الغرقد شرقي المدينة، تخرج إليـه على باب يعرف بباب البقيـع... ومشاهـد هذا البقيع أكثر من أن تحصى؛ لأنـه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابـة المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ...»[(٢)].

هـذا، ويفسر بعض العلمـاء خلو آثار الأمويين من القباب التـي تعلو

= المجلد السابع، العدد (١)، (المحرم ـ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ ـ مارس ـ أغسطس ٢٠٠٢م)، ص٢٣٤ ـ ٢٥٠.

(١) السمهودي، وفاء الوفا، ج٤، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ط٣، (١٩٨١م)، ص١١٥٤؛ الحموي، **المشترك وضعًا والمفترق صقعًا**، ص٦٣؛ الأنصاري، عبـد القدوس، **آثار المدينـة المنـورة**، ط٣، (١٩٧٣م)، ص١٧٥؛ الشرقـاوي، محمود، **المدينـة المنورة**، القاهـرة، ط٢، (١٩٧٦م)، ص٢٧٨؛ السامرائي، خليل إبراهيم، وحامد، ثائر، **المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبـوة**، المـوصل (١٩٨٤م)، ص٧٩ ـ ٨٠؛ الشمـري، **تخـطيط المدينـة المنورة**، ص٢٠٤.

(٢) ابن جبير، **الرحلة**، ص٢٣٨ ـ ٢٤٠.

المدافن؛ بأن ذلك لا يرجع إلى كراهية الإسلام لبنائها أو تحريمها، وإنما إلى رغبة العباسيين في تخريب وهدم ذلك النوع من العمائر الجنائزية بعد أن انتزعوا الخلافة من بني أمية، وقضوا عليهم، وعمدوا إلى محو ذكراهم بإزالة أضرحتهم، ونبش قبورهم، ودفن عظامهم في مواضع غير معروفة، ولعل خشية العباسيين من أن يفعل بقبورهم مثل ما فعلوه في قبور الأمويين قد دفعهم ذلك إلى إخفاء قبورهم، وتضليل الناس عن مواضعها الحقيقية، وذلك بحفر عدة قبور للشخص الواحد في جهات متعددة، وبإخفاء معالمها حتى قيل: إنه لما مات الخليفة أبو جعفر المنصور (ت١٥٨هـ ـ ٧٧٤م) حفر له مئة قبر، ودفن فيها كلها؛ لكيلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس، ودفن في غيرها؛ للخوف عليه، وهكذا قبور الخلفاء العباسيين لا يعرف لأحدهم قبر[1].

ومن المعروف: أن الخلفاء العباسيين الذين عاشوا في سامرا قد دفنوا في قصورها، فالمعتصم دفن في الجوسق الخاقاني، والواثق في القصر الهاروني، والمتوكل في قصر الجعفرية، ولما عاد الخلفاء العباسيون إلى بغداد، أظهروا قبورهم، وقد دفن الأولون منهم في دار ابن طاهر بالحريم الطاهري بالجانب الغربي لبغداد، ثم نقلت رفاتهم إلى ترب الخلفاء بالرصافة عام ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م بعد أن غمر الفيضان تربهم. . . . .

---

(١) شافعي، فريد، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، ص٢٥٦؛ مرزوق، محمد عبد العزيز، **الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين**، ص٤١؛ يوسف، شريف، **تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور**، بغداد (١٩٨٢م)، ص٣٥٦.

في العام السابق (أي: ٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م)[١].

وإذا كانت قبة الصليبية في سامرا ٢٤٨هـ ـ ٨٦٢م تعد أقدم مثل باق للقبة المدفن في العمارة الإسلامية عامة، وفي العراق خاصة (شكلا ٣٥ ـ ٣٦)[٢]، إلا أنه يستدل من خلال ما ورد في المصادر التاريخية: أنه كانت هناك قباب تعلو المدافن قبل منتصف القرن ٣هـ ـ ٩م، ومن أمثلة ذلك: أنه لما توفيت أم الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، بنيت عليها قبة بأمر الرشيد عرفت بالقبة البرمكية، وقد شاهد بقايا هذه القبة موسيل عام ١٩١٢م[٣].

كذلك لما توفي الليث بن سعد عام ١٧٥هـ ـ ٧٩١م (أي: في زمن الرشيد أيضًا)، دفن في مقابر الصدفيين بالقرافة الكبرى، وكان عددها أربع مئة قبة، والليث أوسطها[٤].

وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن القباب المقامة فوق المدافن

---

(١) يوسف، **تاريخ فن العمارة العراقية**، ص٣٥٦؛ العلي، صالح أحمد، **بغداد مدينة السلام**، مج٢، بغداد (١٩٨٥م)، ص١٩٧، ١٩٩.

(٢) الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، ص١٧٦؛ سلمان، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، (٢/ ٦٨).

(٣) الشابشتي، **الديارات**، ص٢٢٩؛ عبو، عادل نجم، **القباب العباسية في العراق**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٧م)، ص١٣ ـ ١٤؛ **التربة في العمارة الأيوبية في سوريا**، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥، الحداد، **القباب**، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٤) المقريزي، **الخطط**، (٢/ ٤٦٣)؛ السخاوي، **تحفة الأحباب**، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ الحداد، **القباب**، ص٤١.

قد عرفت في ضوء مـا ورد في المصادر التاريخيـة في خلافة هارون الرشيد في الربع الأخير من القرن ٢هـ ـ ٨م.

وأقام الخليفـة العباسي المأمـون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ ـ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) قبة على قبر كـل من والـده الرشيد، وعلي بن مـوسى الرضا في طوس (مشهد حاليًا)، ويضيف القزوينـي فيقول: إن الرشيـد في القبر الـذي يعرفه الناس للرضا، والرضا في القبر الذي يعرفه الناس للرشيد، وذلك من تدبير المأمون، والقبران متقاربان في قبة واحدة، وإن أهل تلك القرية (ويقصد: قرية سناباز من قرى طوس على ميل منها) شيعـة بالغوا في تزيين القبر الذي اعتقدوا أنه للرضا وهو للرشيد[1].

كذلك تحتوي جبانة أسوان جنوب مصر على ما يقرب من ثلاثين مقبرة على الأقل يمكن أن يقع تاريخها في فترة عصر الولاة بمصر (٢١ ـ ٢٥٤هـ ـ ٦٤١ ـ ٨٦٨م)[2].

هذا، وقد تنوعت طرز العمائر الجنائزية الباقية في العمارة الإسلامية، وتعددت أنمـاطها في الأقطار الإسلاميـة، سواء في قلب العالم الإسلامي، أو في الجناح الشرقي لدار الإسلام، أو الجناح الغربي لدار الإسلام، سواء ما كان منها يتبع الطراز التقليدي (وهو المربع المغطى بقبة)، أو الطراز غير التقليدي بأنماطه المتعددة، ومن بينها المثمنة والمتعددة الأضلاع والأسطوانية والإيوانيـة، ومنها مـا يتبع الطراز الـذي اصطلح على تسميتـه بطراز التربـة

---

(١) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، د ت، ص٣٩٢.

(٢) شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، ص٥٦٧.

المفتوحـة، وغير ذلك من الطرز والأنمـاط مستقلة ـ أي: منفردة بذاتها ـ، أو ملحقة بغيرها من العمائر ـ كما سبق القول ـ.

وسوف نقتصر في هذه العجالـة على الإشارة إلى بعض الأمثلة الباقية في العمارة الإسلامية، سواء ما كان يتبع منها الطراز التقليدي (المربع المغطى بقبة)، أو الطراز غير التقليـدي بأنماطـه المتعـددة، على أن نراعي في ذلك الترتيب التاريخي.

وتعد قبة الصليبية في سامـرا ٢٤٨هـ ـ ٨٦٢م (شكلا ٣٥ ـ ٣٦) أقـدم الأمثلة الباقية في العمارة الجنائزية الإسلامية بصفة عامة ـ كما سبق القول ـ، وتتبع الطراز غير التقليدي (مثمن خارجي، ثم مثمن داخلي، ثم المربع الذي أقيمت فوقه القبة) بصفة خاصة[1].

كذلك فإن قبة إسماعيل الساماني في بخاري قبل ٣٣١هـ ـ ٩٤٣م تعد أقدم أنموذج باق صمم وفق الطراز التقليدي في العمارة الجنائزية الإسلامية بصفة عامة، وفي المشرق الإسلامي بصفة خاصة[2] (الطراز التقليدي) (شكل ٣٣٩، لوحتا ١٥١ ـ ١٥٢).

وفي مصر: قباب أسوان، سواء مـا يرجع منها إلى فترة عصر الولاة،

---

(١) كريزول، **الآثار الإسلاميـة الأولى**، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص١٠٢ ـ ١٠٤؛ سلمان وآخـرون، **العمـارات العربية الإسلاميـة في العـراق**، (٢/ ٦٨ ـ ٧٢)؛ غـازي، **العمـارة العربيـة**، ص٢٠٣؛ عبـو، **القباب العباسية**، ص٤٥ ـ ٥٢؛

Creswell and Allan, Ashort Account, pp. 373 _ 374.

(٢) Hillenbrand, islamic Architecture, pp. 288 _ 290.

أو ما يرجع إلى العصر الفاطمي، أو ما يرجع إلى ما بعد العصر الفاطمي[1] (لوحة ٤٢).

ومنها: القباب السبع ٤٠٠هـ ـ ١٠١٠م أو ٤١١هـ ـ ١٠٢١م بآخر القرافة الكبرى (تقع حاليًا بعزبة خير الله الجديدة على مقربة من مبنى خيالة الشرطة بعين الصيرة جنوب القاهرة).

ومنها: قباب المشاهد؛ مثل: مشهد آل طباطبا (بعين الصيرة)، وهو من المشاهد المتميزة (شكلا ١١٢ ـ ١١٣) حوالي ٣٣٤هـ ـ ٩٤٥م. ومشهد الجيوشي أعلى جبل المقطم بالقاهرة (شكلا ١٦١ ـ ١٦٢، ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، ومشهد السيدة رقية (شكل ١٦٣).

ومنها: قباب كل من الإمام الشافعي، والصالح نجم الدين أيوب، وفاطمة خاتون (أشكال ١٦٥ ـ ١٦٧)، وقبتا خانقاه الناصر فرج، وبرسباي البجاسي، وقايتباي وخاير بك، وقاني باي الرماح أمير أخور، وغير ذلك (لوحات ٦٦، ٧٠ ـ ٧١، ٧٧ ـ ٧٨).

ومن القباب المتميزة في العمارة المصرية الإسلامية: قبة المنصور قلاوون (شكل ١٦٨)، وقبة صرغتمش (شكل ١٧٠)، وكل من قبتي التربة

---

(١) قام كل من مونيريه دي فيلاردو كريزول، وفريد شافعي على التوالي بدراسة قباب جبانة أسوان، ثم أجريت دراسات حديثة عنها، ومنها: عفيفي، محمد ناصر، **القباب الجنائزية الباقية بصعيد مصر في العصر الإسلامي**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م)، ص٢ ـ ٩٨؛ عثمان، **موسوعة العمارة الفاطمية**، الكتاب الثاني **عمارة المشاهد والقباب في العصر الفاطمي**، القاهرة (٢٠٠٦م)، ص١٩٥ ـ ٢٩٤.

المعروفة بالسلطانية (بقرافة السيوطي) (لوحة ٦٤)، وقبة الروبي بالفيوم (شكل ١٧٢)، وقبة الشيخ سنان بدرب قرمز بالقاهرة، وغير ذلك. (شكل ١٧٣).

وعرفت مصر كذلك طراز التربة المفتوحة؛ كما هو الحال في قباب كل من: أبي تراب بالعباسية من العصر الفاطمي، والقبة تجاه قبة برسباي البجاسي (لوحة ٦٨) من أواخر العصر الجركسي، والمزني، ومصطفى أغا جالق، ورقية دودو من العصر العثماني[1].

وفي سوريا بقيت نماذج عديدة ذات خصائص معمارية وسمات فنية تحتاج إلى دراسة مفردة مطولة، سواء ما يرجع منها إلى العصر الزنكي والأيوبي، أو إلى العصر المملوكي، أو إلى العصر العثماني في كل من دمشق وحلب، وغيرهما من المدن السورية، وحسبنا أن نشير من بين هذه وتلك إلى كل من: التربة النورية (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي) بالمدرسة النورية ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م (لوحتا ٤٦٨ ـ ٤٦٩) والتربة النجمية المعروفة بتربة السلطان حسن ٥٦١ ـ ٥٧٥هـ ـ ١١٦٥ ـ ١١٧٩م (طراز التربة ذات الجوانب الأربعة المفتوحة مثل القباب السبع بالقرافة الكبرى بالفسطاط)، والتربة الخاتونية ٥٧٧هـ ـ ١١٨١م، والتربة الفرخشاهية ٥٧٩هـ، والتربة الصلاحية ٥٩٢هـ ـ ١١٩٥م، والتربة السلامية ٦١٠هـ ـ ١٢١٣م، والتربة العادلية بالمدرسة

---

(١) الحداد، **القباب**، ص٣٩ ـ ١٨١، (شكل ٩١، لوحات ١ ـ ١٤٤)؛ **بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية**، الكتاب الثاني، القاهرة (٢٠٠٥م)، ص٢٥٨ ـ ٣٠١، (أشكال ١ ـ ٣٢، لوحات ١ ـ ٤٥)؛ **السلطان المنصور قلاوون**، ص١٤٠ ـ ١٥٧، (لوحات ١٩ ـ ٣٨).

العادلية (مقر المجمع العلمي العربي بدمشق) ٦١٩هـ ـ ١٢٢٢م (لوحة ٤٧١)، والتربة الركنية منكورس ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م، والتربة الأمجدية ٦٢٨هـ ـ ١٢٣٠م، وتربة ابن المقدم، والتربة التكريتية، والتربة القيمرية، وتربة المدرسة الأتابكية، وتربة المدرسة المرشدية، وتربة المدرسة العزية البرانية، وتربة المدرسة الظاهرية بيبرس، والتربة العادلية البرانية، والتربة التنكزية، وتربة أرغون شاه، وتربة الخانقاه الجقمقية بدمشق، وغير ذلك[1].

وفي العراق انتشر طراز القباب المخروطية أو الميل، ومن أمثلتها: قبة الإمام الدور (محمد الدري)، وقبة زمرد خاتون المعروفة بضريح الست زبيدة في وسط مقبرة الشيخ معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد، وتربة الشيخ عمر السهروردي المتوفى ٦٣٢هـ ـ ١٢٣٤م في بغداد[2] (شكلا ٣٧ ـ ٣٨، لوحتا ٧ ـ ٨).

---

(١) معاذ، **مدافن الملوك والسلاطين في دمشق**، ص٢٣٥ ـ ٢٥٣؛ عبو، **التربة في العمارة الأيوبية في سوريا**، ص٢٧٣ ـ ٢٨٠؛ (أشكال ١ ـ ٧)؛ دهمان، **في رحاب دمشق**، ص١٥٣ ـ ١٦٢؛ ١٨٧ ـ ١٩٣؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣، ٢٦٥، ٣٢٧، ٣٣٠، (أشكال ١٧٩، ١٨٣ ـ ١٨٤)؛ الشهابي، قتيبة، **النقوش الكتابية في أوابد دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية** دمشق (١٩٩٥م)، (٦٧٨ صفحة)؛ مرسي، **العمارة الإسلامية بسورية**، (١/ ٦٥ ـ ٦٧، ٧٠ ـ ٧١، ١٠٠ ـ ١٠١، ١٠٥ ـ ١٠٦، ١١٣ ـ ١١٥، ١٢٣، ١٢٦ ـ ١٢٧)؛ **الترب الباقية بمدينة دمشق من العصر المملوكي البحري**، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب بالقاهرة، العدد (٥)، (يناير ٢٠٠٤م)، ص١٣٧ ـ ١٨٠.

(٢) الحديثي، عطا، عبد الخالق، هناء، **القباب المخروطية في العراق**، بغداد (١٩٧٤م)، ص١٩ ـ ٨٧، (لوحات ١ ـ ٩٩)؛ العاني، علاء الدين أحمد، **المشاهد ذات القباب** =

وفي المغرب: قبة البروديين في مراكش (٥١٤ ـ ٥٢٥هـ ـ ١١٢٠ ـ ١١٣٠م) (شكلا ٢٢١ ـ ٢٢٢، لوحة ٩٥) من العصر المرابطي[1]، والقباب المرينية في شالة (شكل ٣٩٨، لوحة ٤٨٠)، وفاس، وهذه الأخيرة تعرف بمقابر القلة[2]. ومقابر السعديين بمراكش ذات الشهرة الكبيرة[3] (أشكال ٣٩٩ ـ ٤٠٠، ٤١٥ ـ ٤١٦، لوحات ٤٥٣ ـ ٤٥٤، ٤٨١ ـ ٤٨٢).

وفي إيران توجد نماذج متنوعة، ومنها: كَنبد علي في أبرقوه ٤٤٨هـ ـ ١٠٥٦م ١١٣٩م، وتربة جيهل دختران (الأربعين عذراء) في دمغان ٤٤٦هـ ـ ١٠٥٤م، وطغرلبك في الري ٥٣٤هـ وتربة حليمة خاتون في كواش، وأرزن خاتون في أخلاط (لوحتا ١٧٦ ـ ١٧٧)، وكَنبد سرخ (القبة القرمزية) في مراغة ٥٤٢هـ ـ ١١٤٧م (شكل ٣٤٨)، والسلطان سنجر في مرو ٥٥٢هـ ـ ١١٥٧م (شكل ٣٤٩)، وكَنبد قابوس في جرجان (شكلا ٣٥١، ٣٩٧، لوحة ٤٧٥)، وماما خاتون في تركان (شكل ٣٥٢)، والجايتو خدابندة في سلطانية (شكل ٣٥٠، لوحة ١٣٠)، وتربة حافظ في شيراز (لوحة ١٤٨)، وغير ذلك.

= **المخروطة في العراق**، بغداد (١٩٨٢م)، ص٤٥ ـ ١٣٧؛ (أشكال ١ ـ ١١، لوحات ١ ـ ٨٤)؛ عبو، **القباب العباسية في العراق**، ص٥٧ ـ ٦٥، ١٠٢ ـ ١٠٩، ١٧٨ ـ ١٨١؛ سلمان، وآخرون، **العمارات العربية الإسلامية في العراق**، (٢/ ٧٢ ـ ٨٤، ٩٥ ـ ١٠١، ١١٦ ـ ١٢١).

(١) بالباس، **الفن المرابطي والموحدي**، ص٤٦؛ الكحلاوي، **عمائر الموحدين الدينية**، ص١٧٣، إسماعيل، **تاريخ العمارة**، (٢/ ١٥٢).

(٢) إسماعيل، **تارخ العمارة الإسلامية**، (٤/ ١٧٢ ـ ١٨٧).

(٣) إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٥/ ٨٠ ـ ٨٦)؛ أبو رحاب، **العمائر الدينية والجنائزية**، ص٣٧٢ ـ ٤٤٠.

والترب بمسجد علاء الدين في قونية (شكل ٢٤٤، لوحة ١٧٠)، وخواند خاتون في قيصرية (شكل ٣٢٦)، والتربة بجفته منارة بأرضروم[١] (شكل ٣٢٧).

وفي آسيا الوسطى: كَور أمير في سمرقند (شكل ٣٥٢، لوحة ١٦٠)، ومجموعة مقابر جبانة شاهي زندة بسمرقند[٢] (لوحة ١٦١).

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك وعمائرهم**، ص٣٨ـ٤٦، ١٠٨ـ١١٩؛ الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٣٨ ـ ٤٦، ١٠٨ ـ ١١٩، ١٧٢ ـ ١٧٧، ٢١٨ ـ ٢٢٢، ٥٢٩ـ٥٣١.

ومن الدراسات المهمة المتعلقة بالنماذج الأناضولية السلجوقية كل من:

Tuncer, o.c., Anadolu Kumbetleri _1_ selcuklu done mi, Anakara, (1986), s. 13_365., Arseven, G.E., Turk Sanati Tarihi, Istanbul, (1986), s. 482_512. ONKAL, H., ANADOLU Selcuklu Turbeleri, ANAKARA, (1996), s. 1_477.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٣٢، ص٥٣٥ ـ ٥٣٦؛ عامر، إبراهيم إبراهيم، **العمارة في سمرقند في العهد التيموري**، ضمن أعمال ندوة الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٩٩م)، ص١٣٥ـ١٤٧؛ عبيد، شبل إبراهيم، **النقوش الإنشائية الباقية في مدينة سمرقند وأهميتها الأثرية**، مجلة آداب المنيا، العدد (٤٤)، (أبريل ٢٠٠٢م)، ص٤٩٨ـ٥٠٤، ٥٠٦ـ٥٠٨؛ **نقوش التوابيت الحجرية والرخامية بمدينة شهر سبز وسمرقند**، أبجديات، العدد (٢)، مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٧م)، ص١١٤ـ١٥٠؛

Golombek and wilber, The Timurid Architecture, PP. 233_263. Marefet, R., Beyond The Architecture of Death: The Shrine of the Shahi_I zinda in Samarqand, Phd thesis, Harvard University, (1999), pp. 69_26.

وفي الهند: تربة السلطان ألتمش ٦٣٢هـ ـ ١٢٣٤م، وتربة غياث الدين تغلق، وتربة شيش كَنبد أواخـر ق٩هـ ـ ١٥م أو بدايـة ق١٠هـ ـ ١٦م بدهلي وتربة الشاعـر الأمير خسرو بمنطقة نظام الـدين بدهلي، ٧٢١هـ ـ ١٣٢١م، وتربـة بارا كَنبـد ٩٠٠هـ ـ ١٤٩٤م بـدهلي، وتربة همايون ٩٧٢هـ ـ ١٥٦٥م بدهلي، وتربة عيسى خان في دهلي.

وتربة أكبر في سيكندرا، وتربة جيهانجير في لاهور، وتربة اعتماد الدولة في أجرا، وتاج محل في أجرا (شكل ٤٠١، لوحات ٤٨٤)، وغير ذلك[١].

أما عن مناطق الانتقـال، فمنها: المثلثات الكروية، والحنايا الركنية،

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٨٠ ـ ٥٩٨؛ رجب، أحمد، **تاريخ وعمارة المزارات والأضرحة الأثرية الإسلامية في الهند**، القاهرة (٢٠٠٥م)، ص٣٠ ـ ٥٢، ٧٣ ـ ١١٢، ١٢١ ـ ١٥٦، ١٨٦ ـ ٢٤٤،

Prown, P. Indian Architecture (islamic Period), Bombay (1981), PP. 70_100., Hoag, D., islamic Architecture, New York, (1977)., PP., Nath, R., The immortal Taj Mahal, Bombay (1972)., Colour decorations in Mughal Architecture, Bombay (1970), Pls, ix_xvii, xxii_xxv., History of Sultanate Architecture, New Delhi, (1978), PP. 52_55., Hambly, G, Cities of Mughul india, London (1977), PP. 73_84_103, Havell, E. B., indian Architecture, London, (1927), PP. 181, 196, 210_213. Patel, A.A, islamic Architecture of western india (Mid_12th_14th Centuries) Continuities and interpretions phd_ thesis, Harvard university, (2000), PP. 179 _ 273.

وانظر: (٢/ ١٧٢) من هذا الكتاب.

والمثلثات التركية (البارزة والمستوية)، والمقرنصات (أشكال ٣٨٧ ـ ٣٨٨، ٤٠٢ ـ ٤٠٣) (لوحات ٤٣ ـ ٤٤، ١٥٢).

كذلك تم اختيار ثلاث تراكيب للقبور، ومنها: تركيبة قبر قثم بن عباس بسمرقند (لوحة ١٦٢)، وتركيبة التربة الخضراء في بورصة (لوحة ١٩٤)، وتركيبة قبر محمد علي بمسجده في قلعة القاهرة (لوحة ٨٥).

أما خلال العصر العثماني، فقد انتشرت عمارة الترب بدرجة كبيرة، سواء في الأناضول، أو في البلقان، ونستطيع أن نحصر طرز الترب الباقية في ثلاثة طرز، وذلك على النحو التالي:

*** الطراز الأول:**

وهو الطراز التقليدي لعمارة الترب والمدافن الإسلامية، ويتكون هذا الطراز في جوهره من مساحة مربعة تعلوها القبة التي تقوم على منطقة انتقال من الحنايا الركنية والمثلثات الكروية والمقرنصات والمثلثات التركية، ويعد أقدم الطرز في العمارة الجنائزية، وأحياناً يتقدم هذه الترب رواق خارجي (سقيفة)، وقد تبنى هذه الترب مستقلة، أو ملحقة بغيرها من العمائر؛ كالمساجد والمدارس والخوانق والزوايا؛ بل والمنازل ـ أيضًا ـ ولاسيما خلال العصر العثماني.

وبصفة عامة يمكن القول: إن هذا الطراز لم يكن له الذيوع والانتشار خلال العصر العثماني، ولاسيما في الأناضول وأوروبا العثمانية؛ فإن النماذج الباقية منه تكاد تكون قليلة، بل ونادرة أحياناً.

ومنها: تربة كل من حاجي سلطان في بورصة، وبايزيد في بورصة

(شكلا ٣٤٠ ـ ٣٤١) وتربة حمزة بك الملحقة بمسجده في بورصة ـ أيضًا ـ (شكل ٢٩٩).

ومنها: التربة الكبيرة ضمن مجمع السلطان أحمد في إستانبول ١٠٢٩هـ ـ ١٦١٩م، وهي عبارة عن مساحة مربعة تعلوها قبة مرتفعة فوق رقبة خالية من النوافذ، وتمتد بطول واجهتها بائكة ثلاثية العقد، وقد دفن بها ستة وثلاثون شخصًا، من بينهم: السلطان عثمان الثاني، والسلطان مراد الرابع، فضلاً عن السلطان أحمد الأول وزوجته، وغيرهم.

وأهم ما يلفت النظر فيها: الكسوات الرخامية والزخرفية، والأشرطة الكتابية القرآنية ذات الأرضية الزرقاء، وبابها المطعم بالصدف[1]. وتعد تلك التربة استثناء لترب السلاطين في إستانبول التي بنيت كلها وفق الطراز الثاني، وسنشير إليه فيما بعد.

وخارج تركيا توجد في ألبانيا بضعة نماذج، منها: تربة حاجي حمزة في كرويا (Kruja) أواخر ق١٢هـ ـ ١٨م، وتربة مصطفى بابا دولما (Dollm) في كرويا ـ أيضًا ـ، والأولى عبارة عن مربع طول ضلعه ١٠م، والثانية أصغر، إذ يبلغ طول ضلع المربع ٧,٢٠م، ورقبة القبة مثمنة في كلتيهما، وقد أرخ كيل التربة الثانية بعقد السبعينات من القرن ١٢هـ ـ ١٨م. والثالثة: تربة حاجي حمزة بك في شقودر ١١٩٣هـ ـ ١٧٧٩م، وجددت القبة عام ١٢٢٦هـ ـ ١٨١١م ـ كما يستدل من النقش الكتابي المؤرخ ـ. ويلاحظ: أن التربة لا تظهر من الخارج؛ حيث غطيت بسقف مسنم تكسوه البلاطات[2].

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٢١.

(٢) Kiel, ottoman A rchitecture, PP. 181 _ 193, 233 _ 234.

ومن أشهر تلك النماذج: تربة أو مشهد مراد خداوندكار في كوسوفو، والقبة قائمة على رقبة مثمنة، ويتقدم المدخل سقيفة بارزة عبارة عن مربع مفتوح من ثلاثة جوانب، وتعلو هذا المربع قبة، ويذكرنا تخطيط هذه السقيفة بطراز التربة المفتوحة الذي سوف نشير إليه فيما بعد[1].

ومنها: تربة إسحاق بك في أسكوب ٨٤٢هـ ـ ١٤٣٨م، وتنفرد بكسوة رقبتها القصيرة بالزخارف الهندسية المتكررة، وقوامها أشكال المثلثات، والنجوم السداسية، كما أنه يحدد هيئة الشبابيك السفلية والعلوية، بل وهيئة الواجهات نفسها الجفوت المجردة، والعقود المدببة، وتشبهها تربة مصطفى باشا في أسكوب ٩٢٥هـ ـ ١٥١٩م، إلا أنها لا ترقى إلى مستوى التربة الأولى، ولاسيما من حيث معالجة الواجهات والرقبة[2].

ولدينا أنموذج متميز للترب المربعة، وهو تربة ساري عسكر محمد باشا ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م[3]، وسوف نفرد لها ولغيرها من نماذج الترب الفريدة والمتميزة دراسة مطولة بمشيئة الله تعالى.

ومما له دلالته في هذا الصدد ـ أيضًا ـ: أنه توجد نماذج تعد ـ أيضًا ـ قليلة لبعض الترب المربعة من الخارج، والمثمنة من الداخل، ومن أشهرها: التربة التي بناها قوجه معمار سنان للسلطان سليم الثاني في مدافن أيا صوفيا

---

(١) Eyice, Kosovada Meshed - iHudavendigar ve Gazi Mestan Turbesi, Tarihdergisi, Eylul (1961), Istanbul, (1962), s, 71 - 79.

(٢) Yenisehirlioglu, Turkiye, s 209.

(٣) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 231.

٩٨٢ ـ ٩٨٥هـ ـ ١٥٧٤ ـ ١٥٧٧م، وهي مربعة من الخارج، ويتقدم واجهتها الرئيسية رواق خارجي (سقيفة) ذو واجهة ثلاثية العقد، ويعلو القسم الأوسط أمام باب الدخول قبة صغيرة، أما من الداخل، فتوجد ثمانية أعمدة، تعلوها ثمانية عقود أقيمت فوقها القبـة، وهي قبة مزدوجـة ترتكز على الأعمدة من الـداخل، وعلى الجـدران من الخـارج، وأهـم مـا يلفت النظر فيهـا: تلك المجموعة الرائعة من البلاطات الخزفية التي تكسو الجدران، والتي تعد من أبدع ما أنتجته مدينة أزنيق[١].

ومهما يكن من أمر، فإن هـذا الطراز لا يمكن أن يقارن بتلك الروائع الباقية في مصر والشام واليمن والمشرق الإسلامي قبل العصر العثماني.

*** الطراز الثاني:**

وهو أكثر الطرز شيوعًا وانتشارًا وإبداعًا في العصر العثماني، ولا سيما ترب السلاطين وزوجـاتهم، وأولياء العهد، والصـدور العظام والوزراء من بعدهم، وقد تبنى تلك الترب مستقلة، أو ملحقة أو ضمن المجمعات المعمارية (الكليات)، وجوهر هذا الطراز: الأشكال المضلعـة وقد تكون سداسية أو سباعية، أو مثمنة أو عشريـة الأضلاع، ولكن الغالب الشكل المثمن، وقـد تبنى بالحجر أو بالرخام، وتكسى بشتى أنواع الزخارف والكسوات الرخامية والخزفية والأشرطة الكتابية.

ومن أبدع وأشهر النماذج الباقية المبكرة: التربة الخضراء (يشيل تربة) في بورصة للسلطان محمد جلبي........................

---

(١) Aslanapa, Mimar sinan, s. 179, 181.

٨٢٤هـ ـ ١٤٢١م (شكل ٣٤٧، لوحة ١٩٣)[(١)].

أما الترب التي ترجع إلى القرن ١٠هـ ـ ١٦م وما يليه، فكثيرة، وحسبنا أن نشير إلى أن غالبية الترب السلطانية يتقدمها رواق خارجي (سقيفة)، واجهته ذات ثلاثة عقود أو خمسة عقود، أوسطهـا أوسعها؛ كما هو الحال في تربة شاهزاده محمد (شكل ٣٤٢)، وتربة زوجة السلطان سليمان القانوني خاصكي حرم (شكل ٣٤٣)، ويستثنى من ذلك: تربة السلطان سليمان القانوني (شكل ٣٤٤)، التي تلتف حولها من الخارج بائكة مثمنة ترتفع إلى ما يعادل نصف ارتفاع التربة تقريبًا، وتتصل هذه البائكة بالرواق الخارجي الذي يتقدم واجهة التربة الرئيسية، وهو ذو خمسة عقود، أوسطها أوسعها، ويسقف هذه البائكة سقف مائل.

ومن تـرب الباشوات التـي يتقـدمها الرواق الخارجي تربـة بيالـه باشا بإستانبول ٩٨١هـ ـ ١٥٧٣م، ويلتف حولها رواق من جميع الجهات.

وبعض قباب هـذه الترب ـ أيضًا ـ مزدوجـة ترتكز الداخلية منها على الأعمدة، بينما تستند الخارجية على الجدران، ومنها: تربة مراد الثالث في مدافن أيا صوفيا ١٠٠٨هـ ـ ١٥٩٩م، وتربة محمد الثالث التي تم الفراغ منها عام ١٠١٧هـ ـ ١٦٠٨م.

ومن الترب المثمنة في إستانبول: تربة محمود باشا ٨٧٨هـ ـ ١٤٧٣م، وتربة داود باشا ٨٩٠هـ ـ ١٤٨٥م.

---

(١) عبد الحافظ، **التربة الخضراء في بورصة**، ضمن كتاب دراسات في الفن التركي، القاهرة (٢٠٠٧م)، ص١٢٦ ـ ١٧٠.

وأقام قوجه معمار سنان عدة ترب، منها: تربة خير الدين بربروسا باشا في بشكطاش ٩٤٨هـ ـ ١٤٤١م، وتربة خسرو باشا في يني باغجة ٩٥٢هـ ـ ١٥٤٥م، وتربة أمير البحر قليج علي باشا في طوبخانة ٩٨٥هـ ـ ١٥٧٤م، (وهي مثمنة من الخارج، وذات تخطيط متعامد أو صليبي من الداخل، مثلها في ذلك مثل تربة زال محمود باشا بإستانبول ـ أيضًا ـ)، وتربة سوكللو محمد باشا في أيوب ٩٨٢هـ ـ ١٥٧٤م.

ومن ترب السلاطين المثمنة في أوائل القرن ١٠هـ ـ ١٦م: تربة بايزيد الثاني التي أمر بإقامتها له ابنه وخليفته سليم الأول عقب وفاته عام ٩١٨هـ ـ ١٥١٢م، وذلك في الناحية الجنوبية من مسجده بإستانبول.

ومنها: تربة سليم الأول التي أمر بإقامتها له ابنه وخليفته سليمان القانوني خلف مسجد السليمية بإستانبول ٩٢٩هـ ـ ١٥٢٣م.

ومن أبدع وأروع تلك الترب السلطانية: تلك التي أقامها قوجه معمار سنان للسلطان سليمان القانوني، والتي سبقت الإشارة إلى بائكتها المثمنة التي تلتف حول واجهاتها، ويعلو تلك البائكة في كل ضلع من أضلاع المثمن قمرية عبارة عن ثلاثة نوافذ متجاورة معقودة بعقود مدببة، والنافذة الوسطى هي أكثرها ارتفاعًا، ويحدد هيئة تلك القمرية عقد مدبب كبير، ويتوج الواجهة صف أفقي من الشرافات يجري أسفلها إفريز من المقرنصات الدقيقة، ويكسو هذه التربة، وتربة زوجة السلطان القريبة منها، والمعروفة باسم خاصكي حرم، مجموعة من البلاطات الخزفية البديعة.

وبرغم أن تربة كلبهار خاتون زوجة السلطان الفاتح خلف مسجده

مثمنة، إلا أن تربة الفاتح اتخذت الهيئة العشرية الأضلاع، وقد دمرها زلزال عام ١١٧٩هـ - ١٧٦٥م، فأعيد بناؤها ١١٨١ - ١١٨٥هـ - ١٧٦٧ - ١٧٧١م، برغم الحفاظ على طرازها الأصلي في التخطيط وفق طراز الباروك في بعض التفاصيل؛ كالنوافذ والرفرف العريض بتربة الفاتح[1].

أما تربة الصدر الأعظم قوجه سنان باشا ١٠٠٤هـ - ١٥٩٥م، فهي مثمنة من الداخل، ولكنها ذات ست عشرة ضلعًا من الخارج[2].

وفي منتصف القرن ١٢هـ - ١٨م بدأت الترب تستجيب - مثلها في ذلك مثل العمائر العثمانية الأخرى - لطراز الباروك، ومن نماذجها: تربة راغب باشا في فناء مكتبته في لاله لي ١١٧٦هـ - ١٧٦٢م، وهي مسدسة الشكل، وتربة مصطفى الثالث بجوار مسجد لاله لي ١١٨٧هـ - ١٧٧٣م، وهي عشرية الأضلاع، ويلتف حول ثلاثة أضلاع من المبنى رواق خارجي (سقيفة)، وتربة مهرشاه أم سليم الثالث ضمن مجمع أيوب ١٢٠٧هـ - ١٧٩٢م، وهي ذات ١٢ ضلعًا.

وأعظم هذه الترب الباروكية الطراز: تربة نقشديل سلطان زوجة السلطان عبد الحميد الأول، ويرجع تاريخها إلى عام ١٢٣٣هـ - ١٨١٧م، وهي تذكرنا بواجهات الأسبلة العثمانية المقوسة، والتي سوف نشير إلى نماذجها فيما بعد، وهي نموذج يعكس مدى الاستجابة للطراز الباروكي في النوافذ والكرانيش

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢١٩ - ٢٢١.

Yetkin, Turk, s. 214 - 215.

(٢) عبد الحافظ، **نماذج من منشآت ولاة مصر العثمانيين في استنبول**، ص٢٦٢، (شكل ٩)، **دراسات في الفن التركي**، ص٢٠٠.

والأعمـدة والدعامات المندمجـة، ومع ذلك، نستطيـع أن نلمح فيها بعض مظاهر الطراز الإمبراطوري الذي أخذ يشق طريقه في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ ـ ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م)، وظهر بقوة ووضوح في أول نماذجه، وهو: مسجد النصر[١] (نصرتية جامع).

ووجد هذا الطراز طريقـه إلى المدن الأوروبيـة الأخرى خارج تركيا، ومن نماذجه: تربة Kidemli Baba في Kalugerevo (نوفازاجورا في بلغاريا) ٨١٦ ـ ٨٢٣هـ ـ ١٤١٣ ـ ١٤٢٠م، والتـي سبق القول: إنها الجـزء الوحيـد الباقي من التكية البكتاشيـة، وهي ذات شكل سباعي مضلـع، وهو الشكل المميز لترب البكتاشية، كما أن دركاة المدخل المؤدي لداخل التربة تعلوها قبة، هذا، وما تزال الكسوة الرخامية باقية داخل التربة حتى ارتفاع ٥,٣٠م، كما أن العقد الموتور الـذي يتوج فتحـة باب الدخول تتناوب فيه الصنجات الرخامية مـا بين اللون الأبيض، واللون الأحمر الـوردي (القرنفلي)؛ أي: النظام المشهر المعروف.

ومما له دلالته: أن رقبة القبة تتميز بطولها الـذي يصل إلى ١,٧٠م، وتلك سمة من سمات رقاب القباب في العمارة العثمانيـة المبكرة، إلا أنها لم تلبث أن اختفت قرب منتصف القرن ٩هـ ـ ١٥م[٢].

ومنها: كل من تربة: خورشيد خاتون في قالقاندلن (Tetovo)، وتربة بابا موسى في سالونيك (سلانيك)، وتربة غازي مستان في برشتينا، وبضعة

---

(١) آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) Kiel, A Monument of early ottoman, PP. 57 - 60. , Bulgaristan, PP. 49 - 52.

ترب في بانيالوكا، منها: تربة خليل باشا، والتربة الملحقة بمسجد الدفتردار (أوالأرناؤوطية)، وتربـة فرهـاد باشا، ومنهـا: تربـة سنان بك فـي كانيجـا (Cajnica)، وتربتـا غازي خسرو بك، ومراد بك في سراييفو، وتربة: كل بابا، وتربة: إدريس بابا في المجر، وغير ذلك(١).

ومما له دلالته: أن التراكيب وشواهد القبور بداخل تلك الترب وغيرها، والتي لم نـذكرها لضيق المقام، تعـد من النماذج المتميزة بثرائهـا وغناها، سواء بنقوشها الزخرفيـة، أو نقوشها الكتابيـة، وهو الأمر الذي تستحق معه أن تفرد لها دراسات تحليلية مطولة.

*** الطراز الثالث:**

وهو طراز التربة المفتوحة (Open Turbe)، وجوهر هذا الطراز عبارة عن أربعة أعمدة أو دعامات، تعلوها أربعة عقود مدببة أو نصف دائرية، أو غير ذلك أحياناً، تقوم عليها قبة أو سقف هرمي الشكل أو مسنم وأحياناً سقف خشبي، وهذه الأعمدة أو الدعامات تقوم إما على الأرض مباشرة، وإما في أركان مصطبة أو منصة حجرية ترتفع عن سطح الأرض، وتحتوي على المنزل

---

(١) Eyice, Kosova, s. 79 - 82. , Gero, Turkish, PP. 290 - 310, Yenisehirlioglu, Turkye, s. 89,193,237., i brahimgil, kalkandelen, s. 254.,
Ayaverdi, Yuogoslavya, Resimlar , 37, 104, 120 - 121 ,124.,
Avrupa,I I ,s., 201., Pasic, Islamic Architecture, pp. 72-73.,
Redzic, Islamic Art, pp. xv III -xix,28.
سوكيتش، **فن العمارة الإسلامية في منطقة البلقان والبوسنة والهرسك**، ص٧٥.

المؤدي إلى حجرة الدفن، ويتوسط التربـة تركيبة حجرية أو رخامية، إما أن تكسوها نقوش زخرفية وكتابية في غاية الروعة والإبداع، وأحياناً تترك خالية، أو غفل من هـذه وتلك؛ فضلاً عن شواهد القبور (باشلق او نيشان)، والتي نستطيع من خـلال الأشكال المتعددة لأغطيـة الرؤوس أن نميز الرجـل عن المرأة من جهة، وأن نحـدد الطبقة أو الطائفـة التي ينتمي إليهـا المتوفى من جهة ثانية[(١)].

وغالبيـة ترب ذلك الطراز مفردة؛ أي: ذات أربعـة أعمدة أو دعامات فقط، والبقيـة الباقيـة مزدوجة؛ أي: ذات ستة أعمـدة أو دعامات، وهـذه الدعامات قـد تكون متعددة الأضلاع، وقد تكون دعامات زاويـة على هيئة حرف L، وهو الشكل الغالب، أما الأعمدة، فقد تكون مستديرة أو مثمنة.

ومما له دلالته في هذا الصدد: أن غالبية النماذج المعروفة لدينا حتى الآن توجد في مـدن الأناضول؛ مثل: بورصة، وأزنيق، وأمـاسيا، والقليل منها في بعض المدن في أوروبا العثمانية[(٢)]، ولذلك حسبنا أن نشير إلى نماذجها الباقيـة بنمطيها المفرد والمزدوج، ومنها: تربـة لالاشاهين باشا أول حاكم في إيالة الروملي (بيكلربكي) في Kazanlik ببلغاريا بعد ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م،

(١) Pasic, Islamic Architectur, P. 70.

(٢) آصلان آبا، فنون الترك، ص٢١٣ - ٢١٧.

Wild J, H., Brussa, Berlin, (1958) PP. 69-74, Unsal, Turkish, PP. 44-47., Gabriel, Monuments Turcs, tome II, PP. 63-64., Goodwin, A History, P. 45, Pl. 40.

وبعد دفنه بها نقل جثمانه إلى تربته الرائعة في كرماستار قرب بورصة[١].

ومنها: تربة إبراهيم باشا في فوتجا، وتربة JUJINO في موستار (شكلا ٣٤٥ـ٣٤٦)، وتربتا ALIFAKOVAC في سراييفو.

وفي ترافنيك عـدة نمـاذج، منها: تربـة مصطفى باشا، وتربتا الصدر الأعظم محسن زاده عبدالله، وحافظ جلال الدين باشا، وغيرها[٢].

ومنها: تربة kaplan Pasha في تيرانا بألبانيا قبل ١٢٣٥هـ ـ ١٨١٩م، وتنفرد تلك التربـة بوجـود تأثيرات باروكيـة بهـا عـن طريـق فينسيا وأوروبا الوسطى[٣].

أما التربة المفتوحة بمسجد الدفتردار بإستانبول، فتعد نموذجًا متميزًا؛ حيث تكسو بواطن عقودها المدببة الأربعة نوعٌ نادرٌ من الحليات القالبية في العمارة العثمانية[٤].

---

(١) Kiel, Urban development, P. 143, Pl. 1.

(٢) سوكيتش، **فن العمارة الإسلامية**، ص٧٥.

Redzic, Islamic, PP. X V III _ X iX, 26 _ 27. , Pasic, Islamic A rchitecture, PP. 71_74. , Ayverdi, Yugaslavya, Resimlar, 107, 114 _ 115.

(٣) Kiel, ottoman Architecture, PP. 259 _ 260.

(٤) Goodwin, A history, P. 279.

ولمزيد من التفاصيل عن ترب استنابول، انظر:

Unsal, Istanbul Turbeleri, Vakiflar dergise, Xvi, Ankara, (1986), Resimlar, 5, 26, 40 _ 43.

وقد قام الباحث ـ من قبل ـ بدراسة تحليلية أثبت من خلالها أن ذلك الطراز هو الآخر قد عرف قبل العصر العثماني بقرون عديدة في الشام ومصر وتونس، ولذلك فلا حاجة بنا لتكرار القول حول ذلك الموضوع[1].

* * *

(١) الحداد، **العمائر الجنائزية في مصر خلال العصر العثماني**، دراسة تحليلية مقارنة، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١٢، الآداب (١)، الرياض (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م)، ص٢٤٦ ـ ٢٥٣، بحوث ودراسات، الكتاب الثاني، ص٢٥٥ ـ ٣٢٧، (أشكال ١ ـ ٣٢، لوحات ١ ـ ٤٥).

الفصل الثالث

العمارة المدنية

تحتل العمارة المدنيـة مكانة هامة في دراسة العمارة الإسلاميـة بصفة عامة، وعلى الرغم من كثرة أنواع العمائر المدنية التي تفيض بذكرها المصادر التاريخيـة والوثائق المختلفـة، إلا أن نمـاذجها الباقيـة قليلة، ويرجـع ذلك - بطبيعة الحال - إلى أن العمائر المدنية بأنواعها المختلفة كانت كالكلأ المباح، يستحله لنفسه مـن يشاء من ذوي القوة والسيطرة والجـاه والنفوذ، ومن ثـم كانت عرضة للهدم والاندثار والإحلال، والتغيير سواء في العصور الوسطى ذاتها، أو في عصرنا الحديث المكتظ بالطرز المعمارية العديدة التي تسربت إلينـا، فأفسـدت علينا طرازنا الإسلامي الموروث، وهو الطراز الـذي كـان وما يزال وسيظل صالحًا وملائمًا ومناسبًا لبيئتنا من جهة، ولعاداتنا وتقاليدنا الإسلامية والشرقية من جهة ثانية.

ومهما يكن من أمر، فإنه من خلال دراسة هذه النماذج الباقية نستطيع التعرف على أنواع العمائر المدنية المختلفة، وطرزها وتخطيطها، ووحداتها ومفرداتها وعناصرها المعماريـة، ونقوشها الزخرفيـة والكتابية، وهو الأمر الـذي يمكن - في ضوئـه - معرفـة نشأة كل نوع من هـذه الأنواع، ومراحل تطوره، والتأثيرات المختلفة التي أثرت عليه من جهة، والنشاطات المختلفة

التي كانت تمارس في كل نوع من جهة ثانية.

وفيما يلي نتناول أنواع العمائر المدنية التي سبقت الإشارة إليها، وذلك على النحو التالي:

* * *

المبحث الأول

العمائر والمنشآت الاجتماعية

ازدانت المدن الإسلامية المتعددة بالعديد من العمائر والمنشآت التي نهضت بدور بارز جليل الشأن في الحياة الاجتماعية في دار الإسلام، وحسبنا أن نركز في هذا المقام على منشآت الرعاية الاجتماعية؛ من الأسبلة، ومكاتب السبيل، والحمامات، والبيمارستانات (المستشفيات).

ولعل الظاهرة الواضحة هي أن هذه المنشآت قد استطاعت البقاء والاستمرار طويلاً دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة منشئيها، وذلك بفضل نظام الأوقاف الذي ازدهر مع ازدهار الحضارة الإسلامية، وقد هيأت هذه الأوقاف لتلك المنشآت صفة الاستمرار والدوام، فقد ضمنت لها دخلاً ثابتًا ومستمرًا، كما أن أداء هذه المنشآت كان مقننًا تحكمه شروط الواقف، والعرف السائد؛ مما خرج بهذه المنشآت عن طابع الإحسان الفردي إلى التزام المجتمع والدولة.

ونضيف على ذلك فنقول: إن هذه المنشآت الإسلامية كانت لها كل صفات وخصائص منشآت الرعاية الاجتماعية الحديثة، وذلك من خلال

انطباق المقاييس الحديثة لمنشآت الرعاية الاجتماعية وممارستها على الأنشطة والخدمات التي قدمتها المنشآت الإسلامية، وعلى ذلك، فقد كان للحضارة الإسلامية فضل السبق في رفع شعار التكافل الاجتماعي، ونجاحها في تطبيقه تطبيقًا ناجحًا ومستمرًا قبل أن تعرفه أوروبا وتطبقه بقرون عديدة[1].

أولاً ـ الأسبلة:

تعد الأسبلة فرعًا مهما من أفرع العمائر المدنية في الحضارة الإسلامية، وفي العمارة الإسلامية خاصة، ويندرج ذلك الفرع تحت ما يمكن أن يطلق عليه اصطلاحا اسم: العمائر، أو المنشآت الخيرية، ويقصد بتلك العمائر: تلك الأبنية التي أنشئت رغبة في التقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأملاً في ثواب الآخرة، وذلك بفعل الخير، ومن ثم سبّلها أصحابها؛ أي: وقفوها في سبيل الله تعالى؛ أي: بغير أجرة، وهذا يعني: أن تلك الأبنية كانت لا تدر دخلاً للواقف يتصرف فيه كيف يشاء.

ومن أشهر أنواع هذه العمائر أو الأبنية الخيرية: أسبلة الماء، أو الأسبلة كما هو معروف وشائع.

وقبل أن نحدد أنواع هذه العمائر أو الأبنية الخيرية ينبغي أن نشير ـ أولاً ـ إلى قضية هامة، ألا وهي: قضية اختلاف الآراء حول تفسير مدلول لفظة السبيل، وأصل اشتقاقها من جهة، وارتباطها بنوع خاص معروف وشائع ـ وهو أسبلة الماء ـ من جهة ثانية.

أما من حيث مدلول اللفظة وأصل اشتقاقها، فيرى البعض: أنها مشتقة

---

(١) أبو الفتوح، محمد سيف، **منشأت الرعاية الاجتماعية**، ص٤٦٣.

من أسبل الماء بمعنى: صبه، وأسبل المطر بمعنى: هطل[1]، بينما يرى البعض الآخر: أن هذه الأسبلة اشتقت تسميتها من ابن السبيل؛ أي: الطريق[2].

وعلى ضوء هـذا التفسير انحصرت لفظة السبيل، وصارت اصطلاحًا على نوع خاص من المنشآت المائيـة، هو المعروف والشائع باسم السبيل، أو السقاية ـ وهذه التسمية الأخيرة شائعة في الغرب الإسلامي ـ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب، بل وصل الأمر إلى القول: إن تسمية الكُتَّاب بمكتب السبيل إنما ترجع إلى بنائه أعلى السبيل؛ أو لارتباطه بهذا الموضع[3].

والحـق أن لفظة السبيل لم يكن يقصـد بها ـ خـلال العصور الوسطى

---

(١) الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، ص١٦٣؛ الكحلاوي، محمد محمد مرسي، **السقايات المغربيـة بمدينتـي فـاس ومراكش، دراسة أثريـة مقارنـة مـع الأسبلة المملوكية بالقاهرة**، مجلة كليـة الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد (٤)، (١٩٩٥م)، ص٣١٩؛

Mostafa, S.L., The Cairene Sabil, Maqarunas, vol 6, Leiden, Brill, E.J, (1989), P. 34.

(٢) عثمان، محمـد عبد الستار، **أسبلة القاهرة المملوكيـة، مجلة المتحف العربى**، السنة ٢، العـدد (٣)، الكويت (جمادى الأولى ـ رجب ١٤٠٧هـ ـ يناير ـ مـارس ١٩٨٧م)، ص٨٦.

(٣) أمين، محمـد محمـد، **الأوقـاف والحـياة الاجتماعيـة في مصر عصر سـلاطين المماليك**، القاهرة (١٩٨٠م)، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ عثمان، محمد عبد الستار، **نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة**، الإسكندرية (٢٠٠٠م)، ص٣٤٧؛ وثيقة وقف جمال الـدين يوسف، **الأستادار**، ص١٠٥؛ أبو رحـاب، **مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين**، ص٣٧٤.

الإسلامية ـ ذلك المبنى المخصص لشرب الماء فحسب، كما هو شائع ومعروف، ومن جهة ثانية: فإن هناك نماذج كثيرة من الكتاتيب لا تعلو أسبلة، ومع ذلك عرفت في وثائق الوقف المختلفة، فضلاً عن المصادر التاريخية، وبصفة خاصة: كتب التاريخ المحلي والخطط والرحالة، بمكتب السبيل[1].

وفي ضوء ذلك يمكن القول: إن لفظة السبيل كانت اصطلاحًا مرتبطًا بالعديد من الأبنية التي وقفت سبيلاً لله تعالى، وذلك رغبة في التقرب إليه ﷻ، وأملاً في ثواب الآخرة، ومن هذه الأبنية ما خصص لتوفير المياه كل يوم، وعلى مدار العام كله للإنسان والحيوان؛ كالسقايات والأسبلة وأحواض السبيل، ومنها ما خصص لتعليم الأيتام والفقراء وغيرهم؛ كمكاتب السبيل (الكتّاب)، ومنها ما خصص لإقامة الغرباء والفقراء؛ كخانات السبيل، ومنها ما خصص لطحن الغلال؛ كطاحون السبيل، وغير ذلك.

هذا، ولم ترتبط هذه اللفظة بتلك الأبنية فحسب، وإنما ارتبطت ـ أيضًا ـ بالعديد من أوجه الأنشطة الخيرية الأخرى، ومن بينها ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ المصاحف المسبلة، والتوابيت المسبلة، والسواقي المسبلة، والترب والمدافن المسبلة، وغير ذلك مما ورد في وثائق الوقف، والمصادر التاريخية المختلفة[2].

---

(١) الحداد، محمد حمزة، **الطراز المصري لعمائر القاهرة الدينية خلال العصر العثماني**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٩٠م)، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) الحداد، **عمائر القاهرة الخيرية في العصر العثماني ضمن أعمال ندوة أندريه ريمون**، القاهرة (ابريل ٢٠٠٥م)، قيد النشر.

ونضيف على ما تقدم، فنذكر: أن لفظة السبيل عرف بها الماء - أيضًا -، فقيل له: «الماء المسبل؛ أي: المجعول في سبيل الله[1]»، كذلك هناك المال المسبل - أي: الموقوف في سبيل الله تعالى -، وغير ذلك[2].

ومما له دلالته في هذا الصدد: أن هـذه الأبنية التي وقفت وخصصت لتوفير المياه العذبة لينتفع بها في سقي الناس كل يوم، وعلى مدار العام كله، تعد الأبنية الخيرية الوحيدة التي ظل لفظ السبيل ملتصقًا بها حتى طغى على ما عداه من مصطلحات أخرى، ولا سيما خلال العصر المملوكي، ويؤكد ذلك الفاسي بقوله: «بمكة وحرمها عدة سقايات، وتسمى - أيضًا -: السبل بسين مهملة وباء موحدة مضمومتين - جمع سبيل، وشهرتها عند الناس بالسبل أكثر، وهي كثيرة، إلا أن بعضها صار لا يعرف لخرابه، وبعضها معروف مع الخراب[3]».

ونضيف على ذلك، فنذكر: أن هذه اللفظة لا تزال عالقة في أذهان الناس، خاصتهم وعامتهم إلى اليوم، ويرجع ذلك - بطبيعة الحال - إلى استمرار هذا النوع من الأنشطة الاجتماعية في القيام بوظيفته الخيرية خير قيام،

---

(١) مبارك، علي باشا، (ت١٣١١هـ-١٨٩٣م)، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ج٦، القاهرة، ط٢، (١٩٨٧م)، ص١٦٦.

(٢) ابن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل، (ت١٧٥هـ-٧٩١م)، **كتاب العين**، ج٧، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بيروت (١٩٨٨م)، ص٢٦٣.

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن علي، (ت٨٣٢هـ-١٤٢٨م)، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت (١٩٨٥م)، ص٥٣٨-٥٣٩.

وهو الأمر الذي كان من نتيجتـه ابتكار أشكال وأنمـاط من هذه الأسبلة بما يتناسب مع التقنيات الحديثة والمعاصرة، وهو ما نشاهده في الأقطار العربية المختلفة؛ مثل: مصر والسعودية والكويت والإمارات، وغيرها.

أما ما عداها من الأبنية أو المنشآت الخيرية الأخرى، التي سبقت الإشارة إليها، فلم يعد الناس ـ بمن فيهم بعض المتخصصين ـ يذكرونها سوى باسمها المجرد المرتبط بوظيفتها فحسب، لا بدلالتها الخيرية التي كانت تعرف بها حتى أوائل القرن ١٤هـ ـ ٢٠م؛ مثل: المكتب، أو الكتَّاب بـدلاً من مكتب السبيل، أو كتَّاب السبيل، والطاحونـة بـدلاً من طاحونـة السبيل، وحوض الدواب، أو حوض سقي الدواب بدلاً من حوض السبيل، والخان بدلاً من خان السبيل، وغير ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن هـذه العمائر أو المنشآت الخيرية قد نهضت بدور بارز جليل الشأن في خدمة المجتمعات الإسلامية المختلفة خلال العصور المتعاقبة، وحتى أوائل القرن ١٤هـ ـ ٢٠م.

غير أن ما يعنينا من هـذه العمائـر الخيريـة في هـذا المقام، هو أسبلة الماء، وهي التي كانت تعرف بالسقايات خـلال القرون الخمسة الأولى بعد الهجرة، ثم انتشرت واشتهرت باسم الأسبلة منـذ أواخر القرن ٥هـ ـ ١١م، ولا سيما في الشام ومصر والجزيرة العربية، وفي إيران باسم: سقاخانة، وفي الأناضول (آسيا الصغرى) باسم: چـشمة؛ أمـا أقطار الغرب الإسلامي، فقد ساد وانتشر فيها مصطلح: السقاية، وصار علمًا ـ أي: ذلك المصطلح ـ على ذلك النوع من الأبنية أو المنشآت الخيرية هناك.

ولـم يقتصر الأمـر على ذلك، بل ظهرت بضعـة مترادفـات أخـرى، ولا سيما في الجزيرة العربية والشام ومصر، ومنها: المحسنة، والمعروف، والأول منها انتشر في اليمن خاصة[1]، بينما عرف المصطلح الآخر في الشام والحجاز ومصر، وبرغم أن هذه المترادفات تؤكد الدلالة الخيرية، وتتطابق معها في ذات الوقت، إلا أنها لم تلق من الـذيوع والانتشار ما لقيه مصطلح السبيل في هذه الأقطار العربية الإسلامية الثلاثة، ومن ثم اقتصر ورود هذين المصطلحين وغيرهمـا على المصادر التاريخيـة، فضلاً عـن بعض النقوش الإنشائية التي لا تزال باقية حتى الآن[2].

وكانت أسبلة المـاء ـ وهي التي كانت تعرف بالسقايات خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة ـ قد انتشرت في أقطار العالم الإسلامي انتشارًا كبيرًا؛ كما يستدل من خلال ما ورد في المصادر التاريخية فضلاً عن مشاهدات الجغرافيين والرحالة، والأدلة الآثارية الباقية في العديد من المدن الإسلامية حتى الآن.

فها هو الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ ـ ٨١٩م) يذكر: أنه «كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة»[3].

---

(١) انظر: على سبيل المثال: الحجري، الحاج محمد بن أحمد، **مساجد صنعاء عامرها وموفيها**، بيروت، ط٢، (١٩٧٧م)، ص٣٠ ـ ٣١.

(٢) ومن أهمها: النقش الإنشائي للسبيل الملحق بخانقاه وقبة السلطان الأشرف قانصوه الغوري على رأس شارع الغورية عنـد تقاطعـه مع شارع الأزهـر بالقاهرة (٩٠٩ ـ ٩١٠هـ ـ ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م).

(٣) الشافعي، أبو عبدالله محمد بن إدريس، **كتاب الأم**، ج٣، طبعة بولاق، (١٩٠٣م)، ص٢٧٩.

ويضيف المؤرخ الفاكهي فيقول: «وبمكة في فجاجها وشعابها من باب المسجد إلى منى ونواحيها ومسجد التنعيم نحو مئة سقاية، منها: لأبي أحمد الموفق بالله ثلاث سقايات في ظهر جبل العيرة، ومنها: سقايتان لابن أبي الشوارب، ومنها: سقاية للحارث بن عيسى أبي غانم، ومنها: لأبي سهل محمد بن أحمد سقايتان، ومنها: سقاية للسلطان عند مسجد الشجرة، وأخرى عند مسجد عائشة رضي الله عنها بالتنعيم، وسائر ذلك للغرباء ولغيرهم من أهل مكة»[1].

وعن سقايات صنعاء يذكر ابن رسته: «وبقرب كل مسجد من مساجدهم - إلا القليل منها - سقاية فيها ماء السبيل، ومغتسل، ومتوضَّأ، كلٌّ مصهرج، وفيه طاق كبير قد عقد من حجارة بقرب الجزارين...»[2].

وعن القدس يذكر المقدسي: «وقلّ دار ليس بها صهريج أو أكثر، وقل حارة إلا وفيها جب مسبل»[3].

---

(١) الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق، من علماء ق٣هـ - ٩م، **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، ج٣، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة (١٩٨٧م)، ص٩٧؛ ولمزيد من التفاصيل انظر: كتابنا الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (وهو الجزء الرابع من سلسلة العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية)، القاهرة (٢٠٠٤م)، (صفحة فضلا عن الأشكال واللوحات).

(٢) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، **الأعلاق النفيسة**، بيروت (١٩٨٨م)، ص١٠٧؛ ومما له دلالته: أن هذه السقايات قد اشتهرت في اليمن باسم المحسنة. الحجري، **مساجد صنعاء**، ص٦، ٣٠.

(٣) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٦٧.

وعن القيروان يـذكر البكري: «وخـارج القيروان خمسة عشر ماجـلاً للماء سقايات لأهلها، منهـا من بنيان هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ ـ ٧٢٣ ـ ٧٤٢م)، وغيرها، وأعظمها شأناً ما جلُ إبراهيمَ الأغلبي. . .»[١].

وعن سبتة يذكر الأنصاري السبتي: «وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية. . .»[٢].

وعن دمشق يـذكر ابن عساكر: أن بها «إحـدى وعشرين سقايـة داخل السور، وسبعًا في أرباض دمشق خارج السور»[٣].

وعن بغداد يذكر الرحالـة التركي أوليا چلبي: أن بها مئة سبيل، ومئتى چشمة، ولم يتبق منها سوى ٤٣، ترجع كلها إلى العصر العثماني[٤].

وعن سمرقند يذكر الجغرافيون والرحالـة ما نصه: «وقلّما رأيت خاناً أو طرفَ سكة أو محلة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبَّل، وقد أخبرني من يرجـع إلى خبره: أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارجي زيادة على ألفي مكان يسقى فيها ماء الجمد

---

(١) البكري، **المغرب**، ص٢٦.

(٢) الأنصاري السبتي، محمد بن القاسم، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط (١٩٩٦م)، ص٣٩ ـ ٤٠.

(٣) عاشور، **بعض أضواء جديدة**، ص٢٢٥.

(٤) عن: رؤوف، عماد عبـد السلام، **تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد**، بغداد (١٩٧٩م)، ص٧٩؛ وعن الأسبلة البغداديـة، انظر: رؤوف، **معالم بغداد في القرون المتأخرة**، بغداد (٢٠٠٠م)، ص٢٦٧ ـ ٢٧٣.

مسبلاً، ما بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة، وقلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية»[1].

أما في مصر، فقد انتشرت هذه الأسبلة انتشارًا كبيرًا، ولا سيما خلال العصرين المملوكي والعثماني، وعهد أسرة محمد علي، وهو ما يستدل عليه من المصادر التاريخية المختلفة، ووثائق الوقف الكثيرة التي ترجع إلى هذه العصور، فضلاً عن الأدلة المادية الآثارية التي لا تزال باقية بمدينة القاهرة حتى الآن، فضلاً عن بعض المدن المصرية الأخرى، ومنها: طنطا، ورشيد[2].

ولعل في هذا القدر ما يكفي للدلالة على مدى انتشار هذه الأسبلة أو السقايات في المدن الإسلامية المختلفة بدار الإسلام، وأنها لم تكن تقتصر

---

(١) الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر الحيني، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، ص١٦٣؛ ابن حوقل، أبو القاسم، **صورة الأرض**، القاهرة، ط٢، د ت، ص٣٨٦؛ متز، **الحضارة الإسلامية**، (٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(٢) نويصر، حسني محمد، **مجموعة سبل السلطان قايتباي بمدينة القاهرة**، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة القاهرة (١٩٧٠م)؛ زكي، عبد الرحمن، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة**، القاهرة (١٩٨٨م)؛ أبو طربوش، محمد هاشم، **أسبلة القرن التاسع عشر في القاهرة**، رسالة ماجستير، غير منشورة، آداب سوهاج، جامعة جنوب الوادي (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)؛ فضلاً عن دراساتنا عن أسبلة القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني في كل من ندوة الفيوم، وندوة أندريا ريمون، (٢٠٠٤م)، وموسوعتنا عن العمارة الإسلامية في مصر من الفتح العثماني إلى نهاية عصر محمد علي.

على الأقطار الحارة فحسب، كما هو شائع في العديد من الدراسات المنشورة، وإنما انتشرت في الأقطار الباردة كذلك.

وعن تسبيل الماء وتوزيعه في أسبلة القاهرة، فقد كان يتولى ذلك المزملاتي، ويعاونه عدد من السبلجية، ولا سيما خلال العصر العثماني، وكان يشترط فيمن يتولى أمر هذه الوظيفة شروطٌ خلقية وخُلقية؛ كأن يكون سالمًا من العاهات والأمراض، وأن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى والرفق؛ ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة[1].

كذلك يلاحظ ثمة مواقيت حددت لتسبيل الماء، فكانت عملية التسبيل تستمر غالبًا طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها؛ وربما استمرت في بعض المدن من بعد الغروب إلى أن تمضي حصة من الليل عندما يأوي الناس إلى مساكنهم، وتنقطع الرجل عن الطرقات، أما في شهر رمضان، فكان تسبيل الماء يستمر من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح، ثم من وقت التسبيح إلى الفجر.

هذا، وقد حظيت أسبلة الماء بالعناية الفائقة، سواء من حيث اختيار موقعها، أو من حيث عمارتها، أو من حيث حليتها وكسوتها، أو من حيث الأوقاف الكثيرة المغلة التي أوقفت عليها كي يصرف من ريعها المبرور على أوجه الصرف المختلفة لاستمرار منفعتها ودوامها.

---

(١) عاشور، **دراسات**، ص٢٩٢؛ أمين، **الأوقاف**، ص١٥١ ـ ١٥٢؛ الحسيني، **الأسبلة العثمانية**، ص٣٠٣ ـ ٣٠٧، ٣٥٤؛ أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٤٤١ ـ ٤٤٢.

وكان يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على الناس موظف خاص يعرف بالمزملاتي، وقد اشتُرطت فيه ـ كما ورد في كثير من الوثائق المملوكية ـ شروط خلقية وخُلقية؛ كأن يكون سالمًا من العاهات والأمراض، وأن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى والرفق، ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين، كما كان يتعهد الرخام والدهاليز في السبيل بالكنس والمسح وتبخير الأواني، وعليه أن يفتح السبيل في المواعيد المقررة؛ حيث كان السبيل يجب أن يظل مفتوحًا طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها، وأحياناً من بعد الغروب إلى أن تمضي حصة من الليل، عندما يأوي الناس إلى مساكنهم، وتنقطع الرجل عن الطرقات، أما في شهر رمضان، فكان تسبيل الماء يستمر من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح، ثم من وقت التسبيح إلى الفجر.

وكانت أسبلة الماء تزود بالعديد من الأدوات؛ لتقوم بوظيفتها خير قيام، ومنها: سلب الليف أو الكتان والإسفنج والبخور والمكانس، والأدلية الجلد والبكر، وآنية الشرب والكيزان والأباريق، والقُلل الفخار والطشوت والأسطال النحاس، وغير ذلك مما ورد في وثائق الوقف المختلفة[1].

وارتبطت أسبلة الماء بالبيئة التي تقام فيها، فمنها ما أقيم فوق آبار تجمع فيها مياه الأمطار، كما كان عليه الحال في الحجاز والقدس[2]، ومنها ما أقيم

---

(١) أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص١٥١ ـ ١٥٤؛ عثمان، **نظرية الوظيفية**، ص١٥١ ـ ١٥٢؛ الحسيني، محمود حامد، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة (١٥١٧ ـ ١٧٩٨م)**، القاهرة (١٩٨٨م)، ص٣٠٣ ـ ٣٠٧، ٣٥٤.

(٢) انظر: دراساتنا عن الأسبلة في الحجاز والقدس الشريف، ومنها الأسبلة في العمارة =

فوق صهاريج مبنية في تخوم الأرض تنقل إليها مياه الأنهار العذبة؛ كما كان عليه الحال في أسبلة القاهرة؛ حيث كانت تنقل إليها من نهر النيل، وفي مدن أخرى كان يسقى ماء الجمد مسبلاً؛ كما كان عليه الحال في سمرقند (جمهورية أوزبكستان بآسيا الوسطى)؛ حيث كان في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان يسقى فيها ماء الجمد مسبلاً ما بين سقاية مبنية، وحباب نحاس منصوبة، وقلال خزف مثبتة في الحيطان[1].

أما من حيث طرز الأسبلة، فلدينا منها طرز بسيطة في العمارة والزخرفة، ومنها طرز مركبة جمعت بين روعة التخطيط، والمهارة في الإبداع والتأنق الزخرفي والجمالي.

وحسبنا في هذه العجالة أن نشير إلى بضعة نماذج من هذه وتلك.

ومن ذلك: طراز الچشمة، وتوجد منه أنماط بسيطة ترجع إلى العصر السلجوقي في الأناضول (سلاجقة الروم)، وما تلاه، وأنماط متطورة تعد تحفًا معمارية وفنية ترجع إلى العصر العثماني، وبصفة خاصة في تركيا والبلقان، سواء كانت مفردة في القصور والحدائق، أو مدمجة مع السبيل ذي

= الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، القاهرة (٢٠٠٤م)، (٧٦ صفحة فضلاً عن الأشكال واللوحات)؛ **الأسبلة السليمانية الباقية بالقدس الشريف**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة ١٩٩، الحولية ٢٣، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت (١٤٢٣ ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣م)، (١٤٤ صفحة).

(١) ابن حوقل، أبو القاسم، **كتاب صورة الأرض**، القاهرة، د ت، ص٣٨٦؛ الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم، **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر الحينى، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، ص١٦٣.

الشبابيك في مبنى واحد؛ بحيث تتوسط الچشمات المبنى، بينما توضع الشبابيك في الأركان[1].

كذلك فإن بعض الچشمات الباقية في قبرص (چشمة غازي باشا في ليماسول) تعيد إلى الأذهان ما يعرف بطراز التربة المفتوحة في العمارة الإسلامية[2].

ومن نماذج هذا الطراز في المدن العربية: الأسبلة السليمانية في القدس الشريف[3].

وبالقدس نماذج فريدة للأسبلة، ومنها: السبيل المعروف بالكأس[4]، ومنها: سبيل السلطان قايتباي، وهو يعيد إلى الأذهان صورة القباب الجنائزية في أواخر عصر المماليك الچراكسة، أو كما يقال: طراز مصري غرس في أرض شامية[5].

---

(١) انظر: ص٢٥٧ من هذا الفصل.

(٢) انظر: ص٢٥٠ من هذا الفصل.

(٣) الحداد، **الأسبلة السليمانية**، المشار إليها في الحاشية ٢٤.

(٤) العسلي، كامل جميل العسلي، من **آثارنا في بيت المقدس**، عمان (١٩٨٢م)، ص٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ عبد الدايم، عبد العزيز، **بيت المقدس في العصر الأيوبي**، القاهرة (١٩٨٩م)، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٥) العسلي، من **آثارنا**، ص٢٤٨ ـ ٢٥٥؛

Kessler, C., The Fountaine of Sultan Qaytbay in the Sacred Precinct of Jerusalem, in Archaeology in the levant, England, (1978), PP. 213 _ 257.

أما أسبلة القاهـرة، فمنها: الأسبلة ذات الشـاذروانات، أو السلسبيل (لوحات ٧٤ ـ ٧٥، ٨٠)، ومنها: الأسبلة دون الشاذروانات، أو السلسبيل (لوحتا ٦٩، ٨١)، وتحتوى هذه وتلك على عدد من شبابيك التسبيل يتراوح ما بين شباك واحد وثلاثـة شبابيك، بأرضية كل منها ـ من الداخل ـ حوض المياه، كذلك عـرفت القاهـرة فـي العصر العثمانـي الأسبلة ذات الواجهة المقوسة، أو نصف الدائرية (لوحة ٨٢).

هذا وتبنى أسبلة القاهرة إما منفردة، أو مستقلة، ومن أشهرها: سبيل قايتباي بالصليبـة، أو ملحقة بغيرها من العمائر الدينية والمدنيـة والجنائزيـة الأخرى؛ مثل: المساجـد والمدارس والخـوانق والـدور والقصور والترب والقباب، وقد يبنى فوق حجرة السبيل مكتب للسبيل (كتاب) غالبًا، وأحياناً يحل محل المكتب مفردات ووحدات أخرى لا مجال للحديث عنها هنا.

وتميزت أسبلة القاهرة بحلياتها الزخرفية، سواء في الواجهات عامة، والمداخل خاصـة، أو في داخل حجـرة التسبيل مـن الأرضيات والجـدران والأسقف، ودخلـة الشاذروان، وقبلـة الشاذروان ـ وذلك في الأسبلة التـي تشتمـل على هـذا العنصر ـ والشبابيـك مـن النقـوش الكتابيـة والزخرفيـة؛ كالأشرطة الكتابية، والرنوك (الدروع والخراطيش)، (لوحة ٧٦)، والجفوت والكرندازات، والدوائر والجامات الزخرفية، والزخارف النباتية والهندسية المنفذة على كافـة المواد الحجرية والرخاميـة والخشبية، فضلاً عن الخزف (البلاطات الخزفية، أو الزليج في الغرب الإسلامي).

ولا ننسى السقايات المغربية بشخصيتها المستقلة، وطابعها المعماري والزخرفي المتميز، ومن بينها: سقاية سيدي فرج بفاس ٨٤٠هـ ـ ١٤٣٦م،

من العصر المريني، وسقاية جامع المواسين بمراكش ٩٧٠ ـ ٩٨٠هـ ـ ١٥٦٢ ـ ١٥٧٢م، وسقاية جامع باب دكالة بمراكش المعروفة حاليًا بسقاية سيدي الحسن وعلي، وسقاية الزاوية الجزولية بمراكش، وسقاية اشرب وشوف بمراكش ـ أيضًا ـ من عصر الأشراف السعديين.

وسقايتان بمدرسة الشراطين ١٠٨١هـ ـ ١٦٦٩م، من عهد الأشراف العلويين أو الفلاليين، وغير ذلك[1].

ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التي نقشت على الأسبلة: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[الإنسان: ١٨]، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٥]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٥]، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان: ٢١].

ومن بين الأشعار:

يـاوارد المـاء الـزلال الـصافي ... اشـربْ هنيئًـا صـحةً وعـوافي

ومن التراث الغنائي: عطشان يا صبايا دلوني على السبيل.

و ـ أيضًا ـ:

قـد شـكا لـي بعـضُ المحبـين ... ظمـأ المـاء قلـتُ ذا غيـر ممكـن

---

(١) الكحلاوي، **السقايات المغربية**، ص٣٣٠ ـ ٣٥٧، (أشكال ٦ ـ ١٠، لوحات ٦ ـ ٢٢)؛ وانظر: ـ أيضًا ـ إسماعيل، **تاريخ العمارة**، (٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٣)، و(٥/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩)؛ أبو رحاب، **العمائر**، ص٤٧٤ ـ ٤٧٦؛ صلاح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١٥٤ ـ ١٥٧.

كيــف تــشكو الظمــأ وتجــزع منه وبهذا السبيل أحـسنُ محـسن

أما عن طرز الأسبلة العثمانية، فنستطيع أن نحصر المعروف منها لدينا حتى الآن في ثلاثة طرز، وهي:

١ ـ طراز الجشمة.

٢ ـ طراز الأسبلة التقليدية.

٣ ـ الطراز الجامع بين الطرازين.

وفيما يلي نستعرض ما بقي من تلك الطرز، وذلك على النحو التالي:

١ ـ طراز الجشمة:

وهو من أبسط الأسبلة عامة، والعثمانية خاصة، وهو يتكون في جوهره من دخلة، أو حنية عميقة إلى حد ما، ويتوج هذه الدخلة أو تلك الحنية غالبًا عقد يختلف نوعه من جشمـة لأخرى، وفي أحيان قليلة يتوجها عقد متعدد الفصوص، أو عقد ثلاثي الفصوص (عقد مدائني)، ولا سيما في الجشمات الملحقة بالعمائر المختلفة، وتحوي أرضية هذه الدخلة أو الحنية حوضًا تصل إليه المياه من خلال الصنابير التي بصدر الدخلة أو الحنية، وقد تكون صنبورًا واحدًا أو أكثر، وفي بعض النمـاذج يحل محل الحوض فسقية صغيرة تشبه إلى حـد كبير الطشتيـة التي توجـد في الأسبلة المملوكيـة ذات السلسبيلات (الشاذروانات)، وذلك أسفل لوح السلسبيل، ومنها تصل المياه إلى الأحواض بأرضية الشباك أو الشبابيك في الأسبلة المملوكية، وقد اتخذت تلك الفساقي أشكالاً أخرى، منها: المفصصة، والمستديرة، والمربعة، والمثمنة، وغير ذلك، بل وصل الأمر إلى أن أصبحت مثل هذه الجشمات مجرد نوافير مثبتة

في واجهات العمائر المختلفة، وغير ذلك من الأشكال التي استحدثت خلال القرنين ١٢ ـ ١٣هـ ـ ١٨ ـ ١٩م، بل والربع الأول من القرن ١٤هـ ـ ٢٠م.

وقد تبنى هذه الجشمات من الحجارة المنحوتة، أو من الرخام المصقول، وبرغم صغر حجمها، وبساطة تكوينها، إلا أنها ـ مع ذلك ـ صارت مجالاً للإبداع المعماري والفني، فحفلت بالنقوش الكتابية والزخرفية المتنوعة التي تعد الغاية في الروعة والجمال والفخامة. ويكفي للدلالة على مدى انتشار هذه الجشمات: أنه كان يوجد منها في مدينة إستانبول وحدها حتى وقت قريب نحو ٨٠٠ جشمة، ولكن أكثرها تهدم لسبب أو لآخر، وبعضها نقل إلى مكان آخر، ومن ناحية أخرى: فإن سجل الأراضي (الطابو) في عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ ـ ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) يشير إلى أنه كان يوجد نحو ١٠٣٩٠ سبيلاً تقوم بوظيفتها على خير وجه[١].

ومن بين النماذج الباقية في مدن أوروبا العثمانية حسبنا أن نشير إلى كل من: جشمة قره مصطفى باشا، وجشمة كلبهارخاتون، وجشمة حسين باشا، وجشمة سنان أغا في أدرنه[٢]، ومنها جشمة نشر Pasic صورة لها في كتابه دون أن يحدد اسمها، أو المدينة التي توجد فيها[٣].

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الجشمة الأخيرة، وجشمات أدرنة السابقة

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣٥، الحسيني، محمود، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة**، مكتبة مدبولي، (١٩٨٨م)، ص٢٩١.

(٢) Onge, Y., Fiskiyeli Turk Cesmeleri, Vakiflar, Dergisi, XX II, Ankara, (1991), Resimlar, 15.

(٣) Pasic, Islamic Architecture, P. 86.

إنما تتبع النمط التقليدي الموروث عن الجشمات السلجوقية في الأناضول، والذي استمر في العديد من مدن الأناضول في العصر العثماني[1].

وفي إستانبول بقيت نماذج عديـدة تقليدية ومتطورة، ومنها: جشمـة داود باشا ٨٩٠هـ ـ ١٤٨٥م، وهي أقـدم النماذج الباقيـة، وجشمة إسماعيل أغا ١١٤٤هـ ـ ١٧٣١م، وجشمة Keman Kas ١١٤٥هـ ـ ١٧٣٢م، وجشمة بركـة زادة ١١٤٥هـ ـ ١٧٣٢م، وجشمـة حسيـن باشـا ١١٥٤هـ ـ ١١٦٨م، وغير ذلك[2].

وفي قبرص بقيت بعض النماذج، ومنها في ليماسول: جشمة تقليدية بسيطة مؤرخة بعام ١٠١٣هـ ـ ١٦٠٤م، وهي ملحقـة بواجهة أحد المباني، إلا أنها تعرضت لبعض معالم التغيير (لوحة ١٠٧)، وتوجد في نفس المدينة جشمة أخرى غير مؤرخـة حتى الآن، إلا أن طرازها المتميز يـدل على أنها مـن النمـاذج المتـأخـرة أواخـر ق١٣هـ ـ ١٩م، وهي جشمـة غـازي باشـا المستقلة[3]، والتي تعيد إلى أذهاننا ـ منذ الوهلة الأولى ـ طراز التربة المفتوحة، ولكن على نطاق أصغر.

وفي قندية (هيراكليون) بجزيرة كريت جشمة تقليدية ـ أيضًا ـ من القرن

---

(١) Turkmen, K. , Talas Ta Turk devri yapilari, vakiflar dergisi, XXvi, Ankara, (1997), s. 161 _ 164, 181, Resimlar 43 _ 52.

(٢) Barista, O, Istanbul cesmeleri, Ankara, (1991), s. 3 _ 85.

(٣) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 68.

ونضيف نموذجًا تقليـديًا آخـر في نيقوسيا بشمـال قبرص، وهو ملحـق بكـوجك مدرسة، (١١٩٢هـ ـ ١٧٧٨م) (S.٦٠).

١١هـ-١٧م، ولكنها تعرضت للتغيير؛ بحيث لم يتبق منها سوى عقدها المدبب[١]، أما داخلها، فقد تحول إلى حجرة، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، وإنما أقيم مبنى آخر ربما جشمة على يسار الواقف أمام عقد الجشمة الأصلية، ولكن وفق نمط آخر عبارة عن جدار تلتصق بواجهته أربعة أعمدة، وبصدر هذا الجدار من أسفل صنابير تصل منها المياه إلى الأحواض الثلاثة فيما بين تلك الأعمدة، وهو نمط يذكرنا ببعض أحواض السبيل (أحواض سقي الدواب) المملوكية، ولكن مع الاختلاف في بعض المفردات والتفاصيل؛ مثل: حوض قايتباي بمجمعه بقرافة صحراء المماليك شرق القاهرة.

وقام الباحث من قبل بدراسة تحليلية لذلك النمط على ضوء ما تبقى من نماذجه في الأقطار العربية والإسلامية، وقد ثبت أن أقدم أنموذج باق منه هو ما يوجد على جانبي مدخل مجمع صاحب عطا في قونية ٦٥٦هـ-١٢٥٨م، وعليها اسم مهندسها كولوك بن عبدالله، ومن ثم فلا حاجة لنا إلى تكرار القول حول هذا الموضوع، واستعراض النماذج التالية[٢].

٢ ـ طراز الأسبلة التقليدية:

يتكون هذا الطراز في جوهره من مساحة مستطيلة أو مربعة، تختلف من سبيل لآخر حسب المساحة المخصصة للبناء، وفيما إذا كان مستقلاً، أو ملحقًا بغيره من العمائر، ويطل السبيل غالبًا على الشارع من خلال واجهة

---

(١) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 227.

(٢) الحداد، **الأسبلة السليمانية الباقية بالقدس الشريف**، ضمن أعمال ندوة «فلسطين عبر عصور التاريخ» مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، في الفترة (٤ ـ ٦ نوفمبر ١٩٩٥م).

مقوسة أو نصف دائرية تشتمل على شبابيك التسبيل التي يتراوح عددها في هذا الطراز من ثلاثة إلى خمسة شبابيك، وأحياناً يتوج هذه الشبابيك عقود مستقيمة (أعتاب)، ولكنها غالبًا ما توضع في دخلات تتوج بعقود يختلف نوعها من سبيل لآخر، وترتكز هذه العقود على أعمدة مدمجة، ويغطي حجرةَ السبيل غالبًا قبة يختلف طرازها من سبيل لآخر، كما يوجد رفرف أعلى واجهة السبيل غالبًا ما ينتهي بنهاية الواجهة، ولكنه أحياناً، ولا سيما في الأسبلة الملحقة، يمتد إلى الجانبين متصلاً بما يتوج واجهة المبنى الملحق به، ولهذا الرفرف ـ أيضًا ـ أشكال مختلفة، ولاسيما عندما ركبت الناس حمى التفرنج، وارتموا في أحضان الباروكية.

وقد حظيت هذه الأسبلة بالعناية الفائقة، سواء من حيث عمارتها، أو من حيث نقوشها الكتابية والزخرفية، وخير ما يؤكد ذلك: تلك الرسوم المحفورة، والصور الفوتوغرافية النادرة من القرن ١٣هـ ـ ١٩م[١]، فضلاً عن النماذج الباقية، كذلك كانت توقف على تلك الأسبلة الأوقاف الكثيرة المغلة حتى تقوم بوظيفتها المنوطة بها خير قيام، فضلاً عن صيانتها، وغير ذلك من أوجه الصرف المختلفة.

وترجع أقدم النماذج الباقية إلى النصف الثاني من القرن ١٠هـ ـ ١٦م، وتتمثل في السبيل الذي ألحقه قوجه معمار سنان بتربته في إستانبول[٢] قبل

(١) Goodwin, A history, Pls, 377. 384. 442.

(٢) آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٣٧، الحسيني، **الأسبلة**، ص٢٩٢.

Goodwin, Ahistory, Pl. 313., levey, M., the world of ottoman Art, thames and Hudson, London, (1976), P. 94. Pl. 58.

٩٩٦هـ-١٥٨٨م، وهو ذو خمسة شبابيك مربعة؛ أي: تعلوها عقود مستقيمة، أو أعتاب، ويتوج واجهته رفرف مائل لأسفل، وقبته ذات تضليعات منفصلة.

ومن الأمثلة التالية مباشرة: سبيل الصدر الأعظم قوجه سنان باشا[١] الملحق بمجمعه (كليته) في منطقة جارحي قابي بالقرب من حي بايزيد في الجزء الأوروبي من إستانبول ١٠٠٢هـ-١٥٩٣م، ويعد أول أنموذج باق لظهور البائكة الثلاثية التي تحدد هيئة الشبابيك، وتتكون هذه البائكة من عقود مدببة ترتكز على أعمدة مدمجة، أما فتحات الشبابيك نفسها، فمربعة أيضًا - أي: تعلوها عقود مستقيمة أو أعتاب.

ومن الأمثلة التالية: كل من: سبيل مراد باشا ١٠١٥هـ-١٦٠٦م، وسبيل غضنفر أغا ١٠٢٢هـ-١٦١٣م، وسبيل بيرم باشا ١٠٤٥هـ-١٦٣٥م، وسبيل السلطان إبراهيم في مقابر أيا صوفيا ١٠٥٨هـ-١٦٤٨م، وسبيل قره مصطفى باشا ١٠٩٦هـ-١٦٨٤م بإستانبول، وغير ذلك[٢].

على أن أبدع وأروع الأسبلة العثمانية المعروفة إنما ترجع إلى عصر اللاله (١١١٥-١١٤٣هـ-١٧٠٣-١٧٣٠م) وما تلاه، وتمثل تلك الأسبلة قِطعًا فنية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فقد شحنت بشتى أنواع النقوش الزخرفية والكتابية، كما أن غالبيتها تعكس الاستجابة الكاملة لطراز الباروك، ومن بين نماذجها حسبنا أن نشير إلى كل من: السبيل الملحق بمجمع إبراهيم باشا ١١٣٣هـ-١٧٢٠م، والسبيل الملحق بمجمع لاله لي

(١) عبد الحافظ، نماذج من منشآت، ص٢٦٣، (شكل ١٠).

(٢) Goodwin, A history, Pls, 347, 377.

١١٧٣ ـ ١١٧٧هـ ـ ١٧٥٩ ـ ١٧٦٣م، ويتوج فتحات الشبابيك عقود ثلاثية (مدائنيـة)، ومثله فـي ذلك: سبيل حاجي محمـد أمين أغـا، وسبيل زينب سلطان، وغير ذلك.

أما سبيل نقشديل سلطان ١٢٢٤هـ ـ ١٨٠٩م، فيعـد من أسبلة الطراز الإمبراطوري الذي أخـذ يشق طريقه في عهد السلطان محمود الثانـي ـ كما سبق القول ـ، وهو سبيل صغير ذو ثلاثـة شبابيك، تفصل فيمـا بينها أعمدة مدمجة لا تتوجها عقود، وإنما تعلوها مباشرة رقبة قصيرة للغاية تقوم فوقها قبة السبيل[١].

أما في أوروبا العثمانية خارج تركيا، فإنه على الرغم من كثرة ما أنشئ فيها من أسبلة إبان العصر العثماني ـ كمـا سبق القول ـ عند دراستنا لمظاهر النشاط العمرانـي ـ إلا أن ما بقي منها يعـد قليلاً، ومنها: سبيل أحمد باشا في قندية بجزيرة كريت[٢] ١١٨٢هـ ـ ١٧٦٨م، ويعـد هو الآخر قطعة، وفيه بعض التجديد والابتكار، ومن ذلك: فتحات الشبابيك على هيئة عقود نصف دائرية ممتدة، ويفصل بينها دعامات صغيرة مدمجـة لا تتوجها عقود، وإنما تنتهي تيجانها عند الكورنيش البارز أعلى الشبابيك، كذلك يوجد عمود مدمج أسفل كل دعامة، ويفصل فيما بينهما فقط الداير الرخامي الذي يتقدم الشبابيك، كما يتميز هذا السبيل بطراز قبتـه، وهيئة الرفرف الـذي يتوج واجهتـه؛ مما

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣٨، الحسيني، **الأسبلة العثمانية**، ص٢٩٤.
Goodwin, A history, Pls, 393. 409. 442. 455., levey, the world, P. 121. pls, 79 _ 81.

(٢) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 225.

يجعلنا نعتبره تطورًا محليًا لذلك الطراز العثماني.

٣ ـ الطراز الجامع بين الطرازين:

ويعد طرازًا مبتكرًا؛ حيث جمع المعمار بين طراز السبيل التقليدي، وبين طراز السبيل الجمشة في مبنى واحد، ولم يحدث ذلك إلا في عصر اللاله المشار إليه، ومن أمثلته، بل ومن أروع وأبدع النماذج الباقية كافة: سبيل وجمشة السلطان أحمد الثالث في الميدان الواقع أمام باب همايون بطوب قابي سراي بإستانبول[1] ١١٤١هـ ـ ١٧٢٨م (لوحة ١٩٥)، وهو عبارة عن مساحة مربعة وضعت في أركانها أربعة أسبلة ذات واجهة مقوسة أو نصف دائرية، بواقع سبيل في كل ركن، فتحت به ثلاثة شبابيك، ويتوج كل سبيل قبة صغيرة تظهر رقبتها القصيرة وخوذتها المضلعة وكأنها خارجة من الرفرف الخشبي الذي يتوج واجهات السبيل، ومثلها في ذلك القبة الكبيرة التي تتوسط قباب الأسبلة الأربعة، مع أن الرفرف هو الذي أحاط تلك القباب الخمس إحاطة السوار بالمعصم، ولذلك اكتسبت القباب ذلك الشكل المميز، واكتسب الرفرف كذلك شكله على هيئة هرم ناقص، وعلى ذلك أصبح لدينا أربعة أسبلة في الأركان مزودة بـ ١٢ شباكًا، ويتوسط كل ضلع من الأضلاع الأربعة فيما بين الأسبلة أربع جشمات، بواقع جشمة بكل ضلع، عبارة عن دخلات معقودة بعقود مدببة، شغلها من أسفل أربعة صنابير،

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٤٨٠، ٣٦١.

آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣٧، الحسيني، **الأسبلة**، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

Goodwin, A history, P. 374, Pls. 394_395, levey, the world, P. 119, I. 76.

بواقع صنبور بكل جشمة، ويوجد أسفل كل صنبور حوض رخامي أبيض. ويكتنف هذه الجشمات من جانبيها ثمان حنايا محرابية مقرنصة طواقيها بواقع حنيتان على جانبي كل جشمة.

وعلى ذلك، فإنه بفضل هذا الابتكار صار لدينا أربعة أسبلة ذوات ١٢ شباكًا وأربع جشمات في مبنى واحد، وهو ما لم يحدث من قبل.

أما عن الزخارف، فتعد هي الأخرى مثالاً راقيًا للفن والإبداع، وتستوي في ذلك النقوش الزخرفية والكتابية على السواء، وهي تجمع أساليب مختلفة ما بين الحفر والتذهيب والتلبيس، والصب والتكسية الخزفية، وقد نفذت تلك النقوش وفق طراز الباروك الممزوج بالطراز المحلي.

ومن الأسبلة التالية التي صممت وفق ذلك الطراز الجديد: كل من: سبيل وجشمة السلطان محمد الرابع في باب العزب (Azapkapi) ١١٤٤هـ ـ ١٧٣١م، وسبيل وجشمة قوجة يوسف باشا ١٢٠٢هـ ـ ١٧٨٧م، وسبيل وجشمة مهرشاه سلطان ١٢١١هـ ـ ١٧٩٦م، وسبيل وجشمة إبراهيم باشا، وغير ذلك[١].

وهكذا كانت أسبلة الماء من بين العمائر أو المنشآت التي قامت بدور بارز في تحقيق الرعاية الاجتماعية في الحضارة الإسلامية: ذلك الدور الذي يعبر عن روح الإسلام، وقيمه ومثله، والتي لولا نظام الوقف، ما نجحت في تحقيق ذلك الدور، واستمرار المنفعة ودوامها، وهو الأمر الذي نتمنى أن يعود وينتشر من جديد بعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبتوفيقه.

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣٨، الريحاوي، **العمارة**، ص٤٨٠.

ثانيًا ـ مكاتب السبيل:

تعد من أبرز منشآت الرعاية الاجتماعية في الحضارة الإسلامية، وقد انتشرت في الأقطار الإسلامية انتشارًا كبيرًا، وقد عرفت بمكاتب الصبيان، أو مكاتب الأيتام، أو الكتاتيب، أو مكاتب السبيل، أما في الغرب الإسلامي، فقد عرفت باسم: المسيد، أو المحاضر (ومفردها محضرة) فها هو ابن جبير يصف ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبى بقوله: «ومن مأثره ـ أي: صلاح الدين ـ الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة: أنه أمر بعمارة محاضر (مكاتب، أو كتاتيب) ألزمها معلمين لكتاب الله ﷻ يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم»[١].

وقام ابن جبير بزيارة مدينة دمشق، وشاهد فيها مكتبًا للأيتام وصفه بقوله: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، لها وقف كبير يأخذ منها المعلم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم، وهذا ـ أيضًا ـ من أغرب ما يُحدَّث به من مفاخر هذه البلاد...»[٢].

ويذكر صاحب «الفتاش»: أنه كانت بمدينة تمبكت «مدارس معلم الصبيان الذين يقرؤون القرآن مئة وخمسين أو ثمانين مكتبًا»، ولكن السعدي يعبر عنها في كتابه «تاريخ السودان» باسم: محضر، وكان التلميذ يعرف باسم: المحضري[٣].

---

(١) رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، القاهرة (١٩٩٢م)، ص٤٩.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٣٤٢.

(٣) التنبكتي، القاضي محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، نشرة هوداس ودلافوس مدينة أنجي ـ فرنسا (١٩١٣م)، ص١٨٠ ـ ١٨١؛ =

ومن أمثلة مكاتب السبيل بالقاهرة: المكتب الذي أمر بإنشائه السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بجانب مدرسته بين القصرين (المدرسة الظاهرية العتيقة)، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم، والكسوة في فصلي الشتاء والصيف[1]، ولا تزال بقايا هذا المكتب قائمة، بل وتعد الجزء الوحيد الباقي من المدرسة الظاهرية ـ كما سنشير فيما بعد ـ.

ومنها: مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون.

ومنها: مكتب السبيل الذي أنشأه الأمير صرغتمش بدهليز مدرسته بشارع الخطيري بالصليبية[2].

وكانت بعض هذه المكاتب تخصص لتعليم الإناث، ومنها: المكتب أعلى سبيل حسن أغا كوكليان بشارع سوق السلاح بالقاهرة المعد لتعليم الإناث[3].

ولم يقف الأمر عند حد توفير الطعام والكساء والمعلوم الشهري للأيتام

= السعدي، عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران، **تاريخ السودان**، نشره هوداس، أنجي، فرنسا (١٩٦٤م)، ص٥٨؛ وانظر: بحثنا عن **تاريخ الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربى**، مجلة الدارة، العدد (٢)، السنة ١٩، (محرم ـ ربيع الأول ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)، ص٢٤٨، ٢٥٨.

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٩٠؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، ق٢، القاهرة، ط٢، (١٩٥٧م)، ص٥٠٤.

(٢) بيبرس المنصوري، **التحفة المملوكية**، ص١١١؛ الحداد، محمد حمزة، **السلطان المنصور قلاوون**، ص٥٤ ـ ٥٥؛ أمين، **الأوقاف**، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) حجة وقف حسن أغا كوكليان الشهير ببليفيا، (أوقاف رقم ٢٢٤٣).

فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى توفير أدوات الكتابة نفسها؛ من أقلام ومداد وأوراق، وغير ذلك.

وكان يقوم بتعليم الأيتام معلم يطلق عليه عادة: المؤدب، أو الفقيه، وكان يُشترط فيه شروطٌ خلقيـة واجتماعية، منها: أن يكون خَيـِّرًا دَيـِّنًا، ذا عقل وعفة، متزوجًا أمينًا على أطفـال المسلمين، صحيح العقيـدة، حافظًا لكتاب الله العزيز، وكان يساعد المؤدبَ: العريفُ، وتشترط فيه نفس الشروط التي يجب توافرها في المؤدب.

وكان هـؤلاء الأطفال يتعلمون في المكـاتب القرآن الكريم، والخـط العربي والهجا والاستخراج والآداب.

كذلك كان على المؤدب أن يعامل هؤلاء الأطفال بالإحسان والتلطف والاستعطاف فيما يرغبهم به في الاشتغال، ومن أتى منهم بما لا يليق، أَدَّبه بفعل ما أباحه له الشرع الشريف ولا يضرب الضرب المبرح، وغير ذلك مما ورد في وثائق الوقف المختلفة[1].

أما عن أمثلة مكاتب السبيل الباقيـة في العمارة الإسلامية، فحسبنا أن نتحدث في هذه العجالـة عن مكاتب السبيل الباقيـة بمدينة القاهرة، ويرجع

---

(١) عاشـور، **دراسات**، ص٢٨٣؛ أمين، **الأوقـاف**، ص٢٦٣ ـ ٢٧٥؛ ولمزيـد من التفاصيل انظر: صبرة، آدم، **الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك**، ترجمة قاسم عبـده قاسم، القاهرة، (٢٠٠٣م)، ص١٣٦ ـ ١٤٢؛ الحجي، حياة ناصر، **صور مـن الحضارة العربيـة الإسلاميـة فـي سلطنـة المماليك**، الكـويت (١٩٩٢م)، ص١٨٧ ـ ١٩٠؛ عبد العاطي، عبد الغني محمود، **التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك**، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٢م)، ص٩١ ـ ١١٢.

ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلى أن القاهرة ماتزال تحتفظ بعدد كبير من هذه المكاتب الآثارية، يرجع أقدمها إلى عصر المماليك البحرية (عصر الظاهر بيبرس البندقداري ٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ ـ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م)، وأحدثها إلى القرن ١٣هـ ـ ١٩م، وهو الأمر الذي ييسر دراسة عمارة تلك المكاتب وعناصرها ومفرداتها، فضلاً عن نقوشها الكتابية والزخرفية.

وإذا كانت غالبية مكاتب السبيل الباقية ملحقة بغيرها من العمائر الدينية والمدنية، وتعلو الأسبلة وأحواض السبيل (أحواض سقي الدواب) إلا أن بعضها الآخر قد بني ملحقًا أيضًا بالعمائر، ولا علاقة له بالسبيل، أو حوض السبيل، ومن أمثلة ذلك: مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بجانب مدرسته بشارع المعز لدين الله (النحاسين، أو بين القصرين) ٦٦٠ ـ ٦٦٢هـ ـ ١٢٦١ ـ ١٢٦٣م، وهو يعد الجزء الوحيد الباقي من المدرسة الظاهرية ـ كما سبق القول ـ، وهو الجزء الذي يرى البعض خطأ أنه سبيل، دون تقديم أدلة تاريخية أو آثارية مقدمة[١].

والمثال الثاني لهذا النوع من مكاتب السبيل: هو الذي أنشأه الأمير صرغتمش بدهليز مدرسته بشارع الصليبة (الخضيري) بالقاهرة ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م (شكل ١٣١).

ومن أمثلة العصر العثماني: مكتب السبيل الذي أنشأه سليمان باشا بمسجده بالقلعة ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨م (شكل ١٥٤)، وقد حددت الوثيقة موضعه

---

(١) نويصر، دراسة لأجزاء هامة من بقايا مدرسة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بالقاهرة، مجلة كلية الآثار، العدد (٤)، مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٠م)، ص١٠ - ١٣، (أشكال ١ ـ ٢٧).

بالفسحة الثانية من الجهة الشرقية، ووصفته على النحو التالي: «... وبصدر الفسحة المذكورة إيوان به أكتاف يعلوها قناطر معقودة، عليها قبة مبني ذلك بالحجر الفص النحيت، بها ثمان شبابيك نحاسًا، اثنان منها على يمنة الصاعد إليه، مطلان على الجنينة... واثنان منها على يسرة الصاعد مطلان على الطريق المتوصل منها لبيوت الانكشارية وغيرها وأربعة منها تجاه الصاعد إليه، مطلة على مكتب الأيتام المذكور فيما بينها باب المكتب المذكور عليه زوجا باب... بصدره محراب تعلوه قمريات زجاجًا ملونًا، به ثمان شبابيك، أربعة منها مطلة على الجنينة... وأربعة مطلة على الطريق... يعلوه عقودات على قناطر، يعلوها قبتان، مبني كل من ذلك بالحجر الفص النحيت، مفروش جميع ذلك بالبلاط الكدان، كامل ذلك بالمنافع والحقوق»[1].

وتعكس عمارة هذا المكتب التأثيرات العثمانية التي تسربت إلى مصر عقب الحكم العثماني لها عام ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م.

ومن عصر محمد علي لدينا: مكتب السبيل الذي أنشأه سليمان أغا السلحدار بجوار سبيله الملحق بمسجده (بشارع المعز لدين الله على رأس حارة برجوان بالقاهرة) ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م.

أما عن مكاتب السبيل التي بنيت فوق الأسبلة، أو أحواض السبيل، فكثيرة، ومن بينها: مكتب سبيل أم السلطان شعبان، ويعلو حوض السبيل الملحق بمدرستها بشارع التبانة بالقاهرة ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٨م، وكل من مكتبي السبيل بخانقاه الناصر فرج بقرافة صحراء المماليك بالقاهرة، ومكتب السبيل

(١) EL_Masry, Die Bautenvon Hadimsulaiman Pascha, pp. 235_236.

بمدرسة السلطان قايتباي، ويعلو السبيل الملحق بالمدرسة (٨٧٧ ـ ٨٧٩هـ ـ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤م) بقرافة صحراء المماليك بالقاهرة، ومكتب السبيل الذي يعلو سبيل السلطان قايتباي المستقل ٨٨٤هـ ـ ١٤٧٩م بشارع الصليبة بالقاهرة، ومكتب سبيل السلطان الغوري، ويعلو السبيل الملحق بقبة وخانقاه السلطان الغوري بالغورية ٩٠٩ ـ ٩١٠هـ ـ ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م، والمكتب الذي يعلو سبيل خسرو باشا (بشارع المعز لدين الله) ٩٤٢هـ ـ ١٥٣٥م، ومكاتب سبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا، وخاصة ما يعلو السبيل المستقل المعروف بسبيل بين القصرين، أو سبيل المفارق الثلاثة ١١٥٧هـ ـ ١٧٤٤م، وما يعلو السبيل الملحق بمسجد الشيخ مطهر ١١٥٨هـ ـ ١٧٤٥م، وما يعلو سبيله (لوحات ٦٩، ٧٤ ـ ٧٥، ٨٠ ـ ٨١، أشكال ١٣٩، ١٤٨ ـ ١٤٩، ١٥٢ ـ ١٥٣، ١٨٠).

كذلك فقد بنيت مكاتب السبيل أعلى الأسبلة التي صممت وفق الطراز العثماني في مصر، وهي الأسبلة التي تتميز بواجهتها المقوسة، أو نصف الدائرية، والتي بدأت تظهر في مدينة القاهرة منذ النصف الثاني من القرن ١٢هـ ـ ١٨م، وتحديدًا عام ١١٦٤هـ ـ ١٧٥٠م، ومنها: مكتب السبيل الذي يعلو السبيل الملحق بمدرسة السلطان محمود بالحبانية (شارع بورسعيد، أو الخليج المصري سابقًا) ١١٦٤هـ ـ ١٧٥٠م (شكل ١٥٨)، وسبيل رقية دودو ١١٧٤هـ ـ ١٧٦١م بشارع سوق السلاح بالقاهرة (لوحة ٨٢)، وغير ذلك.

وفي هذا النوع من مكاتب السبيل الذي يعلو الأسبلة أو أحواض السبيل يأخذ المكتب نفس تخطيط المبنى الموجود أسفله، ومن ثم يأتي تخطيط حجرة المكتب على هيئة مستطيلة غالبًا، أو مربعة وشبه مربعة أحياناً، وتطل على الشارع من خلال بائكة إذا كان المبنى الأسفل ذا واجهة واحدة، أو

بائكتين إذا كان ذا واجهتين (لوحة ٦٩)، أو ثلاث بائكات إذا كان ذا ثلاث واجهات (لوحات ٧٤ ـ ٧٥، ٨٠)، وهذه البائكات ذات عقود متنوعة، أغلبها العقد المخموس (العقد المدبب القمة الحدوي الأرجل) ترتكز على أعمدة في الوسط، وعلى الجدارين في الجانبين، ويغشى الجزء السفلي من هذه البائكات درابزين من خشب الخرط غالبًا؛ ليحمي الأطفال من السقوط، كذلك يعلو الكتاب رفرف خشبي مائل غالبًا؛ أي: منحدر لأسفل لحجب الشمس (لوحة ٨٠)، وأحياناً يكون الرفرف منفرجًا لأعلى، كذلك تحتوي بعض المكاتب على رفرفين، أحدهما يتوج الواجهة الرئيسية للمكتب، والثاني محمول على بائكة من أعمدة خشبية تتقدم البائكة الكبرى، وأقل منها في الارتفاع؛ كما هو الحال في مكتبي السبيل للأمير عبد الرحمن كتخدا (بين القصرين (لوحة ٨١) ومسجد الشيخ مطهر)، ثم في مكتب السبيل الذي يعلو سبيل نفيسة البيضا الملحق بوكالتها (بشارع المعز تجاه جامع المؤيد شيخ داخل باب زويلة المعروف ببوابة المتولي بالقاهرة) ١٢١١هـ ـ ١٧٩٦م.

أما مكاتب السبيل التي تعلو أسبلة الطراز العثماني، فقد اتخذت هي الأخرى نفس هيئة الأسبلة أسفلها؛ أي: أصبحت واجهة هذه المكاتب مقوسة، أو نصف دائرية[1]. (لوحة ٨٢).

ثالثًا ـ المطاعم الخيرية (عمارت):

لا يختلف تخطيط هذه المطاعم الخيرية (عمارت) عن طراز المسجد الإيواني على هيئة حرف T (The Reverse T) الذي سبقت الإشارة إليه،

(١) الحسيني، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، ص٨٥ ـ ٨٧.

وليس أدل على ذلك من أن بعض تلك المطاعم قد أصبحت مساجد، ولذلك حسبنا أن نشير هنا إلى بعض نماذجها الباقية في أوروبا العثمانية، ومنها: عمارت غازي أورنوس في كوموتيني (كومولجينه) في اليونان حوالي ٧٧٧ - ٧٨٢هـ - ١٣٧٥ - ١٣٨٠م، وعمارت ميخال أوغلو محمد بك في إهتمان (Ihtiman) ببلغاريا ٧٩٣ - ٧٩٨هـ - ١٣٩٠ - ١٣٩٥م، وعمارت إسحاق باشا المعروفة بألاجا عمارت في سالونيك (سلانيك) باليونان ٨٩٢ - ٨٩٣هـ - ١٤٨٦ - ١٤٨٧م، وقد أصبحت هذه الأخيرة مسجدًا مثلها في ذلك مثل عمارت شهاب الدين باشا في فيلبة (بلوفديف) ببلغاريا ٨٤٨هـ - ١٤٤٤م، وعمارت إسحاق بك المعروفة بألاجا عمارت في أسكوب ٨٤٢هـ - ١٤٣٨م، وقد أصبحت مسجدًا عام ٩٢٥هـ - ١٥١٩م[1].

ومن النماذج التي صممت وفق ذلك الطراز، عدا المساجد التي سبق ذكرها، حسبنا أن نشير إلى كل من: عمارت نيلوفرخاتون في أزنيق، وتعرف - أيضًا - بزاوية نيلوفرخاتون ٧٨٩هـ - ١٣٨٧م، وعمارت يعقوب جلبي في

---

(١) Kiel, observations, PP. 426 - 429. , the oldest Monuments of ottoman - Turkish Architecture in the Balkans, sanat Tarihi Yilligi, XII, Istanbul, (1983), PP. 127 - 133. , Early ottoman Monuments in the Balkans, P. 77. , Notes on the history, PP. 138 - 140. , Bakirtzis, C.H. et Xydas, P. Un Monument ottoman A komotine Thrace Grecque, A ctes du Ier congres international , Zaghouan, (1997), PP. 17 - 21. , Ayverdi, Yugoslavya, s. 154 - 155. , Avrupa, I V, s. 353, 367.

أزنيق قبل ٧٩٢هـ ـ ١٣٨٩م[١] (شكلا ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

ويعتقد كيل: أن عمارت أورنوس في كوموتيني (لوحات ١١٥ ـ ١١٩) من أهم العمائر العثمانية في القرن ٨هـ ـ ١٤م، بل إنها تتفوق على تلك العمائر كلها، وتبزها جميعًا؛ لقيمتها المعمارية البالغة حدَّ الروعة لكل من يتصدى لدراسة العمارة العثمانية المبكرة، ولذلك فهي يجب أن تستحق منا قدرًا أفضل[٢].

ومن الملاحظ: أن الإيوان البارز في كل من عمارت أورنوس، وعمارت ميخال أوغلو يغطيه قبو برميلي، وليس قبة؛ كما هو الحال في العديد من نماذج ذلك الطراز من المساجد والمطاعم الخيرية على السواء، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها، أما الحجرتان الجانبيتان، فيغطي كل حجرة منهما قبة، كذلك يتقدم المطعم رواق خارجي (سقيفة) تعلوه خمسة أقبية برميلية في عمارت أورنوس؛ كما رجح كيل، بينما تعلوه قبة في الوسط، وأربعة أقبية متقاطعة على جانبيها في عمارت ميخال أوغلو.

أما عن مصطلح ألاجا الذي وصفت به بعض المطاعم والمساجد، فترجع أصول تلك التسمية إلى أن المآذن التي أقيمت بجانبها تكون مشحونة بالزخارف ذات الألوان المتعددة، وأحياناً ما تكون على هيئة مربعات الشطرنج، وأمثلة تلك المآذن الباقية في العمارة العثمانية تعد قليلة، بل ونادرة،

---

(١) O Tuken, Y. , Turkiye, de Vakif A bideler ve eski Eserler, IV, Ankara, (1985), s .239 - 244, 253 - 255.

(٢) .Kiel, observations, PP. 428 - 429

ومنها نموذج واحـد في اليونان، وهو مسجـد جلبي سنان بك في (Verria) ٨٩٦هـ ـ ١٤٩٠م، وكل من مئذنتي مسجـد قاضي عسكر، ومسجـد حاجي زادة في إستانبول، ويضيف كيل: أن هذه الطريقة انتشرت بكثرة في تركستان، وشمال فارس، ومنها انتقلت إلى أنحاء عديدة[١].

وكل ما يمكن أن نضيفه في هـذا المقام: أن الألاجا Alaca هي أيضًا نوع من القمـاش المنسوج من الحرير والقطن معًا، وقـد ظهر لأول مرة في العصر العثماني، وكانت زخارفـه غالبًا على هيئة أشرطة رفيعة (مقلم) ذات ألوان متعددة تجري على طول القماش، ومن المرجح: أن زخارف المآذن المتعددة الألوان كانت على نفس تلك الهيئة، ومن هنا اشتهرت بتلك التسمية، وليس هذا بغريب في العمارة الإسلاميـة عامة، فالكثير من العمائر اشتهرت ببعض عناصرهـا ومفرداتها وكسواتها، بل ومواد بنائها، ومنها ـ على سبيل المثال ـ: الجامع الأزرق بقلعـة القاهرة، وجامـع أوج شرفلي الـذي اشتهر بتلك التسمية نسبة إلى إحدى مآذنه ذات الشرافات الثلاث، وليس أدل على تلك التسمية من أن الجامع كاد يعرف بها أكثر مما يعرف باسم السلطان الذي أمر بإنشاء تلك التحفـة المعماريـة التي كـان لها دور كبير في تطور العمـارة العثمانية ـ كما سبق القول ـ.

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن عصرًا بأكمله قد نُسب إلى زهرة وهي زهرة اللالة (Tulip) التي تعـد أشهر الزهور في الفن العثماني عامـة، بل قيل: إن أسماءها قد بلغت نحوًا من ٥٥٠ اسمًا، فقيل لعصر السلطان أحمد

---

(١) Kiel, Notes on the history, P. 140.

الثالث (١١١٥ ـ ١١٤٣هـ ـ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م): عصر اللالة (Lale devri)[1].

رابعًا ـ الحَمَّامات العامة:

قامت الحمامات العامة بدور بارز جليل الشأن في الحياة الاجتماعية في الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء، ويمكن أن نُجمل أهمية الحمامات في العصور الوسطى في النقاط التالية:

١ ـ لم تكن الحمامات مجرد مكان أو منشأة لنظافة البدن وطهارته، مع ما لذلك من معانٍ ودلالات اجتماعية.

٢ ـ كان دخول المريض الحمام إيذاناً بشفائه، أو دليلاً على برئه.

٣ ـ كانت زفة العروس لا بد أن تخرج من الحمام، وهو ما يعد احتفالاً عائليًا لا ينسى للعروسين والأهل والأحباب، فضلاً عن حفلات الختان للأطفال.

٤ ـ كان الحمام موضعًا لعلاج الكثير من الأمراض؛ كالبرص والجذام والروماتيزم.

٥ ـ كانت الحمامات بمثابة الأندية الاجتماعية الحالية؛ حيث تحرص غالبية النساء على الذهاب إليها بمفردها، أو مع صويحباتها، فيتناقلن أخبار الحي والناس، ويقصصن على بعضهن كثيرًا من أخبارهن وحياتهن المنزلية، وإلى الحمام كانت تتجه المرأة بأفخر ثيابها وأنفس حليها؛ لتلبسها بعد الاستحمام؛ حتى يراها غيرها، فتقع المفاخرة والمباهاة، فضلاً عن أن النساء

---

(١) مرزوق، محمد عبد العزيز، **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، (١٩٨٧م)، ص٥٣ ـ ٥٤.

كن يحرصن على أن يأخذن الشعر الزائد في الوجه والجسد بالتحفيف، وشعر الحاجب بالمساواة والزينة على يد البلانة، والنساء في هذا المقام أشد تهالكًا من الرجال ـ على حد قول ابن الأخوة ـ. والحمامات في هذه الحالة كانت أشبه بمعاهد التجميل، والنوادي الصحية الحالية[1].

٦ ـ كانت الحمامات موضعًا ملائمًا ومكاناً مناسبًا بعيدًا عن أعين الرقباء لوضع الخطط، وتدبير المؤامرات والاغتيالات، وفي المصادر التاريخية إشارات كثيرة حول هذا الموضوع في المشرق والمغرب على السواء، وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة (بمشيئة الله تعالى).

هذا، وقد انتشرت الحمامات في الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء، فابن جبير يذكر عن حمامات بغداد ما نصه: «وأما حماماتها، فلا تحصى عدة، ذكر لنا أحد أشياخ البلد: أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار، مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة؛ لكثرة القار عندهم؛ لأن شأنه عجيب يُجلب من عين بين البصرة والكوفة، وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب وقد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء، لا إله سواه»[2].

---

(١) عاشور، **دراسات**، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ عبد الرازق، **المرأة**، ص١٤٣ ـ ١٤٤؛ أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١٦١ ـ ١٦٩.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٢٨٣؛ وعن حمامات بغداد في العصر العباسي وما قيل فيها من أقوال ومبالغات، انظر: الصابي، هلال (ت٤٤٨هـ ـ ١٠٥٦م)، رسوم =

وكـان يوجـد في حلب ـ على ضوء مـا أورده ابن شـداد ـ في أواخـر ق٧هـ ـ ١٣م ٧١ حمامًا في باطن المدينة، و٢٩ حمامًا بظاهرها، و٣ حمامات بالباروقيـة (محلة الأنصاري اليوم)، و٦ حمامات خارج باب أنطاكيـة، و٣ حمامات بالحلبة (محلة الفيض سيف الدولة اليوم)، و٢٢ حمامًا بالبساتين، و١٠ حمامات بالرمادة، وبذلك يصل عدد حمامات حلب إلى ١٤٤ حمامًا، فضلاً عن ٣٥ حمامًا بالـدور، ولم يتبق منهـا في زمن محمـد راغب الطباخ سوى ٤١ حمامًا، والحمامـات الأثريـة الباقيـة في حلب حـاليًا لا تتجـاوز أصابع اليدين[١].

ويذكر ابن جبير عن دمشق: «وبهذه البلدة ـ أيضًا ـ قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها»[٢].

أما ابن عساكر، فقـد أشار إلى أن حمامات دمشق في عهده تبلغ نحو سبعة وخمسين حمامًا.

ومن الثابت: أن حمامات الشام ـ بوجه عام ـ قد استرعت أنظار الفرنج ودهشتهم وإعجابهم بها في عصر الحـروب الصليبية، فتـردد بعضهم عليها

= **دار الخلافـة**، بغداد (١٩٦٤م)، ص١٩ ـ ٢١؛ عواد، ميخائيل، **صور مشرقة من حضارة بغـداد في العصر العباسي**، بغداد، ط٢، (١٩٨٦م)، ص١٠٥ ـ ١٠٩؛ ناجي، عبـد الجبار، البهادلي، حسين داخل، **بغـداد في كتابات الرحالة العرب والأجـانب**، بغداد (٢٠٠٣م)، ص١٨١ ـ ١٨٢؛ وعن الحمامـات البغداديـة في القرون الأخيرة. انظر: رؤوف، معالم بغداد، ص٢٦٠ ـ ٢٦٦.

(١) طلس، محمد أسعد، **الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب**، دمشق (١٩٥٦م)، ص٢٦٥ ـ ٢٨٧؛ الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص١٩٢ ـ ١٩٣، ٢٣٤.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٣٦٥.

للاستحمام، على نحو ما ورد في كتاب «الاعتبار» لأسامة ابن منقذ، وعن طريق الفرنج في بلاد الشام انتقلت هذه الظاهرة إلى الغرب الأوروبي[١].

وفي قرطبة بلغ عدد الحمامات العامة في عهد عبد الرحمن الناصر ثلاث مئة حمام، ثم زاد زيادة كبيرة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر، فبلغ سبع مئة حمام في قول، وتسع مئة حمام في قول آخر، و٣٩١١ حمامًا في قول ثالث، وأيا ما كان الرقم الصحيح، فإن هذه الأرقام تعبر عن كثرة الحمامات العامة، وتسابُقِ الناس على بنائها في قرطبة[٢].

وفي فاس بلغت الحمامت مئة حمام، وصفها ليون الإفريقي بأنها «جيدة البنيان، ولا تنقصها العناية، وبعضها صغير، والآخر كبير، ولجميعها نفس الطراز؛ أي: تتألف كل منها من ثلاث حجرات، أو بالأحرى ثلاث قاعات...»[٣].

أما مصر، فقد انتشرت فيها ـ هي الأخرى ـ الحمامات بدرجة كبيرة، فالفسطاط كان يوجد بها ألف ومئة وسبعون حمامًا، وكان من بينها حمام جنادة في القرافة الذي ما كان «يتوصل إليه إلا بعد عناء من الزحام، وإن

---

(١) عاشور، **دراسات**، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥؛ ابن منقذ، أسامة، **الاعتبار**، القاهرة (٢٠٠٢م)، ص١٣٥ ـ ١٣.

(٢) العناني، كمال، **حمامات الأندلس**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للحضارة الأندلسية، القاهرة (١٩٩٨م)، ص٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٣) ليون الأفريقي، **أفريقيا**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، ص٢٣٤ ـ ٢٣٦؛ وعن الحمامات المرينية انظر: إسماعيل، **تاريخ العمارة**، (٤/ ٢٥٤ ـ ٢٦٢)، صلاح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١٥٨.

قبالـة الحمام في كل يوم جمعة خمس مئـة درهـم التي تساوي اثنين وأربعين دينارًا إلا ثلثًا؛ لأن الدينار كان صرفه ـ يوم ذاك ـ اثني عشر درهمًا»[١].

وليس أدل على عظمة الحمامات المصرية في العصر الأيوبي من وصف الرحالة والطبيب العراقي عبـد اللطيف البغـدادي بقولـه: «وأما حماماتهم، فلم أشاهـد في البـلاد أتقن منها وصفًا، ولا أتم حكمـة، ولا أحسن منظرًا ومخبرًا... جاماته مختلفة الألوان، صافية الأصباغ؛ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منـه؛ لأنـه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخـذ دارًا لجلوسه، وتناهى في ذلك، لم تكن أحسن منه»[٢].

وهناك عدد من العاملين في الحمام، من بينهم: الحمامي، والوقّاد، والقيم، والسقـاء، والزبال، والناطور، والمزين، وحسبنا أن نشير في هـذا المقام إلـى الشروط التي يجب أن تتوافـر في المزين، فمنها أن يكون خفيفًا رشيقًا بصيرًا بصنعته، وأن يكـون حديده (الأمواس) رطبًا قاطعًا، ولا يأكل ما يغير نكهتـه؛ كالبصل والثوم والكـرات في يوم نوبتـه؛ لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الحلاقة، وأن لا يحلق شعر صبي إلا بإذن وليه؛ وأن لا يحلق عذار أمردَ، ولا لحيةَ مخنث[٣].

---

(١) المقريزي، **الخطط**، (١/ ٣٣٠)؛ ابن تغري بردي، **النجـوم الزاهرة**، (١/ ٤٣ ـ ٤٤)، الحداد، محمد حمزة، **قرافة القاهرة**، ص٥٧.

(٢) البغـدادي، عبـد اللطيف، **الإفـادة والاعتبار في الأمـور المشاهـدة والحـوادث المعاينة بأرض مصر**، تحقيق: بول غليونجي، **أعلام العرب**، القاهرة (١٩٨٥م)، ص١١٨ ـ ١١٩.

(٣) الشيزري، **نهاية الرتبة**، ص٨٨؛ ابن الأخـوة، **معالم القربة**، ص١٥٦؛ عاشـور، =

أما عن أمثلة الحمامات العامة الباقيـة في العمارة الإسلامية، فكثيرة، ومنها في مصر: حمامات القاهرة، ومن أقدمها: الحمام الفاطمي بجوار أبي السعود الذي يتميز بتصاويره الجدارية المنفذة بالفرسكو، وهناك من يرجعه إلى العصر الطولوني[1].

ومنها: حمـام الفاضل المعروف بحمام السكرية (العصر الفاطمي)، وحمام خانقاه سعيـد السعداء بشارع الجماليـة، وحمام الدود بشارع محمد علي (العصر الأيوبي)، وحمام قلاوون (حمام البياطرة) بالنحاسين، وحمام بشتاك بشارع سوق السلاح، وحمام الخطيري ببولاق، وحمام الصليبة (العصر المملوكي البحري)، وحمـام المؤيـد شيخ، وحمـام السلطان إينال (بشارع المعز بجوار دار الحديث الكاملية)، وحمام الملاطيلي (بشارع أمير الجيوش الجواني) (العصر المملوكي الجركسي)، وحمـام السنانيـة ببولاق، وحمام الطنبلي (بباب الشعريـة)، وحمام القربيـة (بشارع القربية)، وحمـام السدرة (ببولاق)، وحمام الـدرب الجديد (بالسيدة زينب)، وحمام البارودية (باب الخلق) (العصر العثماني).

كذلك بقيت عدة حمامـات مصرية في مدن الوجهين القبلي والبحري

= **دراسات**، ص٢٩٦؛ أبو الفتوح، **منشآت**، ص١٨٣ ـ ١٨٥.

(١) عبد الرازق، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ص٢٠٤ ـ ٢٠٧؛ العمري والطايش، العمـارة في مصر الإسلاميـة، ص١٧٧ ـ ١٩٩؛ أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٢١٩ ـ ٢٢٣؛

Ibrahim., L.A., Atulunid Hammam in old Cairo, Kunest der orients, (1979), pp. 1 _ 24.

(الصعيد والدلتا)، ومنها: حمام المتولي أو الطريني بالمحلة الكبرى، وحمام إبراهيم سراج بسمنود، وحمام عزوز برشيد، وحمام علي بك بجرجا، وغير ذلك[1].

وفي سوريا تقابلنا حمامات عديدة في دمشق وحلب، ومن بينها: حمام نور الدين، وحمام العفيف، وحمام سامي، وحمام أسامة، وحمام الزين، وحمام السلسلة، وحمام القناطر، وحمام الناصري، وحمام التوريزي، وحمام الورد، وحمام الملك، وحمام البكري، وحمام القاشاني (سوق تجاري)، وحمام القرماني، وحمام الرفاعي، وغيرها بدمشق[2]، وكل من حمام يلبغا

---

(١) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٢٢٥ ـ ٢٩٨؛ حسن، سعاد محمد، **الحمامات في مصر الإسلامية**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٨٣م)، ص١٧١ ـ ٢٢٢، ٢٣٢ ـ ٢٦٨.

(٢) المنجد، صلاح الدين، **حمامات دمشق ضمن كتاب به عن خطط دمشق**، نصوص ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافي وآثارها القديمة، بيروت (١٩٤٩م)؛ كيال، منير، **الحمامات الدمشقية**، ط٢، دمشق (١٩٨٦م)؛ جميل، محمد مروان، **الحمامات الدمشقية شواهد حية على العمارة الإسلامية الجميلة**، مجلة تراث، العدد (٣٥)، نادي تراث الإمارات، (أكتوبر ٢٠٠١م)؛ الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية**، ص١٢٤، ١٦٨، ١٧١ ـ ١٧٣، ٢٣٠؛ الحداد، **بحوث ودراسات**، الكتاب الأول، ص١٢٩ ـ ١٣٣؛ ومن أحدث الدراسات: رسالة الدكتوراه للباحث/ عادل محمد زيادة تحت عنوان: **الحمامات الباقية بمدينة دمشق خلال العصرين المملوكي والعثماني**، كلية الآثار، جامعة القاهرة (٢٠٠٨م)، ص٨٤ ـ ٢٠٤.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن المصدر الرئيسي لدراسة الحمامات الدمشقية كان ولا يزال =

الناصري (لوحتا ٤٨٥ ـ ٤٨٦) المعروف بحمام اللبابيدية، وحمام الذهبي، وحمام البياضة، وحمام سوق الغزل، وحمام النحاسين، وحمام بهرام باشا المعروف بحمام برهم، أو حمام الجديدة، وحمام البساتنة، وحماما محمد باشا، وحمام أزدمر الجركسي المعروف بحمام الصالحية، أو حمام الزمر[١].

وفي المغرب الأقصى تقابلنا الحمامات المرينية، ومنها: حمامات وجدة حوالي ٦٩٦هـ ـ ١٢٩٦م، وحمام العباد الصغير ٧٣٩هـ ـ ١٣٣٨م، وحمام العلو بالرباط المعروف بالحمام الجديد ٧٥٥هـ ـ ١٣٥٥م، وحمام أبي الحسن المريني بشالة حوالي ٧٦٠هـ ـ ١٣٥٨م، وغير ذلك[٢].

كذلك بقيت بعض الحمامات الإسلامية في الأندلس، ومن أشهرها: حمام الجوز بغرناطة، ويعرف الآن باسم: الحمام الصغير Bano de Banuelo، أو حمام نوجال Bani del . Vogal، وقد أقام هذا الحمام باديس الصنهاجي

= منذ ظهوره عام (١٩٤٣م) هو كتاب:

Ecochard (M.). , et Lecoeur (G.), Les Bains de Damas, Manographies Arcitecurales, Beyrouth (1943).

(١) الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص١٩١ ـ ١٩٣، ٢٣٤؛ طلس، **الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب**، ص٢٨٣ ـ ٢٨٧.

(٢) إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، (٤/ ٢٥٤ ـ ٢٦٠)، (أشكال ١٣٢ ـ ١٤١)؛ صلاح، **منشآت الرعاية الاجتماعية المرينية الباقية بالعدوتين الرباط وسلا**، ص١٥٨ ـ ١٦٦؛ الحمام المريني بمدينة رباط الفتح في المملكة المغربية، مجلة حوليات التراث بجامعة مستغانم، العدد (٨)، الجزائر (٢٠٠٥م)، ص١ ـ ١٣، (لوحات ١ ـ ٤٠).

من أوقاف المساجـد، ويقع هذا الحمام بالقرب من نهر حدره، ويرجع إلى القرن ٥هـ ـ ١١م (لوحتا ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

ومن الحمامات الأندلسيـة ـ أيضًا ـ حمامـا جيان الأول، يقع في حي مجدلينا، والآخـر يعـرف بحمـام البرتقال، ويقع في الحي المعـروف الآن برحبة العيون، وغير ذلك[1].

وقد عرفت الحمامـات الإسلامية نوعين من التخطيط غالبًا، وهمـا: التخطيط المركـزي، والتخـطيط المستطيل المتتالـي، وفي التخطيط الأول تدور جميع عناصر الحمام حول عنصر مركزي، وفي التخطيط الثاني تتتابع عناصر الحمام في ترتيب متتالٍ؛ أي: على محور عرضي واحد[2].

والحمامات قـد تكون مفردة، أو مزدوجة، كما كانت هناك حمامات للأبكـار (أي: للشباب من الجنسيين قبل الزواج)، وقـد عرفت الحجـرات الرئيسية الثلاثة في الحمامات بعدة مصطلحات، منها: المسلخ، والمشلح، والمخلع، والقاعـة الباردة، والبراني بالنسبة للحجرة الأولى، وبيت أول أو الوسطاني، والبيت الدافىء والمدفأة الأولى بالنسبة للحجرة الثانية، أو الحجرة الوسطى، وبيت الحرارة والمدفأة الثانية والحارة، والمستحم أو المحم والعراقة

---

(١) عناني، كمال، **حمامات الأندلس**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للحضارة الأندلسية، القاهرة (١٩٩٨م)، ص٦٨٤ ـ ٧٠٦؛ ولا تفوتنا الإشارة إلى أن المصدر الرئيسي لدراسة الحمامات الأندلسية هو كتاب باسيليون بابون مالدونادو الذي قام بترجمته د. علي منوفي، وقمت بمراجعة الترجمة والتقديم له تحت عنوان: **«العمارة الأندلسية، عمارة المياه»** القاهرة (٢٠٠٨م)، ص٣٢٥ ـ ٣٨٩.

(٢) حسن، **الحمامات**، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

والجواني والداخل، وبيت النار أو حمام السخن بالنسبة للحجرة الثالثة.

كذلك اختلف التعبير عن المنافع والمرافق المختلفة؛ كالمستوقد، والنحاسة، والموقد، والمرجل، والحلة، والفرناق، والخزانة، والدبكونية، والأقميم، والأخميم، أو القميم أو الأميم (القدس). وتعرف غرفة المدخل أو المعبر في القدس بالقفص وغير ذلك من المصطلحات التي قمنا بحصرها من مظانها المتعددة ودراستها ضمن كتابنا الجامع للمصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية.

وبرغم اتفاق الحمامات الباقية في الأقطار العربية في تخطيطها العام، وأهم عناصرها ومفرداتها، إلا أنها قد عولجت في كل قطر منها بطريقة محلية خاصة؛ مما أضفى عليها طابعًا معماريًا وفنيًا متميزًا، وبصفة خاصة في العناصر والمفردات المعمارية، والنقوش الزخرفية والكتابية.

وأقدم الحمامات الباقية في العمارة الإسلامية ليست حمامات عامة، وإنما تندرج تحت الحمامات الخاصة الملحقة بالقصور، ومنها: حمام قصيرٌ عمرُه بالأردن (٩٢ ـ ٩٦هـ ـ ٧١٠ ـ ٧١٤م) (شكل ٨٦) (العصر الأموي)، وحمام قصر الأخيضر حوالي ١٦١هـ ـ ٧٧٧م (العصر العباسي الأول) (شكل ٤١).

ومن الحمامات العامة السورية حسبنا أن نشير إلى حمام الملك، وحمام السنانية بدمشق (شكلا ٨٧ ـ ٨٨)، وحمام يلبغا الناصري المعروف بحمام اللبابيدية بحلب (لوحتا ٤٨٥ ـ ٤٨٦).

ومن الحمامات القاهرية حسبنا أن نشير إلى حمام بشتاك، وحمام

الملاطيلي، وحمام السنانية ببولاق، وحمام الطنبلي بباب الشعرية بالقاهرة (أشكال ١٨٣ ـ ١٨٦).

ومن الحمامات الأندلسية حسبنا أن نشير إلى: حمام الجوز بغرناطة ق٥هـ ـ ١١م (لوحات ١١٤، ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

ومن الحمامات الإيرانية حسبنا أن نشير إلى: حمام حاجي سيد حسين في قاشان (شكل ٣٦٣)، وهو ملحق ببازار، وهو من الحمامات المتميزة، ويصل بينه وبين البازار ممر (شكل ٣٦٣/ B) يتوصل منه إلى الحجرة الرئيسية في الحمام (C)، ومنها يتوصل إلى الحجرة الساخنة (بيت الحرارة أو الجواني) (D) من جهة، وإلى حجرة البركة الصيفية (E) من جهة ثانية.

أما في العصر العثماني، فقد أقيمت العديد من الحمامات المفردة والمزدوجة، إلا أنه لم يتبق منها سوى القليل، بل إن هذا القليل قد تعرض بعضه للإهمال تارة، والتخريب المتعمد تارة أخرى، ويكفي أن نشير إلى أن حمام غازي خسرو بك الشهير في سراييفو قد تحول منذ فترة قريبة إلى مطعم ومقهى.

وبرغم ذلك، فإن ما بقي يمكن من خلاله أن نتعرف على عمارة الحمامات وطرزها، ومفرداتها وعناصرها المعمارية، ونقوشها الكتابية والزخرفية.

ويمكن القول: إن الحمامات قد تبنى مستقلة، سواء كانت مفردة أو مزدوجة، وقد تبنى ضمن المجمعات المعمارية (الكليات)، ونادرًا ما يخلو مجمع من تلك المجمعات من بناء حمام به، والملاحظ ـ أيضًا: ـ أن القبة

قـد قامت بـدور كبير فـي عمـارة الحمامـات إبان العصر العثمانـي، بل إن ما شاهدناه من ملامح التجديد والإضافة والابتكار في العمائر الدينية قد وجد طريقه إلى الحمامـات، لاسيمـا وأن المعالجـات المعماريـة وطرق الإنشاء لا تختلف كثيرًا.

ومن هذه الحمامات الباقية حسبنا أن نشير إلى كل من: حمام محمود باشا ٨٧١هـ ـ ١٤٦٦م، وحمـام خاصكي حرم ٩٦٤هـ ـ ١٥٥٦م، والحمـام الملحق بمجمع السليمانية الشهير، والحمام الملحق بمجمع قليج علي باشا في الطوبخانة، وجنيلي حمام (الحمام الخزفي)، وحمام سوكللو محمد باشا في مدينة إستانبول، وغير ذلك.

وفي أدرنه عدة حمامات، منها: حمام البيلربي، وحمام Tahta Kale، وغير ذلك[1].

وفي بورصة: حمـام رستم باشا المعروف بحمام النبع الجديد، وهو من أبدع الحمامات العثمانيـة، وقد صممه قوجه معمارسنان بطريقة جديدة مبتكرة، وبصفة خاصة الحجرة الساخنة (بيت الحرارة أو الجواني)، فقد جاءت مربعة من الخـارج، مثمنة من الـداخل، ثم عمل في أضلاع المثمن ثمانيـة إيوانات: أربعة في الأضلاع المستوية، ومثلها في الأضلاع المنحرفة، وبالنسبة لإيوانات الأضلاع المنحرفة عمل بصدر كل إيوان فتحة باب تؤدي إلى حجرة

---

(١) Aslanapa, Osmanli, PP. 187_190.

Goodwin, A history, PP. 113_114, 248_249., Ayverdi, Yuksel, Ilk 250 senenin, s. 110 _.

مثلثة، وهو الاستغلال الأمثل للفارق المساحي بين التثمين الداخلي والتربيع الخارجي، وبالنسبة للتغطية نجد أن الحجرات الركنية المثلثة قد تمت تغطيتها عن طريق عمل عقود طائرة (عقدين) في منتصف كل مثلث، ينطلق منها مربع لإقامة القبة عليه، أما المثمن، فقد غطي بقبة كبرى منطقة انتقالها مثلثات ذات وتر منحن، وبالتالي، فإن التغطية عامة هي قبة مركزية، وأربع قباب صغرى في الأركان، وعلى ذلك، فإن تصميم الحجرة الساخنة يذكرنا بتصميم قوجة معمار سنان لمدرسة رستم باشا في إستانبول التي سبقت الإشارة إليها، إلا أن المعالجة مختلفة؛ لاختلاف المساحة والغرض الذي من أجله أنشئ كل منهما (أي: المدرسة والحمام).

وفي بلغاريا: حمام الصدر الأعظم خادم علي باشا في نوفازاجورا أواخر ق٩هـ ـ ١٥م، أو أوائل ق١٠هـ ـ ١٦م، والحمام المعدني في كستنديل ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، وحمام إبراهيم باشا في هزارجراد ق١١هـ ـ ١٧م، وغير ذلك.

وفي ألبانيا: حمام كرويا ق٩هـ ـ ١٥م، وحمام ليش ق١٠هـ ـ ١٦م، وحمام السوق في الباسان ١٠٠٩هـ ـ ١٦٠٠م أو بعد ذلك بقليل[١].

وفي يوغوسلافيا السابقة: حمام داود باشا في أسكوب ٨٨٩هـ ـ ١٤٨٤م، وحمام غازي خسرو بك في سراييفو ٩٤٤هـ ـ ١٥٣٧م (شكل ٣٦٠)، وحمام سنان بك في Karnobat النصف الثاني من القرن ١٠هـ ـ ١٦م، وحمام نيش،

---

(١) Kiel, Ottoman A rchitecture, PP. 126_127, 186_187, 195_196., development, Pls. 16, 28.

وحمام بلاجاي، وحمام موستار، وغير ذلك[1].

وفي اليونان: حمام غازي أورنوس بك ٧٨٧ ـ ٧٩٨هـ ـ ١٣٨٥ ـ ١٣٩٥م، وحمام مراد الثاني ٨٤٨هـ ـ ١٤٤٤م، وحمام البك في سالونيك (سلانيك) ق٩هـ ـ ١٥م، وحمام فريدون أحمد في ديموتيقا ق١٠هـ ـ ١٦م، وغير ذلك[2].

وحمام كريت ق١١هـ ـ ١٧م.

وفي قبرص: الحمام الكبير ق١٠هـ ـ ١٦م، ويني حمام (الحمام الجديد) في ليماسول ١٣٠١هـ ـ ١٨٨٣م، وحمام سوكللو مصطفى باشا المعروف بحمام Csaszar، وحمام Kiraly، وحمام Rudas، وحمام Rac، وحمام والده سلطان في المجر[3].

ويضيق بنا المقام لو أردنا دراسة جميع تلك الحمامات، ولكن حسبنا أن نستعرض الخصائص العامة والسمات المميزة للحمامات العثمانية فحسب، سواء من حيث التخطيط ومفرداته، أو من حيث العناصر المعمارية والنقوش الزخرفية.

---

(١) Ayverdi, yugoslavya, Resimlar, 31-32, 47 48, 53, 99-101., Avrupa, I I I, s. 298 - 300. , Pasic, Islamic A rchitecture, PP. 87 - 88. , Redzic, Islamic Art, P. xv.

(٢) Kiel, Notes on the history, P. 129, Yenice vardar, PP. 320- 321, some early ottoman, pp. 652 - 653.

(٣) آصلان آبا، فنون الترك، ص٢٣١.
Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 58, 67. Gero, Turkish, PP. 31 - 39.

ويعـد حمام محمود باشا من أهـم تلك الحمـامات الباقيـة بإستانبول (شكل ٣٦١)؛ لأنـه يعد أقدمها، بل وقد صار أنموذجًا احتـذي في تصميم الحمامات التالية، وبصفة عامة، فهو يتبع ذلك الطراز الذي تبنى فيه وحدات الحمام المختلفة على محور واحد، وهو المحور العرضي، وعلى ذلك يشتمل على ثلاث وحدات متتالية على محور واحد، وهي الوحدات الثلاث الرئيسية في الحمام، وتبدأ بحجرة المسلخ (المشلح)، وتعلوها قبة ضخمة يزيد قطرها عن ١٥م[٢]، ثم الحجرة الباردة، وتتميز هذه الحجرة بأنه يغطى مربعها الأوسط قبة تتقدمها نصف قبة تغطي الإيوان البارز، ويعد ذلك خطوة مهمة في دراسة مراحل تطور القباب في العمارة العثمانية المبكرة، ثم الحجرة الساخنة (بيت الحرارة)، وهي مثمنة التخطيط، تغطيها قبة، ويخرج من هذا المثمن ذراعان متقابـلان يحتويان ست خلاوي، بواقـع ثلاث بكل جـانب، وتغطيهـا كلها قباب صغيرة، فضلاً عن المنافع والمرافق الأخرى بالحمام.

أما خاصكي حمام، فهو الآخر يتبع نفس الطراز (شكل ٣٦٢)، ولكن بمعالجة جديدة، وهو يعد من أكبر الحمامات المزدوجة؛ إذ يبلغ طوله ٧٥م؛ حيث تم وصل كل من الحجرتين الساخنتين للرجال والنساء بجدار سميك، ومفردات التخطيط واحـدة؛ حيث يشتمل كل حمام على الوحدات الثلاث الرئيسية بشكل متتابع، فالحجرة الأولى (المسلخ) مربعـة، تغطيها قبة تقوم على منطقة انتقال من الحنايا الركنية، إلا أنه يتقدم حجرة حمام الرجال رواق خارجي (سقيفة)، تعلوها ثلاث قباب صغيرة متساوية، ومن الملاحظ: أن هذا الرواق يواجه أيا صوفيا، وبدلاً من الحجرة الباردة ذات التخطيط المتميز في حمام محمود باشا يقابلنا في هذا الحمام المزدوج ممر تعلوه ثلاث قباب

صغيرة متساوية، ثم نصل إلى الحجرة الساخنة (بيت الحرارة) التي تعد أبرز شيء في الحمام، وهي الأخرى مثمنـة التخطيط، وتغطيها قبة، ويخرج من هذا المثمن أربعة أذرع على هيئة إيوانات صغيرة متعامـدة، وتوجد فيما بين تلك الإيوانات أربع خلوات على هيئة حرف T، ويغطي المربع الأوسط بكل خلوة قبة صغيرة، وتتميز أرضيـة تلك الحجرة بكسوتها الرخاميـة المتعددة الألوان وفق النظام المشهر، وقوامها الأشكال النجميـة والمتشابكة، كذلك تتميز تلك الحجرة بهيئة عقود الإيوانات والخلوات التي اتخذت العقد المعروف بعقد بورصة نمطًا لها، إلا أن عقود الخلوات الأربع صماء، أما منطقة انتقال القبة، فهي على هيئـة حطات مقرنصة ذات ذيول هابطـة تعلو عقود بورصة الأربعة الصماء، والقبة كما نشاهدها مفرغة، وهي التي يطلق عليها اصطلاحًا: قمـارى أوروشان، وآخـر ما يتميز بـه ذلك الحمـام هو: استخـدام الطوب والحجر في زخرفة جدرانه.

وقد اكتسب الحمـام الخزفي (جينيلي حمام) ـ الذي أوقفه خير الدين بربروسا باشا على أعمـال الخير والبر في زيرك ـ تلك التسمية من مجموعة البلاطات الخزفية الرائعـة التي تكسوه[1]، وهو الآخر حمام مزدوج يشتمل على حجرة المسلخ والممر والحجرة الساخنة، إلا أنها صممت بشكل رأسي، وبالتالي أصبحت وحدات الحمامَين متقابلة، بل ويكاد يلاصق بعضها البعض، وهذا هو ما لا نجده في خاصكي حمـام، باستثناء الحجـرة الساخنة؛ حيث توجد حجرة المسلخ والممر بحمام الرجال في جانب، ومثيلتها بحمام النساء

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣١، الريحاوي، **العمارة**، ص٤٧٩ ـ ٤٨٠؛ Goodwin, A history, PP. 113 _ 114, 248 _ 249.

في جانب آخر؛ أي: على طرفين متباعدين.

وقد صممت غالبيـة الحمامات المزدوجـة على نفس النمط، ومنها: حمام فريدون أحمـد في ديموتيقا ق١٠هـ - ١٦م، وحمـام غازي خسرو بك في سراييفو ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م، وحمام إبراهيم باشا في هزارجراد (رازجراد) ببلغاريا ق١١هـ - ١٧م.

وينفرد حمام فريدون أحمد بين هذه الحمامات بذلك الشكل المبتكر لتصميم الحجـرتين الساختنين المتناظرتين، كما أن القبـة التي تعلو حجـرة المسلخ تكسوها زخارف دالية[1] (زجزاجية).

ولم يقتصر ذلك النمط على الحمامات المزدوجة فحسب، بل صممت على أساسه غالبية الحمـامات المفردة، ومنها: الحمـام بمجمع السليمانيـة الشهير، وحمام نيش، وحمـام غازي أورنوس بك، وحمـام الشيخ ilahi، وحمـام كـرويا، وحمـام علي باشا في نوفازاجـورا، وحمـام سنان بك فـي Karnobat، وبرغم ذلك، فإنه يوجد بين هذه الحمامات اختلاف في المفردات والتفاصيل، والمعالجات المعمارية والزخرفية، ومن ذلك: حمام سنان بك في Karnobat، فهو من جهة يعد ذا تخطيط غير مألوف في تصميم الحجرات الساخنة، ومن جهة ثانية: فهو يحتل مكانة متميزة في تاريخ العمارة العثمانية؛ نظرًا للمستوى التقني العالي والرفيع الذي نفذت به المقرنصات بأقبية الحمام

---

(١) Kiel, Two little Known Monuments of early and classical ottoman Architecture in Greek Thrac, Balkan studies, 22, The ssaloniki, (1981), PP. 139 - 146.

وقبابه، وكذلك قباب حمام علي باشا في نوفازاجورا تقوم على منطقة انتقال من المثلثات التركيـة المتنوعة، ويجري أسفل قاعدة القبة الرئيسية حزام من المقرنصات ذات المستوى العالي الرفيع(١).

وحمام كرويا يعد أنموذجًا صادقًا للحمامات العثمانية الصغيرة، والحجرة الدافئة عبارة عن قبة في الوسط، وخلوتين مقبيتين في الجانبين، بواقع خلوة بكل جانب، ثم نصل إلى حجرتين متناظرتين، يغطي كل حجرة منهما قبة، فضلاً عن بعض المنافع والمرافق الأخرى(٢).

أما حمام بلاجاي(٣)، فيعد النموذج الوحيد الباقي في يوغسلافيا السابقة الذي صمم وفق الطراز الأول ذي الوحدات المتتالية على محور عرضي واحد؛ مثل: حمام محمود باشا، وخاصكي حمام في إستانبول، ولكن مع الفارق في المفردات والتفاصيل والمعالجات المعمارية، وهو ما يجعلنا نعتبره نمطًا محليًا.

أما حمام Tahta Kale في أدرنه، فبرغم أنه من الحمامات المزدوجة ذات الطراز الرأسي، إلا أن وحداته ليست متناظرة كما في الحمامات التي سبقت الإشارة إليها، كما أن ذلك الحمام ينفرد بالعديد من المفردات والتفاصيل والمعالجات المعمارية والزخرفية المتميزة(٤).

---

(١) Kiel, the Vakifname, PP. 26-27.

(٢) Kiel, ottoman A rchitecture, PP. 186-187.

(٣) Ayverdi, Yugoslavya, Resimlar, s. 52-53.

(٤) Ayverdi, Yuksel, ilk 250 senenin, s. 110-111.

هذا، وتوجد حمامات أخرى فوق عيون كبريتية، ولذلك تعرف باسم: الحمامات المعدنية، وتوجد نماذج منها في إستانبول، وأدرنة، وصوفيا، ونوفازاجورا، وأسكي زغرا، وسلوان، ومن أشهرها: الحمام المعدني في صوفيا الذي صمم على هيئة الحمامات العثمانية في بودابست ذات الشكل المثمن الذي تخرج منه أربع حجرات منفصلة، وأربعة إيوانات، ومنها ـ أيضًا ـ: الحمام المعدني في كستنديل ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م (وهو يعرف ـ أيضًا ـ بحمام درويش بانيا (Dervish Banja)[١]، وفيه يلاحظ تغطية حجرة المسلخ بقبو برميلي، بينما تغطي الحجرة الساخنة المثمنة قبة، وبهذه الحجرة خلوتان مقبيتان.

هذا، ولا يزال عدد من الحمامات الآثارية باقية في المدن العربية والإسلامية في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وبعضها ما يزال يعمل ويؤدي دوره في الحياة الاجتماعية، ولا سيما في الأحياء الشعبية؛ ويحرص بعض الأثرياء ـ فضلاً عن السياح الأجانب ـ على ارتيادها حتى اليوم.

خامسًا ـ البيمارستانات:

البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من مقطعين (بيمار) بمعنى: مريض وعليل أو مصاب، و(ستان) بمعنى: مكان أو دار، فهى إذًا دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال، فصارت: مارستان.

وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض والعلل؛ من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية، إلى أن أصابتها الكوارث، ودار

---

(١) Kiel, urban development, P. 158. Pl. 28.

بها الزمن، وحل بها البوار، وهجرها المرضى، فأقفرت إلا من المجانين؛ حيث لا مكان لهم سواها، ومن ثم صارت كلمة مارستان (أو مورستان) إذا سمعت، لا تنصرف إلا إلى مأوى المجانين[1]، (وهو يعرف اليوم بمستشفى الأمراض العقلية والعصبية).

وقد نهضت هذه البيمارستانات بدور بارز جليل الشأن في الحياة الاجتماعية في الحضارة الإسلامية.

وكانت البداية بسيطة متواضعة، تتناسب مع بساطة الدولة الإسلامية الناشئة في عصر الرسول ﷺ؛ إذ يذكر البخاري: «ولما أُصيب سعدُ بنُ معاذ رضي الله عنه في أَكحله في يوم الخندق، أمر رسول الله أن تُضرب له خيمة في المسجد، ليعوده من قريب».

ويضيف ابن إسحاق، فيذكر أن الذي كان يقوم على تمريضه وعلاجه امرأة اسمها رفيدة من قبيلة أَسْلَم، وكان لها خيمة في المسجد، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، ويقول: وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»[2].

---

(١) عيسى، أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، بيروت، ط٢، (١٩٨١م)، ص٤.

(٢) صحيح البخاري، (١/ ١١٩)، و(٥/ ٥١)؛ ابن هشام، **السيرة**، (٣/ ١٤٥)؛ الطبري، **تاريخ الرسل**، (٢/ ٥٨٦)؛ الكتاني، **التراتيب الإدارية**، (١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤)؛ كحالة، **أعلام النساء**، (١/ ٤٥١)، و(٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)؛ الوكيل؛ الوكيل، =

وعلى ذلك تعد هذه الخيمة أول بيمارستان في دار الإسلام، وإن لم يطلق عليه هذا الاسم في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الحضارة الإسلامية.

ويضيف أحمد عيسى، فيذكر: أن الرسول ﷺ هو أول من أمر بالبيمارستان الحربي المتنقل[1].

أما أول بيمارستان حقيقي في الحضارة الإسلامية، فهو الذي أمر بإنشائه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق عام ٨٨هـ ـ ٧٠٦م، وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين؛ لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق[2].

وانتشرت البيمارستانات في الأقطار الإسلامية المختلفة، وحسبنا أن نشير إلى بعضها، فمنها في مصر: بيمارستان المعافر بالفسطاط، وكان «في خطة المعافر التي موضعها ما بين العامر من مدينة مصر وبين مصلى خولان التي بالقرافة الذي بناه الفتح بن خاقان في أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)، وقد باد أثره»[3].

وأمر كافور الإخشيدي، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبي القاسم أنوجور

= محمد السيد، **الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه**، جده، ط٥، (١٩٨٩م)، ص٩١ ـ ٩٢؛ السامرائي، خليل إبراهيم، محمد، ثائر حامد، **المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة**، الموصل (١٩٨٤م)، ص٦٩.

(١) عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص٩ ـ ١٠.

(٢) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع، (٢/ ٦٩١).

(٣) المقريزي، **الخطط**، المجلد الرابع، (٢/ ٦٩٢).

ابن محمد الأخشيدي ببناء بيمارستان بمدينة مصر في سنة ٣٤٦هـ ـ ٩٧٨م، إلا أنه لم يبق له أثر.

أما أشهر البيمارستانات التي أقيمت بمصر في القرون الأربعة الأولى للهجرة، فهو: بيمارستان الأمير أحمد بن طولون ٢٥٩هـ ـ ٨٧٣م، إلا أنه لم يبق له أثر. وقد أنفق على هذا البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار، ولما «فرغ منه، حبس عليه دار الديوان ودوره إلى الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق، وشرط أن لا يعالج فيه جندي، ولا مملوك، وعمل فيه حمامَين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء، وحبسهما على البيمارستان وغيره، وشرط أنه إذا جيء بالعليل، تنزع ثيابه ونفقته، وتُحفظ عند أمين البيمارستان، ثم يلبس ثيابًا، ويفرش له، ويُغدى عليه ويُراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجًا ورغيفًا، أُمر بالانصراف، وأُعطي ماله وثيابه»[(١)].

هذا، وقد بلغ من عناية ابن طولون بهذا البيمارستان: أنه كان يتفقده بنفسه «في كل يوم جمعة، ويتفقد خزائن المارستان، وما فيها، والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر الأعلاء والمحبوسين من المجانين». وظل على هذا الحال حتى غافله أحد المجانين ذات مرة، ورماه برمانة عريشية ـ كان قد أمر له بها من ساعته ـ في صدره فنضحت على ثيابه، ولو تمكنت منه، لأتت على صدره، فلم يعاود البيمارستان بعد ذلك[(٢)].

---

(١) المقريزي، **الخطط**، مج٢، (١/ ٦٩١ ـ ٦٩٢).

(٢) المقريزي، **الخطط**، مج٢، (١/ ٦٩١ ـ ٦٩٢)؛ عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص٧٠؛ أمين الأوقاف، ص١٥٥ ـ ١٥٦؛ كاشف، أحمد بن طولون، ص٢٥٣.

ومما يُحسب لابن طولون ـ أيضًا ـ أنه قد عمل في مؤخر جامعه الشهير «ميضأة، وخزانة شراب (صيدلية) فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة»[1].

وعندما سقطت الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ ـ ٩٠٤م، أخذ الشعراء على عاتقهم رثاء هذه الدولة، وما تركت من جلائل الآثار، ومنهم من رثى البيمارستان بقوله:

ولا تنسَ مارستانَه واتساعَه ... وتوسعةَ الأرزاق للحَوْل والشهرِ

وما فيه من قُوَّامِهِ وكُفاتِه ... ورِفْقِهِمُ بالمُعْتَفين ذوي الفقر

فللمَيِّتِ المقبورِ حُسْنُ جهازِهِ ... وللحَيِّ رفقٌ في عِلاجٍ وفي جَبْرِ[2]

أما عن بيمارستانات بغداد، فمنها: بيمارستان للخليفة الرشيد، وآخر للبرامكة عرف باسمهم، وأنشأ الوزير علي بن عيسى بن الجراح بيمارستاناً في محلة الحربية قرب مقبرة الإمام أحمد بن حنبل، وأنفق عليه من ماله الشيء الكثير.

واشتهر البيمارستان الذي أسسه بدر غلامُ الخليفة المعتضد بالله العباسي بمحلة المخرم، ومن طريف ما يحكى عن هذا البيمارستان: أن النفقة عليه نقصت في سنة من السنين، فلما علم الوزير بذلك، كتب إلى صاحب بيت المال قائلاً: «إنه لا بد من تعديل الحال فيه، بل هو أحق بالتقدم على غيره؛

---

(١) المقريزي، **الخطط**، مج٢، (١/ ٦٩١).

(٢) الكندي، **الولاة**، ص٢٥٧؛ المقريزي، **الخطط**، مج٢، ص١٠٧.

لضعف من يلجأ إليه، وعظيم النفع به. إلى أن قال: وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد، فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم، ويعجل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى بالدثار والكسوة والفحم، ويقام لهم القوت، ويفصل لهم العلاج والخدمة، وأجبني بما يكون منك في ذلك»[1].

ومن البيمارستانات الأخرى: بيمارستان الخليفة المقتدر بالله في محلة باب الشام بالجانب الغربي من بغداد، وقد عُرف بالبيمارستان المقتدري، وكان ينفق عليه من ماله في كل شهر مئتي دينار؛ وكذلك بيمارستان والدة الخليفة المقتدر في سوق يحيى على شاطئ دجلة، وكانت تنفق عليه بسخاء، حتى بلغت النفقة ست مئة دينار في كل شهر.

وأنشأ الوزير ابنُ الفرات بيمارستاناً بدرب المفضل، وكان ينفق عليه من ماله مئتي دينار في كل شهر.

وأنشأ الأمير بجكم (ت٣٣٤هـ ـ ٩٤٥م) بيمارستاناً في عام ٣٢٩هـ ـ ٩٤١م فوق رابية جميلة على الشاطئ الغربي لدجلة كان في موضعها قصر للخليفة الرشيد من قبل، وقد جدد هذا البيمارستان عضدُ الدولة البويهي في عام ٣٦٨هـ ـ ٩٧٨م، وسمي باسمه، وافتتحه، وزوده بالأطباء والمعاجين والخُزان والبوابين والوكلاء والناطورين وغيرهم، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير الشيء الكثير، كما جمع إليه الأطباء من كل موضع، فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيبًا، بينهم الطبائعي والجراح والكحال والمجبر، وكان هذا البيمارستان ملجأ الكثير من المرضى والمساكين في بغداد، ثم قام

---

(١) عواد، صور مشرقة، ص١١٢ ـ ١١٣.

بإصلاحه وتجديده وتجهيزه الوزيرُ عميد الملك[1] (ت٤٥٦هـ ـ ١٠٦٣م)، وأثناء زيارة الرحالة ابن جبير لبغداد عام ٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م شاهد هذا البيمارستان، ووصفه بقوله: «المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون لأخذه، وبين أيديهم قَوَمَة لذلك، يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من دجلة»[2].

ومن الملاحظ: أن بيمارستانات بغداد العباسية كان يتم اختيار أحسن المواضع لبنائها، فكانوا يختارون المواضع النزهة تَحُفُّ بها الرياض والحدائق، وكذلك الروابي المطلة على السهول الفسيحة، ولذلك كانت أكثر البيمارستانات البغدادية تتوسط شاطئ دجلة؛ فإن هذه المواضع موصوفة برقة الهواء، وحسن المستشرف.

ومن البيمارستانات السلجوقية: بيمارستان سيواس، وهو أول بيمارستان مستقل في الأناضول، وأكبرُها (٦٨ × ٤٨م^{2})، أمر بإنشائه السلطان عز الدين كيكاوس الأول ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م.

ومن عصر المنكوجكيين: البيمارستان الملحق بالجامع الكبير في ديوريكي (ديفرجي) (شكل ٣٥٥) ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م.

ومن البيمارستانات العثمانية: البيمارستان الملحق بمجمع (كلية)

---

(١) عواد، **صور مشرقة**، ص١١٣ ـ ١١٦؛ عاشور، **دراسات**، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٢٧٨؛ ناجي، **بغداد في كتابات الرحالة**، ص٢٠٩.

السلطان بايزيد في أدرنة (شكلا ٢٨٤/ ١ ـ ٢، ٢٨٥)، وهو من البيمارستانات المتميزة من حيث تخطيطها، ويتصل بهذا البيمارستان مدرسة للطب[١].

وإذا ما انتقلنا إلى دمشق، يقابلنا البيمارستان النوري الشهير ٥٤٩هـ-١١٥٤م نسبة إلى السلطان نور الدين محمود بن السلطان عماد الدين زنكي. (شكل ٧٧).

وقد وصفه ابن جبير بأنه أكبر وأحفل من البيمارستان القديم، ثم يضيف قائلاً: «وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا، وبه قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية، وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم...»[٢].

وكان السلطان نور الدين محمود قد وقف هذا البيمارستان على الفقراء دون الأغنياء، اللهم إذا لم يجد الأغنياء الدواء اللازم لهم إلا في هذا البيمارستان؛ مما يؤكد الأهمية الاجتماعية لهذا البيمارستان، ومن هذا المنطلق شرب السلطان نور الدين نفسه من دواء هذا البيمارستان[٣].

وأمر السلطان نور الدين محمود بإنشاء بيمارستان آخر في حماة ومثله في حلب[٤].

---

(١) عواد، **صور**، ص١١٦؛ آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٧٥ ـ ٧٧، ١٠٢ ـ ١٠٤، ١٨٩، ١٩١؛ الريحاوي، **العمارة**، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٣٥٧.

(٣) عاشور، **دراسات**، ص٢٨٧.

(٤) عن هذه البيمارستانات النورية انظر: عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص٢٠٦ - =

ويقابلنا: بيمارستان صلاح الدين الأيوبي بمدينة القاهرة، وقد وصفه ابن جبير في رحلته بقوله: «ومما شاهدناه ـ أيضًا ـ من مفاخر هذا السلطان: المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا، وعين لـه قيمًا من أهل المعرفة، وضع لديـه خزائن العقاقير، ومكنـه من استعمـال الأشربـة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أَسِرَّة يتخـذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيم خدمـة يتكفلون تفقد أحـوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن ـ أيضًا ـ من يتكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجـانين، ولهم ـ أيضًا ـ من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها، والمثابرة عليها غاية التأكيد[1].

ووصف ابن جبير ـ أيضًا ـ بيمارستان صلاح الدين بالإسكندرية قائلاً: «ونصب لهم ـ أي: السلطان صلاح الدين ـ مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل به أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التـي يشيرون بها من علاج وغـذاء، وقد رُتب ـ أيضًا ـ فيه أقوام

= ٢٢٩؛ شحادة، كامل، من مآثر نور الدين الزنكي العمرانية في حماة البيمارستان النوري (الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ١٧، ج١ ـ ٢، دمشق (١٩٦٧م)، ص٧٩ ـ ٩٤.

(١) رحلة ابن جبير، ص٤٨.

برسم الزيارة للمرضى الـذين يتنزهـون ـ أي: يترفعـون ـ عن الوصول إلـى المارستان المذكور من الغرباء خاصة، ويُنهون إلى الأطباء أحوالهم؛ ليتكفلوا بمعالجتهم»[1].

ومن البيمارستانات المصرية في العصر المملوكي: البيمارستان المؤيدي (لوحة ٦٧)، إلا أنه لسوء الحظ بحالة سيئة.

أما أشهر البيمـارستانات الإسلاميـة عامـة، والمصريـة خاصـة، فهو البيمارستان المنصوري الذي أمر بإنشائه السلطان المملوكي البحري المنصور قلاوون بخط بين القصرين (شارع النحاسين سابقًا، والمعز لدين الله حاليًا) بالقاهرة، وذلك فيمـا بين ربيع الآخـر ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م، وشـوال ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م، (شكل ١٧٨)، وهـذا يعني: أن بنـاءه قـد استغرق خمسـة أشهر فحسب. وقد أشاد بـه عـدد كبير من المؤرخين والرحالـة، ومن بين هؤلاء وأولئك حسبنا أن نشير إلى كل من ابن عبد الظاهر الذي ذكر: أنه «مارستان عظيـم الشأن، لا تصل همـة ملك إلـى ابتناء مثلـه»، وابـن شاكـر الكتبي: «البيمارستان العظيم الـذي لم يكن مثله»، والقلقشندي: «المعروف العظيم الذي ليس له نظير في الدنيا»، وابن شاهين الملطي: «ما بني مثله في الإسلام» من المؤرخين[2].

---

(١) رحلة ابن جبير، ص٣٢ ـ ٣٣.

(٢) ابن عبـد الظاهر، **تشريف الأيام**، ص٥٦؛ ابـن شاكر الكتبي، **فـوات الوفيات**، (٢/ ٢٧٠)؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٣٧٠، ابن شاهين الملطي، نزهـة الاساطين، ص٧٩؛ الحـداد، محمد حمزة، **السلطان المنصور قـلاوون**، ص١٣٣ ـ ١٣٤.

أما الرحالة المسلمون، فحسبنا أن نـذكر ابن بطوطة، ووصفه بقوله: «يعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم»[1].

والبلوي المغربي، ووصفه بقوله: «ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده، لكفاها، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنًا وجمالاً واتساعًا، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء، ولا أبدع إنشاء، ولا أكمل انتهاء من الحسن والجمال»[2].

ووصفه الرحالـة التركي أوليا چلبي بقولـه: «مستشفى عظيم في سرة القاهرة. . . بناء عجيب لا نظير له في بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم، فقد بني على أسلوب لو اختل عقل امرئ، عالجه الحكماء، فارتد عاقلاً. . .». ويضيف قائلاً: «وموجـز القول: أننا ما رأينا في البلاد التي جبناها (زرناها) مستشفى عظيم البناء كهذا المستشفى»[3].

ومما له دلالتـه: أن هذا الرحالـة التركي كان قـد ألم به مرض نتيجـة لحادث وقع له عقم بسببه، واستمر على ذلك سبعة وعشرين عامًا حتى جاء القاهرة، وزار البيمـارستان المنصوري، وشرب من الترياق الفاروقي الذي يُحَضَّر به، فتم شفاؤه، وصح جسمه، وقوي لحمه وشحمه حتى كان زملاؤه

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص٣٣.

(٢) البلـوي، خالـد بن عيسى البلوي، **تاج المفرق في تحليـة علمـاء أهل المشرق**، (مخطوطة بـدار الكتب المصريـة رقم ١٠٥٣ جغرافيا)، ورقـة ٤٥ ب، الحداد، **السلطان المنصور قلاوون**، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) أوليا چلبي، **سياحتنامة مصر**، ص٣٤٦، ٣٤٨.

يكسرون عليه البندق، وكان هذا الترياق يستخرج من سم الثعابين، ويصنع مرة واحدة في العام، ويصدَّر من مصر إلى الخارج[1].

هذا، وقد وقف السلطان قلاوون هذا البيمارستان لعلاج جميع المسلمين من مختلف الطبقات، العليا والدنيا على حد سواء، ويتساوى في الانتفاع منه الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، وهو ما تؤكده وثيقة الوقف بما نصه: «وهذا البيمارستان. . . لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء، من الأغنياء والمثرين، والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيهما من المقيمين بهما، والواردين إليها من البلاد والأعمال، على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الأجسام، قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس، خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظمُ المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب. . .».

وزيادة على ذلك تؤكد الوثيقة: أن البيمارستان للجميع: «يدخلونه جموعًا ووحداناً، شيوخًا وشباناً، وبلغًا وصبياناً، وحرمًا وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو مُعَدّ فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والدانئ والشريف، والعليّ والحقير، والغني والفقير،

---

(١) أوليا چلبي، **سياحتنامة مصر**، ص٣٥٦ـ٣٥٨؛ الحداد، **السلطان المنصور قلاوون**، ص١٣٦.

والمأمـور والأميـر، والأعمى والبصير، والمفضول والفـاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيـع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، مـن غيـر اشتراط لعـوض مـن الأعـواض، ولا تعـريض بإنكـار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم».

وكانت الرعاية الصحيـة لمرضى البيمارستـان على أعلى مستوى، بل ويفوق مـا نراه في الكثير من المستشفيات الاستثماريـة الحديثـة في عصرنا الحاضر، وهو ما يتضح في النقاط التالية:

١ ـ يهيئ لكل مريض ما يلائمه من سرير وفرش حسب الحالة الصحية.

٢ ـ تزويد المريض يوميًا بالمشموم.

٣ ـ يخصص لكل مريض أوان فخارية لطعامه، وأقداح زجاج لشرابه، وأباريق فخار، مع سرج وقناديل وزيت للوقود من أجل الإضاءة.

٤ ـ ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف.

٥ ـ كان لكل مريض قائمة طعام خاصة لغدائـه وعشائـه حسب أوامر الطبيب المعالج.

٦ ـ ضرورة أن يكون هناك غطاء للأواني التي يقدم فيها غذاء المرضى لمنع التلوث، ويختص كل مريض بإناء منفرد لغذائه، دون مشاركة أحد من أجل الوقاية الصحية.

٧ ـ العـلاج بالموسيقى؛ حيث اشترط الواقف أن يحضر في كـل ليلة من أرباب الآلات أربعـة يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء، وأجـريت عليهم الجوامك (الرواتب) في كل شهر.

٨ ـ تمت ممارسة الطب السريري (الإكلينيكي) في هذا البيمارستان، حيث خُصص فيه مكانٌ لتدريس الطب، ويقوم رئيس الأطباء بتدريس الطب لهم، وهو نفس النظام المعروف حاليًا بالمستشفيات الجامعية الحديثة.

٩ ـ تم في هذا البيمارستان تطبيق نظام المناوبة (الوردية) بين الأطباء «يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان مجتمعين ومناوبين؛ باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب». كما كان الأطباء يلتزمون بالمبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين لمواجهة حالات الطوارئ.

١٠ ـ لم تستقر منفعة هذا البيمارستان على رعاية المرضى المقيمين فيه، بل امتدت فشملت كذلك مرضى العيادة الخارجية، والمرضى المستقرين في منازلهم، وقد بلغ عدد المترددين في قسم العيادة الخارجية حوالي أربعة آلاف نفس، أما مرضى المنازل، فقد تمتعوا بالرعاية الطبية والدواء والشراب والغذاء، حتى زاد عدد مرضى المنازل في بعض الأوقات على مئتي مريض.

١١ ـ كانت تصرف لمن يخرج معافى من هذا البيمارستان كسوة، ومن مات جُهِّز وكُفِّن، دُفن[١].

---

(١) الحداد، محمد حمزة، **السلطان المنصور قلاوون**، ص١٢١ ـ ١٣٩؛ أمين، محمد محمد، **وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري** (ملحق بكتاب تذكرة النبيه لابن حبيب)، ج١، مطبعة دار الكتب، القاهرة (١٩٧٦م)؛ الأوقاف، ص١٥٧ ـ ١٧٠؛ عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص١٣٤ ـ ١٤٩؛ الحجي، **صور من الحضارة العربية الإسلامية في عصر سلاطين المماليك**، ص٢٠٩ ـ ٢٤٤؛ أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٨١ ـ ١٢٥، ١٤٤ ـ ١٥٤.

والحق: أن هذا البيمارستان كان علامة حضارية، وإنجازًا إنسانيًا مبكرًا في مجال الرعاية الاجتماعية والصحية، قلَّ أن يجود الزمان بمثلها.

وإذا ما انتقلنا إلى الغرب الإسلامي، تقابلنا البيمارستانات الموحدية والمرينية بالمغرب الأقصى، وبيمارستانات بني نصر أو بني الأحمر بغرناطة (الأندلس)، وحسبنا أن نشير من بين هذه وتلك إلى: بيمارستان مراكش الذي أمر بإنشائه السلطان أبو يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن، وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح... وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام، وما ينفق عليه خاصة، خارجًا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه (برئ) المريض، فإن كان فقيرًا، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيًا دفع إليه ماله وتركته، وسيبه».

ويضيف المراكشي فيقول: إن هذا البيمارستان لم يقتصر على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت»[1].

---

(١) المراكشي، عبد الواحد بن علي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مطبعة السعادة بمصر (١٣٢٤هـ)، ص١٩٠ ـ ١٩١؛ عيسى، **تاريخ البيمارستانات** ٢٨٠ ـ ٢٨١؛ المنوني، **حضارة الموحدين**، الدار البيضاء (١٩٨٩م)، ص٩٢ ـ ٩٣؛ ملين، =

وفي الأنـدلس يقابلنا بيمارستان غرناطـة، وقـد أمر بإنشائـه السلطان محمد الغني بالله، وقـد وصفه ابن الخطيب بقولـه: «ومن مواقف الصـدق والإحسان من خارق جهاد النفس: بناء المارستان الأعظم، حسنة هذه التخوم القصوى، ومزية المدينـة الفضلى، لم يهتد إليـه غيره من الفتح الأول، مع توفـر الضرورة، وظهور الحاجـة، فأغرى به همـة الـدين، ونفس التقوى، فأبرزه موقف الأخذان، ورحلة الأندلس، وفذلكة الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورحب ساحـة، ودرور مياه، وصحـة هواء، وتعدد خزائن ومتوضآت، وانطلاق جراية، وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر بالساحة العريضة، والأهوية الطيبة، وتدفق المياه من فوارات المرمل وأسود الصخر وتموج البحر، وانسدال الأشجار إلى موافقته إياي - أي: ابن الخطيب نفسه - وتسويفه ما اخترعته بإذنه...»[1].

أما عن عمارة البيمارستانات الباقية، فحسبنا في هذه العجالة أن نشير إلى أشهرها، وهي: البيمارستان النوري، والبيمارستان القيمري في دمشق

= محمد الرشيد، **عصر المنصور الموحدي**، الرباط، ط٢، (١٩٩٦م)، ص١٧٨؛ صلاح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١٥١ - ١٥٤؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة**، (٣/ ١٧٧)؛ أعشي، **نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب**، ص٣٢.

(١) ابـن الخطيب، **الإحـاطة**، (٢/ ٥٠ - ٥١)؛ المغـراوي، رابـح عبـدالله، **تاريـخ الأوضاع الحضاريـة لمملكة غرناطة من خـلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ)**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالـة ١٤٠، الحولية ٢٠، جامعة الكـويت، مجلس النشر العلمي، (١٩٩٩ - ٢٠٠٠م)، ص٩٦ - ٩٨.

(شكلا ٧٧ ـ ٧٨، لوحة ٤٩١) والبيمارستان الأرغوني بحلب (لوحتا ٤٨٩ ـ ٤٩٠)، والبيمارستان المنصوري بالقاهرة (شكل ١٧٨).

والبيمارستان النوري بدمشق يعد من أهم المباني التاريخية والأثرية الباقية بدمشق ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م، وهو يعتبر أنموذجًا متكاملاً لفن العمارة في العهدين السلجوقي والأتابكي، سواء من حيث تخطيطه، أو من حيث عناصره المعمارية ومفرداته، فضلاً عن نقوشه الزخرفية والكتابية، برغم ما جرى عليه من أعمال توسعة وإضافة وزيادة في العصرين الأيوبي والمملوكي.

وهذا البيمارستان عبارة عن صحن أوسط مكشوف (باحة سماوية) مستطيلة الشكل ١٥ × ٢٠م٢، تتوسطها بحرة (بركة ماء) مستطيلة الشكل ٧ × ٨,٥م٢، ويلتف حول الصحن أربعة إيوانات فضلاً عن حجرات مسقوفة بأقبية متقاطعة، ويتميز هذا البيمارستان بنقوشه الجصية والرخامية والحجرية، فضلاً عن النقوش الكتابية والمقرنصات والعقود والأقبية[1].

والبيمارستان القيمري بدمشق قبل ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م يشبه في تخطيطه العام البيمارستان النوري (شكل ٧٨، لوحة ٤٩١)، ولكنه يتميز بواجهته المبنية بالحجر المشهر، ويتوج حجر مدخله الرئيسي عقد مدبب يحوي بداخله طاقية (طاسة) مقرنصة، وصنجات العقد مزررة تزريرًا مركبًا، وبداخل حطات المقرنصات نقوش زخرفية متنوعة، كما يتميز إيوان البيمارستان بنقوشه الجصية الرائعة، ولعل أبرز مايميزها: تلك الجامة الدائرية المزدانة بزخارف الأرابيسك، وتتناثر حول الجامة زخارف متكررة من الأشكال البيضاوية التي

---

(١) الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية**، ص١٠٨ ـ ١١٤.

ينتهي أعلاها بالورقة النباتية الثلاثية[1].

أما البيمارستان الأرغوني بحلب (لوحتا ٤٨٩ ـ ٤٩٠)، فيعد من أهم البيمارستانات التي خلفتها العمارة الإسلامية، وذلك من حيث تخطيطه ونظامه الدقيق، وما فيه من عناصر معمارية أصيلة، وقد أمر بإنشائه نائب السلطنة المملوكية أرغون الكاملي ٧٥٥هـ ـ ١٣٥٤م، ويختلف تخطيطه عن تخطيط كل من البيمارستان النوري والبيمارستان القيمري بدمشق، وهو عبارة عن صحن أوسط، يحيط به من الجانبين الشرقي والغربي رواقان متماثلان، يتكون كل منهما من بائكة خماسية العقد، ويوجد خلف هذين الرواقين حجرات صغيرة (لوحة ٤٩٠)، أما الضلعان الشمالي والجنوبي للصحن، فيشغل كل ضلع منها قاعة كبيرة تطل على الصحن ببائكة ثنائية العقد، وتتكون كل قاعة من قلب وجناحين، يغطي القلب في القاعة الجنوبية قبة كبيرة، تقابلها قبة أصغر منها، تغطي قلب القاعة الشمالية، كذلك توجد ثلاثة أجنحة بالجهة الشرقية من البيمارستان يتوصل إليها من ممر بالرواق الشرقي يؤدي إلى دهليز يتوصل منه إلى تلك الأجنحة الثلاثة، وتختلف هذه الأجنحة فيما بينها من حيث تخطيطها. ويتميز هذا البيمارستان ـ علاوة على تخطيطه، وعناصره المعمارية، ومفرداته من العقود والأقبية والقباب ـ بنقوشه الزخرفية والكتابية المتميزة، فضلاً عن مدخله المتوج بطاقية (طاسة) مقرنصة[2]. (لوحة ٤٨٩).

أما البيمارستان المنصوري بالقاهرة، الذي كان علامة حضارية مميزة

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٢٦٩، (أشكال ١٨٥ ـ ١٨٧).

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٣٣٧ ـ ٣٤٠، (شكل ٢٤٧).

لعصر سلاطين المماليك بعامة، ولعهد السلطان المنصور قلاوون بخاصة ـ كما سبق القول ـ، فلم يعد باقيًا منه سوى بقايا قليلة، ومع ذلك فإنه في ضوء تلك البقايا، وما ورد في المصادر التاريخية، وحجة الوقف والمساقط الأفقية (شكل ١٧٨) التي رسمت له في القرن ١٩م يمكننا إعادة التصميم المعماري الأصلي للبيمارستان الذي بني فيما بين ربيع الآخر ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م وشوال ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م؛ كما يستدل من النقش الإنشائي[1].

هذا، ويتوصل إلى هـذا البيمارستان من خلال المدخل العام الرئيسي للمجموعة كلها، والـذي يقع في الواجهة الجنوبيـة الشرقية، وهي الواجهة الرئيسية للمجموعـة كلهـا، والمطلة على شارع المعز لـدين الله ـ خـط بين القصرين سابقًا ـ، ويقع هذا المدخل بالتحديد في الطرف الجنوبي من واجهة القبـة، وإذا كـانت كتلة المدخل تبرز قليلاً عن واجهة القبـة، إلا أنها ترتـد كثيرًا عن واجهة المدرسة.

وتتكون كتلة المدخل من كتفين بارزين، أسفل كل كتف منهما عمود رخامي ذو تاج كورنثي، ويحصر هذان الكتفان فيما بينهما عقدين، أحدهما علوي، والآخر سفلي، ويفصل فيمـا بين العقدين إطار حجري بارز قليلاً، وبالنسبة للعقد السفلي نجده يتوج دخلة المدخل، وهو عبارة عن عقد حدوة فرس مدبب (مخموس)، اتساعه ٣,٩٠م^2، يتكئ على كتفين بارزين، أسفل كل كتف منهما عمود رخامي ذو تاج كورنثي ـ أيضًا ـ، ويتوسط هذه الدخلة باب الـدخـول، ويبلـغ اتساعـه ٣٩,٢م^2، وارتفاعـه ٣٨,٤م، ويغلق على

---

(١) الحداد، **السلطان المنصور قلاوون**، ص١١٢ ـ ١١٥.

هذا الباب مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس، وقوام زخارفه الأطباق النجمية، وبعض الزخارف الهندسية، وضعت سماعتا الباب على شكل رأس حيوان.

ويعلو باب الدخول عتب رخامي يحوي النقش الإنشائي للمجموعة كلها، يلي ذلك نفيس فعقد عاتق من صنجات رخامية معشقة بيضاء وسوداء، ويفتح بصدر المدخل قندلية بسيطة عبارة عن قمريتين مطاولتين يعلوهما قمرية مستديرة، ويغشى هذه القمريات مصبعات حديدية رأسية وأفقية شغلت الفراغات فيما بينها بأشكال حلزونية صغيرة[1].

هذا، وقد شغل باطن العقد ووجهه بصنجات رخامية بيضاء وسوداء وفق النظام الأبلق، أما توشيحتا العقد، فتملأ أشرطة رخامية بيضاء وسوداء تتقاطع لتكون مثلثات، وتحصر مربعات صغيرة، وتنتهي هذه الأشرطة بميمة أعلى قمة العقد (لوحة ١ ـ ٢).

أما بالنسبة للعقد العلوي، فهو أكثر اتساعًا من العقد الأول السفلي؛ حيث يبلغ اتساع فتحته ٥,٧٠م٢، كما أنه يبرز عن العقد السفلي بمقدار ١م تقريبًا، وهو عبارة عن عقد حدوة فرس نصف دائري، يتكئ على كابولي

---

(١) يذكر (كريزول) أن هذه الزخارف تشبه في طرازها زخارف الحاجز الحديدي المحيط بقبة الصخرة الذي وضع بواسطة الصليبيين في (ق٦هـ ـ ١٢م) عندما حولت قبة الصخرة إلى كنيسة، وفي ضوء ذلك استنتج (كريزول) أن هذه الزخارف من عمل صناع فرنسيين.

.Creswell, MAE, vol 2, . P. 191

من الخيزرانات المتدرجة، وهو أول مثال من هذا الطراز في العمارة الإسلامية في مصر[1].

وبصدر هذا العقد ثلاث نوافذ مستطيلة متجاورة، يعلو كل نافذة منها قمرية مستديرة، واعتماداً على ما جاء بالوثيقة يتضح أن هذه النوافذ الثلاث كانت تشغل صدر الطبقة التي وقفها الواقف على سكنى الناظر على هذا الوقف، وقد كانت هذه الطبقة تعلو هذا الباب[2].

هذا، وقد صارت ميزانية أرض المجموعة في مستوى ميزانية أرض الشارع، وقد كانت قبل ذلك ترتفع عنها بمقدار ١,٤٠م، فقد أظهرت الحفائر قلبة سلم ذات خمس درجات كانت تؤدي إلى المدخل[3].

الدهليز الرئيسي:

ويفضي المدخل السابق إلى دهليز طويل يبلغ طوله ٣٥م، واتساعه ٤م^{٢}، وارتفاعه ١٠م. ويفتح بصدر هذا الدهليز، في مواجهة باب الدخول السابق ذكره، باب معقود يؤدي إلى دركاة على جانبيها بابان، كان يتوصل منهما إلى البيمارستان وملحقاته. وبالضلع الشمالي الشرقي من هذا الدهليز خمس دخلات غير عميقة، يتوج كلاً منها عقد مدبب، أسفل أربع دخلات منها شبابيك، بواقع شباك بكل دخلة، تعلوه قمرية مطاولة، أما الدخلة

---

(١) أبو الفتوح، **مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة، الدينية والمدنية** ـ (رسالة ماجستير ـ غير منشورة ـ كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥م)، ص١٧٧.

(٢) **حجة أوقاف البيمارستان المنصوري** (أوقاف ١٠١٢).

(٣) أبو الفتوح، **مداخل**، ص: ١٧٩.

الوسطى فأسفلها باب الدخول للقبة، وهو غير مستخدم حاليًا، ويعلوه النقش الإنشائي الخاص ببناء القبة، ويعلو هذا الباب قمرية مطاولة.

وبالضلع الجنوبي الغربي من الدهليز توجد خمس دخلات تشبه الدخلات السابقة، ويتوسط الدخلة الوسطى منها باب الدخول الحالي إلى المدرسة.

أما سقف الدهليز، فهو عبارة عن سقف خشبي ذو براطيم تحصر فيما بينها مناطق مستطيلة ومربعة، كانت مجلدة بالتذهيب واللازورد، ومملوءة بشتى أنواع الزخارف؛ كما يتضح من بقاياها.

وينبغي قبل أن نتحدث عن وصف الأجزاء الباقية من هذا البيمارستان أن نشير إلى نص تاريخي على جانب كبير من الأهمية، وقد أورد هذا النص المقريزي في «خططه»، فيذكر أن الأمير سنجر الشجاعي ـ وهو شاد العمارة ـ أبقى قاعة القطبية «على حالها، وعملها مارستاناً، وهي ذات إيوانات أربعة، بكل إيوان شاذروان، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء»[1].

ويؤكد نص المقريزي ما جاء في حجة الوقف من وصف تفصيلي للبيمارستان؛ حيث تذكر: «وبأقصى هذا الدهليز باب كبير معقود حنية بالطوب الآجر والجبس بعتبة سفلى صواناً يغلق عليه زوج أدراف مدهون مذهب بحشوات منقوشة مذهبة، وصفائح حديد مذهبة، يدخل منه إلى قاعة كبرى، وهي البيمارستان المبارك، تحوي أربعة أواوين متقابلة مسقفة نقيًا بقباب وأخياط مغرقة بالذهب واللازورد والأصباغ المختلفة، وأربع قاعات متفرقة،

---

(١) المقريزي، **الخطط**، (٢/ ٤٠٦).

ومطبخ وبيوت برسم الحواصل، وفسقية كبيرة بديعة الشكل، تعلوها قبة محمولة على أربعة عمد رخام أبيض مكملة القواعد الرخام المذهب، وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكرندازات المنوعة المجزعة إلى علو صحاف العمد المذكورة. . .»[1].

ومن خلال النصين السابقين يتضح أن البيمارستان كان يتكون من: قاعة كبرى، وأربع قاعات متفرقة، ومطبخ، وبيوت برسم الحواصل، وكانت القاعة الكبرى تتكون من دور قاعة وسطى تحيط بها أربعة إيوانات متقابلة ازدانت بشتى أنواع الزخارف الخشبية والجصية والرخامية، ولا تزال بقايا هذه الزخارف المتمثلة في النوافذ والقمريات والشاذروانات خير شاهد على ذلك، كما أنها تثبت في ذات الوقت أن زخارف البيمارستان لم تكن أقل روعة وبهاء من زخارف كل من القبة والمدرسة.

ويؤكد ذلك ـ أيضًا ـ ما جاء بحجة الوقف بشأن أوصاف هذا البيمارستان، وروعة زخارفه وجمالها، فتذكر الوثيقة «البيمارستان المبارك المنصوري المستجد إنشاؤه، والبديع بناؤه، المعدوم في الآفاق مثاله، والمشهور في الأقطار حسن وصفه وجماله، ولقد أعجزَ الملوكَ الأُول، وحوى كل وصف جميل واكتمل، وحَدَّثَ عنه العيانُ والخبر، ودل على علو الهمة فيه كالسيف دل على التأثير بالأثر»[2].

إلا أنه لسوء الحظ، اندثرت معظم أجزاء هذا البيمارستان، وأصبحت

---

(١) أمين، **الأوقاف**، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) أمين، **الأوقاف**، ص١٥٩.

أثرًا بعد عين[1]، ولم يعد باقيًا منه سوى بقايا القاعة الكبرى، وتتمثل هذه البقايا في ثلاثة إيوانات فقط، وهذه الإيوانات الثلاثة اثنين منهما متقابلان، وهما: الإيوان الجنوبي الشرقي، والإيوان الشمالي الغربي المقابل له، والإيوان الثالث هو الإيوان الشمالي الشرقي، أما الإيوان الرابع ـ وهو الجنوبي الغربي ـ الذي أشار إليه المقريزي، وكذلك حجة الوقف السابقة، فقد اندثر، وإن كان مسجلاً على المساقط الأفقية القديمة.

وهذه الإيوانات الثلاثة الباقية بحالة سيئة للغاية، وها هو الوصف الحالي لكل إيوان منها على حدة:

١ ـ الإيوان الجنوبي الشرقي:

كان هذا الإيوان يتكون من مساحة مستطيلة يبلغ عمقها ١٣,٣٠م٢، واتساعها ٧,٩٣م٢، تشرف على الدورقاعة الوسطى بعقد (غير موجود حاليًا)، ويتوسط صدر الإيوان دخلة البازاهنج (الملقف)، وهي عبارة عن مساحة مستطيلة يبلغ عمقها ٣,٨٥م٢، واتساعها ٦,٦٦م٢، ويتوج هذه الدخلة عقد مدبب كان يشرف على داخل الإيوان، ويتوسط صدر هذه الدخلة لوح الشاذروان الرخامي الذي تنحدر منه المياه إلى حوض من الفسيفساء الرخامية، وكانت المياه تصل إلى الشاذروان من خلال حجرة صغيرة اتساعها

---

(١) جاء بحجة الوقف وصف شامل لمعظم هذه الأجزاء المندثرة حاليًا، كذلك سجلت المساقط الأفقية القديمة ـ أيضًا ـ هذه الأجزاء قبل اندثارها. أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص٨٧ ـ ١٠٢؛ الحداد، **السلطان**، ص١٢٣ ـ ١٢٦، (أشكال ١ ـ ٣، لوحتا ٩ ـ ١٤).

٦٥ , ٢م٢، وعمقها ١٠ , ١م٢ توجد إلى الخلف منه[١]، ولم يتبق من الإيوان نفسه سوى جزء من جدار الضلع الشمالي الشرقي منه، وتعلوه نافذة توأمية، أما جدار الضلع الجنوبي الغربي ونافذته، فقد اندثرا، وكانت زخارفها تشبه زخارف النافذة الباقية، وكان يسقف الإيوان سقفًا من الخشب النقي، وتزخرفه زخارف على هيئة الأخقاق والقباب الصغيرة (قصع)، وكلها مطلية بالألوان المختلفة ومذهبة، وكان يجري أسفل هذا السقف إزار خشبي مازالت بقاياه قائمة[٢].

الزخارف:

لم يتبق من زخارف هذا الإيوان الجصية والرخامية سوى أجزاء بسيطة، إلا أنها، ـ برغم ذلك ـ تنم عما كانت عليه من روعة وبهاء.

وبالنسبة للزخارف الجصية نجدها تتمثل في الجزء العلوي من واجهة الشاذروان، و ـ أيضًا ـ النافذة المتبقية بأعلى الضلع الشمالي الشرقي من الإيوان نفسه.

وقوام زخارف الجزء العلوي من واجهة الشاذروان حشوة زخرفية، تتكون من عقد مدبب يحوي بداخله قمريتين مطاولتين يحصران بينهما قمرية مستديرة، تعلوها قمرية أخرى مثلها، وبأسفلها قمريتان مستديرتان ـ أيضًا ـ، وكان يغشي هذه القمريات أحجبة من الجص المفرغ المعشق بالزجاج الملون، إلا أنها الآن مسدودة.

---

(١) Cresweii, MAE, vol 2, . p. 207.

(٢) أبو الفتوح، **منشآت الرعاية الاجتماعية**، ص١١٢.

وقد شغلت إطارات هـذه القمريات وما بينها بزخارف جصية رائعـة، قوامها الزخارف النباتيـة، والكتابات الكوفية، وهذه الزخارف النباتية عبارة عن ورقة من فصين معدولـة ومقلوبة بالتبادل محفورة بالحفر البارز، يخرج منها فرع نباتي ليحددها بشكل شبه دائري، وبقية المساحات من هذه القمريات شغلت بزخارف نباتية بارزة ومفرغة مسننة الحواف، ترسم أنصاف مراوح، وأوراق من فص واحـد يخرج منهما أفرع نباتية مزدوجة الخطوط على هيئة دائرية، وقد أحيطت تلك المساحـة بإطار بارز من الزخارف الهندسية تضم أشكال المثلثات معدولـة ومقلوبة بالتبادل ثلاثيـة الخطوط، يلي ذلك إطار بارز يضم ورقـة نباتية حلزونية الشكل، ومفرغة البتلة العلوية برسم مستدير رسمت معدولة ومقلوبة بالتبادل.

وبالنسبة للزخارف الكتابية، فقوامها عبارة: الملك لله مكررة، وذلك بالخط الكوفي المورق[١].

أما بالنسبة للنافـذة التي تعلو الضلع الشمـالي من الإيوان، فهي عبارة عن دخلة معقودة بعقـد مدبب ممتد، تحوي بداخلها نافذة توأمية عبارة عن عقدين متجاورين من نوع حـدوة الفرس يرتكزان على ثلاثة أعمدة أحدهما في الوسط، والعمودان الآخران مدمجان بجانبي الدخلة، وكان يشغل باطن هذه النافذة حجـاب من الجص المفرغ المعشق بالزجـاج الملون، مـا تزال بقاياه قائمة، ويغشي باطن وواجهة العقدين رسوم مفرغة مزدوجة الخطوط

---

(١) عبد الرحيم، جمال، **الزخارف الجصية في عمائر القاهرة الدينية الباقية في العصر المملوكي البحري**، رسالـة ماجستير، غير منشورة، كليـة الآثار، جامعة القاهرة (١٩٨٦م)، ص١٠٩.

لمثلثات معدولة ومقلوبة بالتبادل، أما كوشات العقود، فقد شغلت بتكوين نباتي عبارة عن ورقة ثلاثيـة يحيط بها نصفا مروحـة نخيلية متدابران، تنتهي أطرافها بأوراق من فص واحد، ومن فصين فرغت جميعها من الداخل برسوم نباتية، وخطوط مشهرة دقيقة الشكل، يلي ذلك باطن الهيئة المعقودة للدخلة التي تحوي نافذة، وقوام زخارفها آية قرآنية بالخط الكوفي على النمط الفاطمي، نصهـا: بسم الله الـرحمن الرحيم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾[الأحزاب: ٥٦]. ويتخلل هذا النص أوراق نباتية بارزة من فص واحـد، ومن فصين، ويتوج واجهة الدخلة إطار بارز ومفرغ لورقة نباتيـة ثلاثية معدولـة ومقلوبـة بالتبادل، يلي ذلك إطار ضيق من الزخـارف المجدولة والمفرغة بأشكال مخرمة من الداخل ـ أيضًا ـ[١].

أما بالنسبة للزخارف الرخامية، فمن الفسيفساء الدقيقة المتقنة التنفيذ، وقوامها أشكال هندسية متنوعة دقيقة للغاية[٢].

٢ ـ الإيوان الشمالي الغربي:

أزيل معظم هذا الإيوان، وهو يشبه تمامًا الإيوان السابق (المقابل له) من حيث الاتساع، ووجـود البازاهنج الذي يشغل صدر الإيوان، وما به من قمريات من الجص المعشق بالزجاج الملون، يجمعها إطار على شكل عقد من الجص، وقد تبقى الآن منه، وبه إطار من كتابة كوفية قرآنية.

---

(١) عبد الرحيم، الزخارف، ص١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) Comité de Conservation des Monuments de L'Art Arabe. Exercice. 1910. le Caire 1911.

واتساع فتحة الإيوان ٧,٩٣م٢، واتساع فتحة البازاهنج ٦,٦٥م٢، وعمقه ٣,٨٥م٢.

وقد هدم جدار هذا الإيوان الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي، ولم يتبق منهما سوى جزء صغير ١,٩٠م٢ يمتد بعد دخلة البازاهنج، ولا يوجد أية بقايا للسقف.

ويشغل صدر البازاهنج شاذروان، وقد حفرت به زخارف على شكل أقواس، وتنحدر المياه من الشاذروان إلى حوض من الفسيفساء الرخامية مازال باقيًا، وتمتد منه قناة مبطنة بالرخام بقي منها حوالي ٧,٣٠م٢[1].

٣ ـ الإيوان الشمالي الشرقي:

يتقدم هذا الإيوان سقيفة ترتكز على أربعة أعمدة، وتمتد بطول الضلع الشمالي الشرقي للدورقاعة، وينقسم مدخل الإيوان إلى ثلاثة عقود حدوة الفرس، أكبرها أوسطها، ويتكئ على زوج من الأعمدة.

وتخطيط هذا الإيوان على شكل حرف T، ويبلغ امتداد الجزء المستعرض ١٣,٧٦م٢، وعمقه ٣,٤٤م٢، وينقسم الجزء الرئيسي من الإيوان، وهو العمودي على هذا الجناح، إلى قسمين يفصل بينهما باب، والقسم الأول منه يفتح بالجانب الأيسر منه على ثلاث نوافذ تطل على الحجرة المجاورة، والجانب الأيمن كان يفتح به باب (مسدود حاليًا).

أما القسم الثاني، فهو أكثر اتساعًا، وينقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة بائكتين، بكل منها ثلاثة عقود من الآجر ترتكز على أكتاف من الحجر،

---

(١) أبو الفتوح، **منشآت**، ص١١٥؛ الحداد، **السلطان**، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

واتساع كل منها ٩٠,٢م٢، ومن الواضح أن الأكتاف والعقود تنتمي إلى عصر متأخر عن عصر الإنشاء[1].

وتظهر هذه الأروقة على تخطيط باسكال كوست، ولكنها لا تظهر على تخطيط لجنة حفظ الآثار العربية، وتخطيط (هرتس باشا)؛ حيث تظهر بكل منهما قواطع وجدران مهدمة؛ مما يدل على أنها حادثة.

والواقع أنه أجريت بهذا الإيوان العديد من عمليات الإصلاح والترميم برغم ما هو عليه الآن من حالة سيئة.

٤ ـ الإيوان الجنوبي الغربي:

هـذا الإيوان غير موجـود الآن، وقـد كان من أكثر الإيوانات اتساعًا، ويظهر بتخطيط باسكال كوست، وقد توسطته فسقية، واصطفت الأسرّة في جوانبه، عدا الجانب الذي يفتح فيه الإيوان على الدورقاعة.

وقد حدثت بهذا الإيوان عدة تغييرات، فقد سجله تخطيط لجنة حفظ الآثار العربية، وبه الكثير من الجدران الحادثة من داخله، ويفتح بصدره باب يتصل بالقاعة التي كانت خلفه، وكذلك على تخطيط (هرتس باشا)، ولم يكن بهذا الإيوان بازاهنج.

وقـد أزيل هذا الإيوان تمامًا ومـا يحيط بـه، وكذلك جـزء من الضلع الجنوبي الشرقي من الإيوان الجنوبي الشرقي ـ أيضًا ـ، وذلك في سنة ١٩١٠م عند البدء في إنشاء المستشفى الحديث، وفتح الطريق المؤدي إلى المستشفى حاليًا.

---

(١) أبو الفتوح، منشآت، ص١١٥.

.Creswell, MAE, vol 2, p. 208

ومما يؤسف له: أن أحدًا لم يهتم بتسجيل ما كان يمكن أن يوجد أسفل جدران الإيوان عند هدمه، أو ملاحظة ما إذا كانت توجد أسفله جدران قديمة أم لا[1].

ومما لا شك فيه: أنه لو حدث ذلك، لاتضحت للعلماء والباحثين الحقيقة فيما يخص بناء البيمارستان، وهل هو القاعة الفاطمية ذاتها، أم بناه السلطان قلاوون فوقها.

٥ ـ الدورقاعة:

كان يتوسط الإيوانات الأربعة السابقة دورقاعة عبارة عن مساحة مكشوفة مستطيلة تبلغ ٣٢ × ٢٢م٢، وكان يتوسطها «فسقية كبيرة بديعة الشكل، تعلوها قبة محمولة على أربعة عمد رخام أبيض مكملة القواعد الرخام المذهبة، وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكرندازات المنوعة المجزعة إلى علو صحاف العمد المذكور»[2].

وكان يدور بجوانب هذه الدورقاعة ١٢ بابًا تؤدي إلى الوحدات المختلفة بالبيمارستان، وقد ورد ذلك مفصّلاً بالوثيقة[3].

* * *

---

(١) أبو الفتوح، **منشآت**، ص١١٥؛ الحداد، **السلطان**، ص١٢٦ ـ ١٢٧.
Creswell, MAE, vol 2, P. 208.

(٢) أمين، **الأوقاف**، ص١٥٨ ـ ١٥٩؛ أبو الفتوح، **منشآت**، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) أبو الفتوح، **منشآت**، ص٩٠ ـ ١٠١، ١١٦ ـ ١٢٠؛ الحداد، **السلطان**، ص١٢٨، (أشكال ١ ـ ٣).

المبحث الثاني
العمائر التجارية

نهضت العمائر التجارية في مدن العالم الإسلامي بدور بارز جليل الشأن في الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية خلال العصور الوسطى، وقد انتشرت هذه العمائر في داخل المدن وخارجها، بل وعلى امتداد الطرق التجارية.

وعرفت هذه العمائر بعدة مسميات، منها: الخانات، والفنادق، والقياسر، والوكالات، والسماسر، وكان المقدسي هو أول من تنبه إلى أن مسميات العمائر التجارية هي من الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم، فذكر منها في مقدمة كتابه: «فندق، خان، تيم، دار التجار» علاوة على ما أورده في ثنايا كتابه من مصطلحات أخرى[1].

ويلقي ابن بطوطة الضوء على بعض هذه المصطلحات بقوله: «. . . وبكل منزل ـ أي: مرحلة ـ منها فندق، وهم يسمونه: الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته»[2].

ويستدل من هذا النص على أن مصطلح الفندق الذي كان ولا يزال شائعًا ومتداولاً في المغرب يرادفه ويقابله في مصر مصطلح الخان الذي كان متداولاً بمصر وقت زيارة ابن بطوطة لها في عام ٧٢٦هـ ـ ١٣٢٥م، وهو ما يتفق مع ما ورد في النقوش الإنشائية للعمائر التجارية التي ترجع إلى هذه

---

(١) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٣٩، الحداد، **المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية**، ص٢٥.

(٢) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص٤٣.

الفترة، ومن أبرزها: منشأة الأمير قوصون بشارع الجمالية قرب باب النصر، والتي لم يتبق منها سوى مدخلها الرئيسي المنقوش عليه اسم هذه المنشأة بصيغة: «أمر بإنشاء هذا الخان المبارك. . .»، ويؤرخ هذا الخان بحوالي عام ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م؛ أي: بعد زيارة ابن بطوطة بما يقرب من عشر سنوات، وبعد ذلك اشتهر هذا الخان باسم: وكالة قوصون، ويؤيد ذلك: ما أورده المقريزي في «خططه» بقوله: «. . . هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات»[١].

ويؤكد هذا المعنى المحبي بقوله: «. . . والوكالة اسم للخان؛ كما هو المعروف في عرف المصريين، والدمشقيون يسمونه: قيسارية»[٢].

ومن أقدم الخانات الباقية في العمارة الإسلامية كل من: الخان بقصر الحير الشرقي، والخان بقصر الحير الغربي (شكلا ٨٩ ـ ٩٠) من العصر الأموي[٣]، وخان عطشان (شكلا ٤٦ ـ ٤٧) من العصر العباسي الأول[٤].

ومن الخانات المهمة: سلطان خان[٥] (شكل ٣٦٧، لوحتا ١٨٠ ـ ١٨١)،

---

(١) المقريزي، **الخطط**، ج٢، ط٢، القاهرة (١٩٨٧م)، ص٩٣؛ العمري، آمال، **أضواء على المنشآت التجارية في مصر المملوكية**، الكتاب الذهبي، ج٢، عدد خاص من مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٧٨م)، ص٦٩.

(٢) المحبي، محمد، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج٤، بيروت، د. ت، ص٣٥٧.

(٣) Creswell and Allan, Ashort Account, PP. 136-137.

(٤) Creswell and Allan, Ashort, PP. 258-260.

كريزول، **الآثار الإسلامية الأولى**، ص٢٦٦ ـ ٢٦٨.

(٥) آصلان آبا، **فنون الترك وعمائرهم**، ص١٢٣ ـ ١٢٥.

وخان مرجان ببغداد[١] (شكل ٤٨)، وعرفت بعض خانات الطرق خلال عصر القره خانتين، ومن بعدهم السلاجقة بالأربطة، ومنها: رباط ما هي، ورباط ملك، ورباط شرف[٢] (أشكال ٣٦٤ ـ ٣٦٦)، وعرفت بعض الخانات الأخرى باسم: كرفان (كروان) سراي، ومنها: كرفان سراي عباسي الملحق بمدرسة مادرشاه بأصفهان[٣] (شكل ٣٧٠).

ومن أشهر الخانات الباقية في سوريا: خان أسعد باشا العظم بدمشق[٤] (شكل ٩١).

أما الوكالات، فمن أشهرها: وكالة الغوري بالقاهرة[٥] (شكلا ١٨٧ ـ ١٨٨، لوحة ٧٩).

ويصعب في هذه العجالة دراسة العمائر التجارية التي سبقت الإشارة إليها ولذلك حسبنا أن نركز على دراسة أنواع العمائر التجارية خلال العصر العثماني من جهة، وأن نفرد لوكالة الغوري بالقاهرة ـ كأنموذج متكامل للعمائر التجارية في أواخر العصور الوسطى ـ دراسة موجزة ضمن الباب الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) رجب، غازي، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق**، ص٣٨٥ ـ ٣٩٤.

(٢) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص١٨ ـ ٢٠، ٤٧ ـ ٤٩.

(٣) قباديان، **بررسي أقليمي أبنية سنتي إيران**، ص٣٥٠، ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٤) يحيى، فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، المجلد ٣١، دمشق (١٩٨١م)، ص٩٥ ـ ٩٦؛ الريحاوي، خانات مدينة دمشق، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، المجلد ٢٥، ج١ ـ ٢، دمشق (١٩٧٥م)، ص٦٤ ـ ٦٩؛ **العمارة في الحضارة**، ص٥٠٢ ـ ٥٠٨.

(٥) مصطفى، صالح لمعي، **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، ص٧٣.

أما عن العمائر التجارية خلال العصر العثماني، فقد تعددت وتنوعت، وتعكس المصطلحات ـ التي عرفت بها واشتهرت ـ مدى ذلك التنوع، ومنها: الخان، كروان سراي، البادستان، الأراستا.

والخانات هي ما كان يقام داخل المدن، أما الخانات التي أقيمت خارج المدن؛ حيث الطرق المسلوكة، ومحطات القوافل، فقد عرفت باسم: كروانسراي (كرفان سراي) بعد أن كانت تعرف من قبل بالأربطة، وذلك خلال عصري القره خانيين، والسلاجقة ـ كما سبق القول ـ.

والبادستان ترجع بداية ظهوره إلى العصر السلجوقي، وقد اشتقت هذه اللفظة من كلمة: (البز) الفارسية الأصل bez، ولا تزال هذه الكلمة مستخدمة حتى اليوم في تركيا للدلالة على نوع معين من النسيج القطني والصوفي، و(ستان) هي الموضع والمحل والمكان، وعلى ذلك تعني الكلمة في الأصل: البازار، أو السوق المخصص لبيع الملابس، وأطلق على البائع البَزاز Bezzaz، وبالتالي ظهر مصطلح: بزستان Bezistan، أو بزازستان bezzasistan، ويعني: بازار الملابس Clothsbazar، وقد حرفت كلمة البزازستان إلى البادستان في القرن ١١هـ ـ ١٧م؛ كما يستدل من خلال ما أورده أوليا جلبي في رحلته[١]. وعلى ذلك، فإن مصطلح: البادستان يطلق على جزء، أو قسم من البازار (السوق) كان يخصص لبيع الملابس، بل إن بعض الخانات التي خصصت للغرض نفسه عرفت ـ أيضًا ـ بالبادستان. ومن مرادفات هذا

---

(١) Cezar, M, Typical Commercial B uildings of the ottoman Classical Period and the ottoman construction system, Istanbul, (1983), PP. 21, 159 - 160.

المصطلح: bezzazlar Carsisi، وتعني: سوق البزلر.

أما الأراستا: فهي الأخرى لفظة فارسية الأصل araste تعني: المزخرف، أو المزين، ثم لم تلبث أن استعيرت منذ النصف الثاني من القرن ٩هـ ـ ١٥م للدلالة على نوع معين أو محدد وقسم من البازار (السوق)[١].

وقد أقيمت تلك المنشآت بكثرة إبان العصر العثماني؛ كما يستدل من تلك الإحصائيات التي أبرزناها في كتابنا عن العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية، وذلك عند دراسة مظاهر النشاط العمراني الهائل والمكثف إبان ذلك العصر، إلا أن ما بقي منها يعد قليلاً، بل إن بعض هذا القليل قد تعرض للكثير ـ ولاسيما خارج تركيا ـ من الإهمال والتخريب، وبرغم ذلك، فإن ما بقي يمكن من خلاله التعرف على تلك المنشآت وطرزها وعمارتها، ومفرداتها المختلفة، وعناصرها المعمارية، ونقوشها الزخرفية، كما أن وثائق الوقف وسجلات الأرشيف العثماني ولوحات الرحالة ورسوماتهم ومشاهداتهم تعد مصدرًا مهما لدراسة تلك المنشآت.

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتناول كافة تلك المنشآت، ولذلك حسبنا أن نركز على دراسة عمارتها وطرزها المختلفة، وخصائص عناصرها المعمارية ونقوشها الزخرفية.

البادستان:

لعل أول ما يلفت النظر إلى البادستانات الباقية: أنها تذكرنا بالتخطيط ذي الأروقة المتقاطعة التي تغطيها القباب والأقبية، والذي صممت على

(١) Cezar, Typical, PP. 22, 129.

أساسه الكثير من العمائر الدينية والمدنية، ومنها: المساجد، والصهاريج، وغير ذلك، وهو الأمر الذي يؤكد ما سبق أن ذكرناه حول صلاحية التخطيط لتأدية أكثر من وظيفة في العمارة الإسلامية، بعد عمل بعض المعالجات والمفردات والعناصر التي تناسب كل وظيفة، وتساعدها في أن تقوم بها خير قيام، وبرغم ذلك يظل جوهر التخطيط واحدًا من السهل إدراكه للوهلة الأولى.

ولحسن الحظ بقيت بضعة بادستانات في كل من أدرنة (لوحة ١٩٧)، وإستانبول، وغاليبولي، وسالونيك، وسراييفو يمكن أن نستعرض من خلالها طراز هذا النوع من المنشآت التجارية، وخصائصه المتعددة.

وأول من يقابلنا في أوروبا العثمانية: بادستان أدرنة[1] (شكل ٣٧١) الذي يعد من أبدع ما بقي في العمارة العثمانية عامة، وفي أوروبا العثمانية خاصة، ويرجع تاريخ إنشائه إلى عصر جلبي سلطان محمد (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ ـ ١٤١٣ ـ ١٤٢١م)، وقد وقفه على المسجد العتيق أو القديم (أسكي جامع) في أدرنة، وهو ذو مساحة مستطيلة تبلغ ٥٦,٣٠ × ١٩,٨٠م٢ من الداخل، وتعلوه ١٤ قبة، وتوجد خلف كل قبة في الضلعين الطويلين حجرتان مقبيتان، باستثناء القبة الوسطى؛ حيث إنها تعلو المربعة التي تلي باب الدخول، وبذلك يصل عدد الحجرات في هذين الضلعين إلى ٢٤ حجرة، بواقع ١٢ حجرة بكل ضلع، أما كل من الضلعين القصيرين، فيحوي كل ضلع منهما ٦ حجرات مقبية، بواقع ثلاث حجرات عن يمين المدخل، ومثلها عن يساره، وبذلك يصل عدد الحجرات في هذين الضلعين إلى ١٢ حجرة، أما من الخارج،

---

(١) Cezar, Typical, PP. 172 - 174.

فتلتف الحوانيت حول البادستان من جوانبه الأربعة، ويبلغ عددها في الضلعين الطويلين ٣٢ حانوتًا، بواقع ١٦ حانوتًا بكل ضلع، منها ٨ عن يمين المدخل، ومثلها عن يساره، أما حوانيت كل من الضلعين القصيرين، فيبلغ عددها ١٦ حانوتًا، بواقع ٨ بكل ضلع، منها ٤ عن يمين المدخل، ومثلها عن يساره، ومن الملاحظ: أن جميع الحوانيت متشابهة في شكلها، متساوية في مساحتها، ويستثنى منها: حوانيت الأركان الأربعة، والحوانيت التي توجد على جانبي المداخل الأربعة؛ فقد اتخذت هي الأخرى نمطًا موحدًا لها.

وقد استخدمت في بناء البادستان الأحجار والآجر؛ مما جعله يكتسب طابعًا مميزًا، كما أن جميع العقود مدببة، وقد تميزت عقود النوافذ الصغيرة بنقوشها الزخرفية المتنوعة، حتى إننا يمكن أن نميز بين ستة عناصر زخرفية مختلفة فيها، ويبلغ عددها ١٦ نافذة في الواجهتين الطويلتين، و٤ نوافذ في الواجهتين القصيرتين، وتكسو القباب التضليعات الرفيعة.

وفي إستانبول توجد ثلاثة بادستانات قديمة[١] بنيت خلال عصر السلطان الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ ـ ١٤٥١ ـ ١٤٨١م)، وأولها: البادستان المعروف بأسكي بادستان (البادستان القديم أو العتيق)، وتعلوه ١٥ قبة متساوية، توجد خلفها الحجرات، ومن الخارج تلتف الحوانيت حوله من جوانبه الأربعة، وجميع عقوده مدببة ـ أيضًا ـ، كما أن قبابه تكسوها التضليعات الرفيعة.

والثاني: هو صندل بادستان (شكل ٣٧٤)، والثالث: هو جلطة بادستان، الأول تعلوه ٢٠ قبة، وهو يذكرنا بالمسجد الكبير في بورصة (أو بروسة)،

(١) Cezar, Typical, PP. 174_185.

والثاني ٩ قباب، وهو يذكرنا - أيضًا - بالمساجد ذات القباب التسع، ومن أقدمها مسجد بلخ، ويؤرخ بالربع الثاني من القرن ٣هـ - ٩م، وهما يختلفان عن أسكي بادستان في عدم وجود حجرات داخلية، بينما يتشابه الثلاثة في وجود الحوانيت من الجوانب الأربعة، إلا أنها عولجت بشكل مختلف فيهما جميعًا، ونفس الشيء ينطبق على كيفية معالجة المداخل الأربعة بكل منها.

ومنها: بادستان غاليبولي[1]، وهو مبنى صغير يرجع إلى القرن ١٠هـ - ١٦م، وتعلوه ٦ قباب، وهو يذكرنا - أيضًا - بالعديد من المساجد التي صممت وفق ذلك النمط.

ومنها: بادستان سالونيك باليونان، وهو يرجع إلى عصر السلطان الفاتح - أيضًا - في عام ٨٦٠هـ - ١٤٥٥م، أو عام ٨٦٤هـ - ١٤٥٩م، ويشبه بادستان سيريز باليونان - أيضًا -[2]، ومن المحتمل أنه يرجع إلى أعمال الصدر الأعظم إبراهيم باشا جاندارلي ٨٦٠ - ٨٧٠هـ - ١٤٥٥ - ١٤٦٥م؛ أي: عصر السلطان الفاتح - أيضًا - (شكل ٣٧٣)، وتعلوهما ٦ قباب، وتلتف حولهما الحوانيت من الجوانب الأربعة، وهي تشبه إلى حد كبير حوانيت أسكي بادستان في أدرنة.

ومنها: بادستان أشتب في مقدونيا اليوغوسلافية، ومنها: بادستان فيلبه (بلوفديف) ببلغاريا ق٩هـ - ١٥م (شكل ٣٧٢)، وتعلوه ٦ قباب، ومنها: بادستان الصدر الأعظم رستم باشا المعروف ببادستان بورصة (أو بروسة)

---

(١) Cezar, Typical, P. 220.

(٢) Cezar, Typical, PP. 192 - 194.

في سراييفو[١] (شكـل ٣٧٢) ٩٥٨هـ ـ ١٥٥١م، وتعلوه ٦ قبـاب ـ أيضًا ـ، ومن النماذج المشابهة له: بادستان برغمة ق١٠هـ ـ ١٦م، أو ق١١هـ ـ ١٧م، ومنها: بادستان يامبول في بلغاريا[٢]، وقد أمر بإنشائه الصدر الأعظم خادم علي باشا فيما بين عامي ٩١٢ ـ ٩١٧هـ ـ ١٥٠٦ ـ ١٥١١م)، وهو ذو تصميم مختلف؛ إذ تعلوه ٤ قباب متتالية، يتوسطها قبو، وقد أقيمت على الجدران مباشرة، وبالتالي اختفت هنا الدعامات والعقود، فضلاً عن الحجرات الداخلية، واقتصر فقط على الحوانيت التي تلتف حوله من جوانبه الأربعة من الخارج، والتي يبلغ عددها في الضلعين الطويلين ٢٠ حانوتًا، بواقع ١٠ بكل ضلع، منها ٥ عن يمين المدخل، ومثلها عن يساره، أمـا حوانيت كل من الضلعين القصيرين، فتبلغ ٨ حوانيت، بواقع ٤ بكل ضلع، منها ٢ عن يمين المدخل، ومثلها عن يساره، وجميـع الحوانيت مقبية بقبو برميلي، بل إننـا لا نستطيع أن نفرق بينها وبين تصميم المداخل الأربعة للبادستان إلا من حيث اتساعها، وفتحات الأبواب التي تتوسط صدروها، فضلاً عن أن عقودها نصف الدائرية أكثر ارتفاعًا من عقود الحوانيت على جانبيها.

ومن البادستانات المتميزة: بادستان سليمان باشا في ترافنيك[٣]، ويقع أسفلَ مسجـده، وهو يشتمل على ممر مستطيل، على جانبيه أربع حجرات صغيرة، وتوجـد الحـوانيت في جانبين فقط، الطويل منهمـا يشتمل على ٧

---

(١) Kiel, urban development, P. 135, pasic Islamic. P. 96, Pl. 5. , cezar, Typical, PP. 190 - 192.

(٢) Kiel, urban development, PP. 139 - 140, Pls 9 - 10.

(٣) Pasic, Islamic Architecture, P. 97.

حوانيت متجاورة، والقصير على ٥ حوانيت، على جانبي باب الدخول، منها ٣ في جانب، و٢ في جانب آخر، ويتقدم كليهما رواق على هيئة حرف L، تتكون واجهته في الضلع الطويل من ١١ عقدًا، وفي الضلع القصير من ٧ عقود، ويصعد إلى المسجد من خلال قلبتي سلم تتوسطها بسطة أمام باب الدخول مباشرة، ومما يلفت النظر: أن تخطيط المسجد جاء صدى لتخطيط البادستان، فهو ـ أي: المسجد ـ يشتمل على ثلاثة أروقة، أوسطها أوسعها وأهمها، ويسقفه سقف مسنَّم أو جمالوني.

الأراستا:

وهي ذات طراز مختلف، وقد تبنى من الحجر، أو من الآجر، وغالبًا ما تسقف بالأقبية، وأحياناً بالقباب، وفي أحيان أخرى تبنى بالخشب، وفي هذه الحالة كان الشارع الذي يتوسط الحوانيت يترك مكشوفًا، وقد تبنى مستقلة، أو تلحق بغيرها من العمائر، ومن أبدع نماذجها الباقية: تلك الملحقة بالمجمعات المعمارية في أدرنة، وإستانبول، ومنها ما يلحق بالخانات، ومن هذه الأخيرة أنموذج فريد في أوروبا العثمانية خارج تركيا، وهي: أراستا غازي خسرو بك في سراييفو[1] حوالي ٩٤٧هـ ـ ١٥٤٠م الملحقة بخان Tasli (شكل ٣٧٥)، وهي عبارة عن مساحة مستطيلة ١٠٩ x ٢٠م² متقابلة، كذلك توجد حوانيت خارجية تصطف على جانبي كل من مدخلي الواجهة الرئيسية للأراستا، فضلاً عن حوانيت خارجية ـ أيضًا ـ تصطف على جانبي المدخل الرئيسي للخان، وهو الأمر الذي دعا البعض إلى أن يطلق عليها اسم:

---

(١) Cezar, Typical, PP. 149 - 151.

بادستان بدلاً من أراستا[1]، وقـد بنيت تلك الأراستا بالحجـارة المنحوتـة، ومن عناصرها المعماريـة: العقود المدببة، والعقود الموتورة، والكورنيش المثلث الذي يتوج كتلة المدخل الرئيسي.

ومن النماذج المستقلة: أراستا أدرنة المعروفة ببازار علي باشا ٩٧٧هـ - ١٥٦٩م، وقد بناها قوجـه معمار سنان، ويبلغ طولها ٣٠٠م، وتجمع مادة بنائها بين الآجر والحجر المنحوت؛ مما أضفى عليها طابعًا مميزًا، وتشتمل على ٦ مداخل، يتوصل منهـا إلى ممر تصطف على جانبيه الحوانيت، وقد أشارت بعض سجـلات الأوقاف إلى أن عـدد حوانيتها يبلـغ ٢١١ حانوتًا، فضلاً عن ٢٥ حجرة[2].

أما أبدع وأروع نماذج الأراستا، فهي تلك الملحقة بالمجمعات المعمارية الكبيرة، ومنها: مجمع سوكللو محمد باشا في لولي بورغاز ٩٥٦هـ - ١٥٤٩م، وشارعها ينتمي إلى النوع غير المسقوف، وتعد أكثر اتساعًا من تلك النماذج المسقوفة، والقسم الأكبر منها يمتد على خط مستقيم، ومع ذلك، فهي تمتد عند نهايتها الغربية على هيئة خط مائل قليلاً، ويعلو المربعة التي تتوسط كلاً من مدخلي المدرسة والكـروان سراي قبـة، ولذلك فهي تستخـدم كمسجد للأراستا، أما حوانيت الأراستا، فيبلغ عددها ٦٠ حانوتًا، وتشبهها - أيضًا - أراستا سوكللو محمد باشا - أيضًا - في Havsa قرب أدرنة[3].

---

(١) Pasic, Islamic Architecture, P. 97.

(٢) Cezar, Typical, PP. 112 - 117.

(٣) Cezar, Typical, PP. 140 - 14.

ومنهـا: الأراستا التي ألحقها السلطان مراد الثالث (٩٨٢ ـ ١٠٠٤هـ ـ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م) بمجمع السليميـة الشهير في أدرنة، وهي تقع إلى الغرب من المسجد، وموازية له في ذات الوقت (شكل ٢٨٦)، وشارعها ينتمي إلى النوع المسقوف بقبو طولي أكثر ارتفاعًا من سقف الحـوانيت نفسها، وهـذه الحوانيت تصطف متقابلة على جـانبي الشارع المسقوف، والمـداخل بنيت بالحجر المنحوت، بينما بنيت الجدران بمدماك من الحجر، ومدماكين من الآجر؛ مما أكسبها ذلك المظهر الآخاذ، كذلك بنيت العقود والأقبية بالآجر ـ أيضًا ـ، وقد أقيمت القبة التي تعلو المربعة التي تستخدم كمسجد للأراستا بمعالجة متميزة؛ إذ ترتفع فوق شارع الأراستا عند نقطة اتصال المحور الرئيسي الممتد في اتجاه الغرب، وجميع العقود مدببة، بما في ذلك عقود النوافذ، وتتميز رقبة قبة مربعة الصلاة بنوافذها المعقودة ذات النقوش المفرغة المنفذة في الرخام بتصميمات متنوعة، هذا، وقد أشرف على بناء تلك الأراستا المتميزة معمار داود أغا أحد تلامذة قوجه معمار سنان[1].

أما الأراستا الملحقة بمجمع الوالدة الجديد (بني جامع) في إستانبول، فتعد من أبدع وأروع النماذج الباقية، بل وتمثل الطراز الكلاسيكي خير تمثيل، وقد اشتهرت منذ أواخر ق١١هـ ـ ١٧م باسم: السوق المصري Misir carsisi، وقد جمعت مادة بنائها بين الحجارة والآجر، وصممت على هيئة حرف L، وتميزت بدقة نسبها الخارجية.

وتشتمل على: أربعة مداخل كبيرة رئيسية، ومدخلين فرعيين صغيرين،

---

(١) Cezar, Typical , PP. 135 ـ 140.

والشارع الذي يتوسطها، والـذي اتخذ نفس هيئتها ـ أيضًا ـ مسقوف بسقف مقبي، يرتفع فوق مستوى الجدران، والشارع الطويل يشتمل على ٤٦ حانوتًا متقابلة، بواقـع ٢٣ في كـل جـانب، بينمـا يشتمل الشارع القصير على ٣٦ حانوتًا متقابلة، وبـذلك يصل العـدد الإجمالي للحوانيت الداخليـة إلى ٨٢ حانوتًا، كذلك أضيفت حـوانيت أخرى وضعت ملاصقـة لحوانيت الشارع القصير من الخارج، وتبلغ ١٨ حانوتًا، وعلى ذلك: فإن هذه الأراستا تشتمل كلها على ١٠٠ حانوت.

كـذلك تشتمل هـذه الأراستـا على مربعـة الصلاة عنـد نقطـة اتصـال الشارعين ببعضهمـا. وتوجد في نهايـة كل من الشارعين من الخـارج رواق أقيمت فوقه حجرات مغطاة بقباب، ويتوصل إليها عن طريق السلالم بمداخل الأراستا[1].

الخانات:

لم يخـرج تخطيطها عن الطراز المألوف إلا فيمـا نـدر، وهي تشتمل على طابقين غالبًا (أرضي، وعلوي)، وطابق أرضي فقط أحياناً، ويتوسطها صحن مكشوف تلتف حوله الأروقة غالبًا، وبدونها أحياناً، وتشغل الأضلاع الداخلية لتلك الأروقة الحجرات التي تغطى بالقباب، أو الأقبية، ويتقدم غرف الطابق العلوي رواق كذلك.

ومنها: خان رستم باشا في أدرنـة ٩٥١هـ ـ ١٥٤٤م، وقـد تحول في أواخر القرن ٢٠م المنصرم إلى فندق سياحي.

---

(١) Cezar, Typical , PP. 130_133.

ومنها: خان قيرشنلو في قيلبه (بلوفديف) ببلغاريا[1] أوائل ١١هـ ـ ١٧م.

ومنها: والدة خان في إستانبول قبل ١٠٦٠هـ ـ ١٦٥٠م (شكل ٣٦٩)، وهو من أكبر الخانات المعروفة وأهمها، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام، أوسطها أكبرها وأهمها، ويتوسطه صحن مربع كبير، كان يضم مسجدًا صغيرًا، ويتلف حول هذا الصحن أربعة أروقة، خلفها حجرات في طابقين (أرضي، وعلوي)، ويتقدم الغرف العلوية ـ أيضًا ـ رواق، والقسم الثاني الذي يلي كتلة المدخل الرئيسية للخان يعد أصغر الأقسام الثلاثة، وهو ذو صحن صغير ضيق غير مألوف في تصميم الصحون، وفي زاويته رواقان صغيران، أكبرهما الرواق الذي يلي باب الدخول، وخلف الرواقين توجد بعض الحجرات. أما القسم الثالث والأخير، فقد جاء تصميمه هو الآخر على نمط غير مألوف، برغم أنه يشتمل على كافة مفردات القسم الأوسط الكبير؛ مثل: الصحن والأروقة والحجرات، ومن الملاحظ: أنه ما يزال يوجد في زاوية هذا القسم الثالث برج بيزنطي مربع[2].

ومنها: خان TASLI في سراييفو ق٩هـ ـ ١٥م الذي ألحقت به أراستا حوالي عام ٩٤٧هـ ـ ١٥٤٠م (شكل ٣٧٥) ـ كما سبق القول ـ، وقد ساهم الاثنان بدور بارز في تطور الحياة الاقتصادية في المدينة، وهو عبارة عن طابق واحد فقط مساحته ٧٠ x ٥٠ م^{2}، وتلتف حول صحنه الأوسط الحوانيت، وعلى ذلك، فهو من النوع الذي يخلو من وجود الأروقة حول الصحن، فضلاً عن حجرات الإقامة والإسطبلات الكبيرة.

---

(١) الريحاوي، **العمارة**، ص٤٨٢.

(٢) Goodwin, A history, PP. 359 - 360.

ومنها: خان Morica في سرايفو[1] ق١١هـ - ١٧م.

أما خانات الطرق (كروان سراي)، فمنها ما يتبع نفس النمط، ومنها ما صمم وفق نمط يخلو من الصحن الأوسط، وكانت هي الأخرى تبنى مستقلة، أو ضمن مجمع معماري.

ومنها: خان أورنوس بك في loutra - ilica باليونان أواخر ق٨هـ - ١٤م، والجزء الباقي منه يذكرنا بالحمامات التي صممت وحداتها على محور عرضي متتابع؛ كحمام محمود باشا، وحمام خاصكي حرم بإستانبول، وتبلغ مساحة هذا الجزء ٥,٨٠ × ١٠,٢٠م٢، وقد قسمت هذه المساحة إلى ثلاثة أقسام متساوية بواسطة عقدين عموديين يرتكزان على أربع دعامات ملتصقة بالجدارين الطويلين، وتوجد في صدر القسم الثالث على محور باب الدخول ثلاث نوافذ، منها نافذة مزغلية في أسفل الجدار، ومن الواضح: أنه كان وراء صغر تلك النافذة وضيقها دواعٍ أمنية لحماية النزلاء، أما النافذتان العلويتان، فأكبر، أما الشبابيك التي توجد في الجدار الجنوبي الطويل، فقد كانت في الأصل ثلاثة أوجاقات (مداخن أو مدفآت)، إلا أنها حولت إلى شبابيك تشبه مثيلتها في الكنائس البيزنطية.

أما عن مصدر تصميم هذا الخان، فهو خان غازي ميخال بك في قرية كل بازار بلاجيك بالأناضول ٨١٨ - ٨٢١هـ - ١٤١٥ - ١٢/ ١٨ ٤١٨م، وقد اعتبره (كيل) النسخة الأصلية لخان أورنوس بك نظرًا للتشابه والتطابق الكبير بينهما، وهناك خانات سلجوقية كثيرة صممت في ق٧هـ - ١٣م وفق ذلك النمط،

---

(١) Pasic, Islamic Architecture, P. 94., Ayverdi, Avrupa, II, s. 353 - 354.

ومنها: خان أصحاب الكهوف قرب البستان، وخان ماما خاتون في تركاكان قرب أرض روم، وخان قيرق كوز قرب أنطالية، وغير ذلك.

ومن أبدع نماذج تلك الخانات (قبل اندراسها): خان الصدر الأعظم داماد سياوش باشا في كستنديل ببلغاريا ٩٩٢ ـ ٩٩٣/ ١٥٨٤ ـ ١٥٨٥م، وكان يتميز بمدخله التذكاري الفخم، والقبة التي تعلوه[1].

ومن نماذج هذه الخانات الملحقة: خان (كروان سراي) سوكللو محمد باشا ضمن مجمعه في لولي بورغاز ٩٥٦هـ ـ ١٥٤٩م، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام، أوسطها أكبرها، ويتوسط الثلاثة صحن مكشوف يخلو من وجود الأروقة في القسم الأوسط الكبير، بينما يشتمل كل من القسمين الآخرين على أربعة أروقة تلتف حول الصحن، فضلاً عن المنافع والمرافق الأخرى[2].

أما خان محمود باشا في بورصة (شكل ٣٦٨)، فيعد من الخانات المتميزة التي تعيد إلى ذاكرتنا تخطيط بعض المدارس العثمانية التي اتخذت هيئة حرف U نمطًا لها (شكلا ٣٣١ ـ ٣٣٢)، ولكن مع الاختلاف في بعض المفردات والتفاصيل التي تناسب الغرض الذي من أجله أقيمت هذه المدارس، أو تلك الخانات، ومنها ـ على سبيل المثال ـ: أن خان محمود باشا لا يشتمل على قاعة الدرس خانة الموجودة في المدارس التي اتخذت نفس التخطيط، وغير ذلك.

* * *

---

(١) Kiel, the oldest monuments, PP. 133 - 138.

(٢) Goodwin, A history, PP. 296 - 297.

المبحث الثالث
العمائر السكنية

ازدانت مـدن العالم الإسلامي من صـدر الإسلام وحتى أواخر القرن ١٣هـ ـ ١٩م وأوائل القرن ١٤هـ ـ ٢٠م بالعديد من كافة طرز وأنماط العمائر السكنية.

وقد عرفت هذه العمائر بالعديد من المسميات، ومنها: الدور، والبيوت، والرباع، والقصور، والسرايات، والأكشاك أو الجـواسق، وكذلك اختلف التعبير عن مسميات وحـداتها ومفرداتها المتعـددة، ومن بينهـا: الرواق أو الطبقة أو القاعـة أو قاعة نصف مصريـة أو المصرية أو التخانـة أو المشربـة والفوارة (النافورة، البحرة، البركة، الحوض، الحاووز، الجرن)، والبازاهنج (الملقف أو الممرق أو المنور) أو البراجيل أو الشخشيخة أو الروزنة، بل إن مسميات وسط الدار قـد وردت هي الأخرى في المصادر والمعاجم اللغوية بعـدة مصطلحـات: منها: الفناء، والحـوش، ولحاظ، ومحنـة، وعراق، وعرين، وطور، وعقوة، وينطبق نفس الشيء على ما يتعلق بالأنابيب، ومنها: العنابيب، والبرابـخ، والقساطل، والسلسال، والأقصـاب، وغير ذلك من المصطلحات والمسميات التي قمنا بحصرها من مظانها المختلفة، ودراستها ضمن موسوعتنا الموسومة بـ: «الجامع للمصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية على حروف المعجم (قيد النشر)».

هذا، وتدل الأدلة الآثارية الباقيـة على أن العمائر السكنية قد صممت في بادئ الأمر على نفس الطرز المعمارية التي كانت سائدة في الأقطار التي

انضوت تحت رايـة الإسلام، ومنهـا: الطراز الشامي (شكل ٨٠)، والطراز الفارسي (شكل ٣٩).

ومن أمثلة الدور والقصور الباقية التي يتجلى فيها هذا التخطيط: القصور الأمويـة في بلاد الشام، ومن بينهـا: قصر المنية (شكل ٨١)، وغير ذلك، وقصر الحير الشرقي والحير الغربي (شكلا ٨٢ ـ ٨٣)، وقصر المشتى (شكل ٨٤، لوحـة ٢٠) مـن العصر الأمـوي، وقصر الأخيضر (شكـلا ٤٠ ـ ٤٢، لوحتا ٢ ـ ٣)، وقصر الجوسق الخاقاني (شكل ٤٣، لوحة ٤)، وغير ذلك من العصر العباسي الأول[1].

وقد تردد صدى هـذين الطرازين في بيوت الفسطاط خـلال العصرين الأموي والعباسي، وهو ما أيدته الحفائر الآثارية التي أجريت بموضع مدينة الفسطاط[2] (بحي مصر القديمة جنوب القاهرة حاليًا).

---

(١) Creswell and Allan, Ashort, PP. 93_215, 248_258, 331_44.

كريزول، **الآثار الإسلامية الأولى**، ص١٥٦ ـ ٢٠٤، ٢٥٧ ـ ٢٦٥، ٣٤٣ ـ ٣٥١؛ مصطفى، فريال، **البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي**، بغداد (١٩٨٢م)، ص٦٨ ـ ١٤٠؛ طوقان، فواز أحمد، الحائر، **بحث في القصور الأموية في البادية**، عمـان (١٩٧٩م) (ويقـع فـي ٥١٢ صفحـة فضلاً عـن الكشاف العام والأشكـال واللوحات)؛ السلطاني، **العمارة في العصر الأموي الإنجاز والتأويل**، ص١٧٢ ـ ٢١٩؛ عبد الرازق، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ص٣١ ـ ٤٠، ٤٦ ـ ٥٩؛ خوري، رامي جورج، **القصور الصحراوية**، ترجمة غازي بيشة، عمان (١٩٨٨م)، ص٤ ـ ٢٧.

(٢) شافعي، العمـارة العربيـة في مصر الإسلاميـة (عصر الولاة)، ص٤٢٧ ـ ٤٦١؛ عبـد الرازق، **تاريخ وآثار مصر الإسلامية**، ص١٣١ ـ ١٣٧؛ **العمارة الإسلامية في** =

ولم تلبث أن تطورت عمارة الدور والقصور تطورًا كبيرًا، سواء في قلب العالم الإسلامي، أو في الجناح الشرقي لدار الإسلام، أو في الجناح الغربي لدار الإسلام، وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج الباقية التي تعكس هذا التطور، سواء من حيث التخطيط، أو من حيث العناصر والمفردات المعمارية، أو من حيث النقوش الزخرفية والكتابية.

فمن بينها: قصر لشكري بازار (شكل ٣٧٦)، وقصر السلطان مسعود الثالث بغزنة (شكل ٣٧٧)، وقصر السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد[١] (شكل ٣٧٨)، وقصور فتح بورسكري بالهند، وديوان خاص في لال قلعة (القلعة الحمراء) بدهلي بالهند[٢] (لوحة ١٦٨)، وقصر جيهل ستون، وقصر عالي قابو (الباب العالي) بأصفهان (لوحة ١٥٠)، وقصر هشت بهشت (الجنات الثمان) بأصفهان[٣] (شكلا ٣٨١ ـ ٣٨٢) بالجناح الشرقي لدار الإسلام.

ومنها: بالجناح الغربي لدار الإسلام: قصر الزهراء (لوحة ١١١) من

= **العصرين العباسي والفاطمي**، ص١١٨ ـ ١٢٥.

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣ ـ ٢٨، ١٣٦ ـ ١٤٢.

(٢) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٦٠٤؛ رجب، أحمد، **تاريخ وعمارة الدور والقصور والاستراحات والحمامات الأثرية الإسلامية في الهند**، القاهرة (٢٠٠٦م)، ص٣٣ ـ ٦٦، ١٢٧ ـ ١٢٩؛، **قصور الإمبراطور أكبر بمدينة فتح بورسيكري، وقائع تاريخية**، يوليو (٢٠٠٤م)، ص٣٣٢ ـ ٣٤٤، (لوحات ١ ـ ٢٥)؛ الغامدي، سعد حذيفة، **التاريخ الإسلامي ومعالمه الحضارية في بلاد الهند والسند مدينة الفتح الإسلامي في سيكري**، الرياض (١٩٩٥م)، (٢٦٤ صفحة، فضلاً عن ٥٦ لوحة ملونة).

(٣) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٥١ ـ ٥٥٥.

عصر الخلافة الأموية بالأندلس[1]، وقصر الجعفرية بسرقسطة (شكلا ٢٠٧، ٢١٤، لوحات ١١٥ ـ ١١٧) من عصر ملوك الطوائف بالأندلس، قصر إشبيلية (لوحة ١١٩) من العصر الموحدي بالأندلس[2]، وقصور الحمراء (شكلا ٢٢٤ ـ ٢٢٥، لوحات ١٢٠ ـ ١٢٩) بغرناطة من عصر دولة بني الأحمر، أو بني نصر بالأندلس.

وفي المغرب الأقصى بقايا قصر البديع من عصر الأشراف السعديين[3].

وفي سوريا قصر العظم (شكل ٨٥) بدمشق، وقصر العظم بحماة[4] (لوحة ٢٦).

---

(١) العزي، نجلة إسماعيل، **قصر الزهراء في الأندلس**، بغداد (١٩٧٧م)، (١٩٣ صفحة؛ فضلاً عن الأشكال واللوحات)؛ سالم، **المساجد والقصور**، ص٨٠ ـ ٨٥؛ عناني، كمال، **طرز الزهراء المعمارية والزخرفية**، مجلة كلية التربية بكفر الشيخ، العدد (٣)، السنة ٥، (٢٠٠٥م)، ص٦١ ـ ١٤٦.

(٢) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص١٩٧ ـ ٢٠٠، ٢٠٤؛ **المساجد والقصور**، ص٩٢ ـ ٩٧.

(٣) الأفراني، محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، الرباط (١٩٩٨م)، ص١٨٠ ـ ١٩١؛ كريم، عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، الرباط، ط٣، (٢٠٠٦م)، ص٢٩٩ ـ ٣٠٥؛ إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، (٥/ ١٠٩ ـ ١٢٨)؛ التازي، عبد الهادي، **قصر البديع**، الرباط (١٩٧٧م)؛ حركات، **المغرب عبر التاريخ**، (٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩٢).

(٤) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٠٨ ـ ٥١١، ٥١٧ ـ ٥١٨، العش، محمد =

وفي مصر: قصر بشتاك (بشارع المعز لدين الله)، وقصر طاز (بشارع السيوفية) من العصر المملوكي، وبيت السحيمي، والمسافر خانة، والست وسيلة، والهراوي، وزينب خاتون، والكريدلية (متحف جاير أندرسون حاليًا)، وجمال الدين الذهبي من العصر العثماني، وغير ذلك[1].

ولا تفوتنا الإشارة إلى ما تتميز به بعض المدن من طابع معماري، وسمات فنية متفردة؛ كما هو الحال في بيوت جدَّة (لوحة ٢٠٨) بالمملكة العربية السعودية، وبيوت رشيد بجمهورية مصر العربية، ويبلغ عدد البيوت الآثارية الباقية برشيد ٢٢، وهي تعد من أبدع وأروع نماذج العمائر السكنية؛ فقد بنيت بالطوب المنجور والملون، وتتخلله أحياناً الميد الخشبية، ويتراوح عدد طوابق البيوت الباقية ما بين طابقين؛ كما هو الحال في منزل طبق، ومنزل بسيوني، وخمسة طوابق؛ كما هو الحال في منزل الميزوني، وجلال، وكانت هناك بيوت من ٦ طوابق؛ كما يستدل من الوثائق، ومنها: وثيقة وقف صالح الصراف ١١٨٩هـ ـ ١٧٧٥م، أما الدور التي تشتمل على ٣ طوابق، فهي: مكي، والبقرولي، وعلوان، وحسيبة غزال، والأمصيلي، والجمل، وكوهية، وأبوهم، وعصفور.

= أبو الفرج، **قصر العظم بدمشق**، مجلة قافلة الزيت، (شعبان ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، ص٧ ـ ١٥.

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٤٩٤ ـ ٤٩٦؛ موسى، رفعت، **الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية**، القاهرة (١٩٩٣م)، ص١٦٩ ـ ٣٤٢؛ ياغي، غزوان مصطفى، **منازل القاهرة ومقاعدها في العصرين المملوكي والعثماني**، القاهرة (٢٠٠٤م)، ص٣٧ ـ ٣٢٥.

والـدور التـي تشتمـل على ٤ طوابـق هي: رمضـان، وعـرب كلي، والمناديلي، والقناديلي، ومحارم، ودرع، والتوقاتلي، وثابت، وفرحات.

كذلك تميزت بيـوت رشيـد بالمسميات التـي أطلقت على وحـداتها ومفرداتها، فالطابق الأرضي عـرف بالشادر؛ حيث إنه يشتمل على وكالات ومخازن وإصطبـلات، والطابق الأول (السلاملك) عرف بالدهليز، وأحياناً الدار السفلى، والطابق الثاني (الحرملك) عرف بوسط الدار، والطابق الثالث عرف بوسط الـدار العليا، والطابق الرابع عرف بالحضير[1] (الهدير)، وكان يخصص للإقامة في الصيف، ويحوي مقاعد لطيفة.

ويصعب في هـذه العجالة دراسة العمائر السكنية التي سبقت الإشارة إليها، ولذلك حسبنا أن نركز على دراسة بعض العمائر السكنية التي أنشئت خلال العصر العثماني من جهة، وأن نفرد لكل من قصور الحمراء بغرناطة، وطوبقابي سراي بإستانبول دراسة موجزة ضمن الباب الثاني من هذا الكتاب.

أما عن العمائر السكنيـة خلال العصر العثماني، فقـد ازدانت بالعديد من كافة أنماط المنشآت السكنية؛ كمـا يستدل من خلال تلك الإحصائيات التي أبرزناها في كتابنا عن العمـارة الإسلاميـة في أوروبا العثمانيـة، وذلك عند دراسة مظاهـر النشاط العمراني الهائل والمكـثف إبان ذلك العصر، إلا أنه لم يتبق منها سوى القليل، وبخاصة في أوروبا العثمانية خارج تركيا، أما الجزء الأوروبي من تركيا، فما يزال يحتفظ بالعديد من الإبداعات والروائع

---

(١) وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، **آثار رشيد**، ط٢، القاهرة (١٩٨٥م)؛ القاضي، وآخرون، رشيد، **النشأة الازدهار الانحسار**، القاهرة (٢٠٠٠م)، ص٢١٧ ـ ٢٢٨، (لوحات ٦ ـ ٣٩).

من سرايات وقصور وأكشاك واستراحات على كل من ضفتي البوسفور (لوحة ٢٠١)، إلا أن ما يعنينا منها هو مـا يقع على الضفة الغربيـة، ومنها: طوب قابي سراي، وضولمه باغجه سراي، وجراغان سراي، ويلديز سراي، وقصر راشـد باشا بشكطاش، والقصر الصيفي، وغير ذلك من القصور في الجـزء الأوروبي من مدينة إستانبول[١].

وكانت سراي أدرنة الهمايوني تكاد تقارب طوب قابي سراي في شهرتها في الفترة الكلاسيكيـة، إلا أنـه لم يتبق منهـا سـوى الشيء اليسير، وبعض الأبراج ـ كما سبق القول ـ. فضلاً عن بعض المنازل والقصور المتناثـرة في مدن أوروبا العثمانية خارج تركيا.

ونستعرض فيما يلي الخصائص العامة والسمات الرئيسية لكل منها:

سراي أدرنة:

كانت هذه السراي تمتـد فوق مساحة قدرها ٣ كم ٢، وكانت تشتمل على ١٧ بابًا، و٧ مساجد صغيرة، وجامع سلطاني، و٢٢ حمامًا، و٧٥ قصرًا داخليًا، فضلاً عن الجـواسق (الأكشاك)، والجسور (٦ جسور)، والميادين (٥ ميادين)، وكان من أشهر قصورهـا: جيهانمـا Cihannuma ذو الطوابق السبعة، وصالتـه ذات الحوض الشهيرة، وشرفته الكائنة في الطابق الأول، والتي بلغت مساحتها نحو ٦٠٠م٢، ومن قصورها ـ أيضًا: ـ «قـوم قصري» الذي أمر بإنشائـه السلطان الفاتح، وبلغت مساحته ٦٠٠م٢، كما كان جناح

---

(١) Tuglaci, the Role of the balian, PP. 14-18, 26-35. 113-257, 482-484. 546, 661, -. , Hellier, splendors of Istanbul, PP. 151 - 199.

دار السعادة يتكـون من ٨ غرف، وحمام كبير مساحتـه ٢٨ x ٢٠ ذراعًا، أما جناح الوالدة تارخـان سلطان، فكان من طابقين، ويشتمل على ديوان خانة كبيرة، وتسع غرف كبيرة، وحمام ذي حوضين، ومطبخ خاص[١]، ولم يتبق من هذه السراي الكبيرة التي كانت أنموذجًا احتذي في طوب قابي سراي سوى الشيء اليسير ـ كما سبق القول ـ، ومن ذلك اليسير: بعض الجسور، وأجزاء من جـدران قصر جيهانما الشهير، وأجزاء من حمام قـوم قصري، والبوابـة الواسعة ذات العقد نصف الدائري بجوار باب السعادة المعروف، وأجزاء من المطبخ السلطاني تضم ٨ قباب، وبرجين ضمن مبنى استراحـة العدالة التي أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني على يد قوجه معمار سنان، ولم تثمر الجهود التي بذلت من أجل صيانة وترميم تلك الأجزاء الباقية، بل وصل الأمر إلى أن استخدمت أنقاض القصر في إقامة معسكرات ومبان أخرى[٢].

ومن أهم وأبدع القصور العثمانية: طوبقابي سراي بإستانبول، وسوف نتحدث عنه في الباب الثاني من هذا الكتاب.

غير أن ما يعنينا في هـذا المقام هو: أن هذه السراي قد فقدت صفتها كمقر سلطاني دائم منـذ عام ١٢٧٠هـ ـ ١٨٥٣م؛ إذ تركه السلاطين بدءًا من أواخر حكم السلطان عبد المجيد الأول (١٢٥٥ ـ ١٢٧٨هـ ـ ١٨٣٩ ـ ١٨٦١م)، واتخذوا بدلاً منه سراي ضولمه باغجه (لوحتا ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، ثم سراي يلديز (لوحة ٢٠١) مقرًا دائمًا لهم.

---

(١) أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، مج٢، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٢) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥؛

.Ayverdi, yuksel, ilk 250 senenin, s. 136 _ 139

وقد عكس تصميم وزخرفة وأثاث هاتين السرايتين والسرايات والقصور الأخرى التي أنشئت من قبل السلطان عبد العزيز، وعبد الحميد الثاني، والصدور العظام والوزراء على جانبي البوسفور عامة، والجانب الأوروبي منه خاصة مدى الاستجابة الكاملة للطراز الأوروبي غير المنسجم مع الذوق والتقاليد الشرقية الإسلامية عامة، والتركية العثمانية خاصة، ومن بين نماذج تلك السرايات وهذه القصور حسبنا أن نشير إلى سراي البكلربكي (السراي الصيفي) ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م، وسراي جراغان في أورطة ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م، وقصر راشد باشا، وغير ذلك، فضلاً عن الأكشاك والفيلات والمنازل الخشبية، والتي تعرف في المصطلح باسم: اليالي، ونحن نتفق مع ما ذلك المصطلح الذي أطلقه Hellier على تلك الروائع والإبداعات الأوروبية الطراز، وهو: الفنون الجميلة على البوسفور (Beaux - Arts on the Bosphorus)، والحق أنها لكذلك[١].

وكان وراء ما أصاب المجتمع العثماني من حمى التفرنج، وما ترتب عليها من أعراض الارتماء في أحضان الغرب مجموعة من المعماريين، ومن أشهرهم: أفراد الأسرة الباليانية التسع، وهم: بالي خليفة، وكركور أميره باليان، وسنه كريم أميره باليان، وقره بت أميره باليان، ونيكوكرس بك باليان، وآكوب بك باليان، وسركيس بك باليان، وسيمون بك باليان، وليفون بك

---

(١) Tuglaci, the Role, PP. 14 - 75, 113 - 257, 482 - 484, 546 - 66
Hellier, splendors, PP. 151 - 199. 1.

ولمزيد من التفاصيل انظر: صبحي، إبراهيم، **اليالي التركي**، **العصور**، المجلد ١٨، ج١، (ذو الحجة ١٤٢٨هـ - يناير ٢٠٠٨م)، ص٦٥ - ١٢٠.

باليان، فضلاً عن المعماريين الأوروبيين الذين استقدموا، ومنهم: دارنكو، وفالوري[1]، وغيرهم. ولا ننسى أن العامل الأساسي في ذلك إنما يرجع في المقام الأول إلى التفوق الأوروبي الشامل في كافة المجالات جعل منها إمامًا ينسج على منواله، وأنموذجًا يحتذى، فكل من أراد التجديد والتطوير والإصلاح عليه أن يقتدي بذلك النموذج اقتداء أعمى، ومن هنا صار مصطلح التغريب عَلَمًا على كل الطرز والأنماط المعمارية والفنية في النصف الثاني من القرن ١٣هـ - ١٩م، والنصف الأول من القرن ١٤هـ - ٢٠م، وحسبنا أن نستشهد للدلالة على ذلك بتجربة محمد علي وأسرته في مصر، التي جعلت من القاهرة - ولا سيما في عهد الخديوي إسماعيل - باريس الشرق، وهذا موضوع آخر ما تزال البحوث فيه في بدايتها.

أما المنازل والقصور التي أقيمت في أوروبا العثمانية خارج تركيا، فيمكن القول: إنها لم تخرج عن الطراز التقليدي الشائع في تصميم المنازل والقصور الإسلامية عامة، إلا من حيث بعض المفردات والتفاصيل، وتحتوي غالبية المنازل على الجناحين التقليديين، وهما: السلاملك، والحرملك، وكانا يتصلان ببعضهما - ولا سيما في المنازل الكبيرة - بواسطة فناء داخلي inner court، وفي المنازل الصغيرة كان السلاملك مجرد حجرة واحدة، أو حجرتين، وذلك في الجزء المطل على الشارع، وتوجد منازل تحتوي على أفنية (Avlija)، وأخرى بدونها، وكانت تزود المناول بالمرافق والمنافع الأساسية؛ مثل: الأفران، والفساقي، والحدائق (basca)، والجواسق،

(١) Tuglaci, The Role, PP. 5, 84, 81, 303, 395, 429,662, 667.
آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢١٥.

والبرجـولات، والمطابخ، والمراحيض، والحمـامات، وقد يكون المنزل من طابق واحد، أو أكثر من طابق، وغالبيتها لا تزيد عن ثلاثة طوابق.

ويمكن القول: إن الاختـلاف بين المنازل كان ينحصر بصفـة أساسية في طريقـة توزيـع ثلاثـة عناصر رئيسيـة، وهي: الحجـرات، والصالات، والسلالم، وعلى هـذا الأساس تقابلنا على نطاق واسع، وتوجـد نماذج له في الأجزاء الجنوبية من البلقان، وهو في جوهره يخلو من الصالة، ويتكون من حجـرة واحـدة، أو حجرات على محـور واحد، ويكون لـه مدخل من الفناء أو الشارع.

وثانيهـا يمثل أول خطوة في تطور عمـارة المنازل، وهو النمط الـذي يتميز باشتماله على صالة خارجية (an outside hall) مغطاة يتم عن طريقها ربط الحجـرات واتصالهـا ببعضهـا البعض، وتكـون الصالـة غالبًا مفتوحـة (open hall).

وثالثهـا يعـد خطوة أكـثر تقـدمًا، وهـو النمـط ذو الصالـة الـداخليـة (an inside hall)، وفيه تم ترتيب الحجرات في الجانبين الخارجيين للصالة المفتوحة، ومن ثم فهو يعرف أيضًا بالنمط ذي الوجهين (The two sided Type)، وقد شاع ذلك النمط كثيرًا في تصميم المنازل العثمانيـة في البلقان، وكانت هـذه الصالات تزود بدخـلات جانبية (Alcoves) حتى يمكن زيادة مساحـة الفراغ الداخلي للصالة، وتهيئة مستراح جديد بها، وأحياناً ما كان يوضع في أحدها (An Alcove) سلم، وفي أحيان أخرى كان السلم يوضع في جانب واحد، أو جانبين من الصالة، وكان للظروف المناخية السائدة، والتي تختلف من مدينة لأخرى، دورها في تحديد عدد هذه الدخلات الجانبية المضافة،

ولكنها غالبًا لم تخرج عن دخلة واحدة، أو اثنتين على الأكثر، وبالتالي في تصميم شكل الصالة.

ورابعها يعد خاتمة الطور، وهو النمط ذو القاعة المركزية التي تلتف حولها الحجرات من جميع جوانبها، وهو يذكرنا بالطراز التقليدي المثالي للقاعات الإسلامية في الدور والمنازل في مصر والشام من العصر المملوكي، والتي تتكون من درقاعة وسطى تحيط بها أربعة إيوانات، وكان لهذا النمط أثره الكبير في حماية المنازل من الأضرار الناجمة عن الظروف المناخية في بعض المدن، وزود هذا النمط ـ أيضًا ـ بالدخلات الجانبية (Alcoves)، سواء فيما بين الحجرات، أو في جوانب القاعة، وينطبق الشيء على السلالم، وذلك طبقًا لحجم القاعة وحدودها الكنتورية، فكان هذا النمط هو الآخر من الأنماط الشائعة والمحببة حتى أواخر القرن ١٣هـ ـ ١٩م، بل وربما حتى أوائل القرن ١٤هـ ـ ٢٠م[1]، ولا يعني وجود تلك الأنماط الأربعة عدم وجود نمط واحد يجمع بين عناصر ومفردات مقتبسة من نمطين وأكثر.

ومهما يكن من أمر، فإن المنازل الباقية بتخطيطها ومفرداتها وعناصرها المعمارية والزخرفية تعكس الجمع بين الطراز العثماني، والطابع المحلي في طراز واحد غالبًا، بما في ذلك تلك التأثيرات الأوروبية التي هيمنت في أوروبا العثمانية خلال القرنين ١٢ ـ ١٣هـ ـ ١٨ ـ ١٩م.

ومن هذه المنازل والقصور الباقية حسبنا أن نشير إلى منازل: موستار، وبلاجاي، وسراييفو، وكوسوفو، وقالقاندين، وفيلبه (بلوفديف)، ورودوب،

---

(١) Pasic, Islamic A rchitecture, PP. 103 _ 137.

وياكوفكا، وإبيروس، وأوخرة، وبلغراد، وبريزرن، ويانيا، وسالونيك، وقنديه، وخانيه بجزيرة كريت، وبيرات وGjirokaster في ألبانيا ونيقوسيا القبرصية.

ولـدينا نموذج رائـع للمنزل الـريفي البـديع (Rural House) في Pec (ipek) في يوغسلافيا السابقة[١].

وكانت تقام خارج المـدن منازل محصنة يطلق عليها اصطلاحًا اسم: القلة (Kula)، حيث كانت تزود ببرج ذي ثلاثة طوابق أحياناً يصعد إليها من خـلال سلم متصل بالبرج، ويسقف البرج عـادة بسقف مخروطي، أو على هيئة هرم ناقص من الخشب، وبعض تلك المنازل من طابق واحد، وبعضها الآخـر من طابقين، وهـي تشتمل على الفناء الأوسـط، وتصطف في جنب واحد منـه أو جانبين الحجرات والمنافـع والمرافق المختلفة؛ مثل: حجرة التخزين، وخزان الماء، والمراحيض، وغير ذلك. أما البرج أو القلة، فكان في ركن المنزل بجوار الحجرات غالبًا، ومن أشهر نماذجها: قلة Cema lovica في بونـا (شكل ١٨٥)، ومنها: قلة في Vitina ، وقلة في Bihac بالبوسنـة والهرسك من القرن ١٣هـ - ١٩م[٢].

وقلة كوجك محمد والي قبرص ١٢٣٢ - ١٢٣٧هـ - ١٨١٦ - ١٨٢١م في نيقوسيا القبرصية[٣].

كذلك لا تفوتنـا الإشارة إلى أن التأثيـرات العثمانيـة (الطراز الرومي)

---

(١) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 191.

(٢) Pasic, Islamic A rchitecture, PP, 137 - 139.

(٣) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 62.

والأوروبيـة بدأت تتسرب إلى مصر خلال عصر أسرة محمد علي (١٨٠٥ - ١٩٥٢م)، فشيدت الكثير من القصور والسرايات والأكشاك بالقاهرة وحلوان والإسكندرية على غرار تلك الطرز الوافدة، سواء من حيث التصميم المعماري، أو من حيث الوحدات والمفردات المختلفة، أو من حيث النقوش الزخرفية، وهو ما يتجلى في الأربطة، والفيونكات، وأرضيات الباركية، وأشكال الدروع والأشرطة والأعمـدة المركبـة، والبانوهات الغائـرة (الحشوات الغاطسة)، والتكنـة والخشخانات والخراطيش والسرر والـدعامات والركائـز الطائرة، والشعارات الرمزية، وعقود الأزهار والنباتات والفاكهة، والفرنتون (الجبهة المثلثة)، ومربعات المتوب والأكتاف المدمجة (الفصوص)، وقرون الرخاء أو الأبواق، والحليات الشبكيـة والنواية والأسنان، ونوافـذ العجلة، وورق الحائط واللوحات الزيتية، ومن الوحدات المعمارية: أودة الأغاوات، والأودة باشي، وأودة التلغـرافجي، وأودة التـوتونجي (التـدخين)، وأودة الخـوان (المائدة)، وأودة الكيلار (المخزن)، وأودة الوجاق (المدفأة)، وأودة النشانجي والبلوكات، وبيت القهوة، وحجرة الاستوديو (المرسم)، والديوان والسلاملك والشكمـة (الجلوس الخصوصي)، والفرنـدة الطائرة (شرفـة تتقدم مداخل القصور)، وغير ذلك.

ومـن قصور الطراز الرومـي التـركي: قصر الجـوهرة، وقصر الحـرم بالقلعة، وقصر شبرا، وكشك المناسترلي بجوار مقياس النيل بالروضة.

والطراز الأوروبي بأنمـاطه المختلفـة، أو الطراز التلقيطي أو التلفيقي نجده في: قصر المنتزه بالإسكندريـة (لوحتا ٨٦ - ٨٧)، وقصور طوسون، وإسماعيل صديق، وسعيد حليم، وإسماعيل محمد، والسكاكيني، وعابدين،

وفايقة هانم، والزعفران (مقر جامعة عين شمس حاليًا)، وشيوه كار هانم.

ولكن في أواخر القرن ١٣هـ ـ ١٩م تم إحياء الطراز الفرعوني، والطراز الإسلامي في عدد من القصور؛ كما هو الحال في: قصر الجزيرة المعروف بعمر الخيام، أو فندق ماريوت بالزمالك، وقصر عمرو إبراهيم بالزمالك، وقصر الأمير محمد علي الصغير بالمنيل، وغير ذلك[١].

* * *

المبحث الرابع
عمائر المنافع العامة

ازدانت مدن العالم الإسلامي بالعديد من أنواع عمائر المنافع العامة؛ من الآبار، والبرك، والمواجل، والسدود، والعيون، والقناطر، والمقاييس، ودور ضرب العملة، وغير ذلك، وهو ما يستدل من خلال ما ورد في العديد من المصادر التاريخية، وبصفة خاصة كتب الفتوح والتاريخ العام، والتاريخ المحلي، وكتب الخطط، وكتب الجغرافيين والرحالة، وكتب الموسوعات، وكتب التراجم والسير؛ فضلاً عن وثائق الوقف المختلفة من جهة، والأدلة الآثارية الباقية في العديد من الأقطار العربية والإسلامية من جهة ثانية.

ومن أقدم الإشارات التاريخية ما يتعلق بالمنشآت المائية بالحجاز،

---

(١) نجم، عبد المنصف سالم، **قصور الأمراء والباشوات في مدينة القاهرة في القرن التاسع عشر**، جزءان، القاهرة (٢٠٠٢م)؛ **قصر إسماعيل صديق باشا المفتش**، بلاظ أوغلي، القاهرة (٢٠٠٣م)، **حلوان مدينة القصور والسرايات**، القاهرة (٢٠٠٦م).

وبصفة خاصة: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطرق المؤدية إليهما من الآبار والبرك والعيون والقنوات والسدود، ومن هذه الأخيرة بقيت بضعة سدود، ومنها بالمدينة المنورة: سد معاوية بن أبي سفيان بوادي الخنق، وسد وادي رانوناء (وقد تم تجديده في عهد السلطان العثماني عبد العزيز ١٢٨٩هـ ـ ١٨٧٢م كما يستدل من النقش الكتابي)، وسد عاصم. ومنها بالطائف: سد معاوية بن أبي سفيان المعروف بسد سيسد ٥٨هـ ـ ٦٧٧م؛ فضلاً عن سدود الحجاج بن يوسف الثقفي، وغيرها بمكة المكرمة.

ومثل هذه السدود كانت تساعد على توفير المياه لأغراض الزراعة من جهة، ودرء مخاطر السيول عن المناطق السكنية من جهة أخرى[١].

ومن المنشآت المائية في الأقطار الإسلامية الأخرى تقابلنا المواجل والخزانات والقناطر في تونس، والتي أشار إليها اليعقوبي، والبكري، والإدريسي، وابن عذارى، وابن الخطيب، ومن أهمها: الماجل الكبير بالقيروان الذي أمر بإنشائه الأمير أبو إبراهيم أحمد الأغلبي، وما يزال باقيًا وهو متعدد الضلوع؛ حيث تصل ضلوعه إلى ٤٨ ضلعًا تؤلف ما يقرب من الدائرة قطرها ١٢٨م^{٢}، وكل زاوية من هذا الضلع ترتكز على ركيزة مزدوجة من الداخل والخارج، وفي وسطه تنتصب قاعدة من البناء مربعة الشكل،

(١) العلي، صالح أحمد، **الحجاز في صدر الإسلام**، بيروت (١٩٩٠م)، ص١٣١ ـ ١٥٦؛ غبان، علي إبراهيم، **شمال غرب المملكة العربية السعودية**، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مدخل عام، الرياض (١٩٩٤م)، ص١٣٤؛ الراشد، سعد عبد العزيز، **دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة**، الرياض (٢٠٠٠م)، ص٢٦ ـ ٢٨، ٣٢ ـ ٨٦؛ الحارثي، ناصر علي، **المعجم الأثري لمنطقة مكة المكرمة**، الطائف (٢٠٠٣م)، ص٨٣ ـ ٩٠.

بكل وجه من وجوهها دعامـة أسطوانية الشكل، وكانت هذه القاعدة تحمل مجلسًا كان يقيم فيه الأمير للراحـة، وبجوار هذا الماجل ماجل آخر متعـدد الأضلاع ـ أيضًا ـ، ولكـن من ١٧ ضلع، ويصل بين الماجلين فتحـة نصف دائرية تقع على عدة أمتار من القاع، وللماجل الصغير ١٧ ركيزة داخلية تكتنف الأركان، و٢٨ ركيزة خارجية تكتنف الأركان الخارجية، بالإضافة إلى منتصف كل ضلع، وكان الماء يجلب إلى الماجل على حنايا (عقود) من سبيطلة[1].

ومن المنشآت المائية: الصهاريج، ومن أقدم النماذج الأثرية الباقية: صهريج الرملة المعروف ببئر العنيزيـة ١٧٢هـ ـ ٧٨٩م (شكل ٦٢)، ومنها: صهاريج مدينة الإسكندرية[2] بجمهورية مصر العربية، وغير ذلك.

ومنها: الغيول في اليمن، وأقـدم الغيول المعروفـة منها في صنعـاء،

---

(١) سالم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، ص٣٧٢ ـ ٣٧٥؛ سويسي، محمد، **أنماط العمران البشري بأفريقيـة وجزيـرة المغرب حتـى العهد الحفصي**، تونس (٢٠٠١م)، ص١٢١، ومن الدراسات المهمة: دراسة بن وزدو، الهادي، وآخرين، وموضوعها: **قانون المياه والتهيئة المائية بجنوب أفريقية** (تونس) في العصر الوسيط من خلال كتاب: القسمة وأصول الأرضين لأبي العباسي أحمد بن محمد بن بكر الفرسطانـي النفوسـي (ت٥٠٤هـ ـ ١١١٠م)؛ تونس (١٩٩٩م) (٢٦٧ صفحـة). ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن مامي، محمد الباجي، **المنشآت المائية في البلاد التونسية خـلال الفترة الإسلاميـة**، ضمن كتاب: النقائش والرسوم الصخريـة في الوطن العربي، الألكسو، تونس (١٩٩٧م)، ص١٣٨ ـ ١٥٩.

(٢) سامح، **العمـارة في صـدر الإسلام**، ص١٥٤ ـ ١٥٧؛ القطري، سحر محمـد، **دراسة أثرية معمارية لصهاريج مكتشفة حديثًا بمدينة الإسكندرية**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المنيا، العدد (٥٤)، (أكتوبر ٢٠٠٤م)، ص٦٣٣ ـ ٦٧١، فضلاً عن الخرائط والأشكال واللوحات.

وهو: غيل البرمكي؛ نسبة إلى الأمير محمد بن خالد البرمكي، الذي استخرج وشق وجرّ هذا الغيل، ومن ثم نسب إليه، وعرف به.

ومنها: غيل آلاف، والغيل الأسود، وغيل الباشا، وغيل المهدي، وغيل الجرداء (المنصور)، وغيل الجراف، وغيل علي.

ومياه الغيول هي مياه سطحية تجري على هيئة مجار مائية، إلا أن المصدر الذي يغذيها هو مصدر جوفي، ذلك أن الغيول عبارة عن عيون تستمد الماء من الشقوق والانكسارات التي تمزق التكوينات الصخرية التي تتكون منها، وإلى هذه الشقوق والانكسارات تتسرب مياه الأمطار، فتملؤها، وتبقى مختزنة إلى أن تجد فتحة في الصخر تخرج منها، وتوجد هذه الفتحات عادة في جوانب الجبال، فتنحدر منها المياه إلى الأودية، وتكون مجاري مائية سطحية دائمة، ومما يساعد على انبثاق المياه من هذه العيون: وجود طبقات صماء أسفل الشقوق والانكسارات تحول دون تعمقها نحو الباطن، وبذلك تمتلئ الشقوق بالمياه.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت المياه تجر من منبعها عبر مسار محدد تحت سطح الأرض وفوقها، عبر آبار تحفر على مسافات متقطعة بحيث يمكن الحفاظ على مجرى الماء وتنظيفه مما يتراكم فيه من تراب وحصى وما إلى ذلك، وهذه المسارات بمثابة قنوات ممتدة تنقل الماء إلى مسافات بعيدة نسبيًا من منبعه إلى المدينة، وإلى الأراضي الزراعية المجاورة، وهذه الحفر أو الآبار المتتابعة على مسار الغيل تعرف بالكظائم[1].

---

(١) عسلان، عبد الوهاب محمد، **غيول صنعاء**، بيروت، دمشق (٢٠٠٠م)، ص١٨ - ١٩، ٢٣، ٣٨.

ومنها: الأفلاج العمانية، ويقصد بها: تلك المياه الجارية عبر قناة مشقوقة في الأرض، ومصدرها المياه الجوفية في باطن الأرض، وهي بقايا مياه الأمطار التي تمكث في خبايا طبقات الأرض، وتكون أفلاجًا مفتوحة مشابهة للغيل، وجداول سطحية وتحت سطحية بين الحصى، والفلج في عمان يمكن أن يكون بمثابة منجم صناعي من المياه المجتمعة في حوض تستخرج إلى سطح الأرض عن طريق أنفاق مثل القنوات في إيران تمامًا، ومتوسط عمق البئر الأم ٢٠م، ويمكن لها أن تصل إلى ٧٠م، ومن هذه البئر الأم حتى مصب النفق توجد آبار على مسافات متساوية، عمقها ١٧ ـ ٢٠م، وتستخدم في البناء الأولي، وفي أعمال الصيانة التي تلي ذلك، وقد يمتد النفق تحت الأرض إلى طول ٣كم، أو ١٠م[1].

ومثلها: القنوات في إيران (كرز أو كهريز الفارسية)، وشمال غرب المملكة العربية السعودية حاليًا، والمغرب، والجزائر[2]، ولا تفوتنا الإشارة

---

(١) العبري، بدر سالم، **الأفلاج العمانية ونظامها**، حصاد ندوة الدراسات العمانية، مج٣، سلطنة عمان (١٩٨٠م)، ص٩ ـ ١٠؛ ساردا، فرانسيسكو، **الأفلاج العمانية ومجاري المياه**، حصاد ندوة الدراسات العمانية، مج٨، سلطنة عمان (١٩٨٠م)، ص١٨٣ ـ ١٨٩؛ ويلكنسون، د. ج، **نشأة الأفلاج في عمان**، حصاد ندوة الدراسات العمانية، مج٨، سلطنة عمان (١٩٨٠م)، ص١٥٠ ـ ١٢٤؛

Wilkinson, J. C. , Water and Tribal Settlement in South_East Arabia, Oxford, (1977), PP. 82 _ 85.

(٢) ابن حموش، مصطفى، وبلقاضي، بدر الدين، **خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني**، ترجمة وتحقيق وتعليق (ابن حموش وبلقاضي)، أبو ظبي (٢٠٠٤م)، ص٢٣٦ ـ ٢٣٩. ولمزيد من التفاصيل انظر: =

إلى مدريد الأسبانية، تلك المدينـة التي اشتقت اسمها من شبكـة المجاري المائية، أو القنوات المائيـة الجوفية التي تكثر فيها، فهي مركبـة من كلمة: (مجرى) العربيـة، و(ريط) النهاية اللاتينية التي تدل على التكثير (مجريط، ثم مدريد)، وقد برع المسلمون في الأندلس في حفر الآبار إلى مستوى المياه الجوفية، ثم بناء قنوات في الطبقة الأرضية التي لا تمتص الماء، وأن تكون منحدرة انحدارًا خفيفًا يسمح بجريان الماء دون توقف، وكانت هذه القنوات من فَخَّار مدريد الذي يمتاز بأنه مُصمَت لا يتشرب السوائل، وقوي ومتماسك، ويكون حفر الآبار في مواضع مرتفعـة عن مستوى المدينـة وضواحيها، أما القنوات الجوفية، فتتجه نحو المدينة، وهي تتألف من قناة ضخمة تعد هي الأم، وتتفرع منها في داخل المدينـة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية، وفي كل عقدة يتجمع عندها عـدد من تلك الفروع يقـام خزان، أو مستودع

= خلاصي، علي، **المنشآت المائيـة التاريخيـة في الجـزائر**، ضمن كتاب **النقائش والرسوم الصخرية في الوطن العربي**، الألكسو، تونس (١٩٩٧م)، ص٦٠ ـ ٧٢، ٧٦ ـ ٧٩؛

Fisher, B., Irrigation Systems of Persia, Geog. Review, vol. 18, (1928), PP. 298 - 304, Wulf, H. E, The Traditional Grafts of Persia, Cambridge (1966) PP. 251-255., Bechett, P., Qanats Around Kirman, Jrcas, vol xi, (1953), PP. 47 - 58., Cressey G. B., Qanat, Karez and Faggaras, Journal of the Central Asia Society, vol. xi, (1958), PP. 27-44., Nasif, A.A., AL-ula., Ahistorical and archaeological Survey of with Special Reference to its irrigation Systen, Riyath, (1981).

يتم من خلاله توزيع الماء توزيعًا عادلاً في المدينة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقصبات من الحديد، لا يسمح بدخولها إلا للقنواتي، ولا يقتصر ذلك النظام على مدريد، بل عرف في العديد من المدن الإسلامية بالأندلس[1].

أما قناطر المياه المعروفة بمجرى العيون، أو الحنايا، فكثيرة، ومن بينها في مصر: قناطر أحمد بن طولون التي لا تزال بقاياها قائمة بالبساتين (جنوب القاهرة) ٢٥٩هـ ـ ٨٧٢م، ويعد برج المآخذ الذي يعرف لدى العامة ببئر أم السلطان هو أكثر الأجزاء الباقية من هذه القناطر تماسكًا، وكانت تمتد من بئر ابن طولون المعروف ببئر عفصة الكبرى عند بركة الحبش (البساتين) حتى الفسقية التي بقرب درب سالم؛ أي: حتى مشهد آل طباطبا بعين الصيرة حاليًا، وقد بنيت هذه القناطر بآجر (الطوب الأحمر) يماثل في الشكل والحجم آجر المسجد الطولوني، كما أن عقودها المدببة تشبه عقود المسجد ـ أيضًا ـ[2].

ومنها: قناطر المياه المعروفة بمجرى العيون بفم الخليج بالقاهرة، وتمتد حتى تزود قلعة صلاح الدين المعروفة بقلعة الجبل بالقاهرة، وسوف نفرد لهذه القناطر دراسة موجزة ضمن الباب الثاني من هذا الكتاب.

ومن عمائر المنافع العامة ـ أيضًا ـ: المقاييس التي يتم بواسطتها معرفة مقدار زيادة الماء أو نقصانه، ولحسن الحظ فقد بقي منها أنموذج فريد، وهو

---

(١) مكي، محمود علي، **مدريد العربية**، ص٥٩ ـ ٦٠، ٦٦؛ مالدونادو، **العمارة الأندلسية**، عمارة المياه، ص١٨٩ ـ ٢٤٢.

(٢) الحداد، **قرافة القاهرة**، ص٦٧ ـ ٧٣.

مقياس النيل بحي المنيل بالقاهرة، وسوف نفرد له دراسة موجزة ضمن الباب الثاني من هذا الكتاب.

وهنـاك ـ أيضًا ـ دور ضرب السكة (العملة) المتداولـة خلال العصور الوسطى، وهي الدنانير الذهبيـة، والدراهم الفضية، والفلوس النحاسية أو البرونزية، وقد وردت إشارات تاريخية كثيرة حول إنشاء الكثير منها في العديد من المدن، إلا أنـه لسوء الحظ لـم يعـد باقيًا منها سوى القليل، ومن هـذا القليل: دور الضرب بقلعـة صلاح الـدين المعروف بقلعة الجبل بالقاهرة، والتي أثبت د. نجيب: أنها عبارة عن ثلاثة دور للضرب تقع جميعها جنوب شرقي القلعـة في الموضع الـذي كان يعرف بالحـوش السلطاني في العصر المملوكي، وحوش أو وسعة الباشا في العصر العثماني، وهذه الدور هي على التوالي: الدار الجركسية (أي: العصر الجركسي) في أقصى الجنوب خلف سراي العدل، وتليها للشمـال: الدار العثمانية الثانيـة، وقد دخل كيانها في دار الضرب الثالثـة، ولا يميزها عنها إلا من له خبرة على حد قولـه، وهذه الدار الثالثة هي دار ضرب محمد علي، وهي الوحيدة المعروفة، والمسجلة في عداد الآثار الإسلامية (أثر رقم ٦٠٦).

وتشتمل دار الضرب بصفة عامة على: الصحن المكشوف، والأروقة، وحجرات التخزين وملحقاتها، ومصاطب وأفران السبك، وأحواض التبريد، وأحواض الجلوة، وسنـدان الطرق، وجـرن القص، ومصلى، ولعل أهـم ما يميزها معماريًا هي تلك القباب التي تغطيها، وهي تتبـع النمط المعروف بالقباب ذات المناور، أو الفوانيس[1].

---

(١) نجيب، محمد مصطفى، **دور الضرب بالقلعة، دراسة أثرية معمارية**، المجلة =

أما الجسور التي ازدانت بها العديد من المدن الإسلامية؛ كما يستدل من خلال ما ورد في المصادر التاريخية، فلم يتبق منها سوى عدة نماذج، ومن بينها في الأندلس: قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير، والتي كانت تربط بين قرطبة وبين رَبَضها المعروف بشقنده، وعدد أقواسها (عقودها) ١٦ قوسًا، تحملها ١٧ دعامة (لوحة ١٠٢)، وقنطرة طليطلة على نهر تاجه، والتي لم يتبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة، وقنطرة القاضي بغرناطة على نهر حدرة، والتي لم يتبق منها سوى مخرج عقد على شكل حدوة الفرس، ويلتقي هذا المخرج ببرج سداسي الشكل مشيد من كتل حجرية.

أما قنطرة نهر شنيل، ففي حالة جيدة، وتتألف من خمسة أقواس نصف دائرية، قطر الأوسط منها ٧م^{٢}، وهو أكبر من بقية الأقواس، وتقوم هذه الأقواس جميعًا على دعائم مزودة بأكتاف مستديرة من ناحية، ومدببة من الناحية الأخرى.

وهناك أمثلة أخرى أشار إليها مالدونادو في دراسته المهمة عن عمارة المياه في الأندلس[(١)].

ومنها: الجسر المعروف بهارون منار قرب لاهور (لوحة ١٦٩).

ومنها: جسر الشاه عباس الثاني المعروف بجسر پل خواجو في

= العلمية لكلية الآداب ـ جامعة المنيا، سلسلة الإصدارات الخاصة، ج٢، (يناير ١٩٩٧م)، ص١٥٥ ـ ١٩٧، (أشكال ١ ـ ٨، لوحات ١ ـ ٤٠).

(١) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢٢٤ ـ ٢٢٦؛ مالدونادو، **العمارة الأندلسية، عمارة المياه**، ص٧٩ ـ ١٨٧.

أصفهان[1] (شكل ٣٨٤، لوحة ١٤٩).

أما الجسور العثمانية، فقد أقيمت في العديد من مدن أوروبا العثمانية، وغالبيتها على ضفاف الأنهار الكبيرة والصغيرة، وأروع وأبدع ما بني منها من حيث قيمته المعمارية والفنية يرجع إلى النصف الثاني من القرن ١٠هـ ـ ١٦م، وتبنى تلك الجسور بالحجر أو بالخشب. وقد بني منها في البوسنة والهرسك وحدها فيما بين القرنين ٩ ـ ١٣هـ ـ ١٥ ـ ١٩م ٥٠ جسرًا، كما بنيت خلال تلك الفترة العديد من الجسور، ومنها: جسر بويوك جكمجة قرب إستانبول، وكان الفراغ من بنائه عام ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م، وهو يتكون من أربعة أجزاء منفصلة ذات أطوال مختلفة يربطها جميعها ٢٨ عقدًا[2].

ولدينا في بلغاريا: جسر إسحاق باشا على نهرا Struma في كستنديل ٨٧٤هـ ـ ١٤٦٩م، وهو من أقدم وأكبر الجسور الحجرية في بلغاريا، وكان يخدم الطريق الحيوي المهم الممتد من إستانبول إلى أسكوب وألبانيا عبر فيلبه (بلوفديف) ساماكوف ـ كستنديل، وهو يعرف باسم Kadin Most؛ أي: جسر المرأة، ويبلغ اتساع فتحة (الوتر أو البحر) العقد الرئيسي ٦٥,٢١م^2.

ومنها: جسر مصطفى باشا في Svilengrad ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨م، وجسر الوزير الأعظم دامادسياوش باشا ٩٩٢ ـ ٩٩٣هـ ـ ١٥٨٤ ـ ١٥٨٥م.

وفي اليونان: جسر الحميدية في Iskese ١٣١٨هـ ـ ١٩٠١م.

---

(١) الريحاوي، **العمارة في الحضارة**، ص٥٥٥ ـ ٥٥٦؛ قباديان، **بررسي إقليمي أبنية سنتي إيران**، ص٣٥٦ ـ ٣٥٨.

(٢) كوران، عبدالله، **أضواء على منجزات سنان المعمارية**، البناء، السنة ٦، العدد (٣١)، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م)، ص٣٧.

وفي ألبانيا عدة جسور، منها: جسر نهر Shkumbin في الباسان حوالي ١١٩٤هـ ـ ١٧٨٠م، وهـو ذو ١٢ عقدًا، وقـد أمر بإنشائـه قرد أحمد باشا، ولـه أيضًا ـ أي: قرد أحمـد باشا ـ جسر آخـر في بيرات ١١٩١ ـ ١١٩٤هـ ـ ١٧٧٧ ـ ١٧٨٠م، وجسر نهر kir في شقودر ق١٢هـ ـ ١٨م، وستـة جسور في Gjirokaster، وهي: جسر Subasi، وجسر Kollorces، وجسر Suhe، وجسر خـاصكوي Haskove، وجسر Gline، وجسر Gorice مـن القرنين ١٢ ـ ١٣هـ ـ ١٨ ـ ١٩م[1].

وفي يوغسلافيا السابقة عـدة جسور، منها: جسر الفاتح في أسكوب ٨٦٨هـ ـ ١٤٦٣م، وقد تم تعميره وتجديده في عهد مراد الثالث عام ٩٨٧هـ ـ ١٥٧٩م، وجسر موستار القديم Stari Most ٩٦٤هـ ـ ١٥٦٦م، وجسر سوكللو محمد باشا في Viseegrad ٩٨٥هـ ـ ١٥٧٧م (لوحة ٢٠٥)، وكل من جسر قره داغ، وجسر قالقاندلن، وجسر Keci في سراييفو، وجسر قراكوزبك في Konjic، وجسر أرسلان أغا في Trebinje، وجسر بريزرن، وغير ذلك[2].

---

(١) Kiel, urban development, PP. 130_131, 155, Pls. 1, 25., Ottoman Architecture, PP. 75_128_129, 144_147., Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 15, 23, 229. , Eyice, svilengradda mustafa pasa Koprusu, Belleten, Gilt XXV III, sayi,! 109 - 112, Ankara, (1964), s. 729 - 752.

(٢) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 195, 198., Pasic, Islamic Architecture, PP. 82 - 85. , Redzic, Islamic ART, P. xxi_ xx II. , Ayverdi, Yugoslavya, Resimlar, 50 - 51, 55, 61, 103. =

وأشهر تلك الجسور هي كـل من: جسر موستار القـديم الذي أشرف على بنائه المهندس خير الـدين، وليس أدل على أهميـة ذلك الجسر من أنه اتخـذ رمزًا للمدينـة، وهو يقع على نهر Neretva (لوحة ٢٠٤)، ويتكـون من عقد واحـد، يدعمه برجان، ويبلغ اتساع فتحـة العقد (البحـر أو الوتر) ٢٨,٧٠م٢، وسمك قبوه ٧٧سم، وعرض الجسر ٤م (شكل ٣٨٣)، وعندما ينخفض الماء في فصل الصيف يصل ارتفاعه إلى ٢٠م تقريبًا.

أما الجسور الكبيرة، فتتكون من عدة عقود، منها: جسر فيشجراد ١١ عقدًا، وجسر بونا ١٤ عقدًا، ويتراوح اتساع فتحة العقد في الجسور الكبيرة ما بين ١٠ ـ ١٥م٢، بل يقترب بعضها من ٣٠م٢، وكان يتوسط هذه الجسور الكبيرة صفة (Sofa)، يوجد خلفها حائط عال على هيئة مدخل تكسوه النقوش الزخرفية والكتابية، وهذه الأخيرة غالبًا ما تكون نقوشًا إنشائية للجسر.

كذلك كانت تدعم تلك الجسور دعامات، أو أكتاف ساندة على أشكال مختلفة، أبرزها: الدعامات البرجية المخروطية الشكل، بل وعلى ارتفاعات مختلفة أحيانًا؛ كما هو الحال في جسر أرسلان أغا، وجسر سوكللو محمد باشا المشار إليهما.

وكـانت الجسور الأولى حتى أواخـر القرن ١٠هـ ـ ١٦م تبنـى من قبل المعمارين الرسميين في الدولـة، ومن أشهرهـم: خير الدين مهندس جسر موستار، وقوجه معمار سنان مهندس جسر سوكللو محمد باشا في فيشجراد.

Anhegger, R. , DiE ROMERBRUCKE VON MOSTAR, ORiENS, =
VOL,7, leiden, E. J. Brill, (1954), PP. 87 - 107.

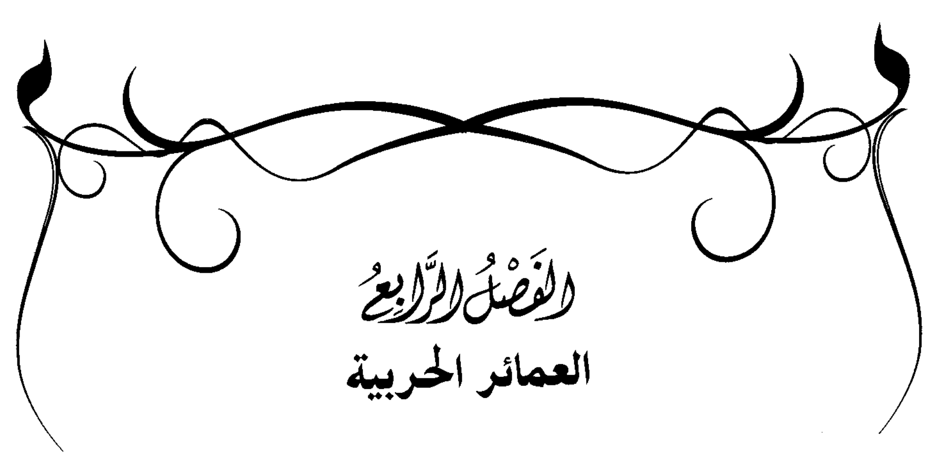
إلا أنه في الفترة الأخيرة من العصر العثماني صارت تلك الجسور تبنى بواسطة المعمارين المحليين.

ومن الملاحظ كذلك: أن مـادة البناء الأساسيـة في مدن البوسنـة هي الخشب، بينما هي الحجر في الهرسك[1].

* * *

(١) Pasic, Islamic Architecture, PP. 82 - 85.





الفصل الرابع
العمائر الحربية

من المعروف أن تحصين المدن الإسلامية كان من بين الشروط التي يجب مراعاتها عند إنشاء المدينة، وحسبنا أن نشير إلى ما ذكره كل من ابن أبي الربيع بقوله: «أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء؛ لأنها بجملتها دار واحدة»[1]، وهذا هو الشرط السابع من شروط ابن أبي الربيع الثمانية، والماوردي بقوله: «تحصين منازله من الأعداء والزعّار»[2]، وهذا هو الشرط الخامس من شروط الماوردي الستة، أما ابن خلدون، فقد حدد ستة شروط ـ أيضًا ـ، وجعل الشرط الأول منها: «أن تحاط بسور يدفع المضار عنها»، والثاني: «أن تحتل موضعًا متمنعًا من الأمكنة على هضبة، أو على نهر، أو باستدارة بحر حتى يصعب الوصول إليها إلا بعد عبور جسر أو قنطرة»[3].

(١) ابن أبي الربيع (ت٢٧٢هـ ـ ٨٨٥م)، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق: ناجي التكريتي، بيروت (١٩٨٠م)، ص١٩٢.

(٢) الماوردي (ت٤٥٠هـ ـ ١٠٥٨م)، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك**، تحقيق: محيي الدين سرحان، بيروت (١٩٨١م)، ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) ابن خلدون، (ت٨٠٨هـ ـ ١٤٠٥م)، **المقدمة**، ج٣، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة (١٩٥٨م)، ص٨٣٩ ـ ٨٤٠.

ومن ثم فإن هذا الشرط كان يعد من أبرز خصائص المدينة الإسلامية؛ لتوفير الحماية المطلوبة بمايتناسب مع مستوى الأسلحة والعتاد آنذاك، فضلاً عن أنه يحفظ المجتمع الداخلي، ويضمه كأسرة واحدة متماسكة(١).

وتحتفظ العديد من المدن العربية والإسلامية بتراث ضخم من الاستحكامات والتحصينات الحربية؛ من الأسوار والبوابات والأبراج، والأربطة والقلاع والقصبات التي كانت تقام عادة فوق الأماكن المشرفة العالية حتى تتمكن حامياتها من السيطرة، والإشراف على كل ما يحيطها من مناطق.

ولعل هذ التراث الضخم هو خير شاهد وأعظم دليل على ماقامت به هذه التحصينات من دور بارز عظيم الشأن جليل المقدار خلال العصور الوسطى، وأوائل العصر الحديث حين فقدت تلك التحصينات قيمتها العسكرية نتيجة لتطور وسائل الحرب الحديثة وآلاتها وتقنياتها، وأصبحت هذه التحصينات قبلة ومزارًا للسائحين من كل حدب وصوب.

ومن بين هذه التحصينات الباقية حسبنا أن نشير إلى كل من: رباط المنستير (شكل ٢٢٦)، ورباط سوسة (شكلا ٢٢٧ ـ ٢٢٨، لوحة ٩٤) بتونس(٢).

---

(١) المنيس، وليد عبدالله، **الحسبة على المدن والعمران**، حوليات كلية الآداب، الحولية ١٦، الرسالة ١٠٦، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت (١٤١٦ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٩م)، ص٥١؛ التفسير الشرعي للتمدن، رسائل جغرافية، الرسالة ٦٢، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، (ربيع الأخر ١٤٠٤هـ ـ فبراير ١٩٨٤م)، ص٢٣.

(٢) Creswell and Allan , Ashort , pp. 287 _ 289 . كريزول، **الآثار الإسلامية** =

وحصن القاهرة الفاطمي بأسواره وأبراجـه وأبوابه، ومن هذه الأخيرة كل من: باب النصر، وباب الفتوح في الشمال، وباب زويلة المعروف ببوابة المتولي في الجنوب (أشكال ١٨٩ ـ ١٩١، لوحات ٣٥ ـ ٣٧)، وأسوار صلاح الدين وقلعـة صلاح الـدين، المعروفـة بقلعـة الجبل، أو قلعـة القاهرة[1].

= **الأولى**، ص٣٠٧ ـ ٣١٠؛ سامح، **العمارة في صدر الإسلام**، ص١٣٨ ـ ١٤٢؛ سالم، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، ص٣٦٣ ـ ٣٦٧.

(١) كريزول، **العمارة الإسلامية في مصر**، المجلد الأول، **الأخشيديون والفاطميون**، ص٢٧ ـ ٣٨، ١٦٩ ـ ٢٢٥؛ عبد الرازق، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ص١٣٥ ـ ١٤٢؛ **تاريـخ وآثـار مصر الإسلاميـة**، ص٢١١ ـ ٢١٧؛ العمري والطايش، **العمارة**، ص١٢ ـ ٦٤؛ عثمـان، **موسوعة العمارة الفاطمية**، الكتاب الأول، ص٧٣ ـ ١٣٧؛ كازانوفا، بول، **تاريخ ووصف قلعة القاهرة**، ترجمة وتقديم أحمد دراج، مراجعة: جمال محرز، القاهرة (١٩٧٤م)، (٢٣٧ صفحة)؛ كريزول، **وصف قلعة الجبل**، ترجمة جمال محرز، مراجعة: عبد الرحمن زكي، القاهرة (١٩٧٤م)، (١٣٠ صفحة، ١٣ شكلاً، ١٥ لوحة)؛ يحيى، سوسن سليمان، **منشآت السيف والقلم في الجهاد الإسلامي، العمارة الأيوبية**، القاهرة (١٩٩٤م)، ص٤١ ـ ٧٣؛ عـزب، خالـد، **أسوار وقلعـة صلاح الدين**، القاهرة (٢٠٠٦م)، (٢٢٩ صفحـة، فضلاً عن ٧٩ شكـلاً و١٢٤ لوحـة)؛ فكـري، **مساجـد القاهرة ومدارسها**، ج١ (**العصر الفاطمي**)، ص٢١ ـ ٢٨؛ ج٢ (**العصر الأيوبي**)، ص٢١ ـ ٢٩؛ نويصر، **العمـارة الإسلاميـة في عصر الأيوبيين والممـاليك**، ص٣ ـ ٤٧؛ طلعت، **أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك**، رسالة ماجستير، غير منشورة، كليـة الآثار ـ جامعة القاهرة (١٩٩٢م)، (٣٧٢ صفحة، فضلاً عن ٢١٨ لوحة، و٧٥ شكلاً).

Pradines, S., Talaat, O., Les Fortifications Fatimids du Caire, Annales islamologiques, extrait 41, Le Caire (2007), PP. 229 _ 275.

(أشكال ٤٠٨ ـ ٤١١، لوحات ٥٠١ ـ ٥٠٥)، وقلعة قايتباي الشهيرة بطابية قايتباي بالإسكندرية[١] (شكلا ١٤١ ـ ٤١٣، لوحات ٥٠٩ ـ ٥١٥)، وقلعة قايتباي برشيد، والقلاع الباقية بشبه جزيرة سيناء[٢].

وفي بلاد الشام تقابلنا: قلعة حلب (لوحات ٤٩٧ ـ ٥٠٠)، وقلعة دمشق (شكل ٤١٢، لوحات ٥٠٦ ـ ٥٠٨) بسوريا، وفي طرابلس الشام: قلعة صنجيل، وأبراج المينا، وفي صيدا: بعض الأبراج في كل من: القلعة

---

(١) انظر: (٢/ ٢٧٠) من هذا الكتاب.

(٢) يحيى، **منشآت السيف والقلم**، ص٧٤ ـ ٨١؛ الباشا، حسن، **تاريخ وآثار سيناء في العصر الإسلامي**، ضمن أعمال ندوة آثار سيناء عبر العصور، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، (٢٠٠٢م)، ص٨١ ـ ٨٧؛ عبد الرازق، **أعمال أسرة سختكمان المعمارية في قلعة صدر المعروفة بقلعة الجندي بسيناء**، ضمن أعمال الندوة المشار إليها، ص٨٩ ـ ١٢٨؛ عبد المالك، سامي صالح، **قلعة نخل على درب الحاج المصري في سيناء**، دراسة آثارية معمارية جديدة في ضوء الحفائر الآثارية، مجلة المشكاة، مج١، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة (٢٠٠٦م)؛ **حصن الفرما العباسي في سيناء**، **مشكاة**، المجلد٢، (٢٠٠٧م)، ص١٠٩ ـ ١٨٩؛ **التحصينات الحربية الباقية بشبه جزيرة سيناء في العصر الأيوبي**، ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة (٢٠٠٢م)؛ **القلاع الحربية بشبه جزيرة سيناء وحدودها في العصرين المملوكي والعثماني**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (٢٠٠٩م)؛

Rabbot, N. , The Citadel of Cairo, Geneva, Aga Khan Aword for Architecture, (1989), PP.

البرية، وقلعة البحر[١]، وكل من قلعة عجلون، وقلعة الكرك، وقلعة الشوبك، وقلعة العقبة، وقلعة السلط، وقلعة الأزرق، وقلعة الطفيلة، وقلعة الوعيرة، وقلعة الحبيس بالأردن[٢].

وفي تركيا: قلعتا الشاطئ الأوروبي، والشاطئ الآسيوي للبوسفور، وهما: روملي حصار، وأناضولي حصار[٣] (لوحة ٢٠٦).

وفي الجزيرة العربيـة حسبنا أن نشير إلى: أسوار مـدينة زبيد، وقلعـة زبيد باليمن[٤]، وإلى كل من قلعة ذات الحاج، وقلعة تبوك، وقلعة الأخضر، وقلعـة المعظم، وقلعـة الحجر، وقلعة الفقير، وقلعـة زمرد، وقلعـة وادي الصورة، وقلعتا هدية، وقلعة إسطبل عنتر، وقلعة الفحلتين، وقلعة الحفيرة بطريق الحج الشامي، وقلعة المويلح، وقلعة الأزنم (الأزلم)، وقلعة وادي الزريب بالوجه بطريق الحج المصري شمال غرب المملكة العربية السعودية[٥].

---

(١) سالم، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية (١٩٦٦م)، ص٤٣٦ ـ ٤٥٠، **تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي**، الإسكندرية (١٩٨٦م)، ص١٧٥ ـ ١٨١؛ القطار، إليـاس، **نيابـة طرابلس في عهد الممـاليك**، بيروت (١٩٩٨م)، ص٤٩٤ ـ ٤٩٥، ٥١٤ ـ ٥١٥، ٥١٩ ـ ٥٢٠.

(٢) المؤمني، سعد محمد، **القلاع الإسلامية في الأردن، العصرين الأيوبي والمملوكي**، عمان (٢٠٠٨م)، (٤٠٤ صفحة، فضلاً عن الأشكال واللوحات).

(٣) انظر: (٣/ ٣٤١) من هذا الكتاب.

(٤) الحداد، عبدالله عبد السلام، **الاستحكامات الحربية بمدينة زبيد منذ نشأتها وحتى نهاية الدولة الطاهريـة**، صنعاء (٢٠٠٤م)، (٥٩١ صفحـة بما في ذلك الأشكـال واللوحات).

(٥) غبان، **الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة**، ص١٤٦ ـ ١٨٩، ٢٣٣ ـ ٢٣٨، =

وفي الأندلس بقيت الأسوار التي كانت تحصن بعض المدن، ومنها: أسوار قرطبة، وإشبيلية، والمرية، وبطليوس، وأستجة، وغرناطة، وقرمونه، والجزيرة الخضراء، ولبلة.

ومن الحصون والقلاع والقصبات: قصبة شلب، وحصن الفرج جنوب غربي طريانة من مدينة إشبيلية، ويعرف اليوم باسم: سان خوان دي أثنا لفراش San Juan de Iz Na Lfarache، وحصن القصر في منطقة الشرف المحيطة بإشبيلية، ويقع على بعد ٢٥ كم جنوب غربي إشبيلية فوق نشز يعرف اليوم باسم: Ce rro de Alcazar، وحصن فارو بمالقة، ويعرف اليوم باسم: (Torre Vigia)، وحصن المدور، وقلعة جابر، أو قلعة وادي إبرة

= ٢٤١ _ ٢٥٠؛ رسلان، عبد المنعم عبد العزيز، الأزنم خاناً وبرجًا، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، العدد (٤)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة (١٤٠١هـ - ١٩٨٠م)، ص٣٦٧ _ ٣٨٦، (أشكال ١ _ ٨، لوحات ١ _ ٣٤)؛ عجيمي، هشام، **قلعة المويلح**، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى (١٤٠٣هـ _ ١٩٨٣م)؛ **قلاع الأزنم والوجه وضبا في المنطقة الشمالية الغربية من المملكة العربية**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى (١٤٠٧هـ _ ١٩٨٧م)؛ **قلعة تبوك، مجلة جامعة أم القرى**، العدد (٢)، (١٤٠٩هـ _ ١٩٨٩م)؛ **القلاع ومناهل المياه في طريق الحج الشامي من خلال وثيقة عثمانية**، مجلة الروزنامة، العدد (٤)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة (١٤٢٧هـ _ ٢٠٠٦م)؛ **قلعة ذات الحاج في طريق الحاج الشامي**، حوليات إسلامية، العدد (٤١)، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (٢٠٠٧م)، ص٤٥ _ ٥٣، (أشكال ١ _ ٢٠، لوحات ١ _ ١٣)؛ **قلعة الأخضر في طريق الحاج الشامي**، دراسة تاريخية وثائقية، المجلة المصرية للآثار الإسلامية، مشكاة، المجلد ٢، القاهرة (٢٠٠٧م)، ص٢٣٩ _ ٢٥٥.

(Al Cala de Guadaira)، وقصبة المرية، وقصبة بطليوس، وقصبة مالقة، وغير ذلك[1].

أما عن العمائر الحربية خلال العصر العثماني، فقد انتشرت في العديد من المدن في الأناضول، وجنوب شرق أوروبا (البلقان)، ومما له دلالته في هذا الصدد: أنه يطلق على القلاع العثمانية مصطلح: الحصار، وقد يتسمى باسم موضعه، والجهة التي يشرف عليها ويحميها، ومن ذلك: روملي حصار (Rumeli Hisar) على الشاطئ الأوروبي من البوسفور، ويقابلها على الشاطئ الأسيوي: أناضولي حصار (Anadolu Hisar)، وقد يتسمى بعدد الأبراج التي يشتمل عليها، ومن ذلك: قلعة الأبراج السبعة (Yedikule Hisar) حامية

---

(١) سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، ص٢٢٧ ـ ٢٤٢؛ **تاريخ مدينة المرية الإسلامية**، الإسكندرية (١٩٨٤م)، ص١٣٧ ـ ١٣٩، ١٤٢ ـ ١٤٤؛ طلعت، أسامة، **الاستحكامات الحربية الإسلامية في إشبيلية وضواحيها حتى سقوط دولة الموحدين** (٩٣ ـ ٦٤٦هـ ـ ٧١٢ ـ ١٢٤٨م)، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة (١٩٩٣م)؛ **العمارة الدفاعية الإسلامية في مدينة لبلة**، **حوليات إسلامية**، العدد (٣٧)، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة (٢٠٠٣م)، ص١ ـ ١٩، (أشكال ١ ـ ١٢، لوحات ١ ـ ١٩)؛ مالدونادو، العمارة في الأندلس، **عمارة المدن والحصون**، ترجمة علي منوفي، مراجعة وتقديم: محمد حمزة الحداد، القاهرة (٢٠٠٥م)، مج١، ص٣١٩ ـ ٦٦٠، مج٢، ص٥ ـ ٣٩٨؛ فضلاً عن الأشكال واللوحات؛ عناني، كمال، القورجة، **نشأتها وتطورها في عمارة الأندلس الحربية**، مجلة آداب بنها، العدد (١٤)، (يناير ٢٠٠٦م)، ص٣٢٣ ـ ٤٢٤؛ قصبة شلب، **دراسة لتاريخها وأهم آثارها الباقية**، ضمن أعمال ندوة أ. د. السيد عبد العزيز سالم، مجلة آداب الإسكندرية (٢٠٠٨م)، ص٢٩٩ ـ ٣٥٢.

مدينة إستانبول من جهة بحر مرمرة، أو تسمى باسم المدينة التي توجد فيها، ومن ذلك: غالبية القلاع التي سنشير إليها فيما بعد، ومنها: ما يتسمى باسم أو لقب من أمر بإنشائها من السلاطين والباشوات، ومن ذلك: قلعة الفاتح في الباسان، وقلعة علي باشا في تبيلان بألبانيا، وغير ذلك.

ويمكن القول: إنه كان من نتيجة حركة الجهاد والفتوحات العثمانية في أوروبا أن ازدادت العناية بتحصين المدن، وإقامة القلاع؛ بحيث لا نجد مدينة تخلو من هذه وتلك إلا فيما ندر. وقام العثمانيون خلال مرحلة التوسع والانتشار التي سبقت الإشارة إليها بصيانة وتجديد القلاع القديمة، وإضافة بعض المفردات إليها، ولم يقف عند ذلك الحد، بل كان لا بد من إقامة قلاع جديدة، وتحصين المدن، ولعل فيما أوردناه من إحصائيات عند دراستنا لمظاهر النشاط العمراني في الإيالات العثمانية ما يؤكد ذلك.

ونضيف على ذلك فنقول: إنه كان لتطور أوضاع الدولة العثمانية، وعلاقاتها بدول خط المواجهة الأوروبية أثره الكبير في الحرص على أن تكون هذه القلاع وتلك التحصينات على درجة كبيرة من المنعة والقوة والاستحكام، وهو ما تفسره مراحل الصيانة والتجديد، والإضافة المستمرة في العديد من القلاع والتحصينات، ولعل ذلك يتطلب من الباحث الحرصَ الشديد، والدقة المتناهية للتعرف على هذه المراحل المختلفة، والفصل بين كل مرحلة وأخرى، اعتماداً على الخصائص المعمارية وتقنياتها، وما يستلزمه ذلك الأمر من دراسات تحليلية مقارنة متعمقة حتى يمكن أن نطمئن على صحة النتائج التي يتم التوصل اليها.

ومن هذه القلاع التي مرت بعدة مراحل: كل من: قلعة بكين (Peqin)، وقلعـة كانينا (Kanina)، وقلعـة دروازو (Durres)، وقلعـة ليش (Lesh)، وقلعة كرويا (Kruja)، وغير ذلك من القلاع الألبانية[١].

أما عن تحصين المـدن، فكان يتم عن طريق إحـاطتها بسور من كافة جوانبها، ويُدعم هذا السور على مسافات متقاربة بعدد من الأبراج المتنوعة، ما بين المربعة والمستطيلة والمستـديرة والمتعـددة الأضلاع، وكان عددها يختلف ـ بطبيعـة الحال ـ حسب امتـداد السور في كل مدينـة، كذلك كانت تختلف أبواب السور وسمكه، ومهما يكن من أمر، فإنه كان يغلب على هذه التحصينات أسلوب الاستحكامات الواطئة المستلهمة من النماذج الأوروبية، وهو الأسلوب الـذي كان ينسجم مـع تطور وسائل الحرب الحديثة بدءًا من القرن ١٠هـ ـ ١٦م وما تلاه من قرون.

ومـن تلك المـدن المحصنـة حسبنـا أن نشير إلـى كـل مـن: Blagaj وLjubuski Sokol وStolac في البوسنة والهرسك، ومدينة بيرات في ألبانيا، ومدينة سلسترة في بلغاريا، وغير ذلك[٢].

ومن أهم وأبدع القلاع في العمارة العثمانية، بل وفي العمارة الإسلامية عامـة: قلعتا الشاطئ الآسيوي، والشاطئ الأوروبي للبوسفور (أناضولي، وروملي حصار)، وسوف نتحدث عنهما في الباب الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) Kiel, ottoman Architecture,. PP. 96-99, 151-153, 176-78, 192 - 193, 207 - 210.

(٢) Pasic, Islamic Architecture, PP. 13-15, Redzic, Islamic Art, P. XXI., Kiel, urban development, P. 154, Pl. 24.

ومن القلاع المهمة ـ أيضًا ـ قلعة الأبراج السبعة التي أمر بإنشائها السلطان الفاتح عام ٨٦٣هـ ـ ١٤٥٨م لحماية مدينة إستانبول من جهة بحر مرمرة ـ كما سبق القول ـ، وتخطيطها غير مألوف؛ إذ جاء على هيئة نصف نجمة بعد إضافة ثلاثة أبراج مستديرة، وأربعة حوائط تصل بينها وبين برج قوس النصر المعروف باسم: الباب الذهبي، كذلك أضيف برجان آخران إلى الحوائط القديمة التي بناها يوديسيوس الثاني في منتصف ق٥م والواقعة على جانبي الحوائط السابقة، ويبلغ ارتفاع هذه الحوائط ١٢م، وسمكها ٥م.

هذا، وقد استخدمت هذه القلعة لفترة طويلة كمقر للخزانة، ثم لم تلبث بعدها أن تحولت إلى سجن لفترة طويلة كذلك[(١)].

ومما له دلالته في هذا الصدد: أن برج المقطم الضخم بقلعة الجبل بالقاهرة يشبه أبراج قلعة الأبراج السبعة، حتى في طريقة بناء السلَّم الصاعد إلى القمة في سمك الحائط إلى يسار الداخل[(٢)].

كذلك أمر السلطان الفاتح بإنشاء جناق قلعة عند أضيق نقطة في المضيق، وتواجهها في الجانب الآسيوي قلعة كليد البحر (قفل البحرين)، وبالتالي تم غلق المضيق تمامًا، وكان يمكن لهاتين القلعتين في حالة فتح نار المدفعية منهما معًا إغراق أي نوع كان من السفن التي تجتاز دون الحصول على إذن بالموافقة.

ويختلف تخطيط جناق قلعة عن روملي حصار، وقلعة الأبراج السبعة

---

(١) آصلان آبا، **فنون الترك**، ص٢٣٤.

(٢) كريزول، ك أ، **وصف قلعة الجبل**، ترجمة جمال محرز، مراجعة: عبد الرحمن زكي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٤م)، ص٢٥.

من حيث التصميم العام، وتشتمل على أربعة أبراج مستديرة في ثلاثة زوايا من زواياها، أما الزواية الرابعة، فبرجها مثمن، فضلاً عن برج مستدير، وآخر نصف دائري، وبرجين آخرين فيما بين البرج المستدير والبرج المثمن، وهما ذوا خمسة أضلاع، وتتخلل السور العديدُ من فتحات المزاغل، فضلاً عن مزاغل الأبراج نفسها، وقد تم عمل بعض أعمال الصيانة والإصلاح والإضافة في القلعة في عام ٩٧٨هـ - ١٥٧٠م[١].

ومن قلاع المدن في أوروبا العثمانية خارج تركيا: كل من: قلعة يانيا، وقلعة الأبراج السبعة في سالونيك باليونان، ولا يزال يوجد في البرج الرئيسي لهذه القلعة الأخيرة نقش يشير إلى إصلاح أسوار المدينة، وبالتالي إنشاء القلعة على يد سنقر بك ٨٣٤هـ - ١٤٣٠م[٢]، و- أيضًا - البرج الأبيض (Beyazkule) ٩٤٢هـ - ١٥٣٥م[٣] (لوحة ٢٠٧)، وبصفة عامة، فهذه القلعة وتلك الأبراج تشبه إلى حد كبير قلعة الأبراج السبعة التي سبقت الإشارة إليها، والبرج الأبيض لا يختلف كثيرًا عن برج المقطم بقلعة الجبل بالقاهرة، ومنها: قلعة أسكوب، وقلعة بلغراد ق١٠هـ - ١٦م، وهي من أهم القلاع، سواء من

---

(١) أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، مج٢، ص٧١١.

Utkular, i, Canakkale Bocazinda Fatih Kaleleri, Istanbul, (1954), s. 11 - 37.

(٢) Kiel, Notes on the History, PP. 129 - 130.

(٣) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 236., Kiel, Anote on the exact date of construction of the White Tower of thessaloniki, Balkan Studies, 14, Thessaloniki, (1973)., PP. 352 - 357.

حيث تصميمها، أو من حيث طريقة بنائها ومفرداتها وعناصرها المعمارية، ومنها: قلعة فاما جوستا (غازى ماجوسا) في قبرص ق١٠هـ-١٦م[١].

وفي بلغاريا تعد القلعة المجيدية في سلسترة منتصف ق١٣هـ-١٩م نموذجًا صادقًا للقلاع المتعددة الأضلاع، والمصممة وفق طراز القلاع الواطئة أو المنخفضة[٢].

وفي المدن الألبانية عدة قلاع مهمة، منها: قلعتان تجاه مدينة بوترانتو (Butrint)، الأولى منهما قلعة صغيرة مساحتها ٣٤,٥٠ × ٢٧,٥٠م٢، ومدعمة ببرجين مستديرين، ومثلهما مربعين، فضلاً عن بوابتين، وهي ترجع إلى ق٨هـ-١٤م، والقلعة الأخرى تقع في مواجهة قلعة برفيزة، ويمكن أن نميز فيها أربع مراحل مختلفة لبنائها، الأولى: ترجع إلى ق٨هـ-١٤م أيضًا، والثانية: ترجع إلى عام ٩٠٤هـ-١٤٩٨م، وفيها أضيف البرج الغربي المستدير، والمرحلة الثالثة: ترجع إلى عام ٩٤٤هـ-١٥٣٧م، وفيها أضيف البرجان المستديران القصيران، والمرحلة الرابعة والأخيرة تمت على يد علي باشا الذي قام ببناء العديد من القلاع الألبانية، وكان ذلك عام ١٢١٥هـ-١٨٠٠م، ويتخلل الأسوار العديد من فتحات المزاغل، وكذلك الأبراج الثلاثة[٣].

وقد مرت معظم قلاع المدن الألبانية الأخرى بمراحل بناء مختلفة، ومنها: قلعة دروازو (Durres)، وقلعة ليش (Lesh)، وقلعة كرويا (Kruja)،

---

(١) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 63, 189, 207.

(٢) Kiel, urban development, P. 154, Pl. 24 (Bottom).

(٣) Kiel, ottoman Architecture, PP. 90 - 91.

وقلعة كانينا (Kanina)، وقلعة (Gjirokaster)، وقلعة شقودر (Shkoder)، وغير ذلك[1].

وقلعة برفيزة من القلاع المهمة برغم صغرها، وهي قلعة مخمسة الشكل (شكل ١٦٩)، وترجع المرحلة الأولى لبنائها إلى ما بين عامي ٨٣٥ ـ ٨٧١هـ ـ ١٤٣١ ـ ١٤٦٦م؛ كما يستدل من المصادر التاريخية، أما كيل، فقد ضيق فترة هذا التاريخ إلى عام ٨٥٤هـ ـ ١٤٥٠م، أو الخمسينات من القرن ٩هـ ـ ١٥م بعد فشل مراد الثاني في حصار كرويا، وكانت مساحة القلعة في هذه المرحلة ٨٠ x ٥٠م٢، ويتراوح سمك جدرانها ما بين ١٣٠ ـ ١٤٠سم، ويبلغ ارتفاع جدرانها الحالي ٦,٤٠م، وتدعمها أربعة أبراج مستديرة في الأركان، وبرج واحد مربع، وقد تمت صيانتها وترميمها بعد ذلك في عام ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨م، وعام ٩٥٤هـ ـ ١٥٤٧م[2].

ومنها: قلعة بكين، ومساحتها ٥٣ × ٥٨م٢. ويمكن أن نميز بين مرحلتين في بنائها، الأولى: ترجع إلى عصر السلطان سليمان القانوني ربما عام ٩٤٧هـ ـ ١٥٤٠م؛ لصلتها الوثيقة بقلعة بريزة قرب دروازو التي بنيت في ذلك التاريخ، وتشتمل على أربعة أبراج مستديرة في الأركان، ولها مدخلان متقابلان، والثانية: ترجع إلى الفترة فيما بين ١١٨٩ ـ ١٢٠٠هـ ـ ١٧٧٥ ـ ١٧٨٥م، ويرجع شكل البناء الحالي إلى تلك المرحلة، وتم فيها إعادة بناء برجين من الأربعة المشار إليها أو ـ على الأقل ـ توسيعهما وتدعيمهما

---

(١) Kiel, ottoman Architecture, PP. 96_97, 151_153, 176_78, 192 _ 193, 230 _ 231.

(٢) Kiel, ottoman Architecture, PP. 223 _ 224.

بمعطف سميك ـ وهو ما يذكرنا بما حدث في أبراج صلاح الدين في أركان قلعة الجبل في عهد العادل أو الكامل ـ ولكن مع الفارق ـ فضلاً عن بناء الأبراج الأخرى التي أصبحت مجرد أطلال الآن[1].

أما قلعة فلورا التي أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م، فعلى الرغم من اندراسها، إلا أنها كانت موجودة بالفعل حتى عام ١٠٨١ ـ ١٠٨٢هـ ـ ١٦٧٠ ـ ١٦٧١م؛ حيث وصفها بدقة أوليا جلبي، وقد أيد ذلك الوصف وأكده ما قام به الإيطاليون من عمل مخطط للقلعة (Sketch Plan) بعد عام ١١٠٢/ ١٦٩٠م، ولكن المخطط الذي قام برسمه (Auersbach) عندما كان موجوداً في فلورا عام ١٢٦٤هـ ـ ١٨٤٧م يعد أكثر دقة، وقد خرج هذا الرسم الأخير الدقيق إلى النور على يد الباحث الألباني Bace، فنشره في دراسته الممتازة عن قلعة فلورا[2]. ويتضح من ذلك المسقط: أن القلعة كانت مثمنة الشكل، وفي أركانها ثمانية أبراج مضلعة مصمتة، تنتشر فيما بينها أبراج أخرى مستطيلة، وبها مدخلان متقابلان على هيئة برجين كبيرين بارزين، وكان يوجد بها مسجد للسلطان سليمان القانوني، فضلاً عن برج له كان يتكون من سبعة طوابق، وسقفه المخروطي مغطى بألواح الرصاص، ويذكر أوليا جلبي: أن ارتفاع جدرانها كان يبلغ ١٣,٦٠م، وكانت الجدران سمكية، ومصمتة ـ أيضًا ـ، وغير ذلك من المفردات والعناصر التي شاهدها أولياجلبي، وضمنها كتابه.

---

(١) Kiel, ottoman Architecture, PP. 207 - 210.

(٢) Pace, A., Kalajae Vlores, Monumentet, 4, Tirana, (1973), P. 43.

وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه القلعة كانت من القلاع المتميزة، بل والمتفردة بسورها وأبراجها المصمتة بين القلاع العثمانية الأخرى.

أما قلعة بيرات، فهي من نماذج القلاع القديمة التي تمت صيانتها وإصلاحها وتوسيعها في ق٩هـ - ١٥م[1].

وكذلك قلعة لارنكا القبرصية ١٠١٤هـ - ١٦٠٥م؛ فقد جددت في عصر السلطان عبد المجيد الأول (١٢٥٥ - ١٢٧٨هـ - ١٨٣٩ - ١٨٦١م)، ويعلو النقش الإنشائي بمدخلها الرئيسي طغراء السلطان عبدالمجيد الأول، ويحددها إطار بيضاوي باروكي الطراز، وقد نفذت زخارف الإطار باللون الأخضر، بينما الطغراء وأرضيتها ذهبية اللون[2].

ولا تفوتنا الإشارة إلى التحصينات العثمانية في الولايات العربية، وحسبنا أن نشير إلى تحصينات مدينة الجزائر بأسوارها وأبراجها والطبانات (البطاريات)، وغير ذلك من العناصر والمفردات[3].



(١) Kiel, ottoman Architecture, PP. 53 - 55.

(٢) Yenisehirlioglu, Turkiye, s. 64.

(٣) ابن حموش، **خطط مدينة الجزائر**، ص٤٩ - ١٢٥؛ خلاصي، علي، **العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر**، الجزائر (١٩٨٥م)، ص٦٩ - ١٢٨.



البَابُ الثَّانِي

أشهر روائع
التراث المعماري الإسلامي





الباب الثاني

أشهر روائع التراث المعماري الإسلامي

الفصل الأول

العمائر التذكارية

*** قبة الصخرة[1]:**

تعد قبة الصخرة من أبدع وأروع العمائر الإسلامية عامة، وفي بلاد الشام

---

(١) يصعب في هذا المقام أن نقدم دراسة وصفية وتحليلية مفصّلة ومطولة لقبة الصخرة، فهذا يخرج عن الخطة الموضوعة لهذا الكتاب، ولذلك حسبنا أن نركز على وصف موجز للقبة، وبيان أهميتها الدينية والتاريخية والمعمارية والفنية، أما من أراد التوسع والزيادة، فليرجع إلى العديد من الكتب والدراسات العربية وغير العربية، ومن بينها: بدر، محمد عباس، قبة الصخرة ضمن كتاب **دراسات في الآثار الإسلامية**، القاهرة (١٩٧٩م)، ص٨٥ ـ ٨٢؛ ابن نايف، وجدان على، **سلسلة التعريف بالفن الإسلامي (١) الأمويون العباسيون الأندلسيون**، عمان (١٩٨٨م)، ص٢٧ ـ ٣٢؛ الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، القاهرة، ط٢، (١٩٩٠م)، ص١٠٧ ـ ١٠٨؛ **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى**، القاهرة، ص٢٤ ـ ٣٠، ط٢، (١٩٧٨م)؛ الريحاوي، عبد القادر، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، جدة (١٩٩٠م)، ص٤٠ ـ ٥٣؛ فان برشم، مارجريت، واوري، سولانج، **القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشم**، ترجمة: عطاالله دهينة وآخرين، دمشق (١٩٩٤م)، ص٤١ ـ ٦٩؛ يحيى، =

وفلسطين خاصة، وتقع في منطقة الحرم القدسي الشريف، وهي منطقة أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، في أعلى جبل موريا. وقد أمر ببنائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ ـ ٦٨٤ ـ ٧٠٥م) بعد أن عهد إلى اثنين من رجاله بالإشراف على عملية البناء، وهما:

- رجاء بن حيوة الكندي.
- يزيد بن سلام.

وقد تم الانتهاء من بنائها سنة ٧٢هـ ـ ٦٩١م؛ حيث خصص لها عبد الملك خراج مصر لسبع سنوات متصلة، وهذا يعني: أن البناء بدأ سنة

= سوسن سليمان، **آثارنا الإسلامية، العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول**، القاهرة (١٩٩٧م)، ص٨٣ ـ ٨٥؛ سامح، كمال الدين، **العمارة في صدر الإسلام**، القاهرة (٢٠٠٠م)، ص١٧ ـ ٢٦؛ كريزول، ك. أ. س. **الآثار الإسلامية الأولى**، ترجمة: عبد الهادى عبلة، دمشق (١٩٨٤م)، ص٣٣ ـ ٦١؛ عبده، عبدالله كامل، **الأمويون وآثارهم المعمارية**، القاهرة (٢٠٠٣م)، ص٥٤ ـ ٥٩؛ نويصر، حسني محمد، **الآثار الإسلامية**، القاهرة، ط٢، (٢٠٠٤م)، ص٧٤ ـ ٨٢؛ مرسي، إيناس يحيى أحمد، **فن العمارة العربية وأشهر معالمها**، الكويت (٢٠٠٠م)، ص٩٣ ـ ٩٨؛ فكري، أحمد، قبة الصخرة، عالم الفكر، المجلد ١١، العدد (١)، (أبريل ـ يونيو ١٩٨٠م)، ص١٣ ـ ٣٠؛ عثمان، **نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة، العصور**، المجلد ٣، ج٢، (١٩٨٨م)، ص٣٣٨ ـ ٣٦٤؛ بركة، مفيد محمد، **دراسة مقارنة في تصميم وتخطيط قبة الصخرة**، ماجستير، هندسة القاهرة (٢٠٠٧م)، غير منشورة، ص٣٦ ـ ٨٠، ٢٠٣ ـ ٢٣٩.

(فضلاً عن دراسات العلماء والرواد الأجانب، ومن بينهم: ماوس كريزول، ومارجريت فان برشم، وريشموند، وجرابار، وريفويرا، وهيلنبراند، وكسلر، وغيرهم).

٦٥هـ ـ ٦٨٤م، وقيل: إنـه تبقى مئـة ألف دينار، فأمـر عبـد الملك بصرفها مكافأة سخيـة للرجلين، لكنهمـا رفضا، معللين ذلك أنهم أولى أن يزيـدوه من حلي نسائهم، فيصرفها في أحب الأشياء إليه، فأمر بصهرها وتفريغها على القبة والأبواب والشبابيك. ولهذه القبـة التي شبهناها بخزانـة محكمة الغلق ـ كما سبق القول ـ أهمية:

ـ دينية. ـ تاريخية. ـ معمارية. ـ فنية.

ـ الأهمية الدينية:

تتجلى الأهمية الدينية لقبة الصخرة في ارتباطها بليلة الإسراء والمعراج، فإلى المسجد الأقصى أسري بالرسول ﷺ، ومن فوق هذه الصخرة عرج به إلى السمـاوات العليا، وبذلك بلغ مبلغًا كبيرًا، لـم يصل إليـه مَلَك مقرَّب، ولا نبي كريم، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٨ ـ ٩]. صدق الله العظيم.

ـ الأهمية التاريخية:

تعد هذه القبة أقـدم مبنى أثري إسلامي باقٍ في الحضارة الإسلاميـة؛ بالإضافـة إلى ذلك يحتوي هـذا المبنى على أقدم دليل لأول سرقـة تاريخية وانتحـال في العصر الإسلامي؛ حيث قام النقاش في عهد الخليفـة العباسي المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ ـ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) بمحو اسم الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان، وإحلال اسم الخليفة المأمون محله، لكن فات على النقاش أن يغير التاريخ؛ ليتناسب مع فترة حكم المأمون، وبالتالي فإن بقاء التاريخ الأصلي كما هو أضحى دليلاً ماديًا، أو قرينة آثارية مهمة على هذه السرقة.

- الأهمية المعمارية (شكلا ٤٩ - ٥٠، لوحات ٩ - ١١):

تتمثل هـذه الأهميـة في روعـة تخطيطها، وحسن تصميمها، وإبـداع شكلها؛ بحيث اعتبرهـا كثير من المستشرقين والعلمـاء الأجانب أعظم بناء معماري في العصور الوسطى، فضلاً عن أنه نموذج لم يتكرر بعد ذلك؛ مما جعل منه نموذجًا فريدًا، بل ونادرًا في العمارة الإسلامية.

- التصميم المعماري (أشكال ٤٩ - ٥٠، ٤٠٤):

يتكـون التصميم العام لقبـة الصخـرة من مثمن خـارجي مصمت؛ إذ لا يحوي سوى أربعة أبواب محورية تواجه الجهات الأصلية الأربعة، وتبلغ أبعـاد الأبواب ٤,٣م ارتفاعًا، و٦,٢م عرضًا، ولـم تتغير مقـاييس الأبواب منذ عهد عبـد الملك. ويتقدم هذه الأبواب سقيفة محمولـة على أعمدة من الرخام. يلي ذلك مثمن داخلي مفرغ - مفتوح من جميـع الجوانب - يتكون من الأعمدة والـدعامات، بواقع ثمانيـة دعامات فيمـا بينها ستة عشر عمودًا - أي: عمودان بين كـل دعامتين -، يلي ذلك دائرة وسطى مفرغـة، تتكون - أيضًا - من الدعامات والأعمـدة، بواقع أربع دعامات، فيما بينها اثنا عشر عمودًا أي: ثلاثـة أعمـدة بين كـل دعامتين. وهـذه الـدائرة هي التي تحيط بالصخرة المقدسة، وهي التي أقيمت فوقها القبة.

أما عن الصخـرة نفسها، فهي معلقة؛ إذ أنها ترتفع عن أرض الهضبة من ثلاثة جوانب بواقع ٥,١م^{2}، وهي مساحة غير منتظمة الشكل، حيث تبلغ أبعادها ٥,١٧ × ٥,١٣م^{2}.

وقـد ترتب على هـذا التصميم - مثمن خارجي، ثم آخـر داخلي، ثم

دائرة وسطى ـ ممران داخليان، أحدهما يحيط بمنطقة الصخرة، والآخر مجاور إليه باتجاه الخارج، وكان المهندس بارعًا في هذا التصميم؛ حيث وضع الدعامات المحيطة بالصخرة بشكل ملفوف بعض الشيء حتى لا يحجب الرؤية عن الصخرة من أي اتجاه. وقد تم تغطية السقف بواسطة سطح مائل يستند أحد طرفيه على الدائرة الوسطى، وهو الطرف الأعلى، ويستند الطرف الآخر على المثمن الخارجي، وهو الطرف الأدنى، ومحمول في الوسط على المثمن الداخلي.

ـ القبة: (لوحات ٩ ـ ١١):

ذات قشرتين أو طبقتين، إحداهما داخلية، والأخرى خارجية، وهي من الخشب المكسو بألواح الرصاص، ومغطى برقائق الذهب. وتقوم هذه القبة على رقبة أسطوانية فتحت بها ست عشرة نافذة، والتي تستند بدورها على الدائرة الوسطى، ويبلغ قطر هذه القبة ٢٠,٤٤م^{2}.

ـ الأهمية الفنية (لوحات ٣٣٨ ـ ٣٣٩):

تعد قبة الصخرة أقدم العمائر الإسلامية الباقية التي نقشت بالفسيفساء متنوعة المواد، لكن أشهرها: الفسيفساء الزجاجية والذهبية والفضية، وكلها عبارة عن مناظر طبيعية بحتة، تمثل الأشجار والأعناب والنخيل، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم عن وصف الجنة التي وعد بها المتقون. وسوف نتحدث عن هذه الفسيفساء في الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا الكتاب.

هذا، ويوجد بالجزء العلوي من المثمن الداخلي شريط كتابي من الفسيفساء المذهبة على أرضية بيضاء، طوله ٢٤٠م، مكتوب بالخط الكوفي

البسيط، ومضمون الكتابة آيات من القرآن الكريم تنتهي بنقش إنشاء بصيغة: «بنى هذه القبة عبدالله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين». وقد ناقشنا ـ من قبل ـ مسألة التغيير الذي أدخل على النقش؛ حيث اسم المأمون مكتوب بخط يختلف عن بقية النقش، وكذلك سنة ٧٢هـ ـ ٦٩١م، لا تقع في فترة حكم المأمون.

أما عن الدراسة التفصيلية والتحليلية، والنظريات المتعلقة بكيفية بناء هذه القبة (ماوس وفكري وعثمان)، فسوف نعرض لها تفصيلاً في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى.

❒❒❒



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

روائع وإبداعات

التراث المعماري الإسلامي

